الألف كتاب
الثاني
١٧٣

حرب المستقبل

تأليف : مارتن ڤان كريڤلد

ترجمة : د. السيد عطا



الهيئة المصرية العامة للكتاب

حرب المستقبل

الألف كتاب الثاني

حرب المستقبل

تأليف
مارتن ڤان كريڤلد

ترجمة
د . السيد عطا



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥

هذه هي الترجمة العربية لكتاب :

ON FUTURE WAR

By : Martin Van Creveld

الفهـــــرس

مقـــدمة

.. ماذا ولمـاذا وكيف ؟

يهدف هذا الكتاب الى القاء الضوء على بعض الأسئلة الرئيسية عن الحرب فى أى زمان ، هـذه الأسئلة هى : من الذى يحارب ؟ وما الذى تدور حوله الحرب ؟ وكيف يجرى القتال ، وما هى أسبابه ؟ ولماذا يتحتم القتال ؟ • وهذه الأسئلة ليست جديدة بأى حال من الأحوال حتى ان مجرد حصر ما ورد من اجابات عليها من جانب الشخصيات المختلفة على مر العصور قد تصل الى رقم قياسى • وما من شك أن العديد من القراء سوف يعتبر بعض هذه الأسئلة فلسفية أكثر من اللازم ، بل وتافهة مقارنة بالجوانب العمليـة للحرب • وعلى الرغم من ذلك فانه من البـديهى أن النشاطات الانسانية لاتأخذ صورة الفعل العملى ، بغض النظر عن النجاح أو الفشل ، بدون الفهم العميق للأسس والمبادىء المعنية • لذلك كان العثور على اجابات شافية للأسئلة المطروحة فى غاية الأهمية •

يطلق هذا الكتاب أيضا رسالة تتلخص فى أن التحليل الاستراتيجى الحالى حول أى من الموضوعات السابقة هو مضلل من أساسه ، بالاضافة الى أنه مستـمد من الصـــورة الشـاملة التى رسمها « كلاوزيفيتس » للاستراتيجية والتى أصبحت قديمة أو غير صحيحة • ونحن على أعتاب عصر جديد لايتسم بالتنافس الاقتصادى السلمى بين أقطـــاب التجارة ، ولكن تتفشى فيه الحروب بين الجماعات العرقية والدينية • ومع انهيار الأشكال المعروفة للصراعات العسكرية القديمة ، فان أشكالا جديدة غير تقليدية تطل برأسها الآن استعدادا لأخذ مكانها • وبالفعل فان القدرات العسكرية الحالية ، والتى تدربها المجتمعات المتقدمة أساسا سواء من الشرق أو الغرب قد أصبحت لاتقوى على تحقيق هدفها الحالى حتى انه يمكن اعتبارها سرابا أكثر منها حقيقة • ومالم تلتزم المجتمعات المعنيـــة بالرغبة الجادة فى تعديل أفكارها وتصرفاتها مع المتغيرات المتلاحقـــة على أرض الواقع ، فانه من المتـوقع أن تصل الأمور الى الحد الذى يفقد هذه

المجتمعات قدرتها تماما على استخدام العنف المنظم ، وعند هذا الحد فان بقاء هذه المجتمعات كوحدة سياسية متماسكة يصبح محلا للشك ٠

ويشكل هذا العمل اطارا جديدا غير كلاوزيفيتس للتفكير بشأن الحرب ، كما يتضمن محاولة للتكهن بما سيأتى به المستقبل ، وبالتالى فهو مقسم على النحو التالى : تحت عنوان « الحرب المعاصرة » يفسر الباب الأول لماذا تعد القوى العسكرية الحديثة الى حد كبير مجرد أسطورة ، ولماذا وصلت أفكارنا بشأن الحرب الى طريق مسدود ٠ ويناقش الباب الثانى بعنوان : « من الذى يخوض الحرب » العلاقة بين الحرب والدول والجيوش بالاضافة الى مجموعة متنوعة من الكيانات القتالية الأخرى ٠ ويتناول الباب الثالث وعنوانه : « ما الذى تدور حوله الحرب » تقييما للنزاعات المسلحة من وجهة نظر العلاقة بين القوة والحق ٠ أما الباب الرابع ، «كيف تدور الحرب» ، فيطرح وصفا وبرنامجا للادارة الاستراتيجية على كافة المستويات ٠ ويتحدث الباب الخامس ، « من أجل ماذا تدور الحرب » ، عن شتى الأهداف التى يمكن أن تستخدم القوات الجماعية ، أو استخدمت بالفعل ، من أجل تحقيقها ٠ ويبحث الباب السادس تحت عنوان : « لماذا تندلع الحرب » الأسباب التى تدفع البشر على الصعيد الفردى الى خوض الحروب ٠ ويتضمن الباب السابع ، وعنوانه : « الحرب فى المستقبل » ، الصور المحتملة للحرب المستقبلية انطلاقا من وجهات النظر المختلفة هذه ، ويطرح بعض التصورات بشأن الكيفية التى ستكون عليها الحرب ٠ وينتهى الكتاب أخيرا بتعقيب مختصر بعنوان : « الشكل القادم للأمور » ، يجمع الخيوط ويربط بينها ويبرز الشكل المحتمل للحرب على مدى عشر أو خمس وعشرين أو خمسين سنة قادمة ٠

الباب الأول :

الحرب المعاصرة

* الميزان العسكرى

يخيم على أروقة هيئات الأركان العامة ووزارات الدفاع فى كافة أنحاء العالم « المتقدم » شبح يجسد التخوف من اختلال القدرة العسكرية ، وان لم يكن هناك مدعاة لذلك التخوف ·

فمنذ الحرب العالمية الثانية ، وحتى اليوم ، يخضع ما يناهز أربعة أخماس القدرة العسكرية فى العالم لسيطرة حفنة من الدول الصناعية المتمثلة فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وحلفائهما فى منظمة حلف شمال الأطلنطى (الناتو) وحلف وارسو · ويبلغ مجموع ما تنفقه هذه الدول فى المجال العسكرى ما يربو على أربعة أخماس اجمالى الميزانيات العسكرية فى العالم · كما أنها تحتكر بنسبة مماثلة عمليات ابتكار المعدات العسكرية الحديثة المتطورة وانتاجها ونشرها فى كافة أنحاء العالم من الدبابة الى الطائرة ومن الصواريخ التسيارية عابرة القارات الى الغواصات · ولطالما شكلت القوات المسلحة فى هذه الدول ، لاسيما القوتين العظميين ، نماذج لسائر الدول الأخرى ، بل ومعايير تقيم شتى البلدان قدرتها على أساسها ·

و « تمتلك » الدول العسكرية الرئيسية أيضا زهاء ٩٥٪ من كافة الخبرات العسكرية لو قيس ذلك بعدد ما ينشر من كتابات فى هذا الموضوع · وقد عملت هذه الدول بحكم مركزها على أن تستثمر تلك الخبرات وتحولها الى سلعة تجارية ثانوية لصالحها ، حيث يفد بصورة منتظمة الضباط من أبناء البلدان النامية والعالم الثالث ، للدراسة فى كليات الأركان والحرب بواشنطن وموسكو ولندن وباريس وغالبا ما يدفعون ثمنا مضاعفا مقابل هذا الامتياز · ومن ناحية أخرى توفد القوى

الرئيسية ذاتها الألوف تلو الألوف من « الخبراء » العسكريين الى العشرات من بلدان العالم الثالث فى كافة أنحاء أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا •

ومع ذلك ، فثمة شكوك قوية فيما يتعلق باستعداد الدول المتقدمة ــ سواء من تلك التى تسعى الى « التحرر » من الهيمنة الشيوعيــة أو تلك التى صارت بالفعل « حرة » ــ لاستخدام القوة المسلحة كأداة لبلوغ غايات سياسية على درجة من الأهمية • وليس ذلك الوضع بجديد ، فلقد شهد العقدان الماضيان العديد من الأحـــداث التى أبرزت مرارا وتكرارا عجز البلدان المتقــدمة عن حماية مصــالحها ، بل وحياة مواطنيها فى مواجهة تهديدات من مستويات متواضعة • وكانت النتيجة أن أخذ بعض الساسة والأكاديميين يرددون هنا وهنـــاك عبــــارات من قبيل « أفول القوة » و « تدنى فائدة الحرب » ــ وفى حـــالة الولايات المتحـــدة عبـــــارة « المارد من قش » •

وكانت تلك الظاهرة تلقى ترحيبا شديدا ما دام الميل الى « فقدان النزعة القتالية » محصورا فى المجتمع الغربى • غير أن الفشل السوفيتى فى أفغانستان قلب الموازين حتى ان الاتحـــاد السوفيتى صار الآن من المتقدمين فى هذا الاتجاه • ومن هذا المنطلق سرت تكهنـــات تقول بأنه قد لا يكون هناك مستقبل للحرب فى حد ذاتها ، وبأنها على وشك أن تتوارى لتحل محلها المنافسة الاقتصادية بين « التكتلات التجارية » الكبرى التى تتكون حاليا فى أوروبا وأمريكا الشمالية والشرق الأقصى• وسوف نحاول فى هذا الكتاب أن نبرهن أن هذا الفكر ليس سليما • وربما كان صحيحا أن الحرب التقليدية واسعة النطاق ــ أى الحرب على نحو ما تراها حاليا القوى العسكرية الرئيسية ــ تلفظ بالفعل آخر أنفاسها ، لكن الحرب ذاتها ، الحرب من حيث هى حرب ، تظل باقية تقاوم وتتطور ، بل انها على وشك أن تدخل عصرا جديدا • وسوف نوضح فى هذا الباب حقيقة ذلك وأســـبابه •

* الحـــرب النـــووية

ليس من شك أن الأسلحة النووية ووسائل اطلاقها هى أهم ما يميز تسليح القوى العسكرية الرئيسية • وقد تجلت طاقة السلاح النووى منذ اللحظة التى ألقيت فيها أول قنبلة ذرية على اليابان ، ومنذ تلك اللحظة أيضا انطلق سباق الأسلحة النووية ومازال منطلقا حتى اليوم •

ورغم أن أول قنبلتين ذريتين كانتا بدائيتين نسبيا ، الا أن طاقة كل

منهما تجاوزت آلف مثل طاقة أى سـلاح استخدم قبلهما فى الحرب ، ولم تكد تمضى عشر سنوات على هيروشيما حتى أمكن انتاج أسلحة تفوق فى قدرتها كل المعدات التى استخدمها الانسان فى حروبه منذ بداية التاريخ • وفى عام ١٩٦١ فجر الاتحاد السوفيتى قنبلة بشعة تقدر قوتها بـ ٥٨ ميجاطن ، أى ٥٨ مليون طن من مادة ال تى • ان • تى ، وهو مقدار نتج عن خطأ فى الحسابات العلمية ، أو هكذا زعم السوفيت فيما بعد • وعند ذلك الحد توقفت جزئيا الأبحاث الرامية الى انتاج أسلحة أقوى ، ليس بسبب العجز ، ولكن على حد تعبير ونستون تشرشل ، لأنها لن تسفر الا عن « ارتداد الحجارة » •

ولقد كانت الولايات المتحدة أول بلد يحوز القنبلة ، وظل ذلك حكرا عليها طيلة أربع سنوات • وفى سبتمبر ١٩٤٩ كسر الاتحاد السوفيتى بزعامة ستالين ذلك الاحتكار • وقد شكلت تجارب القوى العظمى للقنابل الهيدروجينية خلال عامى ١٩٥٢ و ١٩٥٣ تطورا مهما ، ولم تكن القنابل المستخدمة حينذاك تفوق فى قوتهـا أول قنبلتين • ومنذ ذلك الوقت استمر عدد البلدان التى تدخل مجال التسليح النووى فى تزايد ، فانضمت الى القائمة بريطانيا وفرنسـا والصين والهنـد ، وكانت كل منها (باستثناء الهنـد على حد علمنا) تبدأ بانتـاج القنبلة الانشطارية ثم الاندماجية • وثمة اعتقاد راسخ بأن عددا من البلدان الأخرى لديه أسلحة نووية ويحتفظ بها سواء فى المخازن أو بشكل آخر بحيث يسهل تجميعها على وجه السرعة ، وان لم تجر هذه البلدان تجارب علنية عليها • بل ان هناك مزيدا من البلدان التى يمكنها ــ ان شاءت ــ أن تنتج بسهولة هذه القنبلة ولكنها لاتعتزم ذلك ، ولعلها هذه هى المرة الأولى فى التاريخ التى يختار فيها عدد من الحكومات بملء ارادتها عدم انتاج أسلحة بوسعها ــ من وجهتى النظر التقنية والاقتصادية ــ حيازتها بسهولة •

بيد أنه لو قيمت المكاسب السياسية التى قد تترتب أو لا تترتب على امتلاك الأسلحة النووية لأدرك المرء من فوره سبب احجام مثـل هذا العدد من الدول عن الاندفاع سعيا الى حيازتها • فبرنامج انتاج أسلحة نووية يشكل عبئا ضخما على الموارد التقنية والمالية للبلدان الفقيرة مثل الصين والهند وربما باكستان ، فليس فى مقدور أى من ثلاثتها ، سـواء أكانت قد اجتازت القنبلة أم كانت على وشك انتاجها ، أن تترجم مسألة امتلاك هذا السلاح الى مكسب سياسى ملموس • ومصداقا لذلك ، فالصين لم تتمكن من استعادة اقليم فرموزا المنشق ، أو حتى « معاقبة » جارتهـا فيتنام وهى قوة عسكرية صغيرة لاتقارن بقوتها • كما أن القنبلة لم توفر أى سند ملموس للهند سـواء فى حـل مشكلة الانفصاليين التاميل فى

سريلانكا أو مشكلة التمرد الاسلامي في كشمير • وأخيرا يعمد المسئولون الباكستانيون في أحاديثهم غير الرسمية الى تبرير برنامجهم النووي بالخوف من التعرض لغزو هندي ، ويشيرون الى أنه لم يحدث حتى الآن ، أن أبيدت دولة نووية من على الخريطة • وتلك مقولة تنطوي على قدر كبير من الصحة ولكنها تغفل أن عدد الدول غير النووية التي أبيدت منذ عام ١٩٤٥ يعد أيضا ضئيلا جدا •

أما المكاسب السياسية التي عادت على القوى المتوسطة مثل بريطانيا وفرنسا نتيجة امتلاك الأسلحة النووية فما زالت ، رغم كل شيء ، دون المستوى المنشود • فلم تساعد القنبلة أيا من البلدين على أن تستعيد أو حتى تحتفظ بشيء يشبه وضعها السابق كقوة عظمى — وفي بريطانيا مثلا ، كان من الأسباب التي أفقدت حركة نزع السلاح النووي قدرا كبيرا من حماسها أن أحدا لم يعد يبالي بهذا السلاح بأي شكل من الأشكال • ولقد جاءت القنبلة متأخرة بحيث لم تمنع انهيار امبراطوريتيهما الاستعماريتين ، وحتى لو جاءت قبل ذلك فربما اقتصر أثرها المجيد على مجرد أن تبطىء ، أو تمنع بشكل منفرد هنا أو هناك ، تفتت هاتين الامبراطوريتين • بل انه من شبه المؤكد أن هاتين الدولتين ، وقد أصبح لدى كل منهما ترسانته النووية ، لن تتمكنا من الذود عما تبقى لهما من ممتلكات عبر البحار اذا سعى مغتصب قوي الى احتلالها حتى لو كان لايملك أسلحة نووية • ولقد كان المنطق الذي تذرعت به الدولتان طيلة الأحقاب السابقة لتبرير ما تنفقانه من أموال على الأسلحة النووية ، هو الرغبة في ردع أي هجوم سوفيتي اذا ما اختل الضمان الأمريكي • وزعم أن هذا المنطق يستحق التقدير فانه ، لو وضع موضع التنفيذ ، سوف يؤدي لا محالة الى انتحار قومي شامل •

أما القوتان العظميان فلا شك أنهما استمدتا جانبا كبيرا من وضعهما مما تنفردان به من ترسانات نووية جبارة • ومع ذلك ، وحتى فيما يتعلق بهما فان ترجمة هذا الوضع الى مكاسب سياسية ملموسة لم تكن أمرا مسلما به • ولقد تبدى ذلك منذ بدايات العصر النووي ، فعندما أعلن ترومان في مؤتمر بوتسدام المنعقد في يونيو ١٩٤٥ عن اكتشاف القنبلة الذرية لم يكن لذلك أثر كبير على ستالين ، ولم يرتدع السوفيت عن مواصلة تعزيز امبراطوريتهم في أوروبا الشرقية طيلة السنوات الأربع التي ظل فيها السلاح النووي حكرا على الأمريكيين ، وقد أبرز المراقبون الغربيون في ذلك الحين كيف أن مولوتوف وزير الخارجية السوفيتي كان يحرص على أن يتصرف كما لو لم يكن لدى الولايات المتحدة القنبلة

الذرية ، أو كما لو كان لديه هذا السلاح • كذلك فان القنبلة الذرية لم تحل دون تحول تشيكوسلوفاكيا الى المعسكر الشيوعى عـــام ١٩٤٨ ، كما أنها لم تمنع الصين من الانضواء تحت لواء ماوتسى تونج ، وهو حدث ظل يجسد على مدى عقود الخسارة الفادحة الوحيدة التى منى بها الغرب فى صراعه ضد العالم الشيوعى •

وما أن احتاز الاتحاد السوفيتى أيضا الأسلحة النووية حتى تضاءلت عاما بعد عام احتمالات استخدام هذه الأسلحة • ويدلل على ذلك ما شهدته تلك الفترة من أحداث • فخلال الحرب الكورية فكر دوجلاس ماك آرثر فى استخدام القنبلة النووية ضد الصين فكان كل ما جناه ، عندما أعلن عن رغبته على الملأ ، أن أقيل من منصبه • ثم شهدت الفترة فيما بين ١٩٥٤ و ١٩٥٨ تلويحات متكررة من جانب الولايات المتحدة باستخدام الأسلحة النووية ضد الصين ، بيد أن جـــدوى تلك التهديدات ظل مجهولا حتى الآن • ثم جاء دور خروتشـــوف الذى أخذ يجلجل ويسهب فى الوعيد باستخدام الصواريخ النووية عابرة القارات والتى اتضح فيما بعد أنه لم يكن يمتلكها • ولعل أزمة الصواريخ الكوبية فى أكتوبر ١٩٦٢ كانت آخـر مرة يوجه فيها تهـديد حقيقى صارم باستخدام الأسلحة النووية • وحتى فى هذا الموقف ، فقد لجأ كينـدى الى تنـــاول الأزمة بأسلوب يستهدف تحديدا بذل أقصى جهد لاستغلال الدوافع الانسانية من أجل درء الاضطرار الى استخدام الأسلحة النووية ، ويتجسد ذلك فى الحصار الذى فرضه وفى اقتراحه سحب الصواريخ الأمريكية من تركيا وغير ذلك مما كان من شأنه تهيئة مخرج لخروتشوف فى ذلك الحين • ويقول ماك جـورج بوندى مستشار الأمن القومى الأمريكى ان احتمالات تفجر الموقف بأن يصدر الرئيس الأمر بالضغط على زر اطلاق الأسلحة النووية فى هذه الأزمة كانت تناهز واحدا فى المائة ، وتلك نسبة كافية تماما لأن تنشر فى العالم قدرا من الرعب مازال ممتدا حتى اليوم ، ولذلك فقد تهيأت الفرصة لابرام العديد من الاتفاقيات ـ منهـــا ما هو دولى ومنهـــا ما هو ثنائى بين القوتين العظميين ـ التى تستهدف تحديد الأسلحة أو وسائل اطلاقهـــا أو كليهما معـــا •

وبعد أن بلغت القوتان العظميان مرحلة جيد فيها كل طرف الطرف الآخر بشكل حاسم ، اكتشفتا أن الأسلحة النووية لم توفر لهما ميزات كبيرة حتى فى تعاملاتهما مع بلدان لا تمتلك مثل هذه الأسلحة • وكم يتعرض نفوذ كل منهما منذ عام ١٩٤٥ للتقلبات ، لاسيما فى بلدان العالم الثالث ، فالولايات المتحدة « خسرت » ثم « كسبت » سلسلة كاملة من البلدان من مصر الى أندونيســـيا ومن الصـــومال الى العراق • أما فيما يتعلق

بالاتحاد السوفيتى ، فقد كان الأمر معكوسا على مدى عقد ونصف بعد عام ١٩٧٣ ، فاذا كان قد « خسر » شيلى فقد « كسب » بصفة مؤقتة أثيوبيا بدافع من اعتقاده بأن اتخاذ حليف من واحدة من أفقر بلدان العالم يشكل فى الواقع مكسبا له · وهناك عشرات وعشرات من الأمثلة التى تبين كيف كانت بعض جمهوريات العالم الثالث تتقلب بتحالفاتها بين الغرب والشرق ، ولا يتسع المقام لذكرها علاوة على أنها لا تمثل شيئا يستحق الذكر · ولو محصنا تلك التقلبات فسوف نكتشف أن ما من واحدة منها قد خضعت بشكل ملموس أو حتى تأثرت بمسألة تفوق واحدة على الأخرى من القوتين العظميين فيما تمتلكان من ترسانات نووية ·

ويعزى السبب فى ضعف الوقع السياسى للأسلحة النووية الى أنه ما من أحد قد توصل حتى اليوم الى تفكير مقنع يوضح كيف يمكن أن تندلع حرب نووية دون أن تسفر عن دمار العالم · ولم يكن ذلك نتيجة قصور فى البحث ، فقد شهدت الخمسينات محاولات واسعة النطاق لوضع « نهج للقتال فى الحرب » · ولما كانت الحقائق المعروفة فى ذلك الوقت عن تبعات الحرب النووية لاتتسم بدرجة كبيرة من البشاعة ، فقد شكلت تلك المحاولات دراسة تبدو لمن يرجع اليها اليوم شيئا من قبيل العبث ، ونعنى هنا الفترة التى كان تلاميذ المدارس المقيمون فى المدن أو بالقرب من القواعد العسكرية فى جميع أنحاء العالم الغربى يتدربون فيها على مواجهة الغارات النووية بأسلوب نتوقع بالطبع أنه مستمد من دروس ووقائع الحرب العالمية الثانية ، حيث كانوا يتدربون على أن يهرعوا عند سماع صفارة الانذار ، الى خارج الفصول ويتوجهوا الى الأدوار السفلية ، أو ينبطحوا أسفل مكاتبهم واضعين أيديهم فوق رؤوسهم ومغمضين أعينهم · أما أصحاب البيوت فقد طلب منهم حفر ملاجىء فى حدائق منازلهم وتزويدها بقدر من الزاد يكفى لبضعة أيام ، أو أسابيع حتى تنتهى المرحلة الخطرة للاشعاعات · ومن الطريف أن بعض شركات المقاولات نشرت فى ذلك الوقت اعلانات لبناء ملاجىء فخمة ، وكان بعضها مصحوبا بصور تبين هذه الملاجىء وكأنها غرفة معيشة أمريكية قد بنيت تحت الأرض وجهزت للوقاية من الاشعاعات · وفيما يتعلق بمن يمكن أن تفاجئهم الغارة وهم بعيدون عن منازلهم فقد نصحوا بأن يرتدوا ملابس ذات ألوان هادئة وقبعات عريضة ونظارات شمسية وأن يتوجهوا الى أقرب ملجأ فور وقوع الغارة ·

ولم تكن التدابير المقترحة لمواجهة أى هجوم نووى مقصورة على وقت الهجوم فقط ، فقد أظهرت دراسات الاستراتيجيين المدركين لخطورة الأمر أنه لو أمكن اخلاء سكان القوتين العظميين فى الوقت الملائم وتوزيعهم

عشوائيا على قارتيهما بمعدل شخص لكل بضعة أمتار مربعة ، فسوف يفضى ذلك الى نجاة غالبية السكان من الموجة الانفجارية الأولى • ولو أنهم كانوا فى زوارق ولو بدائية فى مياه ضحلة ، ربما كتبت لهم الحياة خلال فترة الاشعاع الأولى • أما عن مواجهة الشتاء النووى ـ بفرض أنه ليس مجرد شيء من اختلاق كتاب الخيال العلمى ـ فتلك مسألة مختلفة تماما • وتحسبا لذلك الخطر ، ترددت أحاديث كثيرة عن ضرورة انشاء المخازن وتكديسها بالأغذية والأدوية والوقود وعن الحاجة لابتكار معدات للتحرك على الأرض فيما بعد الانفجار النووى • ولكن ، وبخلاف سويسرا ، فكم هو ضئيل عدد البلدان التى رأت أنه من الحكمة التوسع فى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بتحويل تلك الأفكار الى حقيقة ! • بل ان بعض السويسريين أنفسهم وجدوا صعوبة فى تناول تلك الأفكار بمأخذ الجد ، وعلى أى الأحوال ، فلقد كان من شأنها أن ولدت شعورا بالتفاؤل المشوب بالحذر ، حيث كانت التوقعات فى مطلع الستينات تفيد بأن العودة الى الحياة الطبيعية بعد الحرب لن تستغرق وقتا طويلا ، وذلك بفرض أن تكون هناك استعدادات ملائمة لمواجهة الحرب وما يترتب عليها من آثار • صحيح أن القوة العظمى التى ستتعرض لهجوم نووى سوف تواجه قدرا كبيرا من الدمار ومصرع عدد فائق من أبنائها ، ولكن مع العزيمة ومع وجود قدر معقول من الاستعدادات سوف تستعيد هذه القوة العظمى قدرتها على الحياة فى غضون فترة لاتتجاوز عشر سنوات (أو عشرين سنة أو خمسين) بعد الحرب ، مما جعل الخبراء يتوقعون بشيء من الأمل ألا يكون هناك عندئذ من عواقب الهجوم النووى سوى معدلات زائدة من الاصابة بالسرطان وبالتغيارات الجينية •

وبينما كان المفكرون يضعون الاستراتيجيات لمواجهة آثار هجوم نووى والمدرسون يدربون التلاميذ ، كان القادة من الساسة والعسكريين مشغولين بوضع أساليب لممارسة الحرب النووية • وينبغى لنا ان نتوقع أن شاغلهم الأكبر كان يتمثل فى ضمان حد أدنى من الأمان لأنفسهم • وشهدت السنوات التالية انفاق ملايين الدولارات لابتكار أنظمة الانذار المبكر وبناء ملاجيء محصنة تحت الأرض للوقاية من الموجة الانفجارية ومن الاشعاعات واقامة مراكز قيادة جوية وشبكة للاتصالات فيما بينهم ومع قواعد اطلاق الصواريخ • وكان منطقيا أن تختلط تفاصيل تلك الاستعدادات بدرجة فائقة من السرية • وتفيد المعلومات المتوفرة نسبيا عن البرنامج الأمريكى أن المعدات الحالية يمكنها اتاحة انذار مبكر بفاصل عشرين دقيقة قبل بلوغ أول دفعة من الرؤوس النووية أهدافها • أما لو انطلقت الهجمة الأولى من الغواصات واتخذت الصواريخ مسارات منخفضة فربما تضاءل الفاصل الزمنى للانذار الى ست أو سبع دقائق •

وطبقا للبرنامج الأمريكي فان خمس عشرة دقيقة تعتبر نظريا مدة كافية لأن ينتقل الرئيس ، على وجه السرعة ، الى قاعدة بولينج الجوية المتاخمة لواشنطن ليستقل طائرة خاصة تربض فى حالة تأهب دائمة . وتشمل التدابير حماية ٤٦ من كبار المسئولين حيث يقال انه قد تم توفير الاستعدادات الكفيلة باجلائهم فى زمن ملائم ، كما أنها « تجيز » نقل مائتين آخرين الى خارج العاصمة . غير أن ذلك مرهون بأن يكون المعتدى كريما بحيث يشن هجومه أثناء ساعات العمل . وحتى رغم هذه الاستعدادات ، فان كفالة نجاة الرئيس نفسه تعد أمرا غير مضمون لو وجهت ضربة نووية محكمة ومدروسة بعناية . ومع ذلك ، وبفرض نجاة الرئيس ، هل يكون بوسعه اجراء اتصال ، مع أى من قواته المضادة تكون قد سلمت من الضربة النووية لاسيما الغواصات والصواريخ القابعة فى مرابضها تحت الأرض ؟!

وازاء هذه المشكلات جرت محاولات عديدة لوضع ضوابط للحرب النووية بما يستهدف تأمين العالم فى حالة نشوبها . وكان من الاقتراحات الأولى فى هذا الصدد ما طرحه د. هنرى كيسنجر مع آخرين من دعوة القوى النووية الى ان تتفق على حظر استخدام قنابل تزيد طاقتها على ١٥٠ كيلو طن أو ٥٠٠ أو أى مقدار يتفق عليه (وهو كم من الطاقة يكفى لتدمير أى هدف ، فالقنبلة التى دمرت هيروشيما كانت طاقتها ١٤ كيلوطن وتلك التى دمرت نجازاكى ٢٠ كيلوطن) . وثمة فكرة نابهة أخرى تدعو الى أن تتفق تلك القوى على قصر استخدام الأسلحة النووية على نوعيات معينة من الأهداف مثل القوات أو القواعد أو المنشآت العسكرية . وبالطبع كانت فكرة حظر استخدام الأسلحة الأكثر فتكا واستبعاد تدمير المدن – وهى فى مقدمة الأهداف المختارة فى الحرب – جديرة بالثناء ، ولكنها تثير سؤالا : فاذا كان بوسع الطرفين المتنازعين التفاوض بما يؤدى الى ابرام مثل هذا الاتفاق ، فما الذى سيدفعهما أصلا الى الدخول فى حرب ، لاسيما اذا كانت تنذر بفنائهما معا ؟ وقد يبعث على الارتياح أن هذه الومضات من الأفكار النيرة العظيمة لم تكن فى أى وقت من الأوقات فيما يبدو موضع اهتمام جدى سواء من جانب العسكريين أو قياداتهم السياسية ! وليس أدل على ما تتسم به تلك الأفكار من طابع المزايدة من أحجام القوتين العظميين عن تناولها فى مفاوضاتهما الرسمية بغية وضعها موضع التنفيذ .

ولم تكن مسألة ايجاد أسلوب لممارسة الحرب « باستخدام » أسلحة نووية هى المشكلة الوحيدة التى تواجه المخططين العسكريين ، فقد كان عليهم أيضا ايجاد السبل والوسائل التى تتيح للقوات التقليدية القتال فى مثل هذه المعركة مع المحافظة على حياة الجنود ، بمعنى أن تكون القدرة

القتالية وحدها هي المستهدفة . وفي الخمسينات أدى ادخال نظام الوحدات النـووية « التكتيكية » على كافة المستويات فى الولايـات المتحـدة ـ إلى الدخـول فيما يسمى بـ « العهـد الخماسى » . فقد لجأت القـوات الأمريكية منذ منتصف الخمسينات الى تقسيم الفـرقة التقليدية ـ التى تتكون في المعتاد من ثلاثة ألوية أو ثلاثة أفواج ـ الى خمس وحدات أقل حجما سعيا الى اكسابها مزيدا من الديناميكية وحرية الحركة . وقد زودت هذه الوحدات الجديدة بوسائل اتصال ترانزستور صغيرة الحجم ـ وكانت تلك هى المرة الأولى التى تستخدم فيها هذه الأجهزة ـ بما يكفل لهـا الانتشار والعمل بأسلوب لا مركزى بشكل غير مسبوق فى التاريخ . وكان ذلك النظام يقضى بتحرك الوحدات على وثبات من مكان لآخر بحيث تفتح وتنضم كما لو كانت آلة أكورديون ضخمة ، وهو ما يستوجب بالطبع توفير أنواع جديدة من المعدات بدءا بالمركبات الأرضية العملاقة المجهزة لقطع مسافات طويلة وانتهاء بعربات الجيب الخفيفة ، بل ان أصـحاب الخيال الخصب ذهبوا بخيالهم الى حد رسم صـور لدبابات ذات أبراج قابلة للانفصال ويمكنها الانطلاق واطلاق النار من الجو .

ولما كانت محركات الاحتراق الداخلى ضعيفة بالنسبة لمثل هذه المهام وتحتـاج صـيانة فائقة كان لابد من ايجاد البديل . وبما أن خطوط المواصلات العادية ستكون مقطوعة فكر البعض فى نقل الامدادات بواسطة صواريخ موجهة عملاقة تحلق فى طبقات الجو العليا ، ثم تهوى فى المواقع المحددة وترشق فى الأرض كما لو كانت رماحا ضخمة . وكان الأمر يقتضى أيضا تغيير تنظيم الوحدات ، ولذلك طرحت فكرة بالغة الكآبة تدعـو الى تقسيم القوات الى « فئات اشعاعية » وفقا لمقدار ما سوف تتعرض له من اشعاعات ، ثم تحدد بعـد ذلك مهام الفئات المختلفة تبعا للمدة المتوقع أن تبقى فيها كل فئة قيد الحيـاة . وقد نشرت مقالة فى احـدى المجلات العسكرية بعنوان « الوقع الذري على مهـام ادارة شئون الأفراد » تطرح اقتراحا بتوسيع نطاق ادارة تسجيل ودفن الموتى التابعة للجيش .

وخلال السبعينات تواترت مرة أخرى المحاولات الجادة لوضـع « استراتيجية لخوض حـرب نووية » . غير أنها كلها كانت طائشـة كسابقتها ، بل ربما كانت أكثر منها شططا ، فبقدر ما تطورت فى ذلك الحين الوسائل التقنية « للحد » من الدمار وأصبحت متاحة ، باتت تلك المحاولات تنطوى على قدر أكبر من الخطـورة . وكان على رأس فريق الباحثين الدكتور جيمس شليزنجر وزير الدفاع فى عهد ريتشارد نيكسون وهو رجل مشهود له بالقدرة على «تطويع الاستراتيجيات» . وقد استخدم شليزنجر وغيره ممن هم أقل براعة أنهارا من الحبر ، لايجاد سبل لاستخدام

المعدات المتطورة المستحدثة آنذاك لاسيما الميرف (وهو لفظ مكون من الحروف الانجليزية الأولى لاســم المركبات متعددة الرجعة أو المكوكية) والصواريخ الكروز • وأهم ما يميز الصواريخ الكروز والميرف قياسا بالصواريخ التسيارية العادية هو ما يفترض فيها من قدرة على اصــابة الهدف بدقة متناهية (بغض النظر عن نتائج تجارب صواريخ الاختبار التى كانت فى بعض الأحيان تطلق لاصــابة أهداف في المحيط الهادى الجنوبى فتسقط فى شمالى كندا) • وقد أتاحت القدرة الفائقة على اصابة أهداف صغيرة فى مثـل حجم مرابض الصـــواريخ خفض قدرة الرؤوس النووية بدرجة كبيرة دون أى تأثير على طاقتها التدميرية ، بل لقد صار من الوارد امكان تحقيق اصابة مباشرة للكرملين •

وقد شهدت تلك الفترة تحول ثقل الرأى الاستراتيجى من المأزق النووى الحرج صوب ما يسمى « بالمذاهب القتالية » • ومن الآراء المطروحة ما يفيد بأن استخدام رؤوس نووية محدودة وبالغـة الدقة من شأنه أن يوفر للرئيس « خيارات مرنة » ، منها على سبيل المثال توجيه ما يسمى ب « ضربات نووية عبر القوس » ، بمعنى أن أحد الأطراف يوجه انذارا للطرف الآخر عن طريق تفجير سلاح نووى فى مكان ما ـ كالبحر مثلا ـ تكون الخسائر فيه ضئيلة أو معدومة ، وبدلا من خوض حرب شاملة يمكن للولايات المتحدة أن تلجأ مثلا الى تدمير قاعدة عسكرية أو حتى مدينة صغيرة فى مكان أو آخر مع الاحتفاظ بحرية الحركة والاستمرار فى مراقبـة ما يمكن أن يكون عليه رد فعل الطرف الآخر • ويستهدف ذلك تحقيق « هيمنة تصاعدية » أى ترويع العدو على مراحل بغية اخضاعه • بل لقد ذهب بعض الاستراتيجيين من ذوى الفكر المستقل الى أبعد من ذلك حيث فكروا فى أن تقوم الولايات المتحدة « بدق عنق » الاتحاد السوفيتى عن طريق ضرب أهداف مختارة مثل مراكز القيادة والاتصال التابعة للحكومة والحزب وال كى • جى • بى • وغالبا ما كانت صياغة هذه المقترحات والأفكار متقعرة وحافلة بالكلمات الرنانة المبهمة بما يجعلها جديرة بأن تقارن بالمناظرات اللاهوتية المميزة للقرون الوسطى • ولعلنا نجد فى نهاية المطاف أن كل ما طرح من ألفاظ لايعدو عن كونه مجرد كلام معسول يرمى الى استخدام الأسلحة النووية بأسلوب ينطوى على آمال بألا يفضى الى فناء العالم بأية درجة •

وكان مذهب شليزنجر فى تنـاول هذه المسألة هو السعى لايجاد وسيلة لاستخدام ما صار متاحا من رؤوس نووية بالغة الدقة فى توجيه « ضربة جراحية » ضد الاتحاد السوفيتى • أما من خلفوه فى عهد كارتر فقد عكسوا ذلك المنطق وراحوا يفكرون فيما يمـــكن أن يحدث لو أن

السوفيت استخدموا هم صواريخهم المبرف (الصواريخ إس • اس ١٨ المروعة) « للتخلص » من الصـــواريخ الأمريكيـــة وهى فى مرابضها ، بما يحرم الولايات المتحدة من قدرتها الدفاعية ، أو على أحسن تقدير لا يبقى لها سوى الاعتماد على قاذفاتها وغواصاتها القاذفة للصـــواريخ للرد على الهجوم السوفيتى • وقد طرحت أفكار عديدة ومتنوعة على مدى سنوات تستهدف الحيلولة دون تمكين الاتحاد السوفيتى من القفز عبر ما يسمى ب « نافذة قابلية الانجراح » أو بعبارة أخرى من توجيه ضربة تجهض القدرة الأمريكية ، ومن بين الأفكار المطروحة نقل الصواريخ الأمريكية الى مرابض تحت البحر أو على أرصفة متحركة تجوب قاع البحيرات • وثمة فكرة أخرى تدعو الى تحميلها على شاحنات عملاقة تتنقل بهـــا فيما بين مواقع الاطلاق فى « مضمار سباق » تحت الأرض يناهز فى طوله نصف الوسط الغربى الأمريكى • وهناك مدرسة ثالثة اقترحت حفر ثقوب يصل عمقهـا الى آلاف الأقدام ، وتكون مجهزة لأن تغلق باحكام وتخـزن فيها الصواريخ بعد تزويدها بآلية خاصة تتيح لها ـ فى أعقاب التعرض لهجوم ـ أن تخرج الى السطح بحركة بريمية قبل الانطلاق •

ومن حسن الحظ أن كل هذه المقترحات لم تقر ، حيث تفيد « أفضل التقديرات المتاحة » ـ المبنية فى حقيقة الأمر على افتراضات تحتمل كلها الجدل والتشكيك ـ بأن ما يناهز عشرين مليون شخص سيلقون حتفهم حتى لو اقتصر الهجوم السوفيتى على مجرد ضربة « نظيفة » ضد قواعد الصـــواريخ الأمريكية ، وأيضا لـو لم يخطىء أى من الرؤوس النـــووية السوفيتيـــة المستخدمة فى الهجـــوم ، والتى يتراوح عددها بين ألفين وثلاثة آلاف ، هدفه وسقط على احدى المدن الكبرى مثـــل شـــيكاغو أو لوس أنجلوس • وفى مواجهة مثل هذا « الدمار الكاسح الأكيد » فان الحديث عن أى رد ـ لاسيما لو كان ردا محدودا ـ يصبح مجـــرد كلام نظرى • وبانتهاء السبعينات ودخول عقد الثمانينات لحقت تلك الموجة الخاصة من مذاهب القتال فى الحرب بسابقتها واندثرت • وسبب الاندثار فى الحالتين واحد وهو اصطدام كل منهما بطبيعته المنافية للعقل والمنطق ، ومع ذلك قد يقول قائل ان المذاهب القتالية التى نحن بصددها لم تمت تماما ، ففى عهد ريجان حلقت تلك المذاهب فى عنان السماء وتحولت بما يشبه السـحر الى ما يسمى بمبادرة الدفاع الاستراتيجى ، وما هى الا حماقة كبرى جديدة •

ولعلنا نجد ـ فى عودة الى الحديث عن الوقع السيـــاسى للسلاح النووى ـ أنه على مدى ٤٥ سنة من العسير الوقوف ولو على حالة واحدة هددت فيها واحدة من الدول التى تمتلك أسلحة نووية ، باستخدام تلك

الأسلحة ـ ناهيك عن استخدامها بالفعل ـ ونجحت بذلك فى تغيير الوضع القائم • وبعبارة أخرى فلو أن لتلك الأسلحة أى وقع سياسى ، فلن يزيد على مجرد تعزيز تدابير الحيطة وتجميد الخطوط الفاصلة • ولا شك أن السبب الرئيسى لهذا الوضع يكمن فى أنه ما من أحد حتى اليوم نجح فى تحديد أسلوب لشن حرب نووية دون أن تسفر عن انتحار شـــامل ، فالأسلحة النووية ما هى الا أدوات قتـــل جمـاعى ، تلك هى الحقيقة • وبما أنه ليست هناك فرصة للدفاع فى مواجهة هذه الأسلحة ، فان الشىء الوحيد الذى يناسب استخدامها هو مجزرة تتجـاوز التاريخ ، بل من الوارد جدا أن تضع نهاية له ، ولذلك فليس ثمة مجال لأن تستخدم فى شن حرب بالمعنى المفهوم للحرب•وكم هى عميقة ، بل لا يعلم مداها أحد ، الهوة بين ما تنطوى عليه الأسلحة النووية من أهوال متوقعة والمحاولات السفيهة « لاستخدامها » من أجل تحقيق أهداف محدودة • ان التفاوت بين هذين النقيضين صارخ بالفعل ، حتى ان أدق رد فعل منطقى عليه هو ما بدر من سيدة شابة من طلبتى حين كنا نناقش هذا الأمر فى الفصل فانفجرت فى نوبة من الضحك الهستيرى •

※ الحـرب التقليـدية

كان من أول أسباب انتاج الأسلحة النووية أن يتملك العسكريون وقياداتهم السياسية أدوات قتالية قوية بدرجة لم يسبق لها مثيل ، تتيح لهم ممارسة الحرب والانتصار فيها ، بيد أنه لم تكد تمضى عشر سنوات فى الواقع حتى هددوا بوضع حد للحرب ، وبالطبع كان بعض الناس قد تنبأوا بهذا التطور قبل ذلك بكثير • ولم تكن المسألة متعلقـة بالأسلحة النـــووية فحسب • كانت القوتان العظميان قد تمكنتا حتى منتصف الخمسينات من تجميع بضع مئات من القنابل الإنشطارية وانخرطتا بهمة فى انتاج القنابل الاندماجية • وازاء هذه الظروف تضاءلت بشكل مطرد احتمـالات اندلاع حـرب تقليدية بينهما • ولمـا كانت كل منهما تسيطر فى ذلك الوقت على الجزء الأكبر من نصف الكرة الأرضية ، فلم يكن من شأن أى هجوم تقليدى أن ينجح الا اذا شن على نطاق واسع للغـاية • ولا شك أن هجوما بمثل هذا الحجم يفسح المجال للرد ـ بالأسلحة النووية، لاسيما لو كان يبشر بالنجاح • وفى الخمسينات ركز جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكى على فكرة مؤداها أن الهجوم قد يكون محدودا ومع ذلك يأتى الرد عليـه بالأسـلحة النـووية • وسـمى هذا المذهب بـ « brinkmanship » و « الرد الشـامل » واستهدف التأكيد بقـدر المستطاع على ألا يكون الهجوم العسكرى ، مهما كان محدودا ، هو أول خيار لحل الخلافات •

وما أن تقيدت القوتان العظميان بشكل ما بهذا القيد ، سواء بالنسبة للحرب التقليدية أو النووية ، حتى تحول اهتمام من كان شاغلهم الشاغل هو التفكير فى الحرب ، نحو حلفاء كل كتلة · غير أنه سرعان ما صار واضحا ، وعلى حد تعبير اللورد تيدر قائد القوات الجوية البريطانية ، أن « الكلب الذى يرعى القطة بوسعه أيضا العناية بالقطيطات » · ومن هذا المنطلق لم يكن لأحد ، سواء فى الغرب أو الشرق، أن يفكر فى شن هجوم على أى حليف وثيق الصلة بواحدة من القوتين العظميين دون التعرض لاحتمال وقوع معركة كبرى فاصلة ، ولذلك شهدت الفترة فيما بين حصار برلين فى ١٩٤٨ وأزمة برلين الغربية الأخيرة فى ١٩٦٣ وقوف القوتين العظميين ككلبين يرقب كل منهما الآخر فى كل تصرفاته · ورغم التوتر البالغ الذى ساد فى فترات مختلفة فان اختبار القوة كان فى النهاية يتوارى لينتهى الأمر بالطرفين الى التسليم بفشلهما · وقد تجسد ذلك الوضع « حرفيا » عندما أقام أحد الطرفين سور برلين وتقبل الطرف الآخر الأمر دون أن يحرك ساكنا ·

ولقد كان من شأن تقسيم أوروبا الى منطقتى نفوذ ــ ولا نقول سيطرة ــ أن أغلقت أبواب المكان الوحيد الذى يمكن أن يكون أهم مسرح لخوض حرب تقليدية ، وهو أمر أكده مؤخرا هدم سور برلين · وعلى صعيد آخر شهد النصف الآخر من الكرة الأرضية وضعا مماثلا بانتهاء الحرب الكورية فى عام ١٩٥٣ · وفى هذه المرة أيضا سرعان مادعم الموقف باقامة خطوط حصينة دائمة تفصل بين الكوريتين ، وبقى بعد ذلك مكانان رئيسيان يمكن أن يكونا مسرحين لحرب تقليدية واسعة النطاق ــ واحد على الحدود الهندية الباكستانية والثانى فى الشرق الأوسط · ولما كانت دول هذه المناطق غير قادرة على تصنيع كل احتياجاتها من الأسلحة ، فذاك وحده سبب كاف لأن يجعل هذه الدول تدور هى الأخرى فى فلك القوتين العظميين ، ولكنها ــ سواء بسبب اعتبارات عنصرية أو جغرافية ــ لم تكن تعد من الحلفاء القريبين · ويمكن القول ان الهند وباكستان واسرائيل ومصر وسوريا ودولا أخرى كانت فى الواقع تمارس حرب القوتين العظميين بالانابة · وقد تصادف أن شكلت هذه الدول حقولا لتجربة الأسلحة الجديدة واختبار المذاهب القتالية المختلفة !

وهكذا يتضح أن الأسلحة النووية كان لها تأثير لم يتوقعه أحد ، بل ربما ما كان لأحد أن يتوقعه ، ويكمن فى أنه قد دفع الحرب التقليدية الى زوايا النظام الدولى وشقوقه ، أو انه عمق التصدعات بين الكتلتين الأرضيتين التكتونيتين اللتين تخضع كل منهما لهيمنة واحدة من القوتين العظميين · وقد تركزت تلك التصدعات فى الغالب فيما أسماه أبناء أحد

الأجيال السابقة « بحافة الأرض » وهي عبارة عن حزام عريض من الأرض يمتد من الغرب الى الشرق ويقسم آسيا الى منطقتين شمالية وجنوبية ٠ كذلك فقد شهدت مناطق أخرى من حين لآخر ما يشبه الحرب التقليدية ونسوق على سبيل المثال القرن الافريقي ، غير أن نقص المرافق الحديثة وعدم توفر الظروف الملائمة لحشد المعدات القتالية الرئيسية قللا من شأن تلك النزاعات قياسا بما كان يشهده الحزام الآسيوى !

ولكن أيا كان حجم تلك النزاعات فقد كان الخطر يلوح فى الأفق دائما ، ويكمن فى أن ذيل الكلب قد يتسبب فى تحفيزه ، وليس من المستبعد أن يكون الذيل واحدة من دول العالم الثالث أو حتى الرابع ! ٠ وقد تجلى ذلك فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ حين وضع الرئيس نيكسون القوات الأمريكية على أهبة الاستعداد النووى فى مواجهة التهديد السوفيتى لاسرائيل ، وبالفعل صرف الاتحاد السوفيتى النظر عن تهديده ، ان كان هناك فى الأصل تهديد ٠ وعلى أى الأحوال ، فقد كان من نتائج ذلك الموقف أن جعل واشنطن وموسكو تحجمان عن تكرار التجربة ٠

وبينما كانت رحى الحرب تدور بين الأمم الصغيرة ـ اسرائيل وجيرانها على سبيل المثال ـ كانت القوتان العظميان تقفان على الخطوط الجانبية ترقبان عن كثب مجرى الأمور ، ولكنهما لم تكونا تتوانيان عن وضع حد للقتال بمجرد أن تشكل الأحداث بادرة تهديد لمصالحهما الخاصة ٠ ولا شك أن العديد من أعضاء المؤسستين العسكريتين للقوتين العظميين كانوا يحسدون الأطراف المتحاربة (لاسيما الاسرائيليين) لأنها ما زالت تتمتع ـ ربما بسبب ضآلة حجمها ـ بفرصة ممارسة لعبة الحرب ! فكم أنفقت هاتان المؤسستان من ثروات فكرية هائلة ومن ملايين الدولارات من أجل ايجاد سبيل يتيح لقوة عظمى خوض حرب تقليدية واسعة النطاق فى عالم نووى ٠ ومن هذا المنطلق ، فقد أجرى الجيش الأمريكى فى أواخر الخمسينات سلسلة من التجارب الميدانية باستخدام الأسلحة النووية وكانت النتيجة أن تعرضت الحكومة الأمريكية بعد عشرات السنين للمحاكمة بسبب لجوئها عمدا الى تعريض قواتها والمدنيين لآثار الاشعاعات النووية ٠ وتفيد المعلومات المتاحة بأن السوفيت أجروا عام ١٩٥٤ تجربة نووية أسفرت عن مصرع عدد كبير من قوات الجيش الأحمر ، ومن بعد ذلك الحادث اقتصرت فيما يبدو التدريبات النووية على مجرد اشعال كميات كبيرة من الوقود العادى ثم ممارسة التدريب حولها بحرص ٠ ولم تأت أى من هذه التجارب ـ ولانقول حربا فعلية ـ بأى دليل مقنع يبشر بمجرد نجاة القوات التقليدية فى ميدان الحرب النووية ، بل ان الاقدام أصلا على التخطيط لمثل هذه التجارب أمر يصعب تصوره ٠

ولو تأملنـــا الموقف الذى كان يواجهه المخططون فى ذلك الوقت لوجدناه يتجسد ببساطة فى خيارين كليهما مر ، فلو كانت هناك أدنى فرصـــة لأن تبقى القوات التقليدية (وهى على هيئة جيش « خماسى ») قيد الحياة فى ظل حرب نووية فسوف تضطر الى الانتشار والاختبــاء تاركة وراءها الجانب الأكبر من معـداتها الثقيلة ، أى انها ســوف تفقد قدرتها على خوض حرب تقليدية ، وبذلك تكون الأسلحة النووية ، لاسيما التكتيكية ، قد شكلت تهديدا لوجود القوات التقليدية وعلى وجه الخصوص القوات البرية • أما لو كانت الحرب واقعة لا محالة فما من سبيل يدرأ خطر فناء العالم الا أن تقتصر هذه الحرب على القوات التقليدية •

ولقد كان على فريق المخططين فى ادارة كنيدى وعلى رأسهم روبرت ماكنمارا وزير الدفاع والجنرال تيلور ماكسويل رئيس الأركان المشتركة السعى وعمل المستحيل لايجاد مخرج لذلك المأزق • وقد توصلوا الى حل ـ ان كان هذا هو اللفظ الملائم ـ يتمثل فى توحيد كل الطاقات فى اتجاه الحرب التقليدية وسحقا للأسلحة النووية • ومن هذا المنطلق ظهر مذهب استراتيجى جديد باسم « الرد المرن » وقد اعتنقته منظمة الناتو رسميا فى ١٩٦٧ • ومنذ ذلك الحين والاستعدادات للحرب التقليدية فى أوروبا وغيرها تأخذ مجراها كما لو لم يكن هنـــاك أى تهديد بالتصعيد النــــووى •

ويستهدف مذهب الرد المرن فى المقام الأول ضمان استمرار بقـاء القوات التقليدية ، وقد تحقق ذلك الهدف • غير أن اعتناق ذلك المذهب أسفر عن توجيه استثمارات ضخمة لتحديث الأسلحة حيث تم الاستغناء عن أجيال متعـاقبة من الســفن الحربية والغواصات والدبابات وحاملات الجنود المدرعة والمدافع والقاذفات المقاتلة والهليكوبتر الهجـومية ، لتحل محلها أسلحة أخرى أكثر تطورا ولكنها باهظة التكاليف • وقد أفسحت تلك التغييرات المجال لسيل من الدراسات المستفيضة ، سواء التخصصية أو العامة ، سعيا الى الوقوف على ما تنطوى عليـه تلك الأسلحة الجديدة من أسرار والى اعداد المذاهب لاستخدامها • وعاما بعد عام بدأت قوات الناتو المتمركزة فى ألمانيا الغربية فى اجراء مناوراتها بحرص شديد حتى لاتلحق معداتها الثقيلة أية أضرار بممتلكات المدنيين فتضطر فيما بعـــد لتعويضهم عما لحق بهم من خسائر •

غير أن الأمر لم يخل من مأزق ، ففى مواجهـــة التفوق السوفيتى الطفيف فى القوات التقليدية ، وازاء رفض ألمانيا الغربية تعزيز حدودها

كان المحللون الغربيون يرون انه لن يكون ثمة مجـــال لوقف أى هجوم ســوفيتى ضـــار الا باســتخدام الأسلحة النووية « التكتيكية » • ولكن بحلول عام ١٩٥٥ أظهرت سلسلة الخطط الحربيــة التى أعدت لصالح المجلس الأعلى لقيادة الحلفاء فى أوربا ان اســتخدام مثـل هذه الأسلحة سيلحق بألمانيا الغربية قدرا هائلا من الدمار فلا يبقى ما يستأهل الدفاع عنه ، ومع ذلك فقد استمر الناتو ـ لاسيما الأمريكيين الذين كانوا رغم كل شىء يعدون العدة للقتال على أراضى الغير ـ فى المضى فى مخططه الرامى الى اعداد دفاع ضد الاتحاد السوفيتى • وكثيرا ما شهد الربع الأخير من القرن الحالى تصعيد درجة الاستعداد الغربى ، الى حد اجراء مناورات بيانية ضخمة لاستعراض القوة •

بيد أنه يصعب الاقتناع فى الواقع بأن المخططين فى موسكو وواشنطن وصلوا فى أى وقت من الأوقات الى حد الايمان بوهم امكان نشوب حرب تقليدية واسعة النطاق وطويلة الأجل فى أوروبا • وكان قد جرى عرف فى الاتحاد السوفيتى قبل عهد جورباتشوف مفاده أن المذهب الذى يعلن عنه رسميا لا مصداقية له وذلك من قبيل ما يسمى بالروسية «ماسكيروفكا» (أى السرية والخداع) • أما الأمريكيون فلا أسرار عنـــدهم ، وابتكار المذاهب العسكرية يمثل بالنسبة لهم حرفة وتسلية : ولذلك فقد ظهر عدد ضخم من المذاهب التى وصلت الى حد التعارض ، طرحها عدد هائل من الناس الذين يمثلون مصالح كثيرة مختلفة حتى انه ليصعب تناولها برمتها بمأخذ الجد • وقد يكشف حقيقة الموقف السوفيتى أنهم رغم تلك النزعة القتالية التى تكتسى بها خطبهم الطنانة بين الحين والحين ، فانهم لم يخوضوا حربا تقليدية واحدة على مدى الفترة منذ عام ١٩٤٥ • أما الولايات المتحدة فقد خاضت حربين من هذا النوع ، الأولى فيما بين ١٩٥٠ و ١٩٥٣ والثانية ضد العراق فى ١٩٩١ ، ومع ذلك فهناك من بادر بالفعل الى القول بأن هذه هى « آخر صرخة للنسر الأمريكى » •

ولا شك أن الأسلحة النووية ـ حتى وان لم يهدد أحد باستخدامها ـ كان لها تأثيرها الكابح على الحروب التقليدية سواء تلك التى تخوضها القوتان العظميان أو ، وبشكل متزايد ، تلك التى تخوضـــــها البلدان الأخرى • ولذلك لم تكن ثمة فرصة لأن تستخدم الولايات المتحدة قواتها التقليدية الا فى الحالات التى « لم » تكن فيها مصالحها الحيوية موضـــع تهديد ! وتعد الحرب التى دارت على الأراضى الكورية ـ تلك البقعة الصغيرة من آسيا والتى تبعد آلاف الأميال ـ مثالا بارزا فى هذا السياق ، حتى ان رئاسة الأركان الأمريكية اعترفت بذلك وقتها مؤكدة أن اليابان والفلبين هما فى الواقع المنطقتان المهمتان • وينسحب ذلك الوضع على لبنـــان

(١٩٥٨) وفيتنام (١٩٦٤ – ١٩٧٢) وجمهورية الدومينكان (١٩٦٥) وكمبوديا (١٩٧٢ – ١٩٧٥) ولبنان (١٩٨٣) ثم أزمة الخليج (١٩٩١)، وفي كل تلك الحالات ، باستثناء الأخيرة الى حد ما ، كم كانت الذريعة التى تستند اليها الادارة الأمريكية فى تبرير تعريض أرواح جنودها للموت واهية حتى انها كانت تجد صعوبة فى اقناع الشعب بها ، بل ان الخصم الذى كانت تحشد له القوات الأمريكية كان فى بعض الأحيان ضعيفا لدرجة تثير السخرية ، وما قضيتا ماياجيث (١٩٧٥) وجرينادا (١٩٨٣) الا مثال لذلك .

ولم تكن الولايات المتحدة هى وحدها التى تعانى من تلك المشكلة ، فقد نشر الاتحاد السوفيتى قواته البحرية لتغطية النزول الكوبى فى أنجولا فى ١٩٧٦ ، كما ساعد أثيوبيا على هزيمة الصوماليين فى ١٩٧٩ ، وفى الثمانينات أوفد عدد من المستشارين السوفيت الى أمريكا الوسطى ، وما تلك الا عمليات هامشية بعيدة تماما عن موضع القوة السوفيتية . أما فيما يتعلق بالصين ، فاذا كان ماوتسى تونج قد وصف الأسلحة النووية ذات مرة بأنها « نمر من ورق » ، فان مابذلته بلاده من جهود محمومة لتملك القنبلة النووية يناقض ذلك القول . وأيا كان الأمر ، فما أن امتلكت الصين ترسانة نووية وعززتها بصواريخ حاملة للرؤوس النووية حتى انتهت المناوشات على الحدود الصينية السوفيتية ، تلك المناوشات التى كانت تهدد فى وقت من الأوقات بأن تتحول الى حرب واسعة النطاق . ومنذ ذلك الحين كان أكبر عمل عسكرى قامت به القوات الصينية ، ولم تقم بغيره ، هو التوغل لمسافة ١٥ ميلا داخل الأراضى الفيتنامية فى ١٩٧٩ . وكان الصينيون يبغون بذلك العمل تلقين فيتنام « درسا » فانتهى بهم المآل الى أنهم هم الذين تلقوا الدرس ، وعلى مدى العقد الأخير خفت حدة النبرة الثورية فى البلاد مثلما تضاءل الاتجاه الى التورط فى حرب فعلية ، واقتصرت الصين فى المجال العسكرى على تصدير الأسلحة وربما ايفاد بعض الخبراء لبلدان مثل ايران والمملكة العربية السعودية ولبعض حركات التمرد فى كمبوديا وأفغانستان ، ولا شىء يذكر بعد ذلك .

وفيما يتعلق بالقوى الاستعمارية القديمة ، فمنذ أن منيت فرنسا بالفشل فى الجزائر صار نشاطها فى أفريقيا يتسم بالاعتدال ، ولم يحدث أن استدعى الأمر أن تنشر قوة تزيد على فوج ، وما كان الرأى العام الفرنسى سيوافق بأية حال على مثل هذا التورط حتى لو سعت الحكومة الى ذلك . أما بالنسبة لبريطانيا فقد أظهرت تجربتها البغيضة فى السويس عام ١٩٥٦ أنها فقدت تميزها التاريخى كقوة تقليدية ، ويؤكد

ذلك أنها عمدت عقب تلك التجربة الى تحويل قواتها من جيش يعتمد فى قوامه على المجندين الى قوات من المحترفين ، مع ما استتبع ذلك من ترشيد فى قدرتها العسكرية • وما كان توجه القوات البريطانيــة لتحارب فى فوكلاند عام ١٩٨٢ ــ على غير توقع من جانب الحكومة ــ الا لأن قليلا من كانوا يعلمون أين تقع فوكلاند وانها عبارة عن مجموعة جزر صغيرة يقطنها عدد محدود من السكان ولا يسمح مناخها الا بتربية الماشية ، وهى محرومة من الموارد باستثناء الأعشاب البحرية ، وتفصلها عن أية قارة مئــات من الأميال من البحار • وقد بعثت ملابسات أزمة الطاقة البعض الى تفســير الاصرار البريطانى الجلى على شن هذه الحرب بوجود حقول للبترول تحت سطح البحر بالقرب من هذه المنطقة • ورغم أنه لم يعلن عن وجود مثل هذه الحقول ــ أو ربما لهذا السبب ذاته ــ فقد شكلت فوكلاند مسرحــا نموذجيا لخوض حرب محدودة مجيدة ، لايهــم أحدا ــ ولا حتى أطراف القتال أنفسهم ــ أن تنتهى بنصر أو هزيمة • والآن ، وبعد أن وضعت الحرب ضــد العراق أوزارها تتجه كل من فرنســـا وانجلترا الى خفض قواتيهما •

وقد خيم التهديد النووى أيضا على البلدان المحيطة باسرائيل ، حيث كان يسود مناخ من الحقد والكراهية والتعصب حتى الموت • ولو سلمنا بما تقوله وسائل الاعلام العالمية ، فان اسرائيــــل شرعت فى أواخـــر الخمسينات فى انتاج القنبلة النووية بمساعدة الفرنسيين ، وما كانت مغامرة عبد الناصر فى ١٩٦٧ ــ وفقا لنفس وســـائل الاعلام ــ باغلاق مضايق تيران الا محاولة أخيرة ترمى الى منعها من ذلك ، تماما مثلما مارس الرئيس كنيدى ضغوطه على السوفيت فى أزمة كوبا ، وقد نجحت بالفعل اسرائيل فى انتاج القنبلة النــووية وأصبحت جاهزة للاســـتعمال فى ١٩٦٩ ، ولم يغب عن العرب فى ذلك الحين احتمال أن تكون اسرائيل قد امتلكت بالفعل السلاح النووى ، وقد يكون ذلك أحد الأسباب القوية التى حدت من حرب أكتوبر ١٩٧٣ على النحو الذى جرت عليه • ورغم ان العرب كانوا يمتلكون نظما صاروخية فان المناطق السكنية الاسرائيليــة نادرا ماتعرضت لأى هجوم بالصواريخ ، وفيما يتعلق بالصواريخ الســـورية القليلة التى سقطت على المســتوطنات الشمالية فى اسرائيل ، فانها كانت تستهدف فيما يبدو قاعدة جوية قريبة من تلك المنطقة • ولم يحاول كل من المصريين والسوريين فى أى وقت أن يتجاوزوا ببعيد خطوط الهدنة المحددة فى كل من سيناء ومرتفعات الجولان ، ومع ذلك فقد نشرت مجلة التايم فى ذلك الوقت شائعة مفادها أن الحكومة الاسرائيلية كادت فى اليوم الرابع من الحرب أن تفقد صوابها وتأمر باستخدام القنبلة النووية •

وسواء أكان لتلك الشائعة أساس من الصحة أم لا ، فلا شك أن هذه المقالة لفتت انتباه العرب • وقد تكرر بعد ذلك نشر معلومات تتعلق بالقدرة النووية الاسرائيلية • وكانت تلك المعلومات اما تسربها بعض الدوائر الحكومية فى القدس ، واما تبوح بها جهات أخرى بما كان يثير استياء الحكومة ، وكانت وسائل الاعلام تتلقف تلك المعلومات وتسارع بنشرها • وبينما يستحيل الوقوف يقينا على ماهية وقع العامل النووى على شتى المجالات ، فالأمر الثابت ان منطقة الشرق الأوسط لم تشهد منذ عام ١٩٧٣ أية حروب تقليدية واسعة النطاق ، صحيح أن اسرائيل غزت لبنان فى عام ١٩٨٢ ، لكن مناحم بيجين رئيس الوزراء الاسرائيلى ــ الذى لا تزيد معلوماته العسكرية عن مستوى الهواية فى أحسن تقدير ــ شن هذه الحرب بناء على نصيحة مستشاريه الذين أفهموه ان « عملية السلام فى الجليل » ستكون عملية محدودة لاتتوغل القوات الاسرائيلية فيها لأكثر من ٢٥ ميلا داخل الأراضى اللبنانية مع تجنب الاشتباك مع السوريين ، ولن تستغرق الا ثلاثة أيام تقريبا ولاتزيد الخسائر فيها على بضع عشرات من القتلى والجرحى • ولو كان بيجين يعرف انها ستتحول الى حرب ما كان أمر بها ، ولذلك فما أن أدرك انها تحولت الى حرب حتى أصيب بصدمة عصبية واستقال •

وتبقى حالة أخيرة فى هـــذا الســياق توضح الى أية درجة صار دور الحرب التقليدية محدودا فى العصر النووى وتتمثل فى أزمة الخليج ، تلك المنطقة التى تعتبر منذ زمن بعيد من أهم مناطق العالم • وكانت الأصوات قد علت قبل عقد ونصف من الغزو العراقى تعبر عن مدى القلق مما يمكن أن يحدث لو أن نزاعا مسلحا تفجر فى هذه المنطقة ، وظهرت كتب بهذا الصدد ولاقت رواجا شديدا وفى مقدمتها كتـــاب بول ايردمان بعنوان « انهيار عام ١٩٧٩ » • ومع تتابع الأحداث تبين أن ذلك القلق مبالغ فيه ، فقد شنت الولايات المتحدة وهى على رأس تحالف من ثلاثين دولة هجوما على مدى أربعين يوما على خصم لايتجاوز تعداد ســكانه ١/١٥ من تعدادها وحدها ولايزيد اجمالى دخله القومى على ١/٧٠ من الدخل القومى العـــام الأمريكى وحده ، ولم تتكبد فيها الا عددا محدودا للغـــاية من الخسائر البشرية • ومع انفضاض الأزمة استمر سعر البترول فى حركة الهبوط التى كانت قد بدأت فى ربيع ١٩٨١ ، وهذا يثبت ، اذا لزم الاثبات ، ان حتى فقدان مصدرى البترول العراقى والكويتى معا لم يعد له تأثير حيوى على الاقتصاد العالمى •

ولكن لو عدنا الى الوراء ، هل نتصور ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن العراق يمتلك سلاحا نوويا فعـــالا بدلا من أن يخوض حربا تقليدية •

لا شــك فى هذه الحالة أن الأمر سيتوقف الى حــد كبير على معنى كلمة « فعــــال » ٠

وعلى أى الأحوال فلن نكون بعيدين كثيرا عن الصواب لو قلنا انه لو كان لدى العراق حوالى مائة صاروخ ، تحمل رؤوسا نووية ويمكن أن تصيب أهدافا فى الولايات المتحــدة ، لما كان بوش قد أمر بشن الحرب ضده ، بل انه لو كان لديه حجم قوة أقل من ذلك ربما ما تعرض أيضا للحرب ٠ فلو كان يمتلك مثلا عشرين صاروخا يصل مداها الى لنــدن ــ وبالتالى الى روما وباريس ــ لكان ذلك كافيا لمنع الطائرات ب ــ ٥٢ من الاقلاع من القواعد البريطانيــــة والتوجه لقصف العراق ، وأخيرا وحتى لو كان بامكان العراق تجهيز عشرة فقط من مئات الصواريخ سكود التى كان يمتلكها بالفعل بأسلحة نووية فلا شك أن السعوديين كانوا سيفكرون مرتين قبل السماح باستخدام أراضيهم كقاعدة انطلاق لقوات الغزو ، وحتى لو لم يكن ذلك بوســــعه ، فلولا الأداء المبهر للصــواريخ باتريوت المضادة للصـــواريخ والذى فاق كل التوقعـــــات ، لتعرضت الرياض لدمار شـــامل ٠

ورغم ان القرن العشرين مشرف على الانقضاء فما زال الوقت مبكرا لأن يحتفل أحد ، أو يرثى ، كل بحسب وجهة نظره ، بانتهاء زمن الحروب التقليدية فيما بين القوات المسلحة النظامية التى تخضع لسيطرة شتى الحكومات ٠ غير أن ثمة حقائق مؤكدة : فمنذ عام ١٩٤٥ لم تقم أى من القوتين العظميين بأعمال عدائية بالأسلحة التقليدية ضد الأخرى ، وحتى فى معظم الحالات التى تعرضت فيها واحدة منهما لتهديدات بشن مثــل هذه العدائيات ضدها ، غالبا ما كانت تنتهى هذه التهديدات بشكل يبعث على الســـخرية ٠

وفيمـــا يتعلق بخلفاء القوتين العظميين الذين لايملكون أســــلحة نووية ، فانهم كانوا بشكل ما يحظون بالحصانة ضد الحروب التقليديه ، الا لو شنها الطرف الذى يدعى انه يكفل لهم « الحماية » (مثــــل حالة السوفيت فى كل من ألمانيا الشرقية والمجر وتشيكوسلوفاكيا) ٠ ومن ناحية أخرى كان ما تعرضت له كوريا منذ أربعين سنة هو آخـــر مثال لدخول قوة عظمى فى حرب تقليدية واسعة النطاق ضد بلد غــير مسلح نوويا ٠ أما البلدان النووية الأخرى غير القوتين العظميين ، فان المرات التى خاضت فيها حروبا تقليدية لاتتجاوز عدد أصابع اليد الواحـــدة ٠ ورغم أن بريطــانيا كانت لديها أســلحة نووية فى ١٩٥٢ ، أى قبل حرب

السويس بأربع سنوات ، فلم يكن لتلك الأسلحة أى وقع على مجـــرى الأمور · ويتجسد المثالان الوحيدان الآخران فى نفس السياق فى الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٧٣ وحرب فوكلاند عام ١٩٨٢ ·

ونصل الى البلدان التى لا تمتلك ترسانات نووية فنجدها بالفعل قد خاضت فيما بينها عددا كبيرا من الحروب التقليـــدية · وأهم هذه الاشتباكات ما دار فى الشرق الأوسط فى سنوات ١٩٤٨ ــ ٤٩ ، ١٩٥٦، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، و ١٩٨٢ ثم ١٨٨٠ ــ ٨٨ وما بين الصين وتايوان فى عامى ١٩٥٤ و ١٩٥٨ ، وما بين الهند والصين فى ١٩٦٢ وعلى الحدود الهندية الباكستانية فى ١٩٤٧ ــ ٤٩ و ١٩٦٥ و ١٩٧١ · غير ان عقد السبعينات شهد فيما يبدو دخول الأسلحة النووية الى هذه المناطق بشكل ســافر فى بعض الأحيان أو بشــكل مستتر فى أحيــان أخرى · وأيا كان الأمر فقد كان من نتيجة ذلك أن انخفض بشكل ملحوظ معدل الحروب التقليدية فى تلك المناطق ، وأبرمت مصر واسرائيــل معاهدة ســــلام فيما بينهما ، علاوة على أن اسرائيل والأردن كانتا وقت كتابة هذا الكتاب فى حالة سلام غير رسمية ، بل ان الرئيس السورى حافظ الأسد كان يدلى بين الحين والحين ببعض التلميحات السلمية · أما الصين فقد أعربت عن عزمها اللجوء الى السبل السلمية دون سواها من أجل اعادة الوحدة مع تايوان ، ذلك البلد الذى يحوز قدرة نووية ، ان لم يكن سلاحا نوويا فى السراديب · ورغم ان الهند مازالت فى نزاع مع الصين بشأن الحدود بينهما ، فانه من غير المتوقع نشوب حرب أخرى بين البلدين طالما احتفظ كل منهما بترسانته النـــووية ، وطالما أيضا ، وعلى نفس الدرجـــة من الأهمية ، حافظ كل منهما على تلاحمه القومى · وأخيرا ، فاذا كان الخلاف مازال قائما بين الهند وباكستان حول كشمير فانه لايبدو انهما ستخوضان حربا أخرى فيما بينهما ، وعلى أى الأحوال فقد أبرم البلدان فى يناير ١٩٨٩ اتفاقا يقضى بالامتناع عن قصف المنشــآت النووية فى كل من البلدين فى حالة نشوب الحرب بينهما ·

ولو تناولنا المسألة من زاوية أخرى ، أى لو أحصينا ما انتهت اليه الحروب التقليدية ، بغض النظر عن عددها أو أطراف النزاع فيهــــا ، لاكتشفنا أنها لم تفض الى تغيرات تذكر ، فمن بين عشرات النزاعات من هذا القبيل أسفر عدد محدود للغاية منها عن تغير فى الحدود حظى باعتراف دولى · وثمــة استثناء لهذه القاعدة يتمثــل فى الحرب التى اندلعت فى عامى ١٩٤٨ و ٤٩ فى الشرق الأوسط وأسفرت عن قيام اسرائيل ، وحتى فى هذه الحالة ، فان لجــوء الأردن الى ضم الضفة الغربية الى أراضيها كنتيجة لنفس الحرب لم ينل اعتراف الجانب الأكبر من المجتمع الدولى ،

بل انه لم يحظ حتى باعتراف أشقائه من البلدان العربية الأخرى • وهناك استثناء آخر يتجسد فى الحرب الهندية الباكستانيــة التى اندلعت فى عام ١٩٧١ ، وان كانت لم تسفر عن تغير فى الحدود ، فقد أدت فيما يبدو الى قيام دولة بنجلاديش • ولو اعتبرنا فيتنام الجنوبية على سبيل المثال دولة مستقلة قائمة بذاتها فسوف تكون هنــاك حالة أو حالتان أخريان ، غير أن المآل بصفة عامة أصبح واضحا • ورغم هذه النتائج فقد صدر قانون دولى ، مكتوب ورسمى ، يحظر « ضــم أراضى الغير باســتخدام القوة المسلحة » ، فازاء الأسلحة النووية الحالية ، وازاء امكان اتساع قاعدة انتاجها سريعا فى المستقبل ، لا يعبر هذا القانون عن قلق المجتمع الدولى من ضم الأراضى فحسب ، ولكن من اندلاع الحروب التقليدية ذاتهــا • واذا لم يكن هناك بالطبع من سبيل للتنبؤ بالمستقبل ، الا أن كل الدلائل تشير الى أن الحرب الايرانية العراقية قد تكون من آخر الحروب التقليدية التى يشهدها العالم •

* الحــرب المحــدودة

لا شك أن القوة النــووية تشكل أقصى قدرة دفاعية للبلدان التى تمتلكها ، وهى تتسم بقدر فائق من الطــاقة حتى ان الأسلحة التقليدية لتبدو بجانبها وكأنها مزحة سخيفة ، ولذلك فقد شهدت العقود التالية لعام ١٩٤٥ تقلص القوات التقليدية سواء فى الحجم أو النفقات ، حيث يبلغ التعداد الحالى للقوات المسلحة الأمريكية على سبيل المثال ـ ما يربو قليلا على مليونى فرد مقابل ١٢ مليونا فى عام ١٩٤٥ وثلاثة ملايين فى عام ١٩٦٠ • ورغم أن السوفيت يفوقون الأمريكيين فى التركيز على الحرب التقليدية فقد خفضوا قواتهم على مدى نفس الفترة بمقدار ٧٥٪ ومازال التخفيض مستمرا • غير أن معدل ترشــيد القوات لايتم بنفس السرعة المتوقعة • أما فيما يتعلق بالأسلحة النووية فان مجموع عدد الأفراد اللازمين لتشغيلها فى كافة البلدان التى تمتلكها يقل على الأرجح عن مائة ألف ، وفى المقابل يتراوح عدد من يرتدون الزى العسكرى من الرجال والنساء فى العالم ـ بين ١٥ و ٢٠ مليونا • ورغم أن الحروب التقليدية فى سبيلها الى الأفول ، فان القوات التقليدية ونظم أسلحتها ما زالت قيــد الحياة وبحــالة جيدة •

والنقطة الرئيسية التى ينبغى أن نعيها هى أن الأســلحة النووية تشكل صفقة رابحة نسبيا على الصعيد الاقتصادى ، ففى الحرب العالمية الثانية على سبيل المثال كرس الحلفاء الغربيون زهاء ٣٥٪ من اجمــالى ميزانيــاتهم العسكرية ، لتجهيز قواتهم الجــوية الاستراتيجية بالآلاف

تلو الآلاف من القاذفات الثقيلة ، وبديهى أن مثل هذا المجهود يقتضى حركة منسقة تشمل ملايين من البشر ويستغرق وقتا طويلا ، ويدلل على ذلك ان بريطانيا لم تستطع ان تستكمل أول ألف غارة جوية وتسبب حجم خسائر جسيما الا بحلول يناير ١٩٤٢ . وبعد أن تشكلت تلك القوات كان عليها أن تواجه مقاومة القوات الجوية الألمانية ، وكانت النتيجة أن تعرضت بريطانيا لخسائر بشرية فى قواتها الجوية مايفوق أى سـلاح آخر . وقد امتدت العمليات المركزة على مدى عامين ونصف ألقت فيهـا القاذفات ملايين الأطنان من القنابل على ألمانيا ، الى أن جثت فى نهاية المطاف على ركبتيها . ومع ذلك فقد كانت نتيجة الحرب الجوية موضـع جدل ولبس ، ودارت تساؤلات بشأن جدواها الاقتصادية قياسا بصور الحرب الأخرى . وبالطبع مازال المؤرخون حتى يومنا هذا مختلفين فيما بينهم حول ما اذا كان القصف الجوى هو الذى جعل ألمانيا تجثو على ركبتيها .

ولو كانت الأسلحة النووية الحديثة قد استخدمت لانجاز نفس هذه العمليات لما وجد المجادلون مكانا لهم ولا مايتجادلون بشأنه ، ولا كانت هناك حاجة لانشاء هذا الحجم الضخم من المرافق الصناعية ومرافق الامداد والتموين ولا لبناء جيوش قوية أو مواجهة أى نوع من المقاومة فى الحرب ، ويكفى أن ترابط غواصة واحدة من نوع ترايدنت ٢ ، التى يقل عدد أفراد طاقمها عن المائة ، فى مكان ما تحت سـطح المحيط على بعـد يصل الى خمسة آلاف ميل من هدفها ، لتمطر فى غضون ما بين ١٥ و٣٠ دقيقة ، وفقا لبعد الهدف ، الدمار على بلد بقدر لا تقوم له قائمة بعده . وبعـد اطلاق عدة رؤوس نووية على كل من كبريات المدن الألمانية يبقى لربـان الغواصة ما يكفى من الصواريخ ليدخرها تحسبا لانزال كارثة مماثلة على بلد آخر بنفس حجم ألمانيـا .

وهكذا فان عدد المنصات اللازمة لشن حرب نووية ــ لو كان ذلك هو المسمى لمذبحة جماعية من جانب واحد بدون دفاع ــ يقل بمقدار فائق عن ذلك المستخدم فى الحرب التقليدية . وينسحب نفس الشىء على القوة البشرية اللازمة لاستخدام الأسـلحة فى الحالتين بحيث ان الحجم المطلق للقوات المسلحة لم يعد يشكل عبئا كبيرا سواء على الصعيد الاقتصادى أو العسكرى . ولاشك أن القوات المسلحة النووية تعد من جميع الزوايا أرخص كثيرا من القوات التقليدية ، لاسيما مع القياس بنسبة الطاقة التدميرية .

واذا كانت القوى العسكرية قد كرست على مدى سنوات عديدة جهدا جبارا فى التخطيط والاعداد لحرب تقليدية فى عصر نووى ، فان

ذلك ـ على الصعيد الرسمى ـ يعزى فى المقام الأول الى الرغبة « المحتومة » فى درء اندلاع حرب نووية • وقد أدمجت الناتو هذا المنطق مع مذهب « الرد المرن » واتخذته حجر زاوية لاستراتيجيتها العامة • ويمكن بشكل ما طرح المذهب على النحو التالى : لو نشبت أزمة ـ مهما كانت صغيرة ـ فقد يجد صناع القرار فى العواصم الغربية (أو الشرقية) أنفسهم عاجزين عن مواجهتها اذا لم تكن هناك قوات تقليدية فى أيديهم ، وفى المقابل فان أية أزمة صغيرة قد تدفعهم الى استخدام الأسلحة النووية ، وهو احتمال أبغض من سابقه ، ولذلك كان درء حدوث مثل هذا المأزق المرعب هو الذريعة المعلنة طيلة ربع قرن لتبرير الاحتفاظ بقوات تقليدية قوية • أما لو اندلعت أزمة رغم كل المحاذير ، فالآمال معقودة على أن يتيح بدء الحرب بقوات تقليدية فسحة من الوقت للتفاوض ، وقد عرف ذلك المنطق باسم « رفع العتبة النووية » •

وقد نتساءل فى ضوء ما قيل بشأن جدوى كل من الحرب النووية أو التقليدية فى العصر الحالى ، هل مذهب « الرد المرن » مذهب معقول ؟ سنترك تقدير ذلك للقارىء • وأيا كان الأمر ، فان الابقاء على ذلك المستوى المرتفع من القوات التقليدية بأسلحتها وما تحتاجه من خدمات ومرافق يكبد الناتو نحو ٨٠٪ من ميزانيتها العسكرية ، وتزداد هذه النسبة فيما يتعلق بالطاقة البشرية العسكرية • وينسحب ذلك على الأرجح على البلدان أعضاء حلف وارسو وأيضا القوى النووية الأخرى مثل الصين والهند اللتين تحتفظ كل منهما بقوات مسلحة يصل قوامها الى ملايين الأفراد • ولنا أن نتوقع أن قوات يغدق عليها بهذا البذخ لابد وأن تشكل أداة حرب مخيفة بوسعها أن تهب سريعا لاحتواء أية معارضة ، غير أن الحقيقة تظل هى الحقيقة ، فرغم الملايين التى أنفقت ومازالت تنفق بغير حساب فان الحقيقة الثابتة تؤكد أن المؤسسات العسكرية التقليدية لدى القوى الرئيسية تلم بالكاد بأبعاد الشكل السائد للحرب المعاصرة •

ولعلنا نسترشد بالاحصائيات لتعزيز هذا القول ، فلقد شهد العالم منذ عام ١٩٤٥ اندلاع نحو ١٦٠ نزاعا مسلحا ، ويرتفع هذا الرقم لو أخذنا فى الحسبان الصراعات والمعارك من قبيل تلك التى شنها الفرنسيون ضد الانفصاليين فى كورسيكا والاسبان ضد المتمردين فى اقليم الباسك ، ويندرج ثلاثة أرباع هذه النزاعات تقريبا تحت ما يسمى بالنوعية « محدودة الشدة » (وذلك لفظ أطلق لأول مرة فى الثمانينات ولكن يمكن استخدامه كذلك لوصف العديد من الحروب السابقة) : ويمكن تلخيص أهم خصائص النزاعات المحدودة فيما يلى : أولا ، تنشب هذه النزاعات

فى معظم الأحيان فى المناطق « الأقل تطورا » من العالم ، أما تلك التى تندلع فى البلدان « المتطورة » فانها عادة ما تندرج تحت مسميات أخرى مثل « الارهاب » و « أعمال شرطية » أو « اضطرابات » (على نحو ما يطلق عليها فى حالة أيرلندا الشمالية) • ثانيا ، فنادرا ما تدور مثل هذه المعارك بين جيوش نظامية على الجانبين ، ولكنها تتمثل فى العادة فى جيش نظامى فى جانب يقاتل متمردين أو ارهابيين ، بل ومدنيين ، ومنهم نساء وأطفال ، فى الجانب الآخر • ثالثا ، لايعتمد هذا النوع من النزاعات بالدرجة الأولى على أسلحة القتل الجماعى المتطورة التى تعد مفخرة أى جيش حديث ، ويستثنى منها الطائرات والدبابات والصواريخ والمدفعية الثقيلة علاوة على العديد من المعدات التى تبلغ من التعقيد درجة بحيث لاتعرف الا بالحروف الأولى من اسمها المركب !

وعلاوة على الزيادة العددية ، فان النزاعات المحدودة فاقت بكثير أى نوع آخر من الحروب منذ عام ١٩٤٥ من حيث دمويتها • وعلى سبيل المثال ، فقد أزهقت الاشتباكات بين الهندوس والمسلمين فيما بين ١٩٤٧ و ١٩٤٩ أرواح مليون شخص أو يزيد ، ويتردد أن ماينـاهز ثلاثة ملايين شخص هلكوا خلال الحرب الأهلية التى شهدتها نيجيريا فيما بين ١٩٦٦ و ١٩٦٩ ، ولقى مايربو كثيرا على مليون شخص مصرعهم خلال النزاع الفيتنامى الذى دام ثلاثين عاما ، علاوة على زهاء مليون آخرين قتلوا فى سائر منطقة الهند الصينية بما فيها كمبوديا ولاوس ، ولقى حوالى مليون شخص حتفهم فى الجزائر ومليون آخرين فى أفغانستان حيث كان هناك أيضا خمسة ملايين لاجىء • واذا كان حجم النزاعات التى اندلعت فى أمريكا الوسطى والجنوبية أقل من ذلك بكثير الا انه أدى بلا شك الى سقوط مئات الآلاف من الضحايا ، ولا يفوتنا التنويه الى الحروب التى اندلعت ومازالت تدور رحاها فى كل من الفلبين والتبت وتايلاند وسريلانكا وكردستان والسودان وأثيوبيا وأوغندا والصحراء الغربية وأنجولا فضلا عن نحو ستة بلدان أخرى ، بحيث يصل عدد القتلى فى مجموعها الى عشرين مليونا أو يزيد •

ولما كان الجانب الأكبر من الضحايا فى كل من هذه الحالات من القرويين الذين لا ينتمون الى أى تنظيم رسمى ، فان الأرقام سالفة الذكر تعد بعيدة عن الدقة ، ولا شك أن عددهم يفوق كثيرا حجم الخسائر الناجم عن أى نزاع تقليدى نشب بعد عام ١٩٤٥ • ولكن ثمة استثناءين لتلك الحقيقة يتمثلان فى الحرب الكورية ، حيث كان معظم القتلى على الأرجح من المدنيين ، والحرب العراقية الايرانية التى دامت ثمانى سنوات • وفيما

يتعلق ببقية النزاعات فربما هيأ لنا المثال التالى فكرة عنها : فقد خسر لبنان فى الحرب الأهلية التى اشتعلت فيه لمدة ١٥ عاما ما يربو على مائة ألف قتيل من مجموع سكانه البالغ زهاء ٢ر٥ مليون نسمة ، وفى المقابل لم تزد خسائر اسرائيل ــ وهى بلد صار شهيرا بعدد الحروب التى خاضها وبحجمها ــ على ١٤٠ ألف قتيل على مدى عمرها البالغ أربعة عقود ٠ وقد بلغت الخسائر الاسرائيلية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ما بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ قتيل ، وكانت هذه الحرب فى حينها بمثابة أضخم وأحدث نزاع تقليدى يشهده العالم منذ عام ١٩٤٥ ٠ أما حملتا ١٩٥٦ و ١٩٦٧ فقد كلفتا اسرائيل تباعا ١٧٠ و ٧٥٠ قتيلا ، ويمكن بهذا المقياس اعتبارهما مجرد مناوشات لا ترقى حتى لدرجة أن تسمى حربا ٠ ويبقى ستة آلاف قتيل أو نسبة ٤٣٪ من الخسائر الاسرائيلية وهؤلاء سقطوا أثناء « حرب التحرير » التى دارت فيما بين ١٩٤٨ و ٤٩ ٠ وبالنظر الى حجم القوات وكم الأسلحة المشتركة فى هذه المعارك يمكن من عدة زوايا اعتبـــارها « نزاعات محدودة » ٠

وبفرض أن الهدف الوحيد للحروب هو تحقيق مآرب سياسية ، فان النزاعات المحدودة تعتبر من الوجهة السياسية أهم صورة للحروب المندلعة منذ عام ١٩٤٥ ٠ ومن بين عشرات النزاعات « التقليدية » التى شهدها العالم منذ عام ١٩٤٥ ، كان « النزاع » الذى نشب عام ١٩٤٨ بين اسرائيل وجيرانها هو الوحيد الذى أسفر عن اقامة حدود جديدة ، وحتى فى هذه الحالة لم يكن الأمر وقتها يتعلق بحدود معترف بها دوليا ولكن بخطوط هدنة ٠ أما النزاعات المحدودة الأخرى التى جرت خلال نفس الفترة فقد أسفرت كلها عن نتائج مؤقتة ٠ وربما كانت النزاعات المحدودة التى شــهدتها دول العالم الثالث من جنـوب أفريقيـا حتى لاوس الأداة الرئيســـية لاحداث أى تغيير سياسى ٠ فلم تشــــهد على سبيل المثال الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى ، التى كانت تتقاسم فيما بينها الهيمنة على نصف الكرة الأرضية تقريبا ، حربا تقليدية واحدة ، ولكنها انهارت كلها اثر نزاعات محدودة عرفت باسم « حروب التحرير الوطنية » ٠ ولقد تعرض البعض من أعتى القوى العسكرية خلال هذه النزاعات للمهانة ، مما عمل على نسف فكرة تفوق الرجل الأبيض من أساسها ٠

ولعل أفضل دليل على ما تتسم به النزاعات المحدودة من أهمية سياسية وتتميز به على الحروب التقليدية ، هو أن نتائجها حظيت دائما باعتراف المجتمع الدولى ، بل ان ذلك الاعتراف كثيرا ما جاء قبل النصر فى ميـدان المعركة وليس بعـده ، فيسلط بذلك الضـوء على جانب مهم

يتجسد فى التفاعل بين الحق والقوة فى العصر الحديث • وانطلاقا من وجهة النظر هذه فان مسمى « النزاعات المحدودة » نفسه يصبح بعيدا تماما عن التعبير عن مدلوله ، وينسحب ذلك أيضا على مسميات أخرى تتعلق بذات الموضوع مثل « ارهاب » ، « تمرد » ، « حرب خاطفة » ، أو « حرب عصابات » • والواقع ان ما نحن بصدده هنا لا هو حرب محدودة ولا هو صورة مهجنة من صور الحرب ، انما هو الحرب كحرب ، الحرب بمعناها الحرفى الهوبزى وتمثل أهم صور النزاعات المسلحة فى وقتنا الحالى •

ولو سلمنا بذلك ، فكيف سارت الأمور بالنسبة للقوات المسلحة الكبرى فى العالم فى اطار هذا النوع من الحرب ؟ لو تناولنا القوى الاستعمارية الرئيسية سنجد انها خاضت على مدى عقدين تقريبا بعد عام ١٩٤٥ صراعات مريرة للاحتفاظ بامبراطورياتها مترامية الأطراف والتى كونتها على مدى القرون الأربعة السابقة • فقد كرست تلك القوى موارد اقتصادية هائلة سواء بشكل مطلق أو نسبى لمحاربة « المتمردين » الذين كانوا فى كثير من الأحيان حفاة ، واستخدمت أفضل العناصر القتالية وحشدت فى الميدان كل أنواع التكنولوجيا العسكرية المتطورة فيما عدا الأسلحة النووية ، بل انها لجأت الى أساليب وحشية بعيدة تماما عن أية شفقة أو رحمة ، فطردت قطاعات كاملة من السكان من منازلهم وشردتهم وقتلت منهم من قتلت ووضعت منهم حشودا فى معسكرات إعتقال وأطلقت عليهم النار بشكل جماعى ، علاوة على من حولتهم الى لاجئين فى غير بلدانهم • ولقد تنبأ هوشى منه وهو يرفع لواء الثورة ضد فرنسا فى عام ١٩٤٥ أن يسقط من الثوار فى أية حزب مناهضة للاستعمار ، عدد من الضحايا يفوق عشرة أمثال خسائر « القوة النظامية » على الأقل ، وهذا صحيح حتى لو أخذ فى الحسبان من يلقون حتفهم من المستعمرين المدنيين ، وان كان ذلك قليلا ما يحدث •

ورغم كل هذه الفظاعات وكل هذا التفوق العسكرى دائما ما كانت « القوة المضادة للثورة » تمنى بالهزيمة ، فقد فقدت بريطانيا الكثير من مستعمراتها وعلى رأسها الهند وفلسطين وكينيا وقبرص وعدن ، وتلك هى أهم المناطق التى كانت تحرص على البقاء فيها • أما فرنسا فقد ظلت تحارب فى الهند الصينية لمدة ست سنوات ، كما أمضت سبع سنوات أخرى فى محاولة لدرء الهزيمة عن نفسها فى الجزائر ، ولما فشلت فى الحالتين تنازلت عن بقية الامبراطورية بدون قتال ، وذلك باستثناء عدد ضئيل من الممتلكات • كذلك فقد انسحبت بلجيكا من الكونغو ، هذا البلد المتخلف

الذى قد لايزيد عدد المدارس الثانوية فيه عن المائة ، ورحلت هولندا عن اندونيسيا بعد أن فقدت الأمل فى الاحتفاظ بهـا حتى بعد اللجوء الى الوسائل العسكرية ، واذا كان الأسـبان قد آثروا الحـكمة وتخلوا عن الصحراء بغير قتال تقريبا ، فان البرتغاليين قاتلوا لسنوات فى كل من أنجولا وموزمبيق ولكنهم فى النهاية أجبروا على الرحيل ، وحتى جنـوب أفريقيا التى بقيت أكثر من غيرها فى مستعمرتها ، فقد انتهى بها المآل الى الموافقة على الانسحاب من ناميبيا ٠

وفى مقابل كل هذه الهزائم ، التى يبلغ عددها زهاء ١٢ ، ثمة حالة وحيدة ساطعة (وعادة ما يرد ذكرها) على سبيل الاستشهاد « لانتصار » قوة استعمارية قديمة فى معركة بأحد بلدان العالم الثالث ، حيث نجحت القوات المسلحة البريطانية فى قمع تمرد شيوعى فى ماليزيا ، وان اقتضت الحقيقة أن نشير الى ان هذا التمرد قامت به قلة من الصينيين ولم يسانده معظم الشعب٠وقد اكتسب البريطانيون بهذا العمل البطولى سمعة مرموقة، كما كان ذلك بمثابة « درس » سعى الآخرون منذ ذلك الحين الى الاستفادة منه ٠ غير انه يغيب عن البال فى معظم الأحيان أن تلك المعركة الخاصة كانت بلا هدف ، فربما كانت هذه هى المرة الأولى فى التاريخ التى تخوض فيها قوة عسكرية حربا بلا مآرب سياسية ، بل وتعلن ذلك منذ البداية ، حيث دخلت حكومة المحافظين البريطانية بزعامة ونستون تشرشل المعركة على وعد لماليزيا بأنها ستجلو عنها بمجرد القضاء على التمرد ، ولما قضى عليه صدق البريطانيون وعدهم ٠

واذا كانت القوى الاستعمارية القديمة قد منيت بالهزيمة ، فقد نزلت هزيمة أقسى وأمر بمن حاول أن يحل محلها ٠ فبحلول عام ١٩٦٤ كانت عملية الجلاء من المستعمرات قد قطع فيها شـوط كبير وشـارفت على الانتهاء ، وكان ذلك أيضا هو العام الذى قررت فيه أمريكا برئاسة جونسون أن تثبت أنهـا ليست كالأوروبيين وأن لديها « بالتـأكيد » العزيمـة و « العضلات » التى تمكنها من فرض نفسها على العالم الثالث ٠ وحارب الأمريكيون فى فيتنام طيلة تسع سنوات وأرسلوا الى هناك ما يربو على مليونى جندى ــ بحد أقصى ٥٥٠ ألفا فى وقت واحد ــ وسقط منهم أكثر من ٥٠ ألف قتيل ، ودفعت الولايات المتحدة فى هذه الحرب ــ وقد كانت وقتها على قمة العالم التكنولوجى بلا منازع ــ بكل ما هو حديث من معدات بدءا بالقاذفات العملاقة عابرة القارات من طراز ب-٥٢ وحتى « شمامة البشر » « People sniffers » وأجهزة التصنت العاملة بالتحكم عن بعد ٠ وقد قدرت تكاليف هذه الحرب فى ذلك الحين بما يتراوح بين ١٥٠ و ١٧٥

بليون دولار (ولو بنى هذا التقدير بسعر عام ١٩٩٠ لبلغت ثلاثة أو أربعة أمثال ذلك الرقم) • وكم توالت الهزائم القاسية على القوات الأمريكية الى أن أقلعت آخر هليكوبتر من على سطح السفارة الأمريكية فى سايجون • ومرة أخرى ها هى دولة غنية قوية صناعية ومتطورة حاولت أن تسحق بأقدامها مجتمعا فقيرا ضعيفا ينتمى للعالم الثالث ولكنها منيت بالهزيمة كمن سبقوها •

ولقد كانت هزائم القوات التقليدية خلال الفترة ما بين ١٩٧٥و١٩٩٠ عديدة وأليمة • وربما كانت أبرز هذه الهزائم ما لقيه الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان • فعندما وقع الغزو فى ١٩٧٩ وقف العديد فى الغرب مشدوهين لما ظهر من قوة الجيش الأحمر • ودار الحديث عن القوة الدافعة الجبارة التى لا تقاوم والتي ستتيح للروس بعد طول انتظار تحقيق حلم ظل يراودهم مئات السنين بالوصول الى الخليج الفارسى • ولما كانت الولايات المتحدة فى ظل ادارة كارتر تواجه العديد من المشاكل ، لم يكن بوسعها أن ترسل قوة انتشار سريع لمواجهة مثل هذا الحدث الطارىء ، وحتى لو أرسلت هذه القوة فان صعوبات الشئون الادارية من نقل ووقود وامداد وتموين واداريات أخرى ما كانت لتتيح لقوة انتشار سريع أدنى فرصة لأن تقاوم بالوسائل التقليدية مثل هذا الهجوم السوفيتى الضارى • أما داخل أفغانستان فقد كانت المقاومة للجيش الأحمر مؤلفة من مجموعة من التنظيمات المتناحرة القائمة على رجال حرب العصابات • وكان هؤلاء الرجال غير مدربين تدريبا راقيا ولا يستطيعون تنظيم التعاون فيما بينهم ولم يتعلموا أبدا أن يعملوا في اطار قوة تزيد على كتيبة • ومع ذلك وبعد مرور تســـع سنوات عاد ذلك الجيش يجر ذيول الهزيمة بعد أن منى بثلاثين ألف قتيل (حسب البيان السوفيتى) وعبر جنوده الحدود وسط سخرية « المجاهدين » الذى لم يكلفوا أنفسهم حتى عناء اطلاق النار عليهـــم •

ولو انتقلنا الى البلدان الأقل تطورا فسنجد أيضا أن جيوشها هى الأخرى لم تبل بلاء أفضل من الجيوش سالفة الذكر فى مواجهة النزاعات المحدودة • وسنكتفى بالاشارة الى بعض من أبرز الحالات في هذا الصدد : فالسوريون ظلوا يقتلون فى اللبنانيين لمدة عقد ونصف ، ومع ذلك لم يحققوا شيئا يرقى بقرارات الأسد الى فوق مستوى التفنيد ، واذا كانت الوحدات الكوبية لم تجـد مشقة فى دحر أنجولا فى عام ١٩٧٦ ، فقد وجدت نفسها بعد ذلك عاجزة عن مواجهة حـركة يونيتا التى تتخذ من الغابات مخابىء لها ، وفى الجنوب الأفريقى كم سددت قوات أفريقيا من

ضربات قاسية لرجال حرب العصابات فى كل من ناميبيا وأنجولا وموزمبيق ، وكل مرة تنزل الضربة شديدة ولكن بلا طائل ، وعلى صعيد آخر فلم تخفق الهند بتدخلها فى الحرب الأهلية السريلانكية فى تحقيق مآربها فحسب ، ولكن انتهى بها المآل الى الانسحاب بشكل مخز مما أفسح المجال لحدوث اضطرابات مماثلة فى كشمير ، وحتى جيش فيتنام الشمالية الذى بلغ من بأسه أن هزم أولا ماكينة الحرب الأمريكية ثم استدار وألحق بالصينيين هزيمة أليمة ، فلم يفلت من نفس المصير حيث منى بالهزيمة — أو على الأقل أوقع نفسه فى ورطة — بعد أن ظل على مدى عشر سنوات تقريبا يتناطح مع رجال العصابات المنتمين لحركة الخمير الحمر فى كمبوديا ٠

ولعل أبرز حالة فى هذا السياق هى حالة الجيش الاسرائيلى الذى تبوأ ، فى تقدير البعض ، مركز الصدارة فى العالم بعد انتصاره فى ١٩٦٧ على البلدان العربية ، ففى عام ١٩٨٢ قامت ست فرق اسرائيلية تعززها ألف دبابة بغزو لبنان ، وما لبثوا أن هزموا منظمة التحرير الفلسطينية (وان لم يتم ذلك بالسرعة المنشودة) ثم وصلوا الى بيروت بعد ستة أيام ، كما انهم دفعوا السوريين الى التقهقر وكبدوا القوات الجوية السورية على وجه الخصوص هزيمة ثقيلة ٠ ورغم هذه الانتصارات فقد بدأ تدريجيا يتضح للاسرائيليين أن دباباتهم وطائراتهم ومدافعهم وصواريخهم والطائرات التى تحلق بدون طيار — بما فيها أحدث النماذج التى لم يستخدمها أحد قبلهم — غير مجدية فى مواجهة ذلك النوع من المقاومة التى تواجههم ، وعلى مدى ثلاث سنوات أخذ الإسرائيليون يتخبطون فى « المستنقع اللبنانى » محاولين اتخاذ موقع وسط بين مجموعة محيرة من مختلف الميليشيات المتناحرة حتى وهى تطارد قوات الدفاع الاسرائيلية ٠ وقد لا تكون الممارسات الاسرائيلية فى لبنان بنفس درجة فظاعة ممارسات السوفيت فى أفغانستان ، ولكنها كانت على درجة كافية من الشراسة ٠ ويلفت النظر انه مثلما فعل السوفيت وهم يعبرون الحدود عائدين الى بلادهم ، انسحب الاسرائيليون فى طابور عرض احتفالا بالنصر ! أما الآن ، وفى وقت كتابة هذا الكتاب ، فانهم يعانون من المشكلة الكبرى المتمثلة فى مواجهة « الانتفاضة » ، ذلك التمرد الذى يقوم به الصبية والغلمان فى الأراضى المحتلة بلا تسليح سوى الحجارة والعصى ٠

✻ سجل الاخفاق :

يتضح لنا مما تقدم أن النزاعات المحدودة شكلت الجانب الأكبر من الحروب منذ عام ١٩٤٥ ، كما أنها كانت أهم أنواع الحروب بشكل مطلق فيما يتعلق بالخسائر البشرية أو النتائج السياسية التى تحققت من

ورائها . واذا كانت البلدان المتقدمة على جانبى الستار الحديدى قد اشتركت فى هذه الحروب فان الميراث الاستعمارى جعل الدول الغربية بصفة عامة أكثر تورطا فيها من دول الكتلة الشرقية . وبغض النظر عن أفغانستان ، فقد تمثل أكبر وجود سوفيتى فى أية دولة من خارج أوروبا الشرقية منذ عام ١٩٤٥ ، فى ايفاد عشرين ألف مستشار الى مصر ، وقد قام هؤلاء المستشارون فيما بين ١٩٦٩ و ١٩٧٢ بالكثير فى تجهيز نظام الدفاع الجوى المصرى وبعدد من الغارات ضد القوات الجوية الاسرائيلية ، كما أشرفوا على تدريب الجيش المصرى . ولقد كان الوجود الكوبى فى انجولا بنفس هذا الحجم ولكنه امتد لفترة أطول وان كان هذا الامتداد فى حد ذاته يعد مؤشرا على الاخفاق . وعدا ذلك ، فحتى الوجود السوفيتى فى أفغانستان قد حد من شأنه الوجود الأمريكى فى فيتنام . وبلغة الأرقام ـ بعيدا بالطبع عن حجم المعدات ـ نجد أن القوات التى حشدها السوفيت فى أفغانستان تعادل قوات الحملات التى شنتها فرنسا على الهند الصينية فيما بين ١٩٤٨ و ١٩٥٣ .

وأيا كانت درجة تورط البلدان الغربية أو الشرقية فى هذه الحروب ، فلم يكن هناك ما يبعث أيا منها على أن تقاتل خصومها على أراضيها هى وتعرض مواطنيها لويلات النزاعات المحدودة ، ويعزى ذلك فى المقام الأول لأسباب تقنية : فلأول مرة فى التاريخ تهيىء وسائل الاتصال الحديثة ووسائل النقل المتطورة الفرصة لأصحابها لأن تطول أيديهم أى مكان على الكرة الأرضية ، غير أن هذه الوسائل تخضع بدرجة فائقة لسيطرة مجموعة ضئيلة من الدول تناهز ٢٥ من حوالى ١٥٠ دولة فى العالم . ومنذ أن وصل فاسكو دا جاما لأول مرة الى الهند فى عام ١٤٩٨ أصبح بوسع الأقوى من هذه الدول أن « يسقط قوته » على البلدان الأقل تطورا دون أن تخشى احتمال التعرض لعملية عكسية . فقد كان لدى فرنسا على سبيل المثال ما يمكنها من ارسال قوات لتحارب فى جمهورية أفريقيا الوسطى ، وكان بوسع القوات الفرنسية اذا اقتضى الأمر ، أن تقتحم البلاد ، بل وتحتل العاصمة ، لكن لم يكن ذلك ليضع نهاية « للحرب » . وفى المقابل فان مجرد التفكير فى أن تقوم جمهورية أفريقيا الوسطى بغزو فرنسا ليبعث على السخرية ، فأيا كان ما ستقدر على حشده من رعاع ، لن يتمكنوا حتى من مجرد الاقتراب من شواطىء العدو . نستنتج من ذلك انه لو أضيف ما تتميز به القوى الكبرى من تفوق فى الامداد والتموين ، الى تفوقها فى التسليح يصبح بمقدورها أن تفعل ما تشاء مع بقية العالم ، أو ببقية العالم .

غير أن الفجوة العسكرية بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة ليست بأية حال على النحو الذى يبرزه هذا العدد الكبير من المجلات العالمية الجذابة

المخصصة لتمجيد نظم الأسلحة الحديثة ٠ ولو اعتمد أحد على هذه المجلات وحدها ، لكان معذورا فى أن يذهب بفكره الى أن هذه الفجوة تعد اليوم أكبر منها فى أى وقت مضى ٠ ولو عدنا بالتاريخ الى الوراء قليلا لوجدنا ان بريطانيا ، عندما غزت الهند فى القرن الثامن عشر ، كانت متفوقة بشكل طفيف من حيث نوعية الأسلحة ولكنها كانت أقل بكثير من حيث عدد الأفراد ، بل ان الألوف القليلة من جنودها لم يكونوا يكونون جيشا بالمعنى المفهوم للكلمة ، لكنهم كانوا من المرتزقة وكانوا يعملون هناك فيما كان لايزال يعد رسميا بمثابة شركة قطاع خاص هى شركة الهند الشرقية ٠

بيد أنه من الخطأ الاعتقاد بأن التفوق فى التسليح فى حد ذاته يرجح كفة الميزان ، ولو كانت الحرب عبارة عن مبارزة بين طرفين على قدم مساواة على أرض محايدة ربما ظل الجيش البريطانى بهيئته الحالية « متفوقا » على نظيره الهندى ، لكن الواقع مختلف ، فلو أرادت بريطانيا اليوم أن تمنع الهند من انتهاك مصالحها فالسبيل الوحيد الذى يمكن أن تلجأ اليه هو التهديد النووى وربما الاضطرار بالفعل الى استخدام الأسلحة النووية ٠ ولو استبعد ذلك الاحتمال ، فلن يكون بوسع بريطانيا أن تواجه حتى واحدا من بلدان العالم الثالث وحتى لو لم يكن لدى هذا البلد جيش يذكر، والسبب بسيط ، فقد تلجأ حكومة مثل هذا البلد الى القيام بعمليات اختطاف أو سلب أو حتى قتل كل من وما ينتمى لبريطانيا ، وقد تقع مثل هذه العمليات ــ وقد وقعت بالفعل ــ على أراضى هذا البلد أو فى البحر أو فى الجو بل وحتى على الأراضى البريطانية ذاتها ؛ ولقد تعرض بالفعل البريطانيون وممتلكاتهم منذ عام ١٩٧٠ لأعمال لو وقعت قبل مدة ليست ببعيدة لكانت كفيلة بأن تجعل البحرية الملكية تستخدم مدافع أسطولها من عيار ١٦ بوصة ، أو أن ترسل القوات الجوية الملكية لتدك قرى بأكملها وتسويها بالأرض ٠

ولم يكن البريطانيون هم الوحيدين الذين عانوا من هذا الوبال ، فكم كانت أليمة تلك التجربة التى تعرض لها الأمريكيون عام ١٩٨٣ فى لبنان ، ذلك البلد الغارق فى حالة من الفوضى لدرجة أن حكومته لا تقدر حتى على السيطرة على عاصمته ، ولن يفكر الأمريكيون على الأرجح بعد هذه التجربة فى ارسال قوات الى هناك مرة أخرى حتى لمواجهة أشد أنواع الاستفزاز المتمثلة فى عمليات اختطاف الرهائن ، وسيؤثرون حل مثل هذه المشكلات عن طريق التفاوض وليس بالقوة المسلحة ٠ وفى المعسكر الشرقى ، فليس ثمة ما يدعو الى الاعتقاد بأن الاتحاد السوفيتى ، بعد تجربة أفغانستان ، سيبلى بلاء أفضل فى مواجهة مثل تلك النزاعات ، وقد ينطوى ذلك على تفسير للتقيد السوفيتي ازاء عملية انفصال جمهورياته ٠

ويمكن القول اذن ان القوة العسكرية أصبحت اليوم ببساطة ، غير مجدية كأداة لتوسيع نطاق المصالح السياسية أو للدفاع عنها فى معظم أنحاء الكرة الأرضية ، تلك هي الحقيقة الجامدة القاسية ، وبهذا المفهوم ، نادرا ما سيكون « للقوة العسكرية » أى قيمة تذكر ، فعندما يتعلق الأمر بمحاولة منع العمليات الارهابية التى تقع فى عقر الدار فان الجهاز العسكرى بأسلحته الثقيلة يصبح عديم الفائدة ، وينطبق ذلك على كل البلدان المتطورة سواء فى الغرب أو الشرق ، فى الشمال أو الجنوب ٠

وقد يسأل سائل عن الأسباب الكامنة وراء هذا الوضع العجيب ، ولسوف يجد حشدا من الخبراء يجيبونه ، سيقدمون له قائمة من الأسباب فى مقدمتها « بمقتضيات الديمقراطية » و « النزعة الانسانية الغربية » ٠ ولا شك أنهما سببان وجيهان ولكن لكل شيء ثمنا ، سيقال ان هذين السببين هما اللذان منعا الولايات المتحدة من اتخاذ أى نوع من الاجراءات التى تكفل تحقيق النصر فى فيتنام ، من قبيل اعتقال المتمردين والمنشقين وتكميم الصحافة وتعبئة الاقتصاد وفرض زى موحد للسكان وقصف العدو بما يعيده الى العصر الحجرى ٠٠٠ الخ ؛ وثمة عوامل أخرى يمكن ذكرها باعتبارها تمثل مشكلة ، حيث لم يحدث على سبيل المثال ان أخبرت القوات المسلحة على وجه الدقة بتفاصيل المهمة المسندة اليها ، وذلك خطأ يسأل عنه الزعماء المدنيون فى أمريكا ، ومما ضاعف من صعوبة نقل القوات ضخامة المحيط الهادى ، فتحولت المسألة من حرب ذات تكاليف باهظة معقولة الى ورطة مالية شديدة ؛ ورغم ذلك فربما كان بوسع الولايات المتحدة تحقيق نصر سريع لولا تلقى الفيتناميين دعما هائلا من السوفييت ٠

ومع ذلك فما هذه الا أعذار واهية ، ولو تناولنا المسألة بأسلوب عكسى لوجدنا ان القوى الاستعمارية قد تصادمت فيما بينها منذ أن بدأ التوسع الاستعمارى ، وذلك نتيجة تعارض مصالحها ، فقد حارب الأسبان البرتغاليين وقاتل الهولنديون الأسبان والفرنسيون انتصروا على الهولنديين ثم تناحر الانجليز مع الفرنسيين ، وما ذلك الا قليل من كثير ٠ غير ان تلك الحروب لم تمنع أوروبا من فرض هيمنتها على العالم ، بل انها لم تشكل حتى عراقيل تعطل سير عملية التوسع وفرض السيطرة٠أما بالنسبة لقهر المسافات فان كولومبوس قد اكتشف أمريكا بمركب من ثلاثة ألواح خشبية ، ولم تظهر السفن البخارية عابرة المحيطات الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهو نفس وقت ظهور وسائل الاتصالات اللاسلكية٠ ومن ثم يمكن القول ان التخلف التكنولوجى النسبى على مدى جزء كبير من حقبة التوسع الاستعمارى سبب مشكلات ضخمة تفوق كل تصور ٠

ولا يشكل قرب المسافات في حد ذاته سببا قاطعا لتحقيق النصر فى النزاعات المحدودة • فالقوات المسلحة الفيتامية والاسرائيلية والسوفيتية والهندية حاربت رجال حرب العصابات،فى بلدان متاخمة لها هى كمبوديا ولبنان وأفغانستان وسريلانكا تباعا ومع ذلك فلم تجن ثمرة كفاحها ! ولو أخفقت قوة صغيرة تحارب بعيدا عن أراضيها لكان أمرا مقبولا ، أما الفشل فى القضاء على تمرد يقع فى التخوم فقد يكون له عواقب وخيمة ، حيث قد يؤدى السخط الى تعبئة النفوس وتحفيز الهمم مما ينجم عنه انتشار القتال على الحدود ، ومن ثم فلم يكن بعد المسافات هو الذى منع القوى الاستعمارية القديمة من الابقاء على امبراطورياتها ، بل ان بعد المسافات هو الذى وقاها من أن تنتقل النزاعات المحدودة الى أراضيها ومن احتمال تعرضها لحروب أهلية نتيجة لذلك • ولو لم يكن البحر المتوسط موجودا ويفصل بين الجزائر وفرنسا لتمنى الفرنسيون وجوده ، لا سيما بعدما تبين من حقائق تتعلق بمنظمة الجيش السرى وبثورة الجنرالات فيما بين ١٩٥٨ و ١٩٦٢ •

ولو عدنا الى القوات الأمريكية فى فيتنام ، فسوف نجد أن مهمتها كانت فى الواقع واضحة بدرجة كافية وتتمثل فى قتل الشيوعيين والفيتكونج وجنود فيتنام الشمالية حتى آخر رجل • ولم يحدث فى الواقع أن حشدت الولايات المتحدة قبل ذلك كل مواردها على هذا النحو ، ولولا أنها تذرعت بأن هذه التعبئة ضرورية لتحقيق النصر لما وافق الرأى العام الأمريكى أصلا على خوض هذه الحرب ، فلقد فاقت الموارد التى خصصها لها ليندون جونسون كل المقاييس على مر التاريخ ، حتى انه من العسير أن يفكر أحد فيما كان يمكن أن تفعله الولايات المتحدة أكثر من ذلك لتحقيق النصر ، فلقد أرسلت « الأفضل والألمع » من عقولها الى الغابات أو استرشدت بنصائحهم وخبراتهم عن كيفية الفوز فى الحرب ، واستخدمت أحدث التكنولوجيات ومنها ما لم يشهده أى مسرح عمليات آخر فى التاريخ، مثل أقمار الاتصالات والقنابل المضيئة التى يمكنها انارة مناطق الهبوط والابرار فى الغابات وتمت تجربة كل نظم الأسلحة التى تحتويها الترسانة الأمريكية حتى لو لم يكن بها حاجة لذلك ، وغالبا ما كان ذلك بلا طائل •

وقد يكون الأمريكيون قد نالوا من اقتصاد فيتنام الشمالية أكثر ما نالوا بتدمير السدود الواقعة بالقرب من هانوى،غير أن ذلك جعل الاتحاد السوفيتى يمد الفيتناميين بالأغذية علاوة على الأسلحة ، وعلى أى الأحوال فلم يؤد تدمير السدود بالقنابل الى اذلال ذلك البلد واخضاعه • وربما كان بوسع القوات الأمريكية غزو الشمال (مثلما غزت بالفعل

كمبوديا ولاوس) غير أن كل ما كانت ستجنيه من ذلك هو مزيد من الغابات التى تمشطها ، ومزيد من البحث عن رجال حرب العصابات وسط هذه الغابات لتقتلهم ، وربما كان بوسع هذه القوات اخلاء كل الريف الجنوبى من سكانه بدلا من اخلاء جزء منه فقط ، وربما كان بوسعها أخيرا الأخذ بمشورة بعض المتهورين باستخدام الأسلحة النووية لمسح هانوى ـ وكثير غيرها ـ من على وجه الأرض ، صحيح ان ذلك قد يكفل لها النصر فى الحرب ، لكنه نصر ثمنه خطير ، فان انتهاك المحظور يشكل بالنسبة للآخرين رخصة لاستخدام نفس الأسلحة ضد الولايات المتحدة ٠

ويتفاخر الغرب بأنه يأخذ فى حسبانه الاعتبارات الانسانية فى ممارسته للحرب ، سواء فى عقر داره أو بعيدا عنه ، وان كانت النوايا فى مثل هذا الادعاء موضع شك ٠ وأيا كان الأمر ، فانه يمكن فى أفضل الأحوال القول بطرف اللسان ان من الوجوه التى تأثرت بالدوافع الانسانية وجه الرئيس السورى حافظ الأسد ٠ أما السوفيت فى أفغانستان (شأنهم فى ذلك شأن سلفهم المصريين فى اليمن) فقد استخدموا كل أنواع الأسلحة بما فيها الغاز ، وقد شن الفيتناميون فى كمبوديا حربا بيولوجية استخدموا فيها مادة زودهم بها الاتحاد السوفيتى يطلق عليها « المطر الأصفر » ٠

وفى الوقت الذى وقعت فيه تلك الأحداث كانت تلك البلدان المعنية تخضع لحكم شمولى دكتاتورى لا يسمح فيه الحكام لمواطنيهم بانتقاد أساليبهم فى ممارسة الحرب ، ناهيك عن منع حركات الاعتصام وضربها ومصادرة الحريات ٠ وبديهى أن هؤلاء الحكام وكل من حاولوا التصرف على مستوى النزاعات المحدودة كانوا لا يتورعون عن استخدام كل وسائل القمع والارهاب ٠ ولقد كانت هناك حالات بدءا من الجزائر وحتى أفغانستان بلغت فيها عمليات القمع درجة تقترب بها من حد الابادة الجماعية ، ورغم ذلك كان حسم مثل تلك النزاعات أمرا بعيد المنال ٠

وفى الواقع ، ثمة أسباب عسكرية بحتة تفسر لماذا صارت القوات النظامية الحديثة عديمة الجدوى ولا تصلح للقتال فى هذا النوع من المعارك الذى يتجه سريعا لأن يصبح الشكل السائد للحروب المعاصرة ٠ وربما كان فى مقدمة هذه الأسباب ضرورة التفكير فى التكنولوجيا التى تستخدمها هذه القوات ، حيث أصبحت الشئون الادارية من خدمات وصيانة تقتضى أن يكون عدد القوات فى « المؤخرة » ضخما لخدمة عدد محدود من « الأسنان » المقاتلة ٠ فعلى سبيل المثال ما كان أحد يتخيل مهما بلغ

به من تشاؤم ان القوات الأمريكية وجيش جمهورية فيتنام كانت أثناء الحرب تفوق كثيرا فى عددها القوات التى تواجهها من الفيتكونج وفيتنام الشمالية • ويعزى ذلك الى ان ما يربو على ثلاثة أرباع القوات الأمريكية على وجه الخصوص كان مكلفا بعدد ضخم من الخدمات غير القتالية من حراسة الى شتى أنواع الشئون الادارية • أما فى المكان الحاسم ، فى مسرح العمليات ، فى الغابات كان عدد « كتائب المناورة » متساويا على الجانبين •

وتتسم القوات المسلحة الحديثة ، التى مازال تشكيلها يقوم على أساس الحرب التقليدية ، بطول هياكلها القيادية وببطء اجراءات التحضير للمعركة ، ويقول أحد المصادر ان القوات الأمريكية فى فيتنام كانت تحتاج التنبيه قبل موعد المهمة المخططة بـ٢٤ ساعة لتجهيز الذخيرة الخاصة بها ، وقد تكون هذه حالة متطرفة ولكنها ليست فريدة • وسواء فى الغابات الفيتنامية أو الجبال الأفغانية أو فى القرى اللبنانية المغلقة والمكتظة بالسكان، فان القوات المترجلة كانت على المستوى التكتيكى ديناميكية بنفس قدر قوات العدو الميكانيكية ، بل كانت تتميز بحسن استغلال أرض المعركة حتى ان القوات التقليدية غالبا ما كانت اما تقف عاجزة عن التحرك أو تدمر • أما رجال حرب العصابات ، الذين يحسنون المراوغة والمناورة فلم يكونوا يتعرضون لخسائر جسيمة الا فى الحالات التى يقررون فيها القتال بالمواجهة ، ولكنهم عادة ما كانوا ينقضون على اعدائهم كأسراب بعوض يلدغون ويفرون تاركين القوات التقليدية فى حالة تخبط وتعثر ويدفعها الغضب الأجوف الى الضرب الأعمى فتدمر المناطق المحيطة بها ونفسها : لقد أصبح هذا النوع من القوات لا يتلاءم مع شكل الحرب فى العصر الحالى تماما مثلما كان دون كيشوت بالنسبة لحروب عصره •

وثمة باب خاص فى سجل اخفاق القوات التقليدية مخصص لنظم الأسلحة • لقد كانت الحروب على مدى الجانب الأكبر من التاريخ تقوم أساسا على أسلحة يحملها ويستخدمها ويقتل بها أفراد من الجنود ، وقد يزيد عيار تلك الأسلحة أو يقل (فقد كتب نابليون ذات مرة ان المدفعية هى أساس الحرب) • ولقد بلغ تأثير تلك الأسلحة ذروته على الأرجح فى منتصف القرن التاسع عشر ، فى ميادين الحرب الأهلية الأمريكية والحرب النمساوية البروسية المعروفة أيضا باسم « حرب مدافع الابرة » • ومنذ ذلك الحين بدأ دور هذه الأسلحة يتضاءل ، حتى أصبحت تشكل اليوم نسبة محدودة من القوة النارية للقوات المسلحة ومازالت تتناقص : أما النسبة الأكبر من قوة النيران فقد صارت توفرها نظم أسلحة مميكنة تقوم بتشغيلها

أطقم فنية وذات معدلات نيران عالية تعوض الى حد ما ارتفاع ثمنها ، وتصل هذه المعدلات فى بعض الأحيان الى ستة آلاف طلقة فى الدقيقة • وتتسم بعض هذه الأسلحة بدرجة دقة بالغة حتى انها لتستخدم لتدمير صواريخ محلقة فى الجو ، ويتسم البعض الآخر بطاقة تدميرية جبارة بحيث يمكنها نسف أى شيء متحرك وتحويله الى فتات ، بما فى ذلك الدبابات متعددة الدروع المركبة والتى يصل وزنها الى ٦٠ طنا ، وبعض نظم الأسلحة هذه يحلق بضعف سرعة الصوت والبعض الآخر يمكنه اصابة أهداف تبعد عشرات ، بل مئات الأميال • وفى ظل مثل هذه السرعات وهذه المسافات ، لا يرى عادة الطيارون وأطقم التشغيل العدو مباشرة ولكن يتم رصد الأهداف بالرادارات فتظهر على هيئة نقط ضوئية تومض على شاشات اشعاعية ، وتتبعها وتتحكم فى نظم الأسلحة المتعاملة معها أجهزة الكترونية بالغة التطور •

وهكذا أضبحت كل الأسلحة الحديثة ، من طائرات وهليكوبتر وسفن ودبابات وأسلحة مضادة للدبابات ومدفعية وصواريخ على اختلاف أنواعها ، تعتمد على الالكترونيات لدرجة أن أصبح هذا الاعتماد فى حد ذاته أفضل مؤشر على مدى تطور المعدة • غير أن أجهزة الحس الالكترونية والكمبيوترات المتصلة بها شديدة التأثر بالبيئة والتداخلات البيئية ، فهى تعمل بشكل طيب مادام الوسط بسيطا كالهواء أو البحر أو الأراضى المفتوحة والصحارى ، ولكن كلما كان الجو المحيط « مركبا » زادت مشاكل هذه الأجهزة • وبعض أجهزة الحس لا تفرق بين الصديق والعدو الا اذا « تعاون » الهدف نفسه بأن يرسل اشارة متفقا عليها لو كان صديقا ! وقد تجلى الخطأ فى هذه الأجهزة فى عام ١٩٧٣ عندما أسقط السوريون عددا من طائراتهم وتكرر مثل ذلك الحادث فى عام ١٩٨٨ حين أسقطت طائرة ركاب ايرانية فى الخليج الفارسى • وعلاوة على الخلل الذى يصيب برامج الكمبيوتر نتيجة أى نوع من الشوشرة ، فان هذه الأجهزة لا تعالج المعلومات الواردة اليها من أجهزة الحس وتستخرج رد الفعل الملائم الا بناء على ما ورد بشكل صريح ومباشر فى البرامج المخزنة مسبقا ، أى انه ليست ثمة حرية حركة خارج البرامج وخبرة المبرمجين • ومن عيوب البيئة المركبة انها تتسبب فى التقاط الأجهزة اشارات خاطئة فيكون رد الفعل اما اصدار اشارات تحذير مضللة أو عدم اصدار أى شيء على الاطلاق وقد يكون ذلك فى وقت حرج •

ومن ناحية أخرى ، فما أن تعرف أسس تشغيل مثل تلك الأجهزة والمبادىء العلمية التى تقوم عليها حتى يسهل محاكاتها أو التشويش عليها

أو تحميلها بأحمال زائدة مما يصيبها الأعطال ، وكل ما يحتاجه مثل هذا النشاط المعادى هو جهاز مماثل يتم تعديله بحيث يؤدى عملا معاكسا . فعندما بدأ الايرانيون ، على سبيل المثال ، استخدام صواريخ أرض أرض لتدمير المنشـــآت البترولية فى دول الخليج تم على وجه السرعة ضبط وتشغيل أجهزة تسببت فى تغيير مسار تلك الصواريخ ، لتعود من حيث أتت وتسقط على سقالات خشبية مبنية على الشواطىء الايرانية ، وليس بالأمر العســير تركيب جهاز يصدر اشارات صــوتية تحمل « بصمة » الغواصة بينما لا توجد فى الواقع أية غواصات (وربما كان الســونار الحقيقي أسهل فى اكتشافه ولكنه غير قابل للرصد الا من مسافات أطول كثيرا) ، وربما أدى شرك مضىء لا يزيد ثمنه على بضعة دولارات الى تضليل صاروخ مضاد للطائرات يعمل بالحس الحرارى ليسقط على سبيل المثال فى مرتع للاوز البرى فتضيع بذلك مئات الألوف من الدولارات . ومثل هذه الأساليب كثيرة ولا حصر لها ولا تحتاج بنية تكنولوجية بالغة التطور ولذلك فهى فى نطاق قدرة البلدان ذات المستوى التكنولوجى المتواضـــع .

وتفسر هذه العوامل نجاح القوات الأمريكية المتكرر ــ وهى رائدة فى هذا المجال ــ فى اسقاط الطائرات الميج الليبية فوق خليج سرت ، كما أنها تفسر فى الوقت ذاته لماذا أخفقت نفس هذه القوات فى تحقيق انجاز ملموس سواء فى الغابات الفيتنامية ، أو حتى على مستوى أقل من ذلك بكثير فى الجبال المحيطة ببيروت . وقد تجرعت من نفس الكأس اسرائيل ، وهى تناطح أمريكا فى المجــال الالكترونى ، حيث ســاعدها التنسيق بين نظام الانذار المبكر والســيطرة والمركبات ذات التحكم عن بعد والقاذفات المقاتلة والصواريخ وشبكة المعلومات المبرمجة التى تربط بين كل هذه النظم فى تحقيق معجزات عام ١٩٨٢ ضد ما شكلته لها القوات الجوية السورية ووسائل دفاعها الجوى من أهداف سهلة واضحة محددة المعالم . وكانت الفرصة مهيأة لأن تحقق القوات الجوية الاسرائيلية سيطرة كاملة على الاجواء ، ومع ذلك ، وخلافا لما حدث فى عام ١٩٦٧ (بل وفى ١٩٧٣) كانت مساهمتها فى تحقيــق النصر فى المعركة البرية ضعيفة للغاية . وبالمثل فرغم ان الدبابات الاسرائيلية المشتركة فى غزو لبنان عام ١٩٨٢ كانت أحدث ما نزل ميادين القتال فى العالم ، فانها لم تكن ذات فائدة كبيرة عندما انتقلت المعركة الى المناطق السكنية المكتظة .

ونتيجة لما تقدم فقد تنقلب الحجة الى عكسها . فقد صارت الأسلحة الحديثة باهظة التكاليف وسريعة ومختلطة وضخمة وذات حرية حركة

محدودة وذات طاقة عالية تتجاوز الظروف البيئية للحرب المعاصرة ثم هي تتجه الى الأفول ، ليعود الانسان ليكون هو سيد المعركة ٠

ولا يأتي تطور الأسلحة من فراغ ، فاذا كانت الأسلحة تساعد على توجيه الأفكار فيما يتعلق بطبيعة الحرب وأسلوب ممارستها ، فانها هي نفسها وليدة مثل تلك الأفكار ٠ وينطبق نفس الشيء ، بل وبدرجة أكبر ، على المؤسسات العسكرية ـ أي القوات المسلحة وهيئات الأركان ووزارات الدفاع ـ التي تنتج هذه الأسلحة وتنشرها وتستخدمها ٠

وتقوم فكرتي الأساسية على ان القـوات المسلحة الحديثة ، بكل ما وصلت اليه من تطور وقوة ، أصبحت بالفعل لا تتلاءم بدرجة كبيرة مع الحرب الحديثة ، بل ان درجة مواءمتها لتلك الحرب تتناسب عكسيا مع درجة تطورها ٠ ولو سلمنا بذلك فينبغي اذن البحث عن الأسباب ، وليكن البحث على مسـتوى المفاهيم ذاتها التي يطرحها الفكر الاستراتيجي الحـديث ٠

الباب الثانى :

من الذى يخوض الحرب

* العالم الكلاوزيفيتسى :

يطلق اسم العالم الكلاوزيفيتسى تخليدا لاسم كارل فيليب فون كلاوزيفيتس وهو ضابط بروسى ولد فى عام ١٧٨٠ وتوفى فى ١٨٣١ ، وقد دخل الجيش وهو فى الثانية عشرة من عمره كمرشح للتأهيل ضابطا ، واشترك فى حملة ١٧٩٣ ، ثم التحق فيما بعد بأكاديمية الحرب ببرلين حيث تجلت قدراته العقلية الفذة • وبعد أن عين ضابطا معاونا للأمير أوجوست أمير بروسيا اشترك فى حملة جينا المريرة فى عام ١٨٠٦ حيث تم أسره ، وعقب اطلاق سراحه خدم فى هيئة الأركان البروسية بعد أن أعاد جيرهارد فون شارنهورست تشكيلها • وقد اشترك كلاوزيفيتس فى عملية اعادة تشكيل الجيش ، وفى نفس الوقت كان يتولى التعليم العسكرى لأميرى بروسيا اللذين أصبحا فيما بعد فردريك وليم الرابع ووليم الأول • وقد استاء كثيرا - شأنه فى ذلك شأن العديد من أقرانه - لقرار الملك فردريك وليم الثالث الانضمام الى نابليون فى حربه ضد روسيا فى عام ١٨٦٢ ، حيث التحق على ما أطلق عليه آنذاك الفيلق الألمانى وكان يضم عددا كبيرا من الضباط المناهضين لفرنسا ، واستمر فى ذلك الموقع طوال الحملة الروسية • وبعد توقيع معاهدة السلام فى توروجن فى ١٨١٣ عاد الى الخدمة فى بلاده ، ثم رقى الى منصب رئيس أركان أحد الجيوش وشهد حروب التحرير المندلعة فيما بين ١٨١٣ و ١٨١٥ •

وبعد عودة السلام حجبت الحكومة البروسية عن كلاوزيفيتس - ضمن مجموعة قدامى المصلحين العسكريين - الثقة باعتباره من المتمردين • ورغم انه رقى الى رتبة الجنرال فانه لم يسمح له أبدا بتحقيق مطمعه فى تولى منصب قائد قوات ، وقد عين بدلا من ذلك مديرا اداريا لأكاديمية كريجز ، وهو منصب بلا عمل يذكر ودون مستواه ، ولم يكن أمامه الا التوجه للكتابة فكرس وقته لها ، وكان يعمل صباحا فى غرفة الرسم الخاصة بزوجته • ولم تفلح كل محاولاته المتكررة للانتقال الى منصب

عسكرى آخر أو حتى الى منصب دبلوماسى ـ حيث تردد فى وقت من الأوقات انه سيتولى سفارة بلاده فى لندن • وفى عام ١٨٣١ عين كلاوزيفتيس بعد طول انتظار رئيسا لأركان الجيش البروسى الذى كان قد تم نشره لمراقبة التمرد البولندى ضد روسيا ، فجمع أوراقه وانتقل من برلين الى سيليزيا ، واثر وفاة قائده الموقر الجنرال أوجست فون جنيزنو خلفه كلاوزيفيتس ، الا انه لم يشغل منصبه الجديد الا لبضعة أيام حيث وصل جنرال آخر من برلين ليحل محله ، فخر صريعا للمرض الى ان واتته المنية • وقد تضاربت الأقوال بشأن سبب الوفاة ، فمن قائل انه الاصابة بالكوليرا ومن قائل انه أزمة قلبية •

وقد امتدت كتابات كلاوزيفيتس على مدى ثلاثين عاما تقريبا وشملت الفن والتعليم والفلسفة والسياسة ، فضلا عن التاريخ العسكرى والنظريات الحربية • ومن أبرز كتاباته تحفته الرائعة « عن الحرب » وهو كتاب أمضى فيه كلاوزيفيتس ١٢ عاما وتوفى قبل أن يكمله فتولت زوجته وشقيقها نشره • وفى البداية لم يلق الكتاب رواجا سريعا ، ولكن بحلول عام ١٩٦٠ أصبح من المراجع الكلاسيكية • وقد تأكدت أهمية الكتاب عندما وصفه مولتكى ـ فى أعقاب الانتصارات البروسية فى ١٨٦٦و١٨٧٠ ـ ٧١ ، بقوله : « انه أهم الأعمال العسكرية التى أثرت على فكرى » ، وأشاد به انجلز بقوله : « انه أسلوب غريب فى الفلسفة ، ولكنه جيد جدا فيما يتعلق بالموضوع فى حد ذاته » ، كما قرأه ماركس ، وعلق عليه لينين بملاحظات كتبها على هوامش صفحاته أثناء اقامته فى زيوريخ ، أما هتلر فيقال انه كان يستشهد به « بالياردة » ، كما ان ايزنهاور لم يدعه من يده طوال مدة وجوده فى كلية الحرب الأمريكية • ويعتبر كتاب « عن الحرب » أهم الأعمال التى كتبت فى تاريخ الحضارة الغربية عن الحرب والاستراتيجيات •

ويحتل كلاوزيفيتس مكانة ينفرد بها بين المفكرين العسكريين • فما من مؤلف آخر ، وربما باستثناء الكاتب الصينى القديم صن تزو ، كان له مثل هذا التأثير ، وما زال كتابه يشكل حتى اليوم حجر الزاوية للفكر الاستراتيجى الحديث • ولعل أفضل ما يبرز عظمته أنه يعد واحدا من المفكرين العسكريين القلائل الذين يشاد بهم على جانبى ما عرف حتى وقت قريب بالستار الحديدى ، فها هو يلقى كل تقدير فى الديمقراطيتين الألمانيتين ، وهو الذى جمع من الأسباب ما جعله فى وقت من الأوقات نموذجا للرجل العسكرى البروسى • وقد ترجمت أعماله الى العديد من اللغات منها العبرية والاندونيسية • وقد شهدت دراسات كلاوزيفيتس

على مدى العقد الأخير بعثا جديدا فى الولايات المتحدة بعد أن نشرت ترجمة رائعة لكتاب « عن الحرب » قام بها مايكل هوارد وبيتر باريت ، كما خصصت كلية الحرب الوطنية بواشنطن ميدالية باسم كلاوزيفيتس تمنحها كل عام لأفضل معلم ، أما كلية الحرب الأمريكية بكارلايل باراكس فهى تعرض تمثالا نصفيا له ، رغم أن كل ما هو معروف عن شكل كلاوزيفيتس مستمد من صورة وحيدة مرسومة له (بغض النظر عن اصطباغ وجهه دائما باللون الأحمر نتيجة الغضب من الحملة الروسية) ، وبالتالى ربما كان التمثـــال مســـتوحى من الخيال بقـدر أكبر من الصـورة المحفورة على الميداليـــة ٠

* الحرب الثالوثية :

ولكى نقف على مدى اسهام كلاوزيفيتس فى فهم الحرب ونقدر عمله ينبغى أن نتناول الكتاب من منظوره الصحيح وهو منظور نسجته حركة النهضة الفلسفية الأوروبية وعصر الحكمة ٠ ويتسم كتاب «عن الحرب» بأنه ذو طابع استنتاجى فى المقـام الأول ، أى أنه ينطلق من المبـــادىء الأساسية المتمثلة فى طبيعة الحرب وأهدافها ويتدرج شيئا فشيئا صوب المسألة الرئيسية : ما هو الأسلوب الأمثل لادارة النزاعات المسلحة ؟ وازاء هذا الاسلوب الذى يعتمد على البداهة والمنطق فى تناول المسألة يتقلص دور التاريخ العسكرى حيث لم يستخدم الا كمصدر للأمثلة (ومنها ما يرجع الى تواريخ بعيدة) أو كنوع من الربط حتى لا تبعد النظريات كثيرا عن الواقع ، وعلى أية حال لم يكن ثمة اهتمام كبير بالماضى ٠ ولم ينس كلاوزيفيتس مطلقا فى هذا الكتاب انه جندى عملى ـ وان لم يخل فكره من نزعة فلسفية ـ يكتب لافادة جنود عمليين آخرين ٠ وهذا يعنى ، على حد قوله ، ان الاهتمام بالتاريخ ينبغى أن يولى فى المقام الأول للتاريخ القريب ، فالتاريخ القريب وحده هو الذى يتماثل مع الحاضر ، وبالتالى يمكن أن نستخلص منه العبرة التى تنفع وتتلاءم مع الحاضر ٠

ولكن الى أى مدى يمكن اعتبار التاريخ « حديثا » أو قريبا ؟ هذا سؤال شغل بال كلاوزيفيتس وان لم يورد له اجابة محددة ، وعلى أى الأحوال فقد كرس الجانب الأكبر من كتاباته المطولة عن التاريخ العسكرى على القرن الثامن عشر وحرب السبع سنوات ونابليون علاوة على بعض الأحداث التى سبقت ذلك التاريخ حتى عهد جوستاف أدولفوس وتورين فى القرن السابع عشر ٠ ويطرح كلاوزيفتيس فى كتابه عدة احتمالات تصلح كل منها لأن تكون نقطة انطلاق ، ومنها عام ١٧٤٠ الذى شهد اندلاع الحرب السيليزية الأولى وهى أول نزاع يقوده فريدريك الأكبر ، ومنها عام

١٧٠٣ وهو العام الذى شهد اندلاع حرب الخلافة الاسبانية وهى أول حرب تدور بدون ذلك السلاح القديم المتمثل فى الرمح · غير ان كتاب « عن الحرب » يعد عملا أعمق من أن يقاس بمثل هذه التقنيات ، فمن أهم ما عالجه كلاوزيفيتس فيه أن الحرب تعد نشاطا اجتماعيا ، وبالتالى فان الذى يحكم الحرب ويحدد معالمها هو العلاقات الاجتماعية - أى المجتمع الذى يخوضها ونوعية الحكومة التى يقبل ذلك المجتمع أن تسوسه · وكان الشكل السائد للحكومة فى عهد كلاوزيفيتس ، ومن ثم فى المستقبل حسب وجهة نظره ، هو الدولة ، ولذلك لم يجد ما يستحق أن يجرى بشأنه دراسة تفصيلية لتلك الفترة من التاريخ التى سبقت هيمنة الدولة ، أى ما سبق ابرام معاهدة وستفاليا للسلام فى عام ١٦٤٨ ، ولذلك لم يرد ذكر مثل تلك الفترات الا من قبيل اظهار مدى اختلافها عن التاريخ القريب ·

ويرتبط سجل كلاوزيفيتس العسكرى نفسه بالموضوع الذى يتناوله فى كتابه ، فقد بدأت حياته العسكرية أثناء حرب التحالف الأولى وانتهت تقريبا مع حرب ووترلو · ولقد دفعه حبه الجارف لبلده ومقته « لبونابارت » لأن يشارك بشكل فعال فى هذه الأحداث (وان كان لا يرى هو نفسه أنه شارك فيها بقدر كاف) · ولا يمكن فهم فكر كلاوزيفيتس بشكل شامل الا من خلال الخلفية التى نسجتها التغيرات التاريخية الهائلة التى جرت أمام ناظريه ، ومن ثم فهو يمثل بالتأكيد فى جانب من جوانبه محاولة لفهم هذه التغيرات وتفسيرها · ولم يكن هذا ، فى تقديره ، بمجال لتناول حرب الثورة الفرنسية والحرب النابليونية بالمناقشة والتحليل ، وهو موضوع أثار جدلا محموما حتى بعد تكشف أحداثه · وقد اكتفى بالاشارة الى أن الفترة ما بين ١٧٩٣ و ١٨١٥ شهدت اندلاع شكل جديد من الحرب أسفر عن سحق النظام القديم · ومع تتابع الأحداث تغيرت الأمور تماما وشهد تخطيط النزاعات المسلحة واستراتيجياتها وأساليب قيادتها - وما تلك الا بعض خصائص الحروب - تحولا يفوق الادراك · وأهم من ذلك ، فقد اتسع نطاق الحرب بشكل مذهل وقفزت الطاقات الحربية المستخدمة فيها قفزة هائلة ·

ولو انتقلنا بالسؤال من كيف كانت تدار الحرب الى من الذى يخوض الحرب ؟ أو ما هى العلاقات الاجتماعية التى كانت وراء الحرب - اذا شئنا استخدام اصطلاح كلاوزيفيتس - فسنجد أنه رغم قسوة هذه السنين وضراوتها لم يتغير الأمر كثيرا ، فباستثناء فترة الحماس الثورى الوجيزة التى شهدتها التسعينات من ذلك القرن ، بقيت الحرب شيئا تقوم به دولة ضد أخرى ، فلم تكن الشعوب أو جيوشها هى التى تقرر شن الحروب سواء قبل عام ١٧٨٩ أو بعده ولكن كان ذلك من شأن

الحكومات ، وعندما يسكت القول وينتهى العمل تظل الحكومة على حالها بلا تغير يذكر حتى فى طابعها • فما كاد نابليون على سبيل المثال يمسك زمام الأمور فى يده حتى تصرف كأحسن ما يكون عليه الملك فى زمانه ، حيث تزوج فى أكبر القصــور وعين الكثير من الأمراء والأدواق ، (وكان يتحدث عن الحرب ضد بروسيا بوصفها من « شئونه » ويصف كبار قادته بأنهم « أولاد عمومته » • وأيا كانت أوجه الاختلاف بين الحكومة والدولة ، فكلتاهما كيانان مصطنعان لا يتماثلان لا مع شخصيات الحكام ولا مع الشعوب التى تدعيان تمثيلهـا • وكانت النظرية التى يؤمن بها كلاوزيفيتس فى معظم الأحيان ان أى عمل عنف منظم لا يسمى « حربا » الا اذا شنته دولة لمصلحة الدولة وضد دولة ، وكان ذلك أيضا هو فكر معاصريه حتى من هو أكثرهم ميلا للسلام مثل « ايمانويل كانت » الذى أوضح رأيه هذا فى كتابه المعنون « مشروع من أجل احلال سلام دائم » •

ومن المفارقات أن ما يشهد بشدة على مدى تطابق الحرب مع الدولة هو تلك الحالات التى كانت تحاول فيها كيانات غير حكومية شن حرب بمبادرة ذاتية دون تلقى أوامر عليـا ، وليست هذه بحالات نادرة حتى فى القرن الثامن عشر « المتحضر » ، فأثناء الحروب التوسعية التى قادها الملك لويس الرابـع عشر لجأ السافوايار ــ وهم شـعب متخلف يقطن الجبال بين فرنسا وايطاليا ــ الى استخدام العنف لمنع الجيش من الاستيلاء على جيادهم (ولا نقول نسـائهم) ، كما ان سكان مقاطعـة البلاطينية الألمانية التى كانت هدفا محببا آخر للغزوات الفرنسية ، أحيانا ما كانت تأخذهم « الوقاحة » فيرمون قوات الاحتلال بطلقات قدرية !! وكشأن كل الغزاة كان رد فعل الفرنسيين على مثل هذه الحروب « غير الرسمية » هو القتل والحرق والسلب والنهب بلا هوادة حتى تتحول مقاطعات بأكملها الى صحراء ثم يسمون ذلك سلاما !

ولما شرع القانون الدولى فى العصر الحديث وأدان الاعتداء على أراضى الغير كان بمثابة تأييد للعمليات الانتقامية • ولقد اعتبر ذلك من قبيل العدل فى نظر امريك فاتيل القــاضى السويسرى العظيم الذى اشتهر بانســانيته وكانت أعماله بمثابة نبراس ظل الناس يهتدون به الى أن اندلعت الحرب الأهلية الأمريكية • وكان فاتيل يرى فى كتاباته ، التى ألفها فى الخمسينات من القرن الثامن عشر ، أن الحرب مسـألة تخص الأمراء وحدهم ، وكانت تعرف بأنها وسيلة يلجأون اليها لفرض تميزهم اذا لم يجدوا عنها بديلا • ومن المفروض ان هؤلاء الأمراء كانوا يحرصون فى خططهم الحربية على اقلال حجم الخسائر الى الحد الأدنى ، سواء تلك التى تصيب جنودهم ــ الذين يستحقون أن يلقوا معاملة انســانية اذا

أصيبوا أو وقعوا فى الأسر ــ أو التى يتعرض لها السكان المدنيون ، وفى المقابل لم يكن من حق هؤلاء السكان على الاطلاق التدخل فى النزاعات التى تنشب بين أمرائهم حتى لو أدت الى تعريض ممتلكاتهم للنهب والسرقة وحياتهم للخطر • ولم يكن فاتيل ساذجا أو مجنونا حين كان آخر من استنكر هذه الحرب ويشهد بذلك العديد من مؤلفاته • وكان لابد حتى ذلك الحين من التمييز بأى ثمن بين العسكريين والمدنيين • وما أن انهار ذلك التمييز حتى غرقت أوروبا فى حرب الثلاثين عاما بكل بربريتها •

وعندما ظهر رجال حرب العصابات الأسبان بعد عام ١٨٠٨ وبدأوا يقاومون طغيان نابليون ، كان الناس فى جانب كبير من أوروبا يتابعون الموقف فى ترقب مشحون بالأمل ، وهب ثوار فى روسيا وألمانيا كل يقاتل من أجل حرية بلاده ويحقق النجاح بدرجات متفاوتة • أما ما يهمنا فى هذا المجال فهو ان ظهور رجال حرب العصابات فى أى من هذه الحالات كان كفيلا باثارة شكوك السلطات والفئات التى تناصرها • ولا شك أن ثمة أسبابا عديدة لذلك منها ما هو سياسى ومنها ما هو ذو طابع اجتماعى اقتصادى ، فليس من المتوقع أن يبدى القيصر ونبلاؤه تعاطفا مع حركة تضع البنادق على أكتاف العبيد وتعلمهم كيف يقاتلون • وأحس الملك البروسى انه سيخسر كل شىء بأيدى الشعب لو تسلح•وقد انتصر رد فعل الدولة فى هذين البلدين بسهولة نسبية ، أما فى أسبانيا فقد استغرقت عملية اعادة الشعب الى حظائره نحو عشرين عاما شهدت سلسلة كاملة من الحروب الأهلية • وبينما أسفرت هذه المواقف عن قمع الدولة لرجال حرب العصابات والقضاء عليهم قضاء مبرما ، فانها ، ومن منطلق قيامها بدرجة ما على مصلحة الطبقة العليا من المجتمع ، قد ترسخت فى نفس الوقت مع الطابع القانونى العسكرى السائد نظريا فى المجتمع • أما الثورة الشعبية ، فمهما اعتبرت نافعة ووطنية بل وبطولية ، فانها لم تنبع من الأفكار التقليدية مثل : من الذى يحق له خوض الحرب وما هى أهدافها ؟

واذا كانت الحكومات فى هذا العصر هى التى كانت تصنع الحروب فان أداتها فى ذلك هى الجيوش • ورغم أن طرق تشكيل الجيوش قد طرأ عليهـا بعض التغيرات ، الا أن طابعها الأساسى لم يتغير لا بالثورة الفرنسية ولا بالحروب التى تلتها • وكانت الجيوش تعرف بأنها تنظيمات تخدم الحكومة سواء أكانت ملكية أم جمهورية أم امبراطورية • وتتكون الجيوش من جنود ، وهم أشـــخاص يلحقون بهذه التنظيمات فى بداية خدمتهم ثم يسرحون منها فى نهايتها • وكان الاتصال بين الجنود والمدنيين غير محبذ بصفة عامة ، فكان يتم على سبيل المثال تجنيد الأجانب ونقل القوات من مقاطعة الى أخرى فضلا عن ارغام الشعب على المعاونة فى القبض

على الهاربين من الخدمة • وكان للعسكريين عادات خاصة بهم مثل التدريب وأداء التحية علاوة على المبارزة والمراسم العسكرية بالنسبة للضباط ، وهم يقسمون على اطاعة قوانينهم الخاصة ويرتدون زيا مميزا • وبانتهاء حرب الخلافة النمساوية فى ١٧٤٨ كان هناك اتجاه متنام لايوائهم فى أماكن وحداتهم أو ما يسمى بالثكنات ، كما أنهم كانوا يتعلمون التصرف والوقوف والسير بطريقة مختلفة عن سائر البشر وهو تقليد مستمر حتى اليوم •

ولقد تأسست أول جيوش عاملة فى أوروبا وسط حالة من الاضطرابات العدائية،واستخدمت كأداة خاصة مدفوعة الأجر تحت تصرف الملوك من مثل شارل الثالث ملك فرنسا • وهذا يعنى أن الجيوش عادة ما كانت تستخدم لأغراض نعتبرها اليوم غير عسكرية مثل أعمال الادارة والسهر على تنفيذ القانون والنظام وجباية الضرائب • غير ان هذه الأعمال بدأت تتقلص مع أفول القرن الثامن عشر • ومن بين الأسباب التى بعثت على هذا التغيير نزوح الشعب من الريف الى الحضر وما صاحب ذلك من نبذ للأسلحة ، فما من أحد بصفة عامة يحب أن يحتفظ بسلاح فى بيته • وثمة سبب آخر يتمثل فى اتساع نطاق الخدمات المدنية بما فيها قوات الشرطة ومصلحة الضرائب (وقد كانت انجلترا أول بلد يفرض ضريبة ثابتة على الدخل وكان ذلك فى ١٧٩٩) • أما السبب الأخير فهو ظهور الحرفية العسكرية التى أملتها الفكرة القائلة بأن الحرب أصبحت تمثل فنا وعلما ينبغى ألا يمارسه سوى أناس متخصصين • وبانقضاء عام ١٨١٥ برزت فكرة الجيش غير المسيس ، أى الجيش الذى يمنع فى ظل الظروف العادية من ممارسة أية أنشطة غير تلك المتعلقة بخوض الحرب ضد القوى المعادية • ومن المفارقات ان ذلك قد طبق حتى عندما كان معظم الجنود من المدنيين الذين يقضون فترة التجنيد الالزامى مثل حالتى الجيش الفرنسى والبروسى فيما بعد •

ويقول كلاوزيفيتس فى كتابه « عن الحرب » ان الشعوب هى العنصر الحيوى الثالث فى أية حرب • وكان القضاة العسكريون فيما بين ١٦٤٨ و١٧٨٩ متفقين على انه بما أن الحرب مسألة تخص الدولة ، فلابد من أبعاد الشعب عنها بقدر المستطاع • وكان ذلك الفكر مطبقا لدرجة ان الشعب كان ممنوعا من المشاركة بأى دور فعال فى المعارك ، ويوضح ذلك أيضا أن أبناء ذلك العصر لم يكن يخطر ببالهم عند الحديث عن حروب « صغيرة » ان الأمر يتعلق بعمليات يشنها رجال حرب العصابات ولكن كل ما كانوا يفكرون فيه هو انها مجرد عدائيات تقوم بها قوات خفيفة ، مثل الكروات النمساويين ، تعمل خارج الاطار الرئيسى للجيش • ونتيجة لذلك ظهرت

فكرة « المدنيين » • وكان كل ما يطلبه الملوك من أمثال لويس الخامس عشر وفريديريك الثاني وماريا تيريزا من المدنيين ـ سواء الموالين أو المعادين لهم ـ هو سهولة الانقياد ، أى ينبغي عليهم دفع الضرائب للحكومة التى تحتل الاقليم الذى يعيشون فيه أيا كانت هذه الحكومة ولا شيء بعد ذلك الا البقاء بعيدا عن الأحداث بلا أحقاد أو ضغائن ولا تهليل ولا مرارة فى الحلق ! ويؤيد ذلك ما أعلنه حاكم برلين بعد هزيمة جينا من أن الملك قد خسر معركة وواجب المواطنين الأول هو التزام الهدوء •

وازاء تحطم الجيش الملكى القديم أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية فى عام ١٧٩٣ أمرا « مستديما » بتجنيد كل أفراد الشعب للخدمة الوطنية سواء أكانوا رجالا أم نساء ، أطفالا أم شيوخاً • وفى مواجهة هذا الجيش الجرار الجديد الذى أسفرت عنه التعبئة العامة فى فرنسـا ، اضطرت الدول الأخرى أن تحذو حذوها بدرجة أو بأخرى • وحتى الدول الرجعية مثل النمسا وبروسيا وروسيا فقد انضـمت فى وقت لاحق من القرن التاسع عشر الى هذه الموجة الوطنية•وبدأت تلك الدول بأن دعت شعوبها الى ابداء روح المشاركة الوطنية ، ثم اتسع مجال الدعوة ليشمل الاسهام بممتلكاتهم بل وبأرواحهم فى المجهود الحربى ، وشملت التعبئة التعليم والفن والوعظ الدينى وكافة أنواع الدعاية • وكان على الشعب فى كل بلد أن يؤمن بأن دولته دولة كبرى وقوية ، وهى دائما على حق ولا تقع فى الخطأ مطلقا • ومع ذلك فينبغى عدم المبالغة فى تقدير حجم التغيير • وقد يقول ساخر انه اذا كان معظم المثقفين قبل عام ١٧٨٩ متفقين على أن الحرب تقوم على حساب الشعوب ، فانها أصبحت بعد هذا التاريخ تندلع من أجل تحقيق مصلحتهم • وأيا كان الأمر ، فان « ثالوث » كلاوزيفيتس المتمثل فى الشعب والجيش والحكومة ، هذا الثالوث الذى تقوم به الحرب أو لا تقوم ، لم يتغير باندلاع الثورة •

ولقد عززت سنوات الردة ، التى أعقبت مؤتمر فينيا (١٨١٤ ـ ١٥) ، الفكرة القـائلة بأن شن الحرب هو أمـر من اختصاص الدولة وحدها • وتلك كانت فترة أدت فيها بوادر الثورة الصناعية الوليدة الى اندلاع اضطرابات وقلاقل اجتماعية • وكان الشبح المخيم دائما والمنذر باندلاع ثورة فرنسية ثانية ، ثم الضجر الشديد من الحروب يدللان على ان معظم الأمراء الأوروبيين يخشون شعوبهم أكثر من خشيتهم بعضهم البعض ، ولذلك فقد كان آخر شيء يفكرون فيه هو تسليح الشعب ، بل انهم على العكس من ذلك ، فقد حاولوا سحب الأسلحة الموجودة أصلا مع الناس • ومن أبرز الأمثلة على مثل هذه الاشتباكات ما جرى فى بروسيا حيث استعان الملك بجيشه النظامي لحل الحرس المدنى المشكل فى معظمه

من أبناء الطبقة الوسطى ، والذى لم تعد هناك حاجة اليه بعدما نفى نابليون فى سانت هيلينا • ومن منطلق ان الجيوش أصبحت تمثل الملاذ الأخير لقمع الثورات — على حد تعبير الملك فريديريك ويلهلم الرابع عاهل بروسـيا — فقد ازداد الاتجاه الى تعميق طابع الحرفية العسـكرية فى الجيوش النظامية • وقد وضعت بعض البلدان نظاما للتجنيد يسـمح للموسرين بشراء البدلاء فضمنت بذلك سحب القاعدة العريضة من الجنود من الطبقات الدنيا ، كما استمرت عملية عزل المجندين تماما عن المجتمع ، بل بلغ الأمر فى فرنسا تحت قيادة الملك لويس فيليب أن صدرت الأوامر بارتداء الجنود لحى مستعارة وأن تكون سوداء اللون ليسهل تمييزهم •

وقد بلغ الاهتمام بمثل هذه الأفكار ان أبرمت سلسلة كاملة من الاتفاقيات الدولية لتنظيمها الى أن تحولت الى قانون فعلى • وقد عقدت معظم هذه الاتفاقيات فيما بين معركة سولفرينو فى عام ١٨٥٩ ومؤتمر هيج Hague الثانى المنعقد فى ١٩٠٧ • وللتمييز بين الحرب والجرائم العادية عرف ذلك القانون الحرب بأنها عمل لا تقوم به الا دول ذات سيادة • أما الجنود فهم أفراد مرخص لهم بالاشتراك فى أعمال العنف المسـلح لحساب الدولة • ولمنع أى لبس صدرت تعليمات تقضى بمنع ما جرى عليه العرف قديما باصدار خطابات تفويض من قبل الحكومة للقراصنة بشن هجمات على السفن والاستيلاء عليها • ولابد لاصدار تراخيص الجنود من تسجيلهم بدقة وتمييزهم بعلامات خاصة وفرض السيطرة عليهم • وتنص التعليمات على وجوب ارتداء الجنود زيهم الرسمى أثناء القتال ، وأن يحملوا أسلحتهم بشكل « ظاهر » وأن يطيعوا الأوامر الصادرة اليهم من شخص يتولى قيادتهم وتقع على عاتقه مسئولية أعمالهم • ويحظر القانون أن يلجأ الجنود الى الأساليب « الخسيسة » كانتهاك هدنة أو العودة لحمل السـلاح بعد التعرض للاصـابة أو الأسر وما شابه ذلك من أعمال • أما السكان المدنيون فان « الضرورة العسـكرية » تقتضى ألا يكون لهم دخل بالقتال ، واذا انتهك أحدهم القـانون واشترك فى أعمال العنف المسلح دون الحصول على ترخيص مسبق فعليه أن يتحمل تبعة ذلك ، وقد يتعرض لعمل انتقامى لو وقع فى الأسر • وفى ظل الثورة الأسبانية ضد نابليون قام الفنان جويا بتصوير المصائر المحتملة لمن يخالف التعليمات وذلك فى سلسلة من الرسومات أسماها « فظائع الحرب » •

ولم تكن الشعوب غير الأوروبية تعرف معنى الدولة وتقسيماتهـا الفاصلة بين حكومة وجيش وشعب • ولذلك ، وسواء أكان الأمر مقصودا أم غير مقصود ، كان من نتائج هذه الاتفاقيات أن اعتبر تلقائيا أبناء هذه الشعوب عصابات من اللصوص ، وأية محاولة من جانبهم لحمل السلاح

تعد خروجا على القانون ، وانفتح بذلك الباب على مصراعيه أمام شتى أنواع الفظاعات الوحشية • ومن هذا المنطلق تصرفت القوات الأوروبية فى مستعمراتها كما لو كانت فى رحلات صيد وليس فى حرب ، فكانت تذبح السكان كما لو كانوا أبقارا ونادرا ما كانت تحمل نفسها عناء التمييز بين قادة أو محاربين ، نساء أو أطفال • ولم تسلم بلدان العالم « المتحضر » من مثل هذه التجاوزات : ويعد احراق شيرمان لكل ما صادفه وهو فى طريقه عبر جورجيا فى عام ١٨٦٤ ، مثلا ما زال عالقا حتى الآن بذاكرة أبناء أمريكا الجنوبية • وبعد أن هزم الألمان الجيش الفرنسى فى ١٨٧٠ عانوا أشد المعاناة من القناصة ومن ثم اتخذوا تدابير ضارية للقضاء عليهم • ومع ذلك فقد كانت أوجه الاختلاف واضحة وفائقة فى حالة العالم « المتحضر » • وقد شهدت الفترة من ١٨٥٤ الى ١٩١٤ سلسلة كاملة من الحروب « الحكومية » التى نشبت كل منها لتحقيق غرض محدد من قبيل احتلال اقليم أو مساعدة حليف أو ـ كما كان الأمر فى حالة بروسيا والنمسا ـ تقرير من يسود ألمانيا • وعلى عكس ما توحى به الأمور ، فقد كان أبرز مثال هو ما جرى فى الولايات المتحدة ، حيث اعتبرت الحرب الأهلية على الصعيد الرسمى تمردا ، ومع ذلك قضى النص الأمريكى فى القانون الدولى (قانون ليبر على نحو ما يسمى تكريما لصائغه فرانسيس ليبر) باعتبار تلك الحرب بمثابة نزاع دولى وبمعاملة المتمردين كطرف فى هذا النزاع •

خلاصة القول ان أفكار كلاوزيفيتس عن الحرب كانت قائمة بشكل مطلق على حقيقة تاريخية مفادها أن الجانب الأعظم من الحروب التى اندلعت منذ عام ١٦٤٨ شنتها دول • ولقد ثبت ان هذه الأفكار تتطابق بشكل أعمق مع أحداث القرن التاسع عشر ، باستثناء الفترة الوجيزة التى شهدت بعض الحماس الثورى وبعض عمليات رجال العصابات • وتتسم هذه الفترة بأن الفصل بين الحكومة والجيش والشعب فى كل بلد صار لأسباب عديدة أكثر صرامة ، ومن ثم شهد عاما ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ نهاية الثورات المسلحة • وكان العنف السياسى داخل الدولة أو الولاية مقصورا الى حد بعيد على الفوضويين وهو لفظ يتحدث عن نفسه • ولعل أهم ما فى الأمر ان الدولة كدولة حققت هدفها واحتكرت القوة المسلحة • ولم يمض وقت طويل حتى تم تنظيم ذلك الاحتكار ووضعه فى صورة قانون دولى رسمى • وكم هو راسخ ذلك المذهب الثالوثى حتى فى يومنا هذا لدرجة انه جرت العادة على اطلاق صفات من قبيل « الشاملة » ، « المدنية » ، « الاستعمارية » أو « الشعبية » على تلك الحالات التى لا ينطبق عليها ذلك المذهب أو ينطبق عليها بالكاد ، وهى تمثل النسبة الغالبة من النزاعات • غير أن وجود مثل هذه الحالات فى حد ذاتها يدلل على أن

ثالوث الحكومة ــ الجيش ــ الشعب ليس بالضرورة أفضل السبل لأن نفهم الحرب « غير المتحضرة » أو الحروب الكبرى المندلعة فى القرن العشرين ، بل ان ذلك المذهب ينطبق بشكل أفضل على تلك الفترات التى تراءى لكلاوزيفيتس أنها لا تستحق أن يتناولها بالتفصيل ، وان كانت هذه الفترات تمثل الجانب الأكبر من التاريخ ٠

* الحرب الشـــاملة :

كان كولمار فون درجولتز هو أول من طرح فكرة أن الحرب الثالوثية لن تكون بالضرورة هى موجة المستقبل وحاول أن يحدد ركائز مثل ذلك الاحتمال ٠ وكان فون درجولتز ضابطا وكاتبا ألمانيا ، وكان مرشحا لأن يرقى الى رتبة المارشال ٠ وكان أثناء الحرب العالمية الأولى قد تولى قيادة قوات ألمانية فى الشرق الأوسط وكانت المهمة المنوط بها هى غزو مصر غير أنه توفى قبل أن ينجزها ٠ وقد قيل على الصعيد الرسمى انه توفى اثر اصابته بالتيفود ، غير أنه تردد فى الأوساط غير الرسمية أنه ربما يكون قد مات مسموما ٠ وكان فون درجولتز قد ألف وهو برتبة الميجور كتابا فى عام ١٨٨٣ بعنوان : «الأمة تحمل السلاح» وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة الانجليزية بعد ذلك بثلاثين عاما ٠ ولم يكن الكتاب موجها أو ينطوى على حرب كلامية ضد أفكار كلاوزيفيتس ، فقد كان فون درجولتز ، شأنه فى ذلك شأن معظم زملائه من الضباط ، يعتبر نفسه من تلامذة الأستاذ وكثيرا ما كان يمتدحه وان لم يخل الأمر من بعض الرياء ٠ وقد نال كتاب « الأمة تحمل السلاح » قسطا وافرا من النجاح من منطلق تأييده لفكرة كلاوزيفيتس الراسخة باعتبار الحرب قتالا لا قيد على العنف فيه ٠

أما النقطة التى اختلف فيها فون درجولتز مع كلاوزيفيتس فى كتابه « عن الحرب » فهى على وجه التحديد النقطة التى تهمنا فى هذا المقام ٠ وأيا كانت درجة الأهمية التى أولاها كلاوزيفيتس للتغييرات التى ترتبت على الثورة الفرنسية ، فقد كان يرى فى نهاية المطاف أن الحرب شيء تصنعه الجيوش ٠ وربما كان هذا الرأى سديدا فى عصره ، ولكن بحلول النصف الثانى من القرن الـ١٩ بدأ يفقد رجاحته نتيجة ما طرأ من تطورات على الأصعدة الاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية ٠ وفى هذا الاطار ، فقد فرض ابتكار السكة الحديد والبرق ، اللذين لم يمتد العمر بكلاوزيفيتس ليراهما ، تحديات كبرى وشكلا منذ الأربعينات من ذلك القرن نقطة تحول لكل مظاهر الحياة ٠ وفيما يتعلق باستخدام هاتين المعدتين فى الحرب ، لم يصل أحد الى أبعد مما وصل اليه الألمان فى هذا المجال ، فقد وضعت السكة الحديد والبرق فى أعوام ١٨٦٤ و ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ــ ١٩٧١ تحت سيطرة هيئة

الأركان البروسية • وقد أتاح التخطيط الدقيق والاعداد المنظم تحقيق درجة عالية من الفعالية لم يسبق لها مثيل ، حتى انها وفرت ميزة ضخمة ووضعا عسكريا أفضل كثيرا حتى قبل اطلاق الرصاصة الأولى • ويقول فون در جولتز فى كتابه ان ما ثبت من امكان تكامل التكنولوجيا الحديثة مع موارد بلدان بأكملها يبعث على استنتاج أن الحروب فى المستقبل ، لن تكون على النحو الذى تخوضها به الجيوش بالمفهوم التقليدى • وصار واضحا ان الخطب الحماسية التى كانت تطنطن فى عام ١٧٩٤ يمكن الآن ان تتحول الى حقيقة ، فالأمة بأسرها مطالبة بأن تنضوى تحت اللواء وترتدى زى الميدان وتحمل السلاح ثم تنقض على العدو •

وتتعلق نقطة الخلاف الثانية بين كتابى « الأمة تحمل السلاح » و « عن الحرب » بالمسألة المتلاطمة المتمثلة فى العلاقة بين السياسة والحرب على مستوى القمة • وقد ناقش كلاوزيفيتس نفسه هذه المسألة بنوع من الاسهاب ، وانتهى الى أن المهام المدنية والمهام العسكرية تتحققان بقدر أكبر من التركيز لو كانتا فى يد رجل واحد ، ومرة أخرى قد يكون هذا الحل مناسبا لعصره ، غير ان ما آل اليه نابليون يجعل المرء يتشكك حتى فى ذلك الحل • وفى أواخر التسعينات بدت تلك النظرية وقد عفا عليها الزمن ، فعلى الصعيد العسكرى ، اتسع نطاق الحرب وازدادت تعقيدا بدرجة جعلت من الصعب أن يديرها الحاكم بنفسه الى جانب أعبائه الأخرى ، ولم يعد ثمة مجال الا لأن يديرها قائد مخلص ومتفرغ ومحنك ويعاونه جهاز ملائم يكون رهن اشارته • وعلى الجانب الآخر فقد مضى الوقت الذى يمكن أن يدير فيه شئون الدولة حاكم / قائد بأسلوب التفرغ الجزئى نتيجة انشغاله فى ميدان المعركة بعيدا عن العاصمة لأسابيع أو شهور • ولقد برزت تلك المسألة بشكل جلى فى صراع القوى الذى اندلع فى ١٨٧٠ — ٧١ بين مولتكى وبسمارك ، حيث صار واضحا أنه اذا خضعت الحرب للسياسة فلابد أنها ستخضع أيضا للساسة •

ولقد كان هذا هو المفهوم الذى ثار ضده فون درجولتز ومعظم أقرانه • فقد كان يرى — شأنه فى ذلك شأن كل العسكريين المعاصرين وليس الألمان فقط — أن الحرب هى أخطر وأكبر وربما أعظم حدث على الأرض ، الحرب هى الاسلوب الذى يعمل به الله اختياره فيما بين الشعوب ، بهذا المنظور تصبح الحرب عملا أهم بكثير من أن يترك فى أيدى « المدنيين الحمقى » (على حد تعبير القيصر) • ومن ثم فان فترة الحرب هى الوقت الملائم الذى لابد فيه من وضع الساسة فى أماكنهم ، وأيضا البرجوازية التجارية والصناعية التى عمد أبناؤها فى هذه السنين على وجه التحديد الى استخدام « عضلاتهم » الاقتصادية لمحاربة الوضع

الاجتماعي لفئة الضباط · وربما كان من شأن الحرب ـ على نحو ما كان يتمنى الكثيرون ـ أن « تعيد القيم التقليدية » الى المجتمع ، ولذلك يتعين أن يكون القائد الأعلى هو الامبراطور بزيه البراق الملفت وليس واحدا من الساسة ذوى القبعات والمعاطف السوداء ·

ولقد كانت تلك المذاهب ، عندما طرحت لأول مرة ، تفوق أحلام العسكريين أنفسهم ، لكنها لم تتحول الى حقيقة الا بنشوب الحرب العالمية الأولى ، وهى أول حرب « شاملة » فى التاريخ الحديث · وقد بدأت تلك الحرب مثل أية مرة سابقة « بنزاع حكومى » محدود ذى أهداف محددة ، وما كانت أزمة سراييفو الا أزمة عادية مثل سابقاتها ، فقد سبق ان حدثت أزمة فى المغرب فى عام ١٩٠٤ ، ثم واحدة فى البوسنة فى ١٩٠٩ وأخرى فى المغرب مرة ثانية فى ١٩١١ وكلها وجدت سبيلها الى الحل وانتهت · وحتى هذه المأساة التى انطلقت شرارتها فى يونيو ١٩١٤ ، لم تكن تتسم فى بدايتها بالخطورة حتى ان القيصر رفض قطع أجازته التى كان يقضيها فى بحر البلطيق · غير أن النمسا ، وقد استشاطت غضبا لمقتل الأرشيدوق كارل ، كانت تريد هذه المرة سحق صربيا ، فاستنجد الصرب بروسيا ، وقرر الألمان تلقين روسيا درسا ، أما فرنسا فقد وجدتها فرصة لاستعادة منطقة الالزاس / لورين · وحتى ايطاليا عندما دخلت الحرب فى ١٩١٥ فقد اشتركت فيها بعد عقد اتفاقية رسمية مع الحلف تحدد كم ستحصل عليه وأى الاقاليم ستنضم اليها ثمنا لمساعدتها · وكانت الجماهير فى كل بلد تهتف وتهلل لنزول الفرق المتناحرة الى ميدان القتال كل بزيه وهيئته المميزة ··· كان الناس يعتقدون ان الحرب لن تطول وان الانتصارات ستتحقق قبل أعياد الميلاد ·

غير أن الأمور سرعان ما تبدلت · ولم تسفر المعارك الأولية عن نتائج حاسمة ولكنها أدت بدلا من ذلك الى سقوط تلال من القتلى والجرحى · وكان لابد من دعم الجيوش بتعبئة كل الأفراد العسكريين من جميع الأعمار · ثم جاء الدور على المدنيين فتمت تعبئة كل من يمكن تجنيده من الجنسين ودفع بهم الى المصانع التى تنتج احتياجات المجهود الحربى ـ هذا الكم الضخم من العتاد والامدادات التى تحتاجها القوات المسلحة الحديثة لتبقى وتقاتل · واستتبع ذلك تعبئة شتى أنواع الموارد من زراعة ومواد خام ونقل ومالية ومواهب علمية وتقنية · وقد شكلت هذه الظروف ضربة قاضية مفاجئة لمذهب القرن التاسع عشر الذى يعتمد على الجانب الاقتصادى فى تصريف الأمور ، والذى كانت معالمه قد بدأت تتضح قبل الحرب · ولم يمض وقت طويل حتى بدأت الحكومات المختلفة تضع أيديها على أى شىء يمكن أن يمت بصلة للمجهود الحربى ، وامتد التأثير ليشمل

حالة الناس الصحية وظروفهم المعيشية وكمية السعرات الحرارية التى يتناولونها وأجورهم وتأهيلهم المهنى وحرية حركتهم ... الى آخره .

وللاشراف على هذا الحجم الهائل من التعبئة أنشئت هياكل بيروقراطية ضخمة بسرعة فائقة كأنها السحر . وما لبثت الهيئات التى أسسها والتر راتنو وديفيد لويد جورج وفى وقت لاحق برنار باروش أن وقفت على أقدامها واكتسبت ثقلها وأنفقت الأموال والتهمت الموارد بدرجة ما كان أحد يتوقعها مطلقا قبل الحرب . وكلما زاد حجم التعبئة واتسع نطاقها اشتد وطيس المعارك ، وبحلول عام ١٩١٨ كان الاستهلاك اليومى من الذخيرة للقوات المسلحة المنتصرة قد بلغ خمسين مثل الاستهلاك فى عام ١٩١٤ ، وينسحب ذلك التصعيد بالطبع على المؤشرات الأخرى . وكلما تصاعدت حدة القتال وامتدت الحرب زاد الضغط على النظم الاجتماعية بأكملها لتنضم الى المجهود الحربى حتى بدت فى تلاحمها وكأنها فى عناق فتاك . وبحلول عام ١٩١٦ كانت الحرب قد بلغت حدا من الضراوة بحيث أصبحت كوحش كاسر ، حتى ان أعتى رجال الدولة وأكثرهم فدائية وجدوا أنفسهم عاجزين عن الفكاك منه . وبدلا من أن تكون الحرب أداة « فى يد » الدولة أصبحت أداة تهدد بالقضاء على الشعب والاقتصاد والسياسة والحكومة وكل شىء .

وكان الضابط أركان حرب الألمانى اريك لودندورف واحدا من أبرز من بذلوا العطاء من أجل انهاء هذا الوضع . وقد أحرز لودندورف أول انتصاراته فى لييج عام ١٩١٤ ، ثم انتقل فى وقت لاحق ليخدم على الجبهة الشرقية حيث كان العقل المفكر وراء الانتصارات المجيدة فى كل من تاننبورج والبحيرات المازورية . وعندما عين قائده الفيلد مارشال بول فون هيندنبورج رئيسا لأركان الجيش فى يوليو ١٩١٦ ، انتقل معه وتولى منصب مدير الادارة العامة للامداد والتموين ، فأصبح بذلك دكتاتورا عسكريا غير متوج . واستغل منصبه وأخذ يعبىء كل موارد البلد ويوسع من نطاق الحرب ويصعد حدتها ، بدرجة غطت على كل الانجازات الكبرى التى تحققت من قبل فى عامى ١٩١٤ و ١٩١٥ . وفى مطلع صيف ١٩١٨ كان لودندورف قد هزم روسيا وشن سلسلة من الهجمات الكاسحة على الجبهة الغربية وصار على أعتاب تحقيق الانتصار الشامل فى الحرب . وعندما تخلى الحظ عن ألمانيا فى وقت لاحق من العام نفسه انهار لودندورف وترك بلاده بدون قائد . وبعد الحرب ارتبط بصفة مؤقتة مع هتلر ثم أنشأ بعد ذلك بمساعدة زوجته الثانية دارا للنشر متخصصة فى المنشورات المعادية للسامية .

وكان آخر كتاب ألفه لودندورف بعنوان « الحرب الشاملة » ونشر في عام ١٩٣٦ ، وقد حاول في هذا الكتاب تلخيص تجاربه وشرح الأخطاء التي وقع فيها • وكان محور الكتاب مبنيا على هجوم سافر على كلاوزيفيتس وعلى تعريفه للحرب بأنها مكملة للسياسة ، ذلك التعريف الذي قال لودندورف انه يريد أن « يطيح به بكل شدة » ، فالظروف الحديثة تحتم أن تكون السياسة هي المتممة للحرب وليس العكس ، لا سيما بعد أن صارت الحرب صراعا قوميا من أجل البقاء • ويزخر كتاب « الحرب الشاملة » بالشكوى من الناس ومن المؤسسات التي يقول المؤلف انها أعاقته ومنعت توجيه كل الموارد الألمانية للمجهود الحربي • وشمل هجومه شتى الولايات التي تتألف منها الامبراطورية الألمانية ، كما ندد بالأحزاب ونقابات العمال ورجال الصناعة وبارونات الاعلام ، حتى المستشار نفسه لم يسلم من النقد ، فقد صور كل هؤلاء على انهم وقفوا في طريقه وغلبوا بأنانيتهم مصالحهم الشخصية على مصلحة البلد •

ويقدر ما يعد كتاب « الحرب الشاملة » ملخصا للحرب السابقة فقد كان بمثابة برنامج عمل للحرب القادمة • وحتى لا يتكرر مثل هذا الوضع السابق ، ومن أجل بلوغ أقصى قدر من الكفاءة ، طالب لودندورف بالتخلي عن عادة التمييز بين الحكومة والجيش والشعب ، فلابد أن يكون البلد كله ، عسكريون وغير عسكريين ، رجاله ونساؤه وأطفاله عبارة عن جيش ضخم ، كل يخدم في موقعه ، وعلى رأس هذه المنظومة لابد من وجود قائد عسكري ذي سلطة مطلقة ــ وهو يقصد بذلك بالطبع ذات شخصه ــ بما في ذلك الحق في تجاوز السلطة القضائية واعدام من يرى انه يعوق المجهود الحربي من أفراد المجتمع • ولعل أقصى ما وصل اليه المؤلف من تطرف هو ان مثل هذا النظام لابد ألا يقتصر على زمن الحرب ، فلقد بلغ من اتساع نطاق النزاعات المسلحة الحديثة ومن طول فترة الاعداد لها ما يقتضي ان تستمر هذه الدكتاتورية العسكرية على الدوام •

وتعد آراء لودندورف متطرفة بلا جدال ، ولا عجب فهي تمثل قمة العسكرية الألمانية • ورغم ذلك فقد تأصلت تلك الآراء واستشرت حتى أصبحت عند منعطف القرن تشكل مدرسة غريبة في التفكير • وكان منهج هذه المدرسة ان « الكفاءة » هي أعظم انجاز للانسان ، ومن ثم لابد من البحث عن شتى السبل التي من شأنها ان توجه الهياكل الاجتماعية لتحقيقها • وأهم من ذلك ــ بالنسبة لما نرمي اليه في هذا الموضوع ــ ان آراء لودندورف سرعان ما تحولت الى واقع مروع ، فقد أدى اندلاع الحرب العالمية الثانية الى اخراج مخططات التعبئة القديمة من الأدراج ونفض

الغبار عنها ، وشمل ذلك بلدان مثل هولندا لم تكن قد شاركت فى الحرب الأولى ، ولكنها وقفت من خلال تلك التجربة المريرة على حجم المشاكل الاقتصادية الناجمة عن الحرب • وللمرة الثانية على مدى ربع قرن استخدم أطراف النزاع كل طاقاتهم ، ولكنهم استخدموها فى هذه المرة بقدر وبدرجة من القسوة والغلظة لو شهدها لودندورف نفسه لامتقع وشحب لونه ، ولكنه كان قد مات فى ١٩٣٧ •

ومع استمرار التعبئة ، وتحول النزاع الى حرب شاملة انقسم أداء الحكومة الى شقين وامتزج الجانب الأهم من مهامها مع الحرب • ومن أفضل ما يصور الأداء الحكومى فى هذه الفترة هو سجل المهندس المعمارى الألمانى ألبرت سبير الذى درس الادارة ثم عين وزيرا للتسليح،وهو منصب لم يكن له وجود قبل عام ١٩٣٩ • وبحلول عام ١٩٤٣ كان سبير قد ارتقى الى أن صار الرجل الثانى بلا منازع بعد هتلر فى الرايخ الألمانى • وقد كانت له نظريا ـ وأيضا على الصعيد العملى الى حد كبير ـ سلطة مطلقة فيما يتعلق بمن ينتج ماذا وبأية وسيلة وبأية مواد خام وبأية تكاليف • وبالنظر الى حجم الأموال التى كانت تحت يده والعمالة التى كانت تحت سيطرته ـ زهاء عشرين مليون شخص ـ فقد غطى سبير تماما على أى وزير آخر • ويقول سبير نفسه متفاخرا فى مذكراته ان حتى الجنرالات من كبار قادة القوات المسلحة كانوا بالنسبة له بعيدين تماما عن الترشيح للسلطة • وقد بلغ من سطوة سبير أن أطاح بهيرمان جورينج ، الرجل الذى ظل لفترة طويلة فى موقع القيادة الثانى بعد هتلر ، بل انه زج بهيملر الرهيب فى صراع بشأن عمالة العبيد •

ولم تكن الأمور فى حقيقة الأمر مختلفة كثيرا فى جانب الحلفاء ، فلقد كان أسلوب ستالين فى التعبئة بنفس شدة أسلوب هتلر ، وكان الاعدام الفورى بالرصاص مصير أى عامل روسى يبدى أى اعتراض • غير ان الأمر لم يصل الى مثل هذا الحد فى كل من بريطانيا والولايات المتحدة ، بسبب التقاليد الديمقراطية السائدة فى البلدين فضلا عن الظروف الجغرافية التى سهلت لهما الوضع نسبيا • ومع ذلك فقد فرضتا العديد من القيود على الحريات الشخصية من أجل دعم التعبئة حيث ان حجم مجهودهما الحربى كان رغم كل شىء كبيرا •

واذا كان شق من الحكومة قد انصهر مع الحرب ، فان الشق الذى لم تكن له صلة مباشرة قوية بمجرياتها قد انكمش اما بسبب العجز أو لتناقص أهميته بالنسبة للحرب • وربما كانت الجهات المالية هى الأكثر تأثرا بهذا الوضع • وكانت تلك الجهات قبل الحرب تطبق على رقاب

الحكومات فتعرقل برامج التسليح بما لها من نفوذ • ولما زاد الانفاق وتقلص الدخل ذهبت تلك الاعتبارات أدراج الريح وتغير تماما معنى المال • واقتصرت المهمة الرئيسية لوزارة المالية على مجرد طبع النقود ومراقبة توزيعها حتى جاء وقت فى بريطانيا ، على سبيل المثال ، لم يكن فيه وزير الخزانة حتى عضوا فى وزارة الحرب • وحدث نفس الشيء لمن كانوا مسئولين فى وقت السلم عن الشئون الخارجية لبلادهم ، فعندما أعلن هتلر فى عام ١٩٤١ عن عزمه شن حرب ابادة ضد الاتحاد السوفيتى ، أصبحت السياسة الخارجية الألمانية شبه معدومة ، حيث انكمشت الى مجرد محاولة تجنيد الأقلية المحايدة ، ثم فى وقت لاحق محاولة منعهم من الانضمام الى الحلفاء • وعندما أعلن تشرشل وروزفلت عن هدفهما بأن تستسلم ألمانيا بدون قيد أو شرط كان ذلك بمثابة دفع السياسة بالمعنى المفهوم للكلمة الى المرتبة الثانية من الأهمية • والواقع ان الأرض التى فقدتها وزارات المالية والخارجية أثناء الحرب لم تعد اليها مطلقا حتى اليوم • فقد فقدت وزارات المالية سيطرتها على المال لدرجة ان الاقتصاد منى بمعدل مستمر من التضخم فى البلدان الأكثر تقدما • أما وزارات الخارجية ، فقد فقدت العديد من مهامها الأصلية التى كانت قد انضمت فى وقت الحرب الى وزارات الدفاع ، وهذا مؤشر آخر على تغير الصلة بين السياسة والحرب •

وأخيرا ، فقد انهارت الفوارق التى كان قد أقامها القانون الدولى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بين الجيش والشعب ، فقد تجاوز العنف المسلح كل الحدود ولم يعد بأية حال مقصورا على المحاربين ، حيث تعرض السكان فى البلدان المحتلة بأوروبا وآسيا لفظاعات وصلت الى حد تجويع عشرات الملايين من البشر حتى الموت • ولم يستسلم الناس لهذا القدر ، وأصبح الاحتلال فى حد ذاته بمثابة طغيان بشع تقاومه الشعوب • وفى أماكن مثل يوغوسلافيا هب الناس مثل أنصار تيتو وهم بلا حكومة أو جيش ، يقاتلون حتى اقتربوا فى أدائهم الحربى من شكل الحرب التقليدية بكل المقاييس • وكان ذلك بلا شك أهم ما جلبته الحرب من تغييرات • وكانت السماء فى ذلك الحين تموج بأسراب القاذفات الثقيلة ، ثم فى وقت لاحق بالقنابل والصواريخ المحلقة فى الجو فى كافة الاتجاهات مستهدفة قتل المدنيين عن عمد بما فيهم النساء والأطفال ، وتعرضت مدن بأكملها للدمار بشكل لم تشهده أوروبا على مدى ثلاثة قرون • وبلغ العنف ذروته فى عام ١٩٤٥ عندما أسقطت قنبلتان نوويتان على اليابان فقتلتا ١٥٠ ألف شخص على التو ، وذلك على الرغم من أن مفاوضات السلام كانت تجرى بالفعل فى موسكو فى ذلك الحين • ولقد بررت

الجهات الرسمية ابادة المدنيين فى معسكر الأعداء بأنهم أناس أشرار مولعون بالاذى ، ولا عجب ، فلابد فى الواقع من نعت المدنيين بالأشرار لايجاد مبرر للقضاء عليهم بالأسلحة التى لا تعرف التمييز ·

وكانت الوفود المجتمعة فى مؤتمر فيينا فى ١٨١٥ قد قامت بمحاولة طيبة لاعادة « النظام القديم » وذلك بالقاء تبعة سنوات الفوضى على عاتق « الغول » ، ويقصد به نابليون شخصيا · كذلك كانت محاكمات مجرمى الحرب ، التى عقدت فى كل من نورمبورج وطوكيو ، تستهدف فى المقام الأول تسوية ما منى به المجتمع الدولى من أضرار نتيجة تحديد أشياء مسموح بها وأخرى غير مسموح بها · وكان تحقيق ذلك الهدف يستوجب أن تنبذ تماما العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والتقنية التى أدت الى انهيار الفوارق الثالوثية التقليدية ، ولكن بدلا من ذلك ألقيت مسئولية ذلك الانهيار على كاهل مجموعة معينة من الناس وهم المهزومون ! وقد قدم زعماؤهم الرئيسيون للمحاكمة وأدينوا وأعدم معظمهم ، كما تم تسريح القوات المسلحة لدى الطرف المهزوم وتشتيت مؤسساته الاقتصادية الرئيسية ومصادرة موارده لدفع التعويضات لمن يرغب فى ذلك من المنتصرين ! وقد أتاحت المحاكمات نفسها بلورة سلسلة جديدة من المفاهيم القانونية مثل « التآمر لتقويض السلام » و « شن حرب استفزازية » وشىء آخر عرف باسم « جرائم الحرب » ، وقد ابتدعها المحامون وأصبحت بشكل أو بآخر جزءا معترفا به فى القانون الدولى ·

وربما شعر ميترنيش وهو ينظر الى الوراء عشية استقالته فى ١٨٤٨ بالرضا ، لما أسفر عنه مؤتمر فيينا من نتائج رغم اندلاع بعض الثورات المحدودة فى هذه الفترة · وبالمثل فان الناظر الى الوراء من آفاق عام ١٩٩٠ يرى أن محاولة اعادة العفريت الى القارورة قد أصابت فيما يبدو بعض النجاح ، فمن الواضح أن من سعوا الى اقامة نظام عالمى جديد بعد الحرب العالمية الثانية قد أدوا عملهم بشكل طيب · وتعزى الأسباب الرئيسية لهذا الوضع الى الرعب المستمر من الارمجدون النووى ، ثم وبلا شك الى الضجر التام من الحروب · وكان من نتيجة ذلك أن لم يحدث حتى اليوم أن اندلعت نزاعات «شاملة» تماثل بأى مقياس من المقاييس نمط الحربين العالميتين · وباستثناء « النزاعات المحدودة » ــ التى تشكل أغلبية كبيرة ولا ترقى الى مستوى الحرب ــ فان القوى العسكرية الرئيسية قد التزمت فى المعتاد بقواعد « اللعبة » فى الحالات التى تورطت فيها فى حروب · وأيا كان ما يقال عن حرب فوكلاند فلم تشهد انتهاكا للتمييز بين الجانب العسكرى والمدنيين ، وبالتالى لم تسفر عن وقوع أية فظائع

على نطاق واسع ، وينسحب نفس الشيء على الحروب العربية الاسرائيلية فيما عدا الأولى منها على الأرجح ، حيث يعتقد ان الأمور كانت ستختلف لو ان النصر كان حليف الطرف الآخر ٠

وعلى أى الأحوال فقد اتضح الأمر ولن ينسى الدرس ، فأيا كان ما ترتب على الحرب الشاملة فمن أهم نتائجها أنها قضت على أية فكرة تقول بأن النزاعات المسلحة ـ لاسيما الحروب واسعة النطاق ـ لابد أن تخضع للمنهج الكلاوزيفيتسى ٠ وعلى الصعيد التاريخى فان الحرب الثالوثية ـ أى الحرب التى تشنها دولة ضد دولة وجيش ضد جيش ـ تعد ظاهرة حديثة نسبيا ، ومن ثم فقد يكون أيضا ما يخفيه المستقبل للبشرية مختلفا تماما عما نشهده اليوم ٠

❊ الحرب اللاثالوثية :

رأينا أن العالم الكلاوزيفيتسى يقوم على افتراض أن الدول فى المقام الأول ـ أو بمعنى أدق الحكومات ـ هى التى تشن الحرب ٠ وتعد الدولة اليوم كيانا مصطنعا : فهى عبارة عن أجهزة مشتركة تتمتع بوجود شرعى مستقل عن الشعب الذى تنتمى اليه والذى تدعى انها تمثله فى تنظيم حياته ، وانطلاقا من هذا المفهوم ـ الذى وعاه كلاوزيفيتس جيدا ـ تعتبر الدولة ابتكارا حديثا ، وعلى العموم فان ظهور الدولة كشكل سائد للتنظيم السياسى يرجع تاريخه ـ حتى فى أوروبا ـ الى معاهدة السلام المبرمة فى وستفاليا فى عام ١٦٤٨ ، ويعد ذلك بالطبع أحد الأسباب التى تدعونا الى اطلاق اسم « العصر الحديث » من قبيل تمييز ذلك التاريخ عما سبقه ٠ علاوة على ذلك ، فان معظم البقاع غير الأوروبية على وجه الأرض لم تعرف ذلك التنظيم المعروف باسم الدولة الا عندما ظهرت عمليات الاستعمار والجلاء عن المستعمرات خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، وذلك يعنى أنه أينما لم تكن هناك « دولة » فان التقسيم الثلاثى الى حكومة وجيش وشعب لم يكن له وجود بالصورة الواردة هنا ، كما انه لا مجال للقول بأن الحكومات فى مثل هذه المجتمعات هى التى كانت تشن الحرب باستخدام الجيوش على حساب ـ أو من أجل مصلحة ـ شعوبها ٠

واذا لم تكن الدولة والجيوش هى التى تصنع الحرب فمن اذن ؟ وتتوقف الاجابة على هذا السؤال على الفترة التى نتحدث عنها ، فلو عدنا بالتاريخ الى الوراء فسوف نجد ان فجر العصر الحديث قد شهد سلسلة من النزاعات التى اندلعت على وجه التحديد ـ الى جانب صور أخرى من الصراعات ـ من أجل تقرير من يجوز له ـ ومن لا يجوز له ـ استخدام

العنف المسلح • غير ان هذه الصراعات لم تسفر عن شيء • ويروى التاريخ ان انجلترا قد غرقت خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى حرب أهلية بين فئة البارونات وبقية الشعب المتفسخ ، وتعرضت فرنسا لنفس المحنة بعد ذلك بقرن من الزمان • أما الـ German Landesfieden فقد كانت تتجه فى عام ١٥٩٥ الى انهاء حرب الكل ضد الكل ولكنها بدلا من ذلك قد مهدت لما هو أسوأ ! واستمر هذا النوع من الصراعات حتى وقت متأخر من ذلك العصر ، فقد اضطر امبراطور هابسبورج فى عام ١٦٣٤ الى تدبير اغتيال «فالنشتاين» أكبر قادة قواته الشخصية خشية أن يستخدم الجيش فى اقامة دولة مستقلة • غير ان الانتصارات المجيدة كانت دائما حليفة كبار الملوك ، حيث كانوا عادة ما يتحالفون مع طبقة البرجوازية ويستغلون ما يحظون به من تفوق فى الموارد المالية فى شراء المدافع التى ينسفون بها المعارضة • وفى فرنسا أخذ الكاردينال ريشليو فى العشرينات من القرن السابع عشر يهاجم قلاع الارستقراطية ويحطمها الواحدة تلو الأخرى ، وفى ذلك مؤشر لما هو آت •

ولقد كان على الممالك قبل اتمام انتصاراتها ان تحارب العديد من المنافسين المناوئين ومنهم طبقة النبلاء مثل الـ Frondeurs الذين أحالوا حياة الملك لويس الثالث عشر فى فرنسا الى جحيم لا يطاق • وقد شنت التكتلات الدينية أيضـا الحروب ، ومنها رابطة الكاثوليك فى فرنسا وخصومهم البروتستانت وقبلهم كان الـ Hussites البوهيميين ، وقد كونت كل من هذه التكتلات تنظيمات عسكرية مكتملة الجوانب ولا ينقصها الا الاسم • وقد شهدت هولندا اعتبارا من الستينات فى القرن السادس عشر حربا شنها المتسولون والدهماء بقيادة بعض النبلاء الساخطين والمتمردين على الملك فيليب الثانى عاهل أسبانيا ، وفى ألمانيا كانت هناك حرب العبيد من الفلاحين فى العشرينات من نفس القرن ضد طبقة البارونات غير انه تم قمعهم بوحشية وسقط عشرات الألوف من الضحايا • وأيا كانت الدوافع وراء كل هذه الصراعات ، سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية أم دينية ، فقد كانت كلها تنتهى بلا طائل • ولما كانت الجيوش فى ذلك العصر تتكون من المرتزقة فقد كانت هناك حشود من السماسرة العسكريين الذين يستغلون هذه الأوضاع لتحقيق مكاسب شخصية • ورغم ان العديد من السماسرة كانوا يتقاضون أجورا زهيدة مقابل ما « يقترفونه » من خدمات للجهات المتعاقدة معهم ، فانهم كانوا يعوضون ذلك بنهب الريف لمصلحتهم الشخصية ، ووصل الأمر الى حد بناء حصون منيعة يحتفظون فيها بحصاد نهيبهم ، بل وبالرهائن الذين يحتجزونهم من أجل الحصول على فدية •

وازاء هذه الظروف فان أوجه التمييز بين الجيـــوش من ناحية والشعوب من ناحية أخرى كانت تتلاشى مهما كانت ضئيلة ٠ وكان المدنيون يتعرضون تحت وطأة الحرب لبشاعات فظيعة ٠ ويقال ان ثلث عدد المواطنين فى ألمانيا لقى حتفه خلال حرب الثلاثين عاما اما بالسيف أو بالجوع أو بالمرض ٠ وكانت الأقاليم والمقاطعات والمدن مهددة بالدمار الوشيك ، فلجأ الناس الى التنظيمات القديمة للدفاع عن الأرض والتى كانت لاتزال موجودة فى بعض الأماكن ، وأحيانا ما كانوا يهبون للدفاع عن أنفسهم سواء باسم سلطة رسمية أو لا ٠ وما أن تندلع أعمال العنف فلا فارق بين هؤلاء وعصابات الوحوش المرتزقة العاملين مع سماسرة الحرب أو جماعات الفلاحين الثائرين ضد أسيادهم من اللوردات أو الخدم والرعاع الذين يقفون وراء نبلائهم المتصارعين ٠ فالكل كان يشارك فى الحرب التى لم تكن هى نفسها تختلف عن أية عمليـات سطو ونهب وقتـل ٠ وعندما كانت سلطة « عامة » تلقى القبض على بعض الناس المتورطين فى مثل هذه الحروب كان يصل الأمر أحيانا الى حد اعدامهم ، ولكن عادة ما كان يعفى عنهم مقابل الانضمام الى قوات الخصم ، وذلك يعنى فى واقع الأمر استمرار هؤلاء الناس فى ممارسة عملياتهم ولكن تحت لواء مختلف ٠

أما الممالك القوية فقد كانت تسعى فى هذه الأثناء الى تكوين جيوش نظامية لتستعين بها فى اخلال النظام وضرب الفوضى ٠ وكانت تنجح أحيانا وتفشل أحيانا ٠ وفى حالات الفشل كان السبب الرئيسى يعزى الى الجانب المادى ، فالجيوش تحتاج تكاليف باهظة سـواء فى تأسيسها أو فى الاحتفاظ بها ، وكانت النتيجة دائما العجز فى دفع الأجور فى مواعيدها ٠ وعندما كانت الأحوال تسوء كانت هذه القوات تتمرد ٠ وقد يصل تمردها الى حد الثورة فينتخبون زعماء لهم ويسقطون ولاءهم للتاج ثم ينقضون على الريف ينهبونه كأية عصـابات أخـرى ٠ ولقـد حدث ذلك حتى لأفضل الجيوش تنظيما فى ذلك الحين وهو الجيش الأسبانى ، فبعد عام من عجز الملك فيليب الثانى عن دفع الأجور فى سنة ١٥٧٥ ، تمرد الجيش وانتشرت القوات فى فوضى تنهب وتسرق وتحرق مدينة انتويرب التجارية الكبرى ٠ واستشرت موجة الخوف مما أطلق عليه فى ذلك الحين « الحقد الأسبانى » ـ وهو لفظ ساخر لأن رجال القوات المسلحة المتمردين كانوا من كل حدب وصوب ـ مما أثر بشكل حاسم على قرار الأقاليم الهولندية الشمالية السبعة بشأن توقيع معاهدة للدفاع المشترك ٠ وهكذا تحول تمرد غير منظم الى صراع بمعنى الكلمة امتد لاثنين وسبعين عاما ولم ينته الا عندما صارت هولندا دولة مستقلة ٠

واذا رجعنا بالتاريخ أكثر الى الوراء وانتقلنا من مطلع العصر الحديث إلى القرون الوسطى فسوف نجد أن التمييز بين الحكومة والجيش والشعب كان شبه معدوم حيث كان النظام الاقطاعى سائدا · وتوحى كلمة «اقطاع» بأن تلك كانت فترة لم تعرف شيئا اسمه السياسة (لم يكن هذا المفهوم قد ابتكر بعد ، حيث يرجع تاريخه للقرن السادس عشر) · وكان هناك ارتباط وثيق بين المركز « السياسى » للفرد ووضعه الاجتماعى لدرجة أن قدرته على ابرام تحالفات وبما كانت فى بعض الحالات ترتهن بعدد ما لديه من بنات فى سن الزواج · وكانت « السياسة » متشابكة مع اعتبارات كثيرة فى مقدمتها الاعتبارات الشرعية ثم العسكرية والاجتماعية والدينية ، وكان النظـام الاقطـاعى ينطوى فى المقام الأول على شبـكة من الحقوق والواجبات المتبادلة · وكانت Witches brew الناجمة عن ذلك النظام مختلفة تماما عما نعرفه اليوم ، حتى ان استخدام كلمة سياسة كان يمكن ان يضر أكثر مما يفيد · وفى إطار المناخ السائد فى القرون الوسطى لم يكن ثمة ذكر لمفهوم الحكومة ، ناهيك عن مفهوم الدولة · وكان المفهومان موجودين ولكنهما كانا لا يزالان فى مهدهما ، وكان استخدامهما يحمل نبرة العودة إلى الماضى كما لو كان الناس يرجعون الى أيام الامبراطورية الرومانية التى كانت بلا شك منبع فكرة الحكومة ·

وفى ظل مثل هذه الظروف فان الحـــديث عن الحرب بالمفهـــوم الكلاوزيفيتسى بوصفها عملية تشنها الدولة لأغراض سياسية يتنافى مع الواقع · فعلى مدى ألف سنة من بعد سقوط روما كانت تتفجر النزاعات المسلحة من جانب شتى الكيانات الاجتمـاعية ، ومنهـا القبائل البربرية والكنيســة وبارونات الاقطاع من كافة الدرجات والمدن الحرة وحتى على المستوى الفردى ، كذلك فان « الجيوش » لم تكن تمت بصلة للشكل الذى نعرفه اليوم ولكن من العسير ايجاد وصف آخر لها ، فقد كان المستخدمون هم الذين يخوضون الحرب فى حشود ويرتدون زيا عســـكريا ويأتمرون بأوامر أربابهم · وقد تغيرت مع الوقت هوية المستخدمين الذين يؤدون الخدمة العسكرية · فعندما تأسس النظام الاقطاعى فى القرن التاسع كان التجنيد للحرب يشمل كل المواطنين الأحرار ، بما فيهم الطبقات الدنيا من الفلاحين الذين كانوا يلبون النداء وهم مسلحون بأية أسلحة لديهم · ولما تضاءل شأن الفلاحين الأحرار وتحولوا الى عبيد للأرض تقدمت عليهم طبقة من الناس عرفت فى البداية باسم bellator أو pugnatore ثم بعد ذلك باسم الفرسان ، واتخذ هؤلاء الناس الحرب مهنة لهم وكانوا يقاتلون وهم على ظهور الجياد ، وبفضل التجهيز الجيد والتدريب أصبح الفرسان متفوقين على المجندين العاديين ، ومع الوقت تقلص دور هؤلاء المجندين تدريجيا الى أن توقف تماما ·

وتبعا للزمان والمكان قد يصبح البعض من الذين حاربوا على ظهور الجياد « أحرارا » بل ومن النبلاء ، بينما يظل آخرون مجرد مستخدمين لدى بعض اللوردات الذين يتكفلون بمأواهم ونفقاتهم · أما الأغلبية فقد كانوا يحصلون على قطعة أرض ويؤدون ضريبة اقطاعياتهم وهى تتمثل عادة فى صورة خدمة عسكرية الزامية لمدة أربعين يوما فى السنة · واعتبارا من القرن الرابع عشر ظهر اتجاه للاستعاضة عن الخدمة العسكرية بدفع الضرائب المالية ـ وهو ما عرف باسم البدلية ـ التى يمكن استخدامها بعد ذلك فى التعاقد مع المرتزقة ·

وفى أواخر القرون الوسطى كانت « الجيوش » ـ أو أيا كان اسم تلك التنظيمات ـ عبارة عن أجهزة صغيرة غير مستديمة لا ترقى حتى الى مستوى لفظ « تنظيم » · ولم يكن أعضاء هذه الأجهزة منفصلين بأية حال عن المجتمع ولكنهم كانوا هم المجتمع ، أو على الأقل كانوا هم وحدهم الذين لهم شأن فيه (باستثناء الكهنة) ، ولم يكن لهم قانون خاص ولكن الشيء المقدس الذى كانوا يدينون له بالولاء هو القانون الاجتماعى (ومرة أخرى باستثناء التشريعات التى كانت تفرضها العقيدة الدينية) · وكان التطابق بين الجيش والمجتمع يمتد حتى ليشمل الزى · وكانت الدروع هى زى الفرسان المميز وبوسعنا اليوم أن نرى فى الكنائس التى كانوا يدفنون فيها بعد مماتهم تماثيل نحاسية وصورا لهم وهم بهذا الزى ·

أما العنصر الثالث فى الحرب الثالوثية الكلاوزيفيتسية والمتمثل فى الشعب ، فلم يكن له أى مكان فى المعادلة لأنه كان مستبعدا من الاشتراك فى الحرب ، بل ان الشريحة الكبرى من هذا الشعب وهم عبيد الأرض لم يكونوا حتى محسوبين من فئات المجتمع · وكان أفراد الطبقة الدنيا من المستخدمين ، الذين هم دون الفرسان ، يشتركون فى الحرب كخدم لأسيادهم : يحملون أمتعتهم ويرعون شئون ويسوسون جيادهم وما الى ذلك · وكان محظورا عليهم حمل السلاح ، وعادة ما كان القتل هو جزاء مخالفة هذا العرف ، وكان ذلك من قبيل السخرية أكثر من العقاب · وكان عدد ضخم من الشعب يشترك في الحرب ولكن كضحايا ! وكانت أبسط طريقة لالحاق الأذى بعدو تتمثل فى الهجوم على عبيده والاستيلاء عليهم وهم مصدر دخله · ومن جهة أخرى لم تكن حماية الشرائح العريضة من الشعب من بين أهداف الحرب الاقطاعية لدرجة أن الحاميات العسكرية فى الحصون المحاصرة كانت عادة تطرد الأفراد غير المقاتلين باعتبارهم أفواها غير مفيدة ، وفى معسكر العدو كان قائد قوات الحصار يرفض مرورهم عبر خطوطه ، وذلك من قبيل ممارسة الضغوط المعنوية على خصمه ، وتكون النتيجة أن يلقى هؤلاء المساكين حتفهم جوعا أو بردا ·

ولما كانت طبقات الشعب العادية لا دخل لها بالحرب ، فلم نعرف الكثير عن آرائهم عنها ، لا سيما وأن الطبقتين العليتين فى المجتمع وهما الارستقراطيون ورجال الكنيسة لم يكونوا يرون فى هذه الآراء ما يستحق تدوينه • ورغم ان ثورة الفلاحين الكبرى التى اندلعت فى فرنسا فى القرن الرابع عشر أسفرت عن سقوط عدد من الضحايا يفوق مثيله فى معظم الحروب المعاصرة ، فانها لم ترق حتى الى مستوى التشريف بحمل اسم الحرب وقد أطلق عليها بدلا من ذلك اسم Jacquerie • ونادرا ما كان ينظر الى الخدم ككائنات بشرية ولم تكن تراعى أية قيم فرسانية عند قمعهم • ويقول بعض الأدباء ـ مثل بيير بلومان فى القرن الرابع عشر ـ ان أفراد الطبقات الدنيا ربما كانوا يرون ان الحرب هى نتاج جشع البارونات ورذائلهم ، فهى ليست بأية حال بأداة طيعة فى يد الملك ولكنها أشبه بوباء تفشيه بين الناس فئة من النبلاء الجائرين الماجنين ، وعادة ما كانوا يفعلون ذلك بدون علم الملك أو رغما عنه •

وعندما نصل بقطار التاريخ الى العالم القديم فسوف يخال لنا ان العالم الكلاوزيفيتسى أكثر أنطباقا منه فى القرون الوسطى ، ولكن ذلك انطبـاع خاطىء • وحتى لفظ « الامبراطورية الرومانية » هو لفظ غير صحيح ، فالترجمة الصحيحة للكلمة « Imporium » هى « السلطة » أو « الهيمنة » • وبداية فقد كانت هناك محاولة فى القرن الأول بعد الميلاد لتحويل روما نفسها الى مدينة لاهوتية ، ومع ذلك لم تكن فكرة الدولة ككيان شرعى مثالى مستقل عن الحاكم موجودة ولا كان بوسع الناس فى ذلك الحين ان يفهموا تعارض المصالح بين الاثنين ، ومن ثم لم يصب أحد بالاحباط لما حاول الامبراطور أغسطس ، وهو القائد المنتصر ، أن يخفى حقيقة وضعه بتجميل نفسه بألقاب جمهورية مثل « القنصل » • ومع مرور الوقت لم يكلف خلفاؤه أنفسهم حتى عناء الاحتفـاظ بذلك المظهـر • وقد انعكس كل ذلك فى حينه على النظرية « السياسية » التى لا تمت فى واقع الأمر الى السياسة بأية صلة مطلقا • وكان هدف المذاهب من قبيل مذهب Curianism والكلبيين والرواقية هو ترويض النفس على تقبل قدرها فى عالم يتجه لأن يخضع للحكم الاستبدادى المطلق ، وقد انسحب ذلك فى وقت لاحق على بداية عصر المسيحية •

وكان الاستبداد هو السمة الطبيعية للحكومة فى العصر الاغريقى أيضا • وكانت العلاقة وثيقة بين الملك وحاشيته حتى ان كبار المسئولين فى المملكة كانوا يوصفون ببساطة بأنهم « أصدقاء الملك » و « رفاقه » ،

وهم أصلا من الذين كانوا يقيمون معه فى معسكره أو بالقرب منه وقت المعركة ويشاركونه مخاطرها • ولم يبرز أحد هذه الصورة من الاستبداد والطغيان بقدر ما فعل سلوقس الأول ، أحد قادة الاسكندر الأكبر ، الذى نصب نفسه بعد وفاة مليكه ملكا على آسيا الصغرى وسوريا وجزء من العراق • وكان أساس ملكه انه لا حق الا ما تفرضه قوة السلاح • ولقد بلغ من طغيانه انه قام أمام جيشه المحتشد باهداء زوجته ستراتونيك لابنه من زواج سابق ويدعى انطاقيوس وقال انه مادام الاثنان شابين فسوف ينجبان قطعا الأطفال ، وبرر هذا السفاح المحرم بقوله : « انه ليس قانون الآلهة أو البشر ولكنها رغبتى » ، ومع ذلك فهو لم يفعل أكثر من تأكيد المفهوم السائد فى ذلك العصر وهو ان المملكة السلوقية ما هى الا دكتاتورية عسكرية أو تجمع عشوائى ، لأناس وأقاليم تخضع لحكم رجل واحد يقف وراءه رماة الرماح •

واذا كانت العصور القديمة لم تعرف مفهوم الدولة ، فانها عرفت على الأقل التقسيم الى « حكومة » وجيش وشعب • وكان العالم الاغريقى المثقف المتجانس ينظر الى الحرب بصفة خاصة على انها من اختصاص القسمين الأولين وليس للشعب شأن بها • وقد وضع لها بعض القوانين مثل من من شأنه أن يفعل ماذا ولمن وتحت أى ظروف ولأية أغراض • غير ان هذا التقسيم لم يكن مطبقا بهذا الشكل فى روما الجمهورية أو فى دولة المدينة اليونانية القديمة (Greek Polis) • والواقع ان ترجمة لفظ (Polis) الى « دولة المدينة » ترجمة خاطئة ، حيث ان معناها انها سيادة لا تعلو عليها أية سلطة أخرى وبيدها حق تقرير شن الحرب وخوضها ومع ذلك فهى ليست بدولة ، ولا تتناسب أيضا كلمات من قبيل (arche) و (Roinon) مع مفهومنا الحديث عن «الحكومة» كمؤسسة ولم يكن هؤلاء المسئولون عن سير الأمور اليومية فى الجمهورية الرومانية أو دولة المدينة اليونانية بحكام ولكنهم مجرد مسئولين رسميين ينتخبون سنويا ، ولا يأتى تكليفهم من قبل الدولة ولكن من قبل ما يمكن ان يعرف وفقا لترجمة اللفظ اللاتينى (Res publica) بأنه « اتحاد الشعب » أو « المجال العام » •

وكانت الـ « Res publica » تهيمن على الشئون الدينية والثقافية والاجتماعية فضلا عن الشئون السياسية • وكانت آلهة المواطن هى آلهة المدينة ، وينسحب نفس الشىء على الأعياد التى يحتفل بها وعلى التقويم الذى ينظم على أساسه حياته ، ولذلك فان الدور الذى تلعبه هذه الكيانات فى حياة الفرد يفوق نظيره فى الدولة الليبرالية الحديثة من عدة زوايا

ويقترب من ذلك الذى يتسم به النظام الشمولى • ومع ذلك فلم تكن هناك هوية شرعية مستقلة لا للجمهورية الرومانية ولا لدولة المدينة اليونانية ، غير أن ذلك المفهوم لم يستمر لأبعد من القرن السابع • وبينما تعد الاقليمية من أسس الدولة الحديثة ، كان بوسع الرومان واليونانيين على النقيض من ذلك ، ان يعيشوا حتى بدون أساس اقليمى • وكم من مستعمرة يونانية يرجع تاريخ وجودها الى اللحظة التى وطأت فيها أقدام الرجال ظهر السفينة ! • ويكفى لتأكيد الطابع الجماعى الأساسى الذى يتسم به هذا التنظيم « السياسى » ان القرارات المصيرية المتعلقة بالحرب والسلام لم يكن يتخذها حتى القضاة ولكن كان يتخذها الشعب الرومانى (أو الاثينى أو الاسبرطى) فى تجمعاته المختلفة • وبالطبع فان هذا النظام يعكس صورا أخرى من التنظيمات الأقدم تاريخا والأكثر بدائية •

وبعد التصويت بالموافقة على الحرب يتوجه الناس الى مكان تجمع للتجنيد ويقوم القاضى بتشكيل جيشه اما من المتطوعين ، أو يختار من بين من لم يكملوا بعد العدد المفروض على كل فرد من حملات عسكرية • لم يكن اذن ثمة وجود للجيش كتنظيم مستديم متخصص مستقل عن الشعب ، وقد يعنى لفظ (populus) أصلا أيا من المفهومين ، ومن هذا المنطلق فان كلمة جيش ليست أفضل ترجمة للفظ (exercitus) اللاتينى أو (statos) اليونانى ومعناهما الحقيقى « حشد » أو « جمهرة » ، وينسحب نفس الشىء على لفظ (tsava) التوارتى ويعنى « جمهور » أو « زحام » • ولقد بلغ من تطابق معنى لفظى « حشد » و « شعب » فى مفهوم اليونانيين انه قد راودتهم ، وهم معزولون فى أرض العدو أثناء الحملة الصقلية ، فكرة أن يقيموا لأنفسهم دولة مدينة مستقلة فى هذا المكان • ولم يحدث مطلقا أن دخل مواطنو دولة مدينة الحرب الا بدافع من أنفسهم ولحساب أنفسهم • وقد انعكس عدم وجود « كيان مجرد » على التعبير الذى استخدمته المصادر التى نستقى منها معلوماتنا ، فمن هيرودوت الى زينوفون وحتى بوليبيوس لا أحد يتحدث عن « أثينا » أو « اسبرطة » ولكن دائما يدور الحديث على « اليونانيين » أو « ذوى القوة والبراعة » ، فهم الذين يعلنون الحرب ويقاتلون ويبرمون الاتفاقيات والمعاهدات •

ولعلنا ننهى هذا الملخص التاريخى بالاشارة الى المجتمعات القبلية العديدة التى كانت حتى وقت قريب منتشرة فى كافة أنحاء العالم ، والتى استمرت تلعب دورا مهما حتى فى أوروبا وحتى وقت طويل من بداية القرون الوسطى ، فمن السيوكس (Sioux) فى أمريكا الشمالية والجيبارو (Jibaro) فى الأمازون الى الماساى (Masai) فى شرق أفريقيا

الى الفيجيين فى فيجى ، ومن هذه القبائل من كان مولعا بالحرب ، ومنها من كانت حياة أبنائها تتركز تماما حول الأعمال الحربية ـ مثل صائدى الرؤوس المتوحشين فى غينيا الجديدة ـ ويعزى ذلك الى سبب وحيد هو أنه عندما حاول الاستعمار منع مثل هذه الأعمال كانت الزراعة تذبل وتموت • وكون أبناء هذه القبائل مولعين بالحرب لا يعنى انهم كانوا متآلفين مع الدولة أو يحاربون من أجلها ، بل على العكس ، فقد كانوا لا يجدون مبررا لأن يقاتل أحد لمصلحة طرف آخر الا أن يكون أهله أو أصدقاءه أو حلفاءه • وعندما كانت المجتمعات القبلية تدخل فى صراع مع الرجل الأبيض غالبا ما كان ذلك يرجع الى سوء الفهم ، حيث يتهم كل طرف الطرف الآخر بالغش والخداع • فعلى سبيل المثال قد يعد شيخ قبيلة هندى من أمريكا الشمالية ممثلى احدى الولايات بالامتناع عن ارتكاب الأعمال العدوانية ويدخن معهم غليون السلام ، ولا يعنى هذا بالضرورة انه قد اعتبر اتفاقه معهم ملزما لسائر أفراد أمته ، وحتى ان اعتبر ذلك فغالبا ما لم تكن لديه السلطة لفرض الالتزام بتنفيذ الاتفاق •

وتتسم المجتمعات القبلية التى لم تكن تعيش فى اطار دولة بأنها لم تعرف التمييز بين الجيش والشعب ، واذا لم يكن لدى هذه المجتمعات جيوش فذلك لأن أفرادها كانوا هم أنفسهم بمثابة جيوش ، وهم لا يختلفون كثيرا فى ذلك لا عن دولة المدينة ولا ـ اذا شئنا الاستعانة بمثل معاصر ـ عن شتى التنظيمات الارهابية التى تحارب بعضها البعض فى أماكن مثل لبنان وسريلانكا واذربيجان • ولا يمكن أيضا وصف أبناء مثل هذه القبائل بأنهم جنود ، واذا كان لفظ « Warriors » قد أطلق على هؤلاء الناس، فهذا لا يعنى بالضرورة أنهم محاربون ولكن نتيجة تعدد اللغات ـ مثل الماساى أو اللغات الهندية فى أمريكا الشمالية ـ فان هذا اللفظ قد يعنى ببساطة « رجل شاب » •

خلاصة القول ان ما تتسم به المجتمعات القبلية من طبيعة بدائية لا يعنى انها لا تتماشى مع الحاضر ، ويتضح ذلك من مقارنتها بالعصابات الارهابية المعاصرة ، بل انها على النقيض من ذلك قد تكون مؤشرا لما ينطوى عليه المستقبل وربما بدرجة أكبر مما يمثله عالم الدول الذى ننتمى اليه •

✻ نشأة النزاعات المحدودة :

واذا سلمنا بهذا التحليل فانه يبعث على القول بأن الحرب الثالوثية ليست الشكل المطلق للحرب ، وما هى الا واحدة من الصور العديدة التى

تناولناها للحروب ، كما انها ليست أهم واحدة من هذه الصور بما ان ذلك المفهوم لم يظهر الا بعد معاهدة وستفاليا • ولما كانت الحرب الثالوثية تقوم على فكرة الدولة والتمييز بين الحكومة والجيش والشعب فهى بذلك لم تكن معروفة لدى معظم المجتمعات على مدى الجانب الأكبر من التاريخ • ولو حاول أحد أن يشرح ذلك المفهوم لأبناء هذه المجتمعات لما فهموا منه على الأرجح أكثر من أنه يعنى بحديثه احدى الشركات الحديثة (ولقد تصادف ان ظهر المفهومان فى نفس التوقيت) • ولما كان فهم طبيعة الحرب يقتضى فهم اسلوب ممارستها ، فقد كانت الرؤية بعيدة عن أرض الواقع ، فعلى سبيل المثال لم يكن بوسع القبائل البدائية فى كافة أنحاء أفريقيا واقيانوسيا أن تفهم خلال فترة الاستعمار السبب وراء تعريض جنود الاحتلال أرواحهم للخطر من أجل سيدة تملك زمام الأمور فيما وراء المحيطات على بعد آلاف الأميال ، كل ما كان يتبادر الى أذهانهم هو ان الدافع الحقيقى لهؤلاء الغزاة هو السطو والنهب ، فكانوا يتعاملون معهم باعتبارهم لصوصا وبالتالى كانوا هم أنفسهم يلقون نفس المعاملة •

ومن الخبراء العسكريين فى العصر الحديث ــ بخلاف كلاوزيفيتس ــ من ربطوا أيضا بين الحرب والدولة ، فاعتبروا أن أى عنف مسلح لا يعد حربا الا لو وقع فى اطار دولة • ومن شأن ذلك التوصيف الجزافى انه يستبعد الجانب الأعظم من المجتمعات ، ولا يقتصر ذلك على المجتمعات البدائية ، بل يمتد الى بعض المجتمعات الأكثر تحضرا اعتبارا من اثينا البيريكليسية فصاعدا • ولعل أسوأ ما فى الأمر ان ذلك المفهوم ظل ، حتى وقت قريب ، يحول دون أن تؤخذ بعض النزاعات المحدودة بمأخذ الجد ، الى ان تتفاقم وتضيع فرصة معالجة الموقف وهو فى بدايته • وأقرب مثال لذلك ما وقع فى كل من الجزائر وفيتنام ــ بغض النظر عن الضفة الغربية ــ حيث لم يلتفت أحد فى بداية التمرد الى مدى خطورته واعتبر مجرد أعمال سطو ونهب بوسع « قوات الأمن » أن تقمعها • وقد يكون هناك من الأسباب العملية والنظرية ما يجعل تناول المسألة بأسلوب عكسى يتماشى أكثر مع المنطق ، واذا كان ثمة ما يستحق ان يتخلص منه المرء فى دائرة معلوماته الثقافية ، فهو بالقطع ليس الأحداث التاريخية وانما التعريف الكلاوزيفيتسى للحرب ، وهو تعريف لا يبعث على اعتناقه •

كان هذا ما يتعلق بالماضى • أما عن الحاضر وتوقعات المستقبل فنحن نرى أن العالم الكلاوزيفيتسى يتجه سريعا للأفول ، فهو لم يعد يوفر لنا اطارا ملائما لفهم الحرب ، حيث يعزى ظهور النزاعات الحديثة المحدودة ــ وهى كما أوضحنا نزاعات لا ثالوثية ــ فى جانب منها الى الحرب العالمية

الثانية • فلقد شكل احتلال كل من ألمانيا واليابان ، وما اتسم به ذلك الاحتلال من أسلوب شديد البشاعة،انتهاكا للمبادىء والقيم الأخلاقية ، وبالتالى كان من حق الناس فى البلدين أن يثوروا رغم استسلام جيشيهما واذعان حكومتيهما • وكان لتأييد الحلفاء لهذا الاتجاه الأثر الكبير فى ترسيخ ذلك المبدأ ، ولكن لم يكد يمر وقت طويل حتى انقلب الأمر على أنصار هذا المبدأ ، وكانت النتيجة ان اندلعت حروب كثيرة فى شتى بقاع الأرض شنتها كيانات غير الدول • وما من هذه الحروب ـ التى قد يصل عددها الى رقم قياسى ـ ما يتلاءم مع المفهوم الثالوثى القديم •

والقول بأن العنف المسلح فى العصر الحالى لا يميز بين حكومة وجيش وشعب ، لا يبعث مطلقا على دهشة شعوب مثل أفريقيا أو الصحراء الأسبانية أو ـ وليكون لدينا مثل من العالم المتقدم ـ ايرلندا الشمالية ولا شعوب بلدان مثل بيرو والسلفادور وغيرهما من بلدان أمريكا اللاتينية والتى شهدت على مدى السنوات القليلة الماضية اندلاع عدة حروب أهلية، أسفرت عن سقوط زهاء سبعين ألف قتيل غير الجرحى • وقد لا يحتاج القارىء الى أن نذكره بأن تعداد سكان البلدان النامية ، التى تعد بؤر الحروب اللاثالوثية ، يعادل نحو أربعة أخماس تعداد سكان العالم ؛ واذا كان لأحد أن يجفل نتيجة لذلك فهم مواطنو بلدان العـــالم المتقدم أو على الأصح أعضاء وزارات الدفاع بها الذين ظلوا على مدى أحقاب يرسمون شكلا خاطئا للحرب •

ومن السهل التعرف على الأسباب التى جعلت حتى وقت قريب ، عددا كبيرا من النبهاء فى كل من الشرق والغرب يخطئون الحقيقة أو يؤثرون دفن رؤوسهم فى الرمال ، فان مجرد اجتياز أهوال الحرب الشاملة قد جعل معظم البلدان المتقدمة تتنفس الصعداء وتسعد سعادة بالغة للعودة الى تلك الأيام القديمة « البهيجة » التى كانت الحكومات فيهـا هى التى تدير الحروب والجيوش هى التى تقاتل وحبذا لو دار القتال بعيدا ، على أرض بلد ثالث • ولقد ظهرت فى الخمسينات بالفعل مدرسة شعارها «الحرب المحدودة» وكان هدفها محاولة وضع منهج يقوم على هذه الأفكار • وكان معظم الناس فى هذه الأثناء مكتفين بمتابعة أخبار الحرب على شاشات التليفزيون أو يمارسونها من بين ألعاب الكمبيوتر ، ولكن لم يكن لديهم أدنى استعداد للمجازفة بحياتهم • وعندما ألمح الرئيس جونسون الى ان التعبئة قد تكون ضرورية لتحقيق النصر فى حرب فيتنام فقد منصبه ، فقد كان الأمر بمثابة حلقة مفرغة • واذا كانت كل من القوتين العظميين تعتبر الطرف الآخر هو عدوها الأول فقد كان ذلك التفكير محصورا فى

اطار الحرب الثالوثية • وكان تقدير حجم القوات المسلحة اللازم لشن حرب ثالوثية كفيلا بأن يجعل كل طرف ينظر الى الآخر باعتباره أخطر أعدائه ، ومن ثم يرجع تمسك المؤسسات العسكرية فى البلدان المتقدمة بالحرب الثالوثية الى أنها تمثل اللعبة التى ألفتها لزمن طويل وتحب أن تمارسها ، كما انها تعد فى نفس الوقت الشكل الذى تمسك كل خيوطه فى أيديها سواء أكانت عسكرية أم تكنولوجية أم اقتصادية •

ولو ان الأمر مرهون بموقف العديد من البلدان المتقدمة لاستمر على الأرجح أسلوب التظاهر والخداع الى ما لانهاية ، ومع ذلك فلم يمثل الاعداد لحرب ثالوثية مصدر خطورة لأى طرف بعينه مادام ذلك الاعداد يقف عند حد الأمان بعيدا عن العتبة النووية • صحيح ان الاستعداد الدائم للحرب يعد باهظ التكاليف ، ولكن يعزى اليه من ناحية أخرى الفضل فى وجود مجمع صناعى عسكرى ضخم مزدهر • ومما يبعث على الأسف ان هناك من كان يعتبر الأفكار التقليدية عن الحرب جزءا من مخطط كبير يرمى الى استمرار فرض هيمنة البلدان المتقدمة على البلدان النامية • ولقد شهد ما يسمى بالعالم الثالث اندلاع عدد كبير من حركات التحرير الوطنى • ولم يكن لدى معظم هذه الحركات أية جيوش ولا تنتمى لأية حكومة ، وكانت كلها تزعم انها تمثل شعوبها • وعادة ما كانت تلك الحركات تطلق على نفسها اسما من قبيل « المقاتلين الأحرار » أو ما شابه وترفع شعارات مثل الجهاد فى سبيل الله أو (وحتى عام ١٩٧٥) الايمان بأفكار كارل ماركس • وكان البعض ينعت أعضاء هذه الحركات بأنهم رجال حرب عصابات أو ارهابيون أو ينتمون لواحدة أو أخرى من بين القائمة الطويلة لمسميات تنظيمات لم تكن قد تبلورت بعد • واذا لم تكن أهداف مثل تلك الحركات تماثل أهداف المجرمين فان أساليبها لا تختلف عن أساليبهم ، وبالتالى لم يكن هناك تمييز فى المعاملة بينهم ، لا سيما وان كلا من الفريقين كان لديه الاستعداد لاستخدام العنف بما يصل الى درجة الحرب من أجل تحقيق أهدافه •

وليست هناك أدنى فرصة لأن تندرج أى من حركات التحرير الوطنى هذه تحت مسمى الحرب الثالوثية بمعاييرها العادية ، فلم يكن لديها أى موارد اقتصادية حتى ان بعضها كان يلجأ الى السطو على البنوك أو الاتجار فى المخدرات للحصول على الأموال ، بما جعل التمييز بين الحرب والجريمة أمرا مبهما ، وعلى الصعيد العسكرى كانت تلك الحركات بالغة الضعف لا سيما فى بدايتها حيث لم يكن لديها أى تشكيل منظم أو خبرة أو أسلحة ثقيلة ، وكانت أضعف من أن يحمل أفرادها الأسلحة بشكل علنى

أو أن يرتدوا زيا موحدا حتى لا يعرفوا فيكونوا أهدافا سهلة المنـال . وكفى بهذه الأسباب لئلا يلتزم أفراد هـذه الحركات بالقواعـد المعروفة للحرب وهم لم يلتزموا بها بالفعل ، فقد رفضوا القتال بصورته كمباراة بين جيش وآخر ، ولم يلتزموا مطلقا بالتمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين ، بل ان ذلك التمييز على وجه التحديد كان الهدف الذى تريد هذه الحركات نسفه من كينيا الى الجزائر ومن روديسيا الى فيتنام ، فلم تكن تفرق بين عسكريين ومدنيين ، فكلهم هدف مشروع ، وكانوا دائما يبدءون بضرب الحكومات ما أمكن الى ذلك سبيل . وقد استطاعوا بالعنف تارة وبالاقناع تارة من كسب المواطنين الى صفوفهم ومن ترويع أعدائهم . واذا كانت أساليبهم فى القتال تتسم بالخسة فأى شىء شريف فى أساليب الحرب التقليدية ومنها على سبيل المثال استخدام الغاز ضد الخصم حتى الموت أو تدمير مدن بأكملها حرقا ؟

وسواء أكانت شريفة أم خسيسة ، فقد كانت الأساليب اللاثالوثية فعالة للغاية حتى انه نادرا ما كان يستدعى الأمر دخول المتمردين فى مواجهة سافرة مع القوات النظامية، حيث كانت تلك القوات تنهار وتنسحب من الميدان قبل أية مواجهة بدافع الشعور بأن « التمرد المضاد » ليس بنوع الحرب المألوفة بالنسبة لها والتى يمكنها ان تبلى فيها بلاء حسنا ، بل على العكس ، فانها ستعرض نفسها للدمار حتى لو كانت على شفا تحقيق نصر عسكرى ، ولقد حدث ذلك بالفعل مرة أو مرتين . وأيا كان الأمر ، فلقد استشرت الحرب اللاثالوثية فى معظم أنحاء العالم الثالث .

واذا كان الجلاء عن المستعمرات قد اكتمل تماما ، فان النزاعات المحدودة لم تتوقف ، بل انها تنتشر وتتأجج حتى انها أصبحت تهدد بتفتيت العديد من البلدان النامية من كولومبيا الى الفلبين . وكثير من هذه الأعمال تقوم بها عصابات من الغوغائيين الشرسين الذين لا هم لهم الا مصالحهم الشخصية ولا فـرق بينهم وبين « الدباغين » الذين داهموا الريف الفرنسى خلال حرب المائة عام ، فهؤلاء وهؤلاء قد حولوا مجتمعات بأسرها الى ضروب من الفوضى الدموية .

وما من سبب يبعث على الاعتقاد بأن العدد الضئيل نسبيا من البلدان المتقدمة يمكن أن يظل ينعم بالحصانة الى الأبد ، فكم تعرضت فى الماضى القريب سفارات هذه البلدان للاعتداء، وبواخرها لعمليات سطو، وطائراتها للتفجير وهى محلقة فى الجو ، مع ما يسفر عنه ذلك من خسائر جسيمة فى الأرواح . ألم يتعرض بعض رعايا تلك البلدان للاختطاف والاحتجاز من

أجل الحصول على فدية ؟ ألم يقتل آخرون ؟ ألم يهدد آخرون بالاعدام ما لم يذعنوا لأوامر زعيم متطرف يمارس سطوته من عاصمة بعيدة ؟ ومما يزيد الأمر سوءا ان العديد من البلدان المتقدمة أصبحت اليوم تضم أقليات ضخمة مثل المسلمين فى أوروبا الغربية والأسبان فى الولايات المتحدة وهؤلاء يتعاطفون مع الصراعات الدائرة فى بلادهم الأصلية ، وقد يلجأون أيضا الى استخدام العنف احتجاجا على التمييز الاجتماعى والاقتصادى • لقد تفاقم الأمر لدرجة ان من يدعى اليوم أنه بمأمن من أية حرب لا ثالوثية فهو اما معتوه أو أعمى :

علاوة على ذلك فان البلدان العتيقة المستقرة مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية وايطاليا وأسبانيا على سبيل المثال لا الحصر ، تعانى من وجود « دباغين » من أبنائها عادة ما يطلق عليهم اسم ارهابيين • ويدعى بعض هؤلاء الارهابيين بأنه على يسار المنهج السياسى لدولته،ويدعى البعض الآخر بأنه على يمينه ، ومنهم من تحركه اعتبارات قومية مستمدة من الأصل العرقى الذى تنتمى اليه جذوره • أما الشىء الذى يشترك فيه كل هؤلاء الارهابيين مع تباين اتجاهاتهم فهو انهم جميعا غير راضين عن الوضع القائم وعازمون على استخدام العنف لتغييره • ويناهز عدد المنظمات التى ينتمى اليها هؤلاء الارهابيون العشرات ، وقد يرتفع هذا الرقم سريعا ليتجاوز المائة ، وذلك بخلاف التنظيمات التى تمارس انشطتها فى بلدان العالم النامى • ومن أعضاء هذه التنظيمات من هو قوى شديد الحماس ، ومنهم من هو على درجة عالية من الثقافة والعلم ، ومنهم من يتمتع بقدرة تامة على استخدام أحدث ما وصلت اليه التكنولوجيا الحديثة من الكمبيوتر الى المفرقعات البلاستيكية • ولقد أبدت مثل هذه المنظمات فى الماضى رغبتها واستعدادها للتعاون فيما بينها بما يشكل نوعا من الارهاب الدولى ، بل انها لم تتورع عن الاتصال بمنظمات أخرى تستخدم العنف لأغراض أخرى غير السياسة مثل تجار المخدرات والمافيا وما الى ذلك •

وعادة ما كانت هذه الحركات تتمكن من الحصول على التمويل والأسلحة والتدريب ، بل وحق اللجوء السياسى من مصدر أو آخر ، وهى كالأعشاب الطفيلية الضارة تنمو وتنتشر بشكل تلقائى ولا يمكن استئصالها بمجرد اجتثاثها من مكان واحد • وغالبا ما كان يلقى على عاتق البلدان الديمقراطية الليبرالية مسئولية تفشى الارهاب لتقاعسها عن اتخاذ التدابير الرادعة الكفيلة بقمعه • ويستند هذا الرأى الى ان دول الكتلة الشرقية ذات النظام الشمولى ، وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى ، تمكنت فى معظم فترات ما بعد الحرب من احتواء الارهاب وتحجيمه فى نطاق

ضيق للغاية ٠ ومع ذلك فان روسيا نفسها عاشت تاريخا طويلا من الارهاب لا يقل عن أية دولة أخرى ٠ ومع قرب انتهاء الثمانينات وحلول التسعينات كانت هناك مؤشرات متواترة على ان الشعوب التى تعيش على حدود الاتحاد السوفيتى وخاصة المسلمين ، على وشـــك اتباع نهج اخوانهم المتاخمين لهم ٠ ومع تراجع الهيمنة الســـوفيتية ، من المتوقع ان تعود العدائيات القومية فى أوروبا الشرقية ، وقد أدى هذا بالفعل الى اندلاع العنف فى كل من يوغوسلافيا ورومانيا ٠ وأخير فحتى الولايات المتحدة المعروفة بانها أكثر مجتمعات « العالم الأول » عنفا وبفارق كبير ، دائما ما تشهد حدودها أحداثا تشبه الحرب اللاثالوثية ولكن مع الفارق أن حتى العنف المنظم فى هذه الحالة نادرا ما تكون له أهداف سياسية ولذلك فهو دائما يدرج فى قائمة الجرائم ٠

ومع ذلك يمكن القول بأن الحرب اللاثالوثية رغم آثارها المدوية ورغم المصير المأسوى الأليم الذى يتعرض له ضحاياها ، لا تشكل فى الوقت الراهن تهديدا خطيرا لأمن الدول الغربية ، (باستثناء تلك التى تدور رحاها فى لبنان ، هذا البلد الذى فقد كل مقومات الدولة) ٠ وبالطبع فان أية قنبلة تنفجر تمثل دليلا على أن الخطر ما زال قائما ٠ ولن يقضى على الارهاب مادام يجد دعما سواء من جانب بعض الدول أو من جانب الفئات الساخطة فى البلدان المستهدفة ذاتها ٠ ولقد بلغ من تفاقم المسألة انه نادرا ما توجد اليوم حكومة لم ترغم على التفاوض مع الارهابيين ، فكان ذلك على الأقل بمثابة حد أدنى من الاعتراف بهم ٠ وبدافع من الاحساس بالخطر بدأت بعض الدول هنا وهناك تفكر فى تكوين قوات مشتركة ، لتخوض النزاعات المحدودة حتى لو كان ذلك على حساب التنازل عن جزء من سيادتها الغالية ٠

ولو تناولنا الآن المسألة من زاوية هوية الذين يخوضون القتال ، فسوف نجد ان مثل هذه النزاعات تعد أقرب كثيرا من الصور البدائية الأولى للحرب اللاثالوثية ، منها الى صور الحروب التى اندلعت فى عهود مولتكى أو حتى أيزنهاور ٠ وينسحب نفس الشىء على الأسلحة المستخدمة فى هذه الحروب وعلى الأساليب التى تدار بها ، بل وحتى على الأسباب التى أدت الى اندلاعها ، ولسوف نكرس جانبا كبيرا مما يلى لمحاولة اثبات صحة هذه المقولة بدءا بما يمكن أن يكون لمفهومى الحق والجواز من تأثير على الحرب ٠

الباب الثالث :

ما الذى تدور حوله الحرب

* المرسييز البروسية :

واذا كان السؤال « من يخوض الحرب » يمثل أحد الأفكار الثالوثية الحديثة التى يمكن اثبات أصلها وجذورها فى كتاب « عن الحرب » ، فان الشيء نفسه ينسحب وبشكل أدق على سؤال آخر هو : ما الذى تدور حوله الحرب ؟ ويتناول الفصل الأول من المجلد الأول لكتاب « عن الحرب » هذه المسألة ، ويقول عنوان بالبنط العريض ان الحرب هى « عمل عنف صعد الى أقصى درجاته » . ولما كان القارئ الحديث قد اعتاد مستوى عنف الحربين العالميتين فلا شك انه يعتبر هذا التعريف بديهيا وغير جدير حتى بالذكر . والواقع انه كذلك الى حد ما . ولكن ينبغى تناول نظريات كلاوزيفيتس من خلال الاطار التاريخى الذى انبثقت عنه ، فقد كان كلاوزيفيتس ـ شأنه فى ذلك شأن العديد من أبناء جيله ـ يسعى الى فهم سر نجاح نابليون . وكان المحللون العسكريون المشهورون فى ذلك الوقت من أمثال ديتريتش فون بولو وأنطوان جومينى يعتقدون أن هذا السر يكمن فى عالم الاستراتيجيات ، ومن ثم نسجوا حول هذا الموضوع نظما فكرية بارعة . ولم يكن كلاوزيفيتس يوافقهم هذا الرأى . ورغم أنه أطلق على نابليون اسم « اله الحرب » الا أنه لم يكن يرى أن انتصارات الـ « Grande armee » (الجيش الفرنسى) ترجع الى حكمة بليغة دفينة ينفرد بها الامبراطور ولكنها تعزى الى النجاح فى استغلال العنف التلقائى الذى فجرته الثورة الفرنسية وأطلقت له العنان ، وذلك بادماجه مع الجيش الفرنسى وتسخيره لتحقيق أهداف عسكرية . فمثل هذه القوة لا يمكن الرد عليها الا بالقوة . وبما أن « استخدام أقصى درجات القوة يلغى تماما استخدام العقل » ، فعندما يشتبك طرفان شديدا البأس تكون الغلبة من نصيب أقلهما تحجرا ، وليس ذلك بكلام نظرى ، فلقد منيت بروسيا ، وهى متمسكة بأفكار العالم الفريديريكى ، بأسوأ هزيمة فى التاريخ .

وقد وجه كلاوزيفيتس ، وهو الذى لا يخل بما اعتاد عليه من صرامة الكلمة ، تحذيرا سافرا شديدا من مغبة ادخال كلمة « اعتدال » على « مبدأ » الحرب • فلا ينبغى أن تخضع القوات المسلحة فى نظره لأية قواعد ، الا ما تمليه عليها طبيعتها الخاصة وما يقتضيه الهدف السياسى الذى تخوض الحرب من أجل تحقيقه • ولم يكن كلاوزيفيتس يطيق وجهة النظر « الانسانية » التى تقول بأن الحرب يمكن (أو ينبغى) أن تكون محدودة ويدور فيها القتال بأقل قدر من العنف ، فهو يقول : « فى الأمور الخطيرة مثل الحرب فان أسوأ الأخطاء هى تلك الناجمة عن الكياسة » ويضيف قائلا : « دعونا من الكلام عن هؤلاء الجنرالات الذين يقاتلون بدون اراقة دم » • والآن ، هل كلاوزيفيتس نفسه ، ذلك « الفيلسوف ذو الزى العسكرى » ، يقدر على ممارسة ما يدعو اليه ؟ ثمة شك فى ذلك ! ولقد ظل هذا الطابع الذى اتسم به يشكل لغزا بالنسبة لنا ، فهو لم يتضمن فيما يبدو ان القسوة ، أو قليلا منها ، قد تكون من الصفات الرئيسية التى ينبغى أن يتحلى بها كبار القادة •

ويتبادر الى الذهن سؤال صعب : لماذا كان لهذا الخط « المتصلب » فى التفكير هذا الوقع الضخم على الكثيرين ممن خلفوا كلاوزيفيتس ، وبالتالى على الفكر الاستراتيجى الحديث بشكل عام ؟ ولا يمكن القول بأن انتشار كتاب «عن الحرب» يعزى الى أسلوبه ، فهو أسلوب طنان متقعر بصفة عامة ولا يصلح لأن يقرأه المرء وهو مضطجع على سريره رغم ما يحتويه أحيانا من استعارات خلابة ، ولكن ثمة سببين نطرحهما للمناقشة : السبب الأول هو أن ما حظى به كلاوزيفيتس من حفاوة يرجع على الأرجح الى تأجج مشاعر الوطنية كعقيدة شعبية ، ليس لأنه هو نفسه يعد مواطنا بروسيا مولعا بحب بلده فحسب ولكن لما قاله أيضا « الأب الداعية المحرض » جان ــ وتقله عنه فى كتابه ــ لمواطنيه من الألمان من أنه « أيا كان من يعلم ابنتى الفرنسية فانه يزج بها الى عالم البغاء » • ولقد تصاعد فيما بعد ذلك المد الوطنى وشجعته الدولة بكل ثقلها حتى تحول فى القرن التاسع عشر الى نوع من الشوفينية ، وسقطت كل القيود القديمة ، سواء تلك التى يفرضها الدين أو التى يمليها قانون الطبيعة ولم يبق سوى حب الوطن • وأصبحت كل أمة أوروبية عظمى تدعى أنها تاج الابداع والحارس لحضارة ثمينة فريدة تستحق الدفاع عنها مهما كلفها ذلك من ثمن • ومن هذا المنطلق جاء وقت استخدم فيه الناس كل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة وذهبوا الى أبعد مدى لدحر خصومهم مدعين أن ذلك من حقهم ، بل هو واجبهم •

أما السبب الثانى والأهم فيتمثل فى ان أفكار كلاوزيفيتس اتفقت

فيما يبدو مع الدلائل العقلانية والعلمية والتكنولوجية المصاحبة للثورة الصناعية . وبعد أن دمرت حركة التنوير الفلسفية ايمان الرجل الأوروبى الحديث بالله ، أصبح يعتبر العالم محارته ، فكل ما به من كائنات حية أو مواد خام هى ملكه ومتاع له ومن حقه استغلالها ، وبالطبع فقد شكل هذا الاستثمار والاستغلال نسيج « التقدم » . ولقد جاءت نظرية تشارل داروين ، التى تقول بأن البشرية ما هى الا جزء لا يتجزأ من الطبيعة ، فشكلت اللبنة الأخيرة فى هذا الصرح العلمانى . والآن أصبح ينظر الى داروين نفسه على أنه كان حييا دمث الخلق وقد تحرج أن يعلن النتيجة المنطقية لمعتقداته . غير أن اتباعه لم يشاركوه شكوكه ووساوسه ومنهم هربرت سبنسر وفريديريك هاكل وغيرهم على جانبى المحيط الأطلنطى ، فهم لم يضيعوا الوقت وادعوا مباشرة ان الانسان ما هو الا جهاز بيولوجى مثله مثل أى كائن حى آخر ، ومن ثم فهو لا يخضع الا لقانون الغابة . ومن منطلق ان الحرب هى الوسيلة المفضلة للخالق (أو الطبيعة) لاختيار الأصلح من الأنواع والأجناس ، أصبح من الصعب ايجاد سبب لعدم خضوع الانسان لقانون الطبيعة المتمثل فى « الصراع من أجل البقاء » كشأن التعامل فيما بين الحيوانات . وهذا يفسر اللجوء الى أقصى درجة من القسوة والوحشية بغض النظر عن أى اعتبارات غير المنفعة والمصلحة الذاتية .

وأيا كان الأمر ، فلقد أصبح كتاب « عن الحرب » – على نحو ما وصفه الناقد العسكرى الانجليزى بازل ليدل هارت الذى كان واحدا من القلائل الذين قاوموا اغراءه – بمثابة « المرسيييز البروسية التى تلهب البدن وتؤجج العقل » . ولقد بلغ من بشاعة ووحشية وقائع الحرب بعد ذلك ان كلاوزيفتيس نفسه لم يكن له من رد فعل سوى الاذعان للأمر الواقع بغير تذمر . ومن الكتاب اللاحقين من اعتبر كتاب كلاوزيفيتس بمثابة نداء النفير الداعى الى التحرك ، فهتفوا له وحولوه الى سلعة ايجابية . وكم هى طويلة قائمة من ادعوا انهم اتباعه وأخذوا يرتكبون بتفاخر الأعمال الوحشية الواحد تلو الآخر ، ومنهم مشاهير الأسماء ابتداء بكولمار فون در جولتز وانتهاء بالبعض من ذوى الطباع المختلة من الاستراتيجيين النوويين المعاصرين . ومع ذلك فلم يكن هناك تطابق بين الواقع والفكر ، فرغم كل المتشدقين بالوطنية والمطنطنين من دعاة الفكر الداروينى شهد القرن التاسع عشر استمرار السعى الى تقييد الحرب بين البلدان الأوروبية والى الحد من أهوالها . غير أن القرن التالى شهد اندلاع حربين عالميتين « شاملتين » بكل أبعاد الكلمة وبلا أى قيد من أى نوع . فلقد استخدموا كل أنواع الأسلحة وسعوا الى تدمير أى شخص وأى شىء ، وانتهى بهم

الأمر الى التصعيد لدرجة العنف النووى الذى لم تبدأ أهواله تخمد الا مؤخرا · واذا كانت الأمم المتحضرة فى العهد السابق على Auschwitz قد أبادت بعضها بطريقة الوحوش ، فلا يرجع ذلك الى أى اختلاف فى طبيعة الحرب ، ولكن الى أن تلك الأمم توصلت الى وسائل أكثر فعالية فى القتال ·

ولقد استبعد كلاوزيفيتيس فى كتابه « عن الحرب » كل الأعراف والقانون الدولى بكل ضخامته واستعاض عنه بجملة واحدة غير جديرة بالاحترام ، حيث قال ان قانون الحرب يتكون من « القيود التى تفرضها المصلحة الذاتية ومن الصعب تحديدها بشكل مطابق » · ولقد أرسى بذلك نهجا ظل يحتذى به فى الكتابة « الاستراتيجية » حتى الوقت الحالى ، لدرجة أن الأعمال المتعلقة بقانون الحرب عادة ما تحفظ فى مكتبات منفصلة ولا يسهل الوصول اليها · ومع ذلك فالحرب بدون قانون ليست مجرد وحشية ، ولكنها مستحيلة ، وسوف نحاول اثبات ذلك من خلال الرجوع الى التاريخ ودراسة الحاضر والقاء نظرة خاطفة على المستقبل ·

* قانون الحرب : الأسرى

ولكى نفهم الى أى مدى أخطأ كلاوزيفيتس باقصائه القانون والأعراف الدولية من فكره ، فلندرس حالته هو شخصيا عندما وقع فى الأسر · ولقد حدث ذلك عندما اعترضت مجموعة من الفرسان الفرنسيين وحدته بينما كانت تقوم بعملية تأمين خلفى بالقرب من « برينزلو » فى منتصف الطريق بين برلين وساحل البلطيق ، وكان ذلك بعد أسبوعين من معركة جنيا المريرة · وقد أسر هو والأمير أوجست أمير بروسيا ونقلا الى برلين · وقد استجوب نابليون شخصيا الأمير بمجرد وصوله بينما جلس الشاب كلاوزيفيتس يرتاح من عناء السفر فى غرفة ملحقة بالغرفة الرئيسية التى تم فيها الاستجواب · وبعد أن أعطى الشابان كلمة شرف بالاحجام عن الاشتراك فى الحرب أعيدا الى منزليهما · وبعد شهر صدرت اليهما الأوامر بالتوجه الى فرنسا لقضاء فترة اعتقال · وقد مرا وهما فى طريقهما فى فرنسا بنانسى حيث قضيا بعض الوقت ، ثم مكثا قليلا فى سواسون وأخيرا توجها الى باريس · واتسمت اقامتهما فى فرنسا بالروية وعدم الاستعجال ، حتى انه قد سنحت الفرصة لكلاوزيفيتس لزيارة جوته فى ويمار (Weimar) · ورغم أنهما لم يغيبا عن عين السلطات الفرنسية الا أنهما تحركا فى كل مكان بحرية تامة ، وعادة ما كانت تتاح لهما الفرصة لارتياد أرفع الدوائر الاجتماعية · وقد انتهت اقامتهما فى

فرنسا بعد حوالى عشرة أشهر وسمح لهما بالعودة الى بلدهما بعد ابرام معاهدة تيلسيت • وقد عادا عن طريق سويسرا وتوقفا أثناء الرحلة عند مدام دى ستايل منـاظرة نابليون الكبيرة فى المجال الأدبى والتى كان منزلها قد شهد فيما يبدو قصة حب للأمير أوجست •

وكان كلاوزيفيتس برتبة كابتن (نقيب) فى ذلك الحين • ولعلنا نتفكر الآن ماذا كان سيحدث له لو كان قد أسر فى واحد من النزاعات الحديثة ، فى ايطاليا أو فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية على سبيل المثـال ؟ كان مصيره سيختلف تمام الاختلاف • كان على الأرجح سيقتاد الى أحد مراكز الاستجواب بعد أن يكون قد تعرض فى الغالب لعملية تجويع متعمدة ومعاملة خشنة لمدة يوم أو يومين • ولا يقضى القـانون الدولى بالنسبة للأسرى الا بالافصاح عن الاسم والرتبة والرقم العسكرى وفصـيلة الدم • واذا شعر المسـتجوب ان الأسير لديه معلومات مهمة فسوف يحاول انتزاعهـا منه ، وقد يتم ذلك بدون اللجـوء الى أسـاليب التعذيب الحاليـة • وبعد انتهاء هذه المرحلة سوف يقتاد ليـودع وراء القضبان فى أحـد معسـكرات الأسرى • ولن يطلب منه أن يعد بعـدم الهروب ، بل العكس فان من « واجبه » كضابط وكرجل يتسم بالنبل أن يحاول الهروب ، ومادام لم يسرق سلاحا أو يقتل حارسا أثناء محاولة الفرار ، فلا يعتبر ذلك عملا عدوانيا والمفروض ألا يحاسب عليه حتى لو تكررت المحاولة مرارا •

ولقد كان الأسرى الألمان فى معسكرات الحلفاء يلقون قدرا معقولا من العناية ، كذلك كان وضع أسرى الحلفاء — حتى لو كانوا من اليهود — فى أيدى الألمان • غير أن الوضع كان مختلفا بالنسبة للأسرى السوفيت حيث لم تكن الحكومة قد وقعت على اتفاقية لاهاى المبرمة فى عام ١٩٠٧ ، وبالتالى اتخذ الألمان من ذلك ذريعة — اذا كانت هناك حاجة لذلك — وكانوا يعدمون على الفور من يقع تحت أيديهم من أعضاء الحزب الشيوعى فى وحدات الجيش الأحمر • أما بالنسبة لسائر الجنود الآخرين ، فمن كانوا ينجون منهم من الهلاك فى مسيرات الموت كانوا يساقون الى معسكرات الاعتقال حيث كان مئات الألوف يتركون بلا طعام أو مأوى حتى يموتوا جوعا أو من البرد ، وذلك الى أن تنبه الألمان الى قيمة هذه القوة البشرية فبدءوا يسخرونهم ويستفيدون منهم كقوة عاملة • وكان السوفيت أيضا يعاملون الأسرى الألمان بقسوة ويجبرونهم على العمل فى ظل ظروف أليمة ولكن ليس بقدر غلظة الألمان ، ولم يكن يعدم فى المعتاد من الأسرى الا من ينتمى للمخابرات الألمانية (S.S.) ... وفيما يتعلق بأسرى الحلفـاء فى

أيدى اليابانيين فقد كانوا يعاملون بوحشية ، ولايبدو ان ذلك كان نتيجة أوامر صادرة من الجهات العليا بل كان على الأرجح مجرد انعكاس لأسلوب الصفع والركل الذى اعتاد أن يتعامل به القيادة اليابانيون على كافة المستويات حتى مع مرؤوسيهم · ولما كان العديد من معسكرات الاعتقال تقع فى مجاهل الغابات ، فعادة ما كان اليابانيون يهملون أسراهم حتى يلقوا حتفهم اما جوعا أو مرضا · وفى المقابل كان اليابانيون اذا شعروا انهم سيقعون فى الأسر يفضلون الانتحار عن الاستسلام لما سمعوه من أن الحلفاء لا يحبذون الاحتفاظ بأسرى ! والواقع ان القوات اليابانية التى كانت تقع فى الأسر كانت تلقى بصفة عامة معاملة طيبة ·

ولو كان كلاوزيفتيس قد أسر قبل ذلك بحقبة من الزمان ، أى ابان حرب السنوات السبع لكان قد تعرض أيضا لمعاملة مختلفة ، حيث كان على الأرجح سيلقى نفس المعاملة الطيبة التى حظى بها من جانب الفرنسيين ان لم يكن سيدلل ويدعى الى المآدب مع نظرائه من محتجزيه · فقد كان من طبيعة الوضع فى ذلك الحين ان ينعم الضابط الأسير بحرية الحركة بل وبالاتصال بأصدقائه وأهله فى الطرف الآخر ، ما دام قد وعد بعدم الفرار وبعدم حمل السلاح مرة أخرى ، غير أنه لم يكن ليطلق سراحه الا بعد دفع فدية · وكانت قيمة الفدية تختلف من حرب الى حرب وترتهن برتبة الضابط ، وفى حالة كلاوزيفيتس كانت هذه القيمة ستصل تقريبا الى بضعة الآف من « الجنيهات » الفرنسية أى ما يعادل دخل ثلاث سنوات لشخص فى مثل مركزه · وكان ما شهدته الأحقاب الأخيرة من النظام القديم من تحول الفدية من شىء يخص الأفراد الى شىء من اختصاص الحكومات مؤشرا على زيادة الاتجاه الى تكريس الحرفية فى الجيوش · وكانت الحكومات تتفاوض مع العدو ، اما بشكل مباشر أو عن طريق قيادات الجيش ، بشأن قيمة الفدية وأسلوب الدفع · وكانت هذه المفاوضات تجرى اما أثناء الحرب أو بعدها ·

أما لو كان سوء الحظ قد أوقع كلاوزيفيتس فى الأسر فى تاريخ سابق يرجع مثلا الى وقت حرب الخلافة الأسبانية (١٧٠١ — ١٧١٤) لكان قد دفع الفدية من جيبه الخاص · فقد كان الضباط فى ذلك الوقت يعدون رجال أعمال مستقلين ، وكان الأسر من المخاطر التى تفرضها طبيعة عملهم فى الحرب · ولم يكن من الوارد كذلك ان يسترد ما دفعه الا لو استعطف الملك واسترحمه وساق اليه الأعذار وتذرع « بصعوبة الظروف » ·

ولو رجعنا الى مستهل العصر الحديث وأواخر القرون الوسطى

فسنجد أن الجيوش كجيوش لم تكن تأسر أحدا ، وكان الأمر بيد الأفراد الذين قد يقبلون الابقاء على حياة خصومهم المهزومين أو لا يقبلون ، ولو قبلوا ذلك فان الأسير وكل ما يملك يصبح ملكا لمحتجزه يفعل به ما يشاء . وتتوقف المعاملة هنا على مدى أهمية الأسير أو بمعنى أدق مدى ثرائه . فاذا كان موسرا فقد يجد نفسه يلقى عناية طيبة ويدعى الى الموائد والحفلات ويتبادل المجاملات مع محتجزيه ، وقد يجد نفسه على النقيض من ذلك يلقى معاملة خشنة ويتعرض للعقاب سواء من قبيل المحاسبة على أى خطأ يرتكبه أو من قبيل ممارسة الضغط عليه لكى يسرع فى دفع ما عليه من أموال . ولما كان الأسير يعتبر ملكية خاصة ، فلم يكن غريبا أن يجد نفسه موضع نزاع فيما بين محتجزيه ، وقد يصل الأمر الى حد استخدام العنف . وكانت مثل هــذه النزاعات ترفع الى القائد سواء أكان الملك أم أحد الأمراء للفصل فيها ، وينتهى الأمر عادة بأن تنقسم الفدية الى ثلاثة بدلا من اثنين .

وكانت الاتفاقيات والمعاهدات المعمول بها فى ذلك الحين تجمع على الا يتعرض النبلاء من الأسرى ـ بصفتها الطبقة الوحيدة التى تعتبر أهلا للتمييز ـ لمعــاملة سيئة بدون سبب . وكان البعض يرى أنه من حق المحتجزين ممارسة الضغوط على الأسرى لارغامهم على الدفع ، بينما يعارض البعض الآخر ذلك . وكان هناك جدل بشأن الأسرى الذين ليسوا أهلا للثقة ، وكان هنــاك رأى عبر عنه الكاتب الفرنسى أونوريه بونيه وهو من كتاب القرن الرابع عشر بقوله : « لابد من احتجازهم فى برج عال » وقيدهم بالسلاسل أو بأنواع أخرى من القيود . أما من يحاول الهرب من الأسرى فهو يعتبر كمن حنث بوعده وبالتــالى فهو يتعرض للعقوبة اذا أمسك به أحد ، ولكن لم تكن هناك صيغة مشتركة بشأن نوع العقوبة التى يمكن تقريرها . وكان هناك عرف سائد حتى عام ١٤٥٠ يتمثل فى عرض أسلحة الأسرى الذين ينجحون فى الفرار وكان ذلك بمثابة اهانة بالغة لهم . وكانت مسألة توسل المهزوم من أجل الابقاء على حياته وموافقة المنتصر على عتقه تعد بمثابة معاهدة بينهما تماثل ورقة الاعتراف بالدين (IOU) . ورغم ان عملية الرق كانت قد تراجعت تماما فى أوروبا فى القرون الوسطى وتتجه الى الأفول الا أن الأسرى كانوا يعتبرون مجــالا للاستثمار حيث كان يمكن بيعهم أو المقايضة بهم أو حتى انتقالهم من محتجز لآخر دون المساس بحقوقهم أو واجباتهم . وأخيرا ومثلما ان ثمة اشارة للاستسلام فى عصرنا وهى رفع علم أبيض ، فقد كانت هناك أيضا فى القرون الوسطى عبارات واشارات متفق عليها للاعراب عن مثل هذه الرغبــة .

وفيما يتعلق بالأسرى من غير الضباط ، فقد اختلفت الأفكار فيها بين العصور السابقة والعصر الحالى ، فبينما لا يفرق كثيرا القانون الدولى الحديث فى المعاملة بين الفئتين ، حيث ان أهم وجه للتمييز هو امكان تشغيل الأسرى من غير الضباط ، لم يكن أهل القرون الوسطى يشاركوننا هذه الديمقراطية وكانوا يفرقون فى معاملة الأسرى كما لو كانوا ينتمون الى جنسين مختلفين : فئة من القردة وفئة من البشر ! وكانت النظرة السائدة فى القرن الثامن عشر تتمثل فى انه لا شرف لمن لا يحمل تفويض الملك ، وبالتالى لا كلمة لهم ولا عهد ٠ وكان الأفراد العاديون يودعون فى زنزانات بقبباء بعض القلاع ، وكان يمكن تأجيرهم للعمل كلما سنحت الظروف لتغطية تكاليف احتجازهم ٠٠٠ لم يكن وضع هؤلاء الأفراد يسمح بأن يفتدوا أنفسهم ولا كان يمكن الاستفادة منهم كثيرا ، وقد وصفهم دوق ولينجتون فى عبارة شهيرة بأنهم « حثالة الأرض ولا شاغل لهم الا شرب الخمر » ، وقد بلغ من دنو شأنهم انه قد تم خلال حرب الخلافة النمساوية تحديد فدية زهيدة للغاية للجندى العادى تقدر بأربعة جنيهات فى الوقت الذى كانت فيه فدية كبار الضباط تصل الى ٢٥٠ ألف جنيه ٠ وحتى هذا المبلغ الزهيد لم يكن يدفعه الجندى ، ولكن كانت اتفاقيات التسوية تقضى بأن تدفعه الدولة ، وقد تسقط الدولة بعد ذلك هذا المبلغ ، أما لو كانت الحكومة فقيرة فهى تخصمه من أجر الجندى فيما بعد ٠

وقد جاء عصر كانت فيه عمليات الحصار أهم من الحروب وأكثر عددا ، وكان مصير الأسرى فى هذه الحالة يرتهن بملابسات الاستسلام ٠ وفى أواخر القرن الثامن عشر على وجه الخصوص ، نادرا ما كانت عمليات الحصار تتصاعد الى حد اراقة الدماء ٠ وحتى بالنسبة للعثمانيين الذين كان دينهم يحرم عليهم الاستسلام وتسليم أرض بها مسجد فقد تعلموا فى نهاية المطاف انه خير لهم ان يعيشوا ككلاب من أن يموتوا أسودا ٠ وفى عصر فوبان وكوهورن وأقرانهما طرأت تطورات كثيرة على عمليات الحصار ، فلما كانت هذه العمليات ترتهن فى المقام الأول بموقف الامداد والتموين ، فقد كانت بالنسبة للمهاجمين والمدافعين على حد سواء مسألة تقدير للموقف ، وكان حساب الوقت يتم بدقة عالية ٠ وقد صار نظاما تقليديا ان يتفق الطرفان على انه فى حالة عدم وصول الامدادات فى غضون زمن معين تستسلم الحامية ٠ وكان الاستسلام يتم فى وثيقة رسمية ، واذا كانت صيغة الاستسلام تختلف من حالة لأخرى ، ففى الغالب كان القائد المستسلم يتعهد بتسليم الحصن والمعدات والمخازن سليمة ، وفى المقابل يسمح له ولجيشه بمغادرة القلعة سالمين وبالتوجه الى حيث يشاءون ، وكان عليهم فى بعض الأحيان أن يتعهدوا بعدم القتال ثمانيا ٠

وما أن يتم توقيع وثيقة الاستسلام حتى يتعاون الطرفان على ترتيب ما يسمى « belle capitulation » بمعنى ترتيب استسلام وذى منظم ، حيث يتم تشكيل فريق مشترك من الضباط مهمته جرد المخازن وتدوين القوائم ومراجعتها والتوقيع عليها ٠ وعادة ما كانت تنضم بعد ذلك قوات من الطرفين لتوسيع الفتحة فى سور القلعة لتسمح باجراء « الحفل » فى أبهى صورة ، وقد يتم تكليف أحد الفنانين بتصوير المناسبة فى لوحة فنية ، مثلما فعل روبن فى لوحته « لاس لانزاس » التى تصور استسلام مدينة بريدا الهولندية للجنرال الأسبانى امبروزيو سبينولا ٠ وفى موعد الحفل تخرج القوات المستسلمة فى صورة طابور على دقات الطبول والأعلام ترفرف بينما يقف المنتصرون على هيئة حرس شرف ويتصافح القائدان ويتبادلان عبارات التحية والمجاملة ٠ ولتخفيف مرارة الموقف بالنسبة للمهزومين عادة ما كان يسمح للضباط الذين استسلموا بهذا الأسلوب بأن يحتفظوا بأمتعتهم الشخصية ، بما فيها الأسلحة والخيول والمركبات والخدم والعشيقات ٠ وكانت أهم ميزة لمثل هذا الترتيب ان القوة المحاصرة تخرج سالمة لتستخدم فى موقعة أخرى ، أو حتى فى جميع الأحوال فهى تلغى احتمال دفع الفدية ، ولذلك كانت تحظى برضا الحكومة ، بل ان التاريخ يروى ان الملك لويس الرابع عشر هدد بطرد ضابط من الخدمة لأنه « تجرأ » ورفض الاستسلام بينما كان وحده فى حاميته !!

وكان الطابع الكوزموبوليتانى للحرب (انضمام جنسيات مختلفة للجيوش) من العوامل التى أثرت على أوضاع الأسرى ، فقد كانت الحكومات فى مطلع العصر الحديث وحتى القرن الثامن عشر ترحب باستخدام الأجانب فى جيوشها حفاظا على خاصتها ولتتركهم أحرارا حتى يدفعوا الضرائب ٠ وكان العديد من الجيوش يضم وحدات بأكملها من غير أبناء الوطن ، وكان بعضهم من المتطوعين القادمين عادة من المناطق الفقيرة مثل سويسرا وفيما بعد اسكوتلندا أو ايرلندا ، وكثيرا ما كانت تحتم الظروف أن يواجه أبناء هذه البلدان بعضهم بعضا فى المعارك بسبب انضمامهم لجيشين متناحرين ٠ وكانت هناك حالات يتم فيها بيع الوحدة بأكملها ، أو يقوم الأمير بتأجيرهم مثلما حدث مع تعساء الحظ من الهيسيين وهم من الألمان العاملين فى القوات البريطانية خلال حرب الثورة الأمريكية ٠ وعندما كان مثل هؤلاء الأفراد أو الوحدات يقعون فى الأسر كان يتم أحيانا ضمهم الى الطرف الآخر ٠ وفى عام ١٧٥٦ كون فريدريك الثانى جيشا كاملا من الساكسون بعتاده وعدته بالاكراه ، حيث وعد بأن يجزل العطاء لمن ينضم منهم وفى نفس الوقت أمر بجلد من يأبى ليردع الآخرين ٠

ويرجع ذيوع هذه الحالة على وجه التحديد الى انها كانت من بين الحالات الأخيرة المماثلة ، أما في الفترة ما بين ١٥٠٠ و ١٦٥٠ تقريبا ، حيث كانت الحرب عبارة عن نوع من المشاريع الرأسمالية والجيوش تتكون من المرتزقة ، كانت مثل هذه الممارسات تجرى بشكل عادى ولا تثير تعليقات كثيرة •

ومع ذلك كانت هناك استثناءات حتى خلال هذه الفترة ، فلو كانت الحرب حالة تمرد ضد السلطة ، أو عندما كانت الأفكار الدينية تتأجج ، فان معاملة الأسرى قد تختلف تماما • وقد اكتسبت حرب الثلاثين عاما فى ألمانيا ذكرى كريهة لكثرة ما شهدته من فظائع • وعادة ما كانت ترتكب هذه البشاعات مجموعة من الجنود المولعين بسفك الدماء والتى تفعل ذلك ـ مثلما حدث فى مجديبورج عام ١٦٣١ ـ على غير رغبة القادة • غير أن مثل ذلك التفسير لا يجدى فى حالة القائد الأسبانى الشهير فرناندو الفاريث دى توليدو دوق ألفا الذى لجأ ، أثناء حملته على هولندا فيما بين ١٥٦٧ و ١٥٧٤ ، وبمساعدة القاضى الشهير بالتازار أيالا ، وكان يشغل منصب مفتش المالية العام ، الى ابتكار أسلوب مقيت بشع فى التنكيل بأفراد الحامية المهزومة يتمثل فى تقييد كل اثنين منهم ظهرا الى ظهر ثم القائهما فى الخندق المائى المحيط بالحصن • وفى معركة أجينكورت (١٤١٥) أمر الملك هنرى الخامس عاهل انجلترا مرؤوسيه بالتنكيل بالأسرى ، غير أنهم نفذوا ذلك الأمر بشىء من التقاعس ، لأنه كان يعنى حرمانهم من الفدية • وكان الفرسان الانجليز الموجودون يترفعون عن ذلك ويتركون مهمة القتل للطبقة الدنيا من رماة السهام أو هكذا ادعوا فيما بعد ، وقد أسفر ذلك عن رد فعل اعلامى سيىء حتى انهم لجأوا لتعليل تلك المعاملة الى الزعم بأن الفرنسيين كانوا يحاولون الهرب بشكل جماعى مما كان يمثل خطورة على محتجزيهم •

وأيا كان ما حدث فى كل من تلك الحالات ، فالسمة العامة هى انه لم يكن هناك ـ على عكس الوضع حاليا ـ قاعدة عامة تلزم المنتصر بالابقاء على حياة المهزوم لو طلب ذلك ، ولو أن مبدأ الفرسان السائد فى القرون الوسطى ـ على نحو ما وصفته شخصية مثل فرواسار ـ كان يستهجن ألا يسمح الفرسان لخصومهم بأن يستسلموا • وحتى فى هذه الحالة لم يكن الابقاء على حياة الخصم المهزوم حقا مطلقا له ، غير ان من يقتل خصما فى مثل هذه الظروف كان يكتسب سمعة بغيضة • ولكن مثل هذه السمعة قد تكون لها استخداماتها ، فهى تشهد على الارهاب الذى كان يمارسه السويسريون وهم المعروفون برفضهم عتق من يقع تحت أيديهم من

المهزومين ، كما انها تعرض الموصوم بها للمعاملة بالمثل لو تخلى الحظ عنه . ولم تكن ثمة مساءلة رسمية أو محاكمة للقاتل ما دام المقتول لم يكن من الشخصيات المرموقة التى كان يحتمل أن تدفع فدية كبيرة لو أعتقت .
ولو عدنا الى مطلع القرن السابع عشر فسوف نجد ــ على نحو ما كتب هوجو جروتيوس ــ انه لم يكن بوسع أفراد القوة المهزومة الا طلب الرحمة من المسيح . وسوف نرى بعد قليل ان نفس الشيء ينسحب على أفراد الشعب ممن لم يكونوا ضمن أية قوة مسلحة ولكن أوقعهم حظهم السيىء فى الأسر . وأحيانا ما كان المنتصرون يستجيبون للتوسلات وأحيانا لا ، وعادة ما كانت الاستجابة مرهونة بما يبدو عليه المتوسل من علامات القدرة على الدفع .

ولن نتناول هنا موقف أسرى الحرب فى الأماكن والأزمنة السابقة على القرن الرابع عشر ، وليس ذلك لانه لم يكن ثمة قواعد للحرب فى هذا العصر ، أو لأن مثل هذه القواعد كانت أقل شأنا من تلك الموجودة فى العصر الحالى ، ولكن كل ما فى الأمر أنه لكى نفهم هذه القواعد وأهميتها الحقيقية فلابد أن نتفكر فيما كان يمكن أن يحدث لو تبدلت تلك القواعد فيما بين العصرين ... فان معظم الناس فى العصر الحالى سيشعرون بالغضب ازاء نظام يفرق بين الأسرى على أساس مقدرتهم المادية ، أو بمعنى أدق مدى استعدادهم للاستجابة للابتزاز . أما سلفنا الذين عاشوا فيما بين ١٦٥٠ و١٨٠٠ ، فيعتقد انهم كانوا سيسخرون وينبذون النظام الحالى الذى يستبعد الأخذ بمبدأ الطبقية ويكفل ايواء الأسرى وكسوتهم واطعامهم ، ثم يعنى بتدبير نفقات الاعتقال . ولا يعنى كل ذلك بالطبع أن قواعد الحرب لا تنتهك ، فعادة ما تحدث تجاوزات سواء فيما يخص الأسرى أو ما يتعلق بأى أطراف أخرى . خلاصة القول ان هذه القواعد كانت موجودة دائما ، وما أن نتخلص من وجهة النظر المعاصرة الضيقة فسوف يبدو لنا كم هو كبير الدور الذى تلعبه هذه القواعد فيمايتعلق بالسؤال المطروح فى عنوان هذا الباب : ما الذى تدور حوله الحرب ؟

وكلما رجعنا بالتاريخ الى الوراء زادت مسألة اختلاف معانى المصطلحات والتوصيف تعقيدا . فحيثما قادت القوات المسلحة كيانات اجتماعية غير الدول ، وقادتها ضد تنظيمات اجتماعية ليست بجيوش ولا تنطبق على أفرادها أوصاف الجنود بمفهومنا الحالى ، انهارت الأسس الثالوثية . وينطبق نفس الشيء فى العصر الحالى على التمييز الشرعى بين الضباط والفئات الأخرى ، بين العسكريين والمدنيين ، بين المقاتلين وغير المقاتلين وكلها ابتداعات حديثة ، بل حتى فئة « الجرحى » لم تسلم

من ذلك التمييز ، فبما أن الناس يتعرضون للاصابة فى المعارك ، فان فئة «الجرحى» ، بوصفها فئة مستقلة لها حقوق خاصة وتستحق معاملة خاصة تمثل مبدأ ثالوثيا ، ولكنه لم يبرز الا فى القرن الثامن عشر • وكم كانت الظروف التاريخية مختلفة قبل عام ١٣٥٠ ، حتى ان المقارنة توحى بأن لفظ « سجين » فى حد ذاته ، وهو لفظ حديث ، ينطوى على ضرر أكثر مما ينطوى على نفع ، ولذلك أقترح أن نتوقف عند ذلك الحد ونكرس القسم التالى لمعاملة الأسرى من غير المقاتلين •

* قانون الحرب : غير المقاتلين

ويشكل الأفراد غير المقاتلين فى المجتمع ، والذين يعرفون أيضا باسم المدنيين أو « الشعب » الأغلبية العظمى من الذين يصابون فى الحرب ، الا لو دارت رحاها فى الصحراء • ومن هذا المنطلق يعتبر كلاوزيفيتس الشعب أحد أركان ثالوثه ، وهو يقول صراحة أن أية نظرية لا تأخذ الشعب فى الحسبان فهى لا تستحق حتى الورقة التى تكتب عليها • ومع ذلك فان صور الحرب الحديثة المعروفة باسم النزاعات المحدودة قد قوضت التمييز التقليدى بين الشعوب والجيوش فى كافة أنحاء العالم ، ويعزى ذلك الى أن الخط الفاصل بين الاثنين قد يكون واهيا لا يساعد على ابراز ذلك التمييز • وكيف يتسنى ذلك والعديد من البلدان النامية فى كل من أفريقيا وآسيا لم يجد حتى الوقت الكافى لأن يعمل على « بناء الأمة » ، ناهيك عن اقامة قوات مسلحة خاصة بها على غرار البلدان الأكثر تقدما • وتشهد حالات أخرى تعرض ذلك التمييز للهجوم الذى يصل الى حد الاعتداء المسلح ، وقد صار ذلك ظاهرة عامة سواء فى البلدان النامية أو المتقدمة ، وعادة ما يطلق على مرتكبى مثل هذه الاعتداءات اسم « الارهابيين » •

ومن منطلق انه مازال هناك الى حد ما التزام بالتمييز التقليدى بين المقاتلين وغير المقاتلين ، فان العديد من النزاعات المحدودة تشكل علامة استفهام • فلو ان الاسرائيليين ، على سبيل المثال ، قد فاض بهم الكيل وقرروا وضع حد لانتفاضة الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، لأمكنهم القضاء عليها فى غضون أيام • أليس بوسعهم ، لو تجاهلوا الرأى العام العالمى وتغلبوا على قيودهم الذاتية ، أن يعاملوا المتظاهرين والذين يلقون الحجارة كما لو كانوا أعداء حقيقيين ، فيخرجوا الدبابات والمدافع ذاتية الحركة من مخازنها فيلقى عدد كبير من الفلسطينيين مصرعهم ويرحل الجانب الأعظم منهم عبر الحدود الى الأردن ؟ ألم يكن كل ذلك ليتم بحجم

خسائر اسرائيلية لا يذكر أو بدون خسائر على الاطلاق بغض النظر عن العواقب الدولية ؟ لو حدث ذلك لجنت اسرائيل بجميع المقاييس حجما ضخما من المكاسب على المدى القريب . ومن هذا المنطلق يعتبر الموقف الاسرائيلى نموذجا للتقيد الذاتى ، ولو انه لن يكون هناك بكل تأكيد مخرج آخر لو استمرت الانتفاضة . ويثبت هذا المثال ومثات غيره ان الأفكار الحالية المتعلقة بطبيعة مفهوم « المدنيين » تعد ذات أهمية قصوى بالنسبة للحرب الحديثة ، فهذه الأفكار تحدد الى درجة كبيرة الاسلوب الذى يتم به تخطيط الحروب والاعداد لها وادارتها .

وفى اطار ما يتسم به ذلك التمييز من أهمية بالنسبة للشكل الحالى للنزاعات ، تبرز الملاحظة بأنه لم يراع على مدى جانب كبير من التاريخ ان لم يكن معظمه . ولنأخذ على سبيل المثال حالة المجتمعات القبلية القائمة على الصيد والزراعة : ان مثل هذه المجتمعات ، سواء القديمة أو الحديثة ، تقيم نظامها على التمييز بين أبنائها من حيث الجنس والسن . وبصفة عامة لا يلعب أعضاء المجتمع النسائى دورا فعالا فى الحروب ، باستثناء بعض الحالات المحدودة ، وسنتناولها فى فصل قادم من هذا الكتاب . ويقتصر دور النساء فى الغالب على تشجيع المحاربين والاشتراك فى الاحتفال بالنصر أو السقوط كضحايا فى حالة الهزيمة . أما الذكور فهم ينقسمون الى أطفال وغلمان ومحاربين وشيوخ ، وكلمة « محارب » تتحدث عن نفسها ، ومع ذلك فان معظم القبائل تضم مجموعة من الذكور، مثل الشامان (الكاهن الساحر) ، الذين لا يشتركون فى الحرب ومع ذلك يطلق عليهم محاربين لمجرد انهم من الذكور البالغين ، أى ان لفظ « محارب » يعنى فى هذه الحالة مجرد الانتماء لفئة سنية معينة فى المجتمع ، وثمة مثال آخر ورد فى كتاب اجزودوس حيث اعتبر ان أفراد الجيش فقط هم الذين يعتد بهم فى المجتمع من بين « الذكور الـ ٦٠٠,٠٠٠ من أبناء اسرائيل » وذلك بخلاف النساء والأطفال .

وتميل المجتمعات القبلية الى وضع الشيوخ فى مكانة عليا فتمنحهم من المميزات ما لا يحظى به الشباب . ولما كان الأمر يستوى بالنسبة للمرأة بعد انقطاع الدورة عنها فهى حرة بعد ذلك فى ممارسة الجنس مع من تشاء . ويقضى العرف فى هذه القبائل باعفاء كبار السن من الاشتراك فى الحرب . أما بقية الأفراد الذين يستبعدون من الاشتراك فى الحرب سواء بسبب السن أو الجنس ، فانهم يعتبرون من «المملوكين» . وقد استمر ذلك ساريا حتى مجتمعات متقدمة نسبيا ، مثل الجمهورية الرومانية التى كانت تمنح رب العائلة سلطة مطلقة على من يتبعونه بما فى

ذلك الحق فى قتل زوجته وبيع أبنائه في سوق العبيد ٠ وكأى مجتمع آخر ، فان المرأة والطفل يمثلان المستقبل ، ومن ثم يعتمد عليهما اعداد المحاربين،وهى حقيقة عادة ما يدركونها وفى بعض الأحيان تثير استياءهم ٠ وقد يلقى النساء والأطفال معاملة حسنة أو العكس ، وعلى اى الأحوال فان ذلك لا يؤثر على وضعهم بصفتهم أفرادا « لا ينتمون للمجتمع » وبالتالى فليس لهم أى « حقوق » ٠

وكانت الحرب فيما بين المجتمعات القبلية تتم بأحد أسلوبين : يتمثل الاسلوب الأول — وقد كان شائعا فى أماكن متفرقة بعيدة مثل أمريكا الشمالية وشرق أفريقيا وماليزيا — فى أن يتحدى طرف الطرف الآخر ويدعوه الى مبارزة جماعية ، ويتم الاتفاق على الموعد والمكان ، وهو عادة مكان مخصص لهذا الغرض ويقع فى منتصف المسافة بين قريتى الخصمين أو معسكريهما ٠ وفى الموعد المحدد تجتمع القبيلتان فى موقف لا يعبر عنه وصف أفضل من تشبيهه بمزيج من مظاهر الحفلات والرحلات ونوع من الرياضة العنيفة الخطرة ٠ ويتقدم المحاربون وهم فى أبهى زينة وعادة ما يكونون مسلحين بسهام أو حراب غير حادة ٠ ويقف غير المحاربين كمتفرجين ومشجعين وهم الاناث والغلمان والشيوخ (علاوة على الذين لا يريدون الاشتراك فى هذا اليوم بالتحديد) ٠ وعادة ما تقوم النساء بتشجيع رجالهن وتوجيه السباب للأعداء ، وأحيانا ما كانت ترفعن جلابيبهن وتأتين بكل الفواحش من الحركات ، وفى وقت الراحة كن تقمن بالتسرية عن المحاربين وتضميد جراح من أصيب ، وعادة لم تكن هناك اصابات كثيرة ٠

أما الصورة الثانية للحرب بين المجتمعات القبلية ، وكانت سائدة فى أماكن مثل أمريكا الجنوبية وغينيا الجديدة ، فهى أشد خطورة وأيضا أقل تسلية من وجهة نظر غير المحاربين ، فهى تتمثل فى قيام مجموعة من المحاربين بعمل كمين لأفراد قبيلة مجاورة أو بالاغارة على قريتهم ، وعادة ما كان يتم ذلك قبل الفجر ويسفر عن تدمير قرى بأكملها ٠ وأيا كانت التكتيكات المستخدمة فى هذا القتال فلقد كان « دور » الذكور من الأعداء هو أن يقتلوا فى الحال أو فيما بعد وفقا لأعراف وطقوس آكلى لحوم البشر مثلما كان يحدث فى ماليزيا والبرازيل ٠ وقد تلقى النساء والأطفال مصرعهم كذلك ، ولكن غالبا ما كان يتم أسرهم ٠ وكان من عادة الماوريين النيوزيلنديين أن يقصوا شعر الأسيرات ويستخدمونه فى قيد أسراهم من الرجال قبل اقتيادهم الى قريتهم ٠ ولما لم تكن هناك دولة أو حتى جمهورية مدينة ، فقد كان الأسرى وممتلكاتهم يؤولون الى من

أسرهم ، أى ان الغنائم كانت فردية · وكان مصير الأسرى هو التعايش الجبرى وسط أفراد القبيلة المنتصرة حيث كان الأطفال يعاملون كأطفال والنساء كنساء · وبما أن الرق لم يكن معروفا ، فما أن يمضى جيل أو اثنان حتى ينصهر الأسرى تماما فى المجتمع الجديد ·

وثمة مرحلة انتقالية بين المجتمعات القبلية و « المتحضرة » وهى ما جاء وصفها فى سفر تثنية الاشتراع من أسفار التوراة · فقد كتب الله فيه لأبناء اسرائيل بعد انتصارهم فى احدى الحروب أن يختاروا من النساء الأسيرات من تهفوا اليهن نفوسهم ويتخذوا منهم أزواجا ، غير أنهم أمروا بأن يسمحوا لهن بالحداد لمدة شهر على من مات من أهلهن · أما النساء اللاتى لم يرقن لأحد فيطلق سراحهن ومحرم عليهم بيعهن أو معاملتهن معاملة خشنة · ولم يختلف مصير نساء طروادة عن ذلك ، الا انه لم يرد فى أى من الأسفار ذكر للوقت الذى ينبغى أن تنتظرنه حتى يحين موعد طلبهن للجنس وللمعاملة التى ستلقينها بعد ذلك · وكان مصير الرجال القتل ، أما الأطفال فكانوا اما يقتلون مثل ازتياناكس بن هكتور أو يسترقون ، بينما يتم ترحيل الأسيرات على متن مراكب سوداء الى Achaea · وأحيانا ما كان يحتجز الرجال من يروقهم منهن ليستخدموهن فى قضاء حاجاتهم فى المنازل وقد يضاجعوهن لو أرادوا ذلك · غير أن المجتمع الذى وصفه هومر يختلف عما جاء فى أسفار التوراة من حيث انه لم يكن يسمح بتعدد الزوجات ، وبالتالى كان يمكن مضاجعة الأسيرات ولكن لم يكن من الوارد أن يتزوجوهن · وقد دفع الأبطال الذين خالفوا ذلك ــ مثل نيو بطليموس بن أجا ممنون وأخيل ــ ثمن فعلتهم حيث قتلتهم زوجاتهم الأصليات ·

وتميل المدرسة الحديثة الى الاعتقاد بأن زمن كتابة الوصايا التوراتية يتواكب تقريبا مع حرب طروادة .وكان ذلك فى الثلث الأخير من الألف الثانية قبل الميلاد · ومنذ ذلك التاريخ وعلى مدى ثلاثة آلاف سنة استمرت النزاعات المسلحة تنقسم الى قسمين : الحرب الميدانية وعمليات الحصار ، ويعد ذلك من أطول أنواع التقسيم استدامة على مدى التاريخ العسكرى كله · ولقد بقى ساريا لعدة قرون بعد ثورة البارود ، وبغض النظر عن نوع الأسلحة الثقيلة المستخدمة فى الحروب سواء أكانت حرابا أم منجنيق أم مدافع · ولقد كانت السمة المشتركة فى الحروب الميدانية من وجهة نظرنا ..هى انها كانت بمثابة مباريات بين الجيوش أيا كانت تشكيلاتها أو تكتيكاتها ، وكقاعدة عامة لم يكن ثمة وجود لغير المحاربين فيها · وقديما اقترح بلاتو فى جمهورية المدينة أن يؤخذ الصبية

الى ميدان القتال تحت الرعاية اللازمة ليرقبوا ما يحدث ويتعلموا منه ، غير أنه بخلاف الحروب الأولية التى تناولناها سالفا ليس هناك ما يدل على أن ذلك الاقتراح قد وضع موضع التنفيذ ٠

ولقد كان من الوارد ، سواء نحو عام ١٢٠٠ قبل الميلاد أو على مدى التاريخ بعد ذلك وحتى عام ١٦٤٨ ، ان يقابل جيش أناسا غير مقاتلين ، وكان ذلك يحدث أساسا أثناء المسيرات من والى ميادين القتال أو أثناء عمليات التزود بالمؤن ٠ وكانت معاملة الجنود لهؤلاء الناس تختلف من حالة لأخرى ؛ كما انها كانت مرهونة بنوع المؤسسة الاجتماعية التى كانوا يعيشون فى كنفها ، ففى الأراضى الصديقة أو المحايدة قد تصدر الأوامر للقوات بدفع ثمن ما يأخذونه ، وأحيانا ما كان يتم ذلك أيضا فى أرض العدو ، غير أن مثل تلك الحالات كانت نادرة حتى النصف الثانى من القرن السابع عشر ٠ أما فى المعتاد فقد كانت الجيوش تتصرف كما لو كانت أسرابا من الجراد تأكل كل ما يمكن أن يؤكل ثم تحرق الباقى ٠ وفيما يتعلق بالناس ، فمن كانت تبدو عليه علامات اليسر كان يحتجز من أجل الحصول على الفدية أو يتعرض للتعذيب ليفصح عن أماكن ثروته ٠ وفى العصور التى عرفت الرق كان الجنود يأخذون هؤلاء الناس ويبيعونهم سواء بشكل مباشر أو فى أغلب الأحوال عن طريق سماسرة متخصصين ، كهؤلاء الذين جاءوا فى أعقاب الجيوش الرومانية على وجه الخصوص ٠ وهكذا وعلى مدى ذلك التاريخ كان أقل ما يمكن أن يتوقعه السكان فى مثل هذه الحالات هو ضياع ممتلكاتهم ، ولو حاولوا المقاومة ، أو حتى ان لم يحاولوا ، فمآلهم اما الرق أو القتل ٠

ولدرء مثل هذا المصير ، كان الناس الذين تتعرض بلادهم للتهديد بالغزو يلجأون الى المواقع الحصينة أو القلاع ويأخذون معهم كل ما يمكن نقله من مقتنياتهم ؛ وكان من نتيجة ذلك انه عندما كانت تغير قوة على احدى القلاع وتتمكن منها ، فانها تجد بين جدرانها أعدادا كبيرة من غير المحاربين من الجنسين ومن جميع الأعمار ٠ ولم يختلف الأمر من عهد اليونان القديمة وحتى حرب الثلاثين عاما ، فقد كانت مقولة زينوفون تنطبق جيدا حيث كانت «حياة المهزومين وممتلكاتهم تؤول الى المنتصرين»٠ وكان المهاجمون يتفاوضون أحيانا مع المدافعين بشأن الابقاء على حياتهم (وفى بعض الأحيان ممتلكاتهم) مقابل سرعة الاستسلام ، وحتى تيمورلنك ؛ ذلك القائد المغولى الذى اشتهرت فتوحاته فى آسيا الوسطى بما كانت تسفر عنه من جبال من الجماجم البشرية ، فقد كان يفضل منح الموقع الذى سيضرب حوله الحصار بعض الوقت للاستسلام قبل

أن يقرر البدء فى هذه العملية المملة • وكلما كان الحصار طويلا وصعبا زاد احتمال أن تشفى القوات المهاجمة غليلها بالانتقام فى عربدة من القتل والنهب والاغتصاب •

وأحيانا ما كان القائد المنتصر يجد نفسه فى موقف حرج مع قرب استسلام الخصم ، مع ما يمثله ذلك من فرصة للنهب والسلب ، فقد يعنى ذلك تقويض سمعته أمام التاريخ لا سيما لو كان المكان المحاصر مكانا مقدسا أو ذا قيمة تاريخية أو ما شابه ذلك ، خاصة وانه سيفقد لبعض الوقت السيطرة على قواته ، وقد يسفر ذلك عن تدمير بعض الممتلكات القيمة • ولذلك كان كثير من القادة يحاولون منع حدوث ذلك ، وأحيانا ما كان التوفيق يحالفهم وأحيانا لا • وقد بذل تيتوس على سبيل المثال ، كل ما فى وسعه للحيلولة دون نهب القدس عام ٦٩ أو هكذا ادعى يوسف• وفى أوربا كان بعض القادة فى مطلع العصر الحديث يدفعون لجنودهم الأموال لمنع انقضاضهم بشكل عارم يقتلون وينهبون ، وكان الهدف من ذلك هو منع الفوضى ومحاولة تقليل حجم التلفيات بقدر المستطاع • وفى المقابل كان هنـاك من القادة من يستغلون مثل هـذه المواقف ويطلقون الجنود يفعلون ما يشاءون ، اما لترهيب المواقع الأخـرى التى تفكر فى رفض الاستسلام ، أو كنوع من مكافأة الجنود • ومن أمثلة ذلك قيـام الرومان فى عام ١٤٦ قبل الميلاد بنهب مدينة كورنث وتدميرها تماما ، فكانت نتيجة موجة الذعر التى انتشرت اثر ذلك أن ظل اليونانيون لمدة قرون لا يجرؤون على الثورة • وكانت على الأرجح آخر مرة تشهد فيها مدينة محاصرة فى أوروبا مثل هذا الأسلوب القديم فى النهب والسطو هى تلك التى جرت أثناء قيام ولينجتون بأسر بداجوث فى أسبانيا عام ١٨١١ •

وكانت الأفكار الثالوثية المتعلقة بطبيعة الحرب قد بدأت بالفعل منذ القرن الثامن عشر تؤثر على سير المعارك • ومع ادخال نظام الجيوش المحترفة كان هنـاك اتجـاه متنام بعـدم الاضرار بسكان المدن المهزومة ، وكان هنـاك التزام مطلق على الصعيد الرسمى وخاصة اذا كان الأمـر يتعلق بأرواح هؤلاء السكان • غير ان ذلك الاتجاه لم يشمل الممتلكات وان تغيرت الأساليب • واستمر ذلك حتى حرب ١٨٧٠ ــ ٧١ حيث طلب الغزاة البروسيون من السكان دفع « مساهمات » ، بمعنى انهم باختصار امروا سـكان المدن الفرنسية المحتلة باخـراج الجياد والمؤن والأمـوال وتسليمها لهم • أما الجيش الفرنسى فقد حـول فكرة « تغـذية الحرب بالحرب » الى نوع من الفن الرفيع ، وحتى خلال القرن الثامن عشر الذى شهد حضارة مزعومة ، كانت جباية المساهمات و « أكل كل ما يمكن أن

يؤكل » هو الأسلوب الذى ينتهجه مدراء أجهزة الامداد والتموين مثل بويسيجور الذى خدم تحت قيادة الملكين لويس الرابع عشر والخامس عشر • وكانت جيوش القرن السابع عشر أسوأ سمعة من خلفها فى أسلوب انتزاع « المساهمات » ، فكانت اذا سقطت مدينة دخلها ضابط يرافقه حرس ويجوب أرجاءها ويقيم منازل السكان بعين خبير ، ثم يستدعى عمدة تلك المدينة ويبلغه بمقدار المال الذى ينبغى أن يدفعه عن المدينة ويأخذ زوجته كرهينة • وكان من الوارد أن يحدث فصال ومساومات • أما المدينة التى كانت ترفض الدفع فكانت تتعرض للحرق وأحيانا ما كان يلقى بأهلها أنفسهم فى الحريق •

أما اليوم فنحن ننعم بما يسمى « حقوق الانسان » ، وهو عمل وضع أساسه منذ ما يربو على قرنين من الزمان أمريك فاتيل الذى توفى فى عام ١٧٦٧ ، ومازالت النظريات المتعلقة بمعاملة غير المقاتلين ، والتى يرجع تاريخها الى نشأة نظام الدولة المطلقة ، تقوم على هذا العمل حتى اليوم • ومنذ عهد فاتيل وحتى يومنا هذا كانت الفكرة الرئيسية التى يدور حولها كل شىء تتمثل فى ان الجهاز العسكرى يعد كيانا شرعيا مستقلا وهو الوحيد من بين كل أجهزة الدولة المنوط بخوض الحرب • وينص القانون الدولى الحديث على ان الناس الذين لا ينتمون للقوات المسلحة وليسوا من المسئولين فى السلطة لا يحق لهم حمل السلاح او الاشتراك فى الحرب أو ابداء أى نوع من المقاومة ، ويكفل لهم فى المقابل عدم المساس بأشخاصهم من جانب أى غزاة • ولا يعنى ذلك ان القانون الدولى الحالى لا يجيز تدمير ممتلكات المدنيين أو الاستيلاء عليها ، غير ان مثل هذه الأشياء لا ينبغى أن تحدث الا خلال فترة العمليات العسكرية ولا ينبغى أن تتجاوز مقتضيات « الضرورة العسكرية » •

وثمة شق آخر من التأثيرات الممتدة لأفكار القرن الثامن عشر مؤداه ان انتهاء العمليات العسكرية ، ليس بمثابة رخصة مفتوحة تبيح كل شىء مثلما كان عليه الحال طيلة معظم عصور التاريخ ، بل على العكس فان القانون يقضى بأن يعامل سكان الأراضى المحتلة كما لو كانوا أطفالا حرموا بصفة مؤقتة من حقوقهم السياسية ، ولذلك فهم أشد ما يكونون بحاجة الى الرعاية ! ويجوز للغزاة احتلال الممتلكات العامة ولكن ليس من حقهم الاستيلاء على الممتلكات الخاصة • ومن المفروض ان يظل القانون المحلى سائدا ويجوز ادخال بعض التعديلات عليه مثل تلك التى تكفل توفير الأمن العام ، أو بمعنى أدق أمن الغزاة ، وهؤلاء مطالبون بأن يبذلوا كل ما فى وسعهم من أجل تهيئة الفرصة للسكان لأن يعيشوا حياة طبيعية ،

ويقتضى ذلك تشكيل حكومة سواء مدنية أو عسكرية مهمتها رعاية مصالح الناس الى أن يحل السلام • ويجوز للغزاة أن يفرضوا الضرائب لتغطية نفقات الاحتلال ، ولكن لا يحق لهم الاستيلاء على الموارد الاقتصادية، أو السطو على التراث والكنوز الفنية وما شابه ذلك أو ترحيل العمالة (وقد تسبب مثل ذلك العمل العدوانى فى توصيل فريتز سوكل امبراطور العمل فى عهد هتلر الى حبل المشنقة فى نورمبيرج) •

ويرجع تاريخ معظم المعاهدات الدولية التى تنطوى على هذه الأفكار الى زمن الحرب « المتحضرة » فيما بين ١٨٥٩ و ١٩٣٩ • ورغم ان الحرب الفرنسية البروسية والحرب العالمية الأولى شهدتا انتهاك هذه الأفكار الى حد ما ، فقد ظل هناك على الأقل التزام واسع النطاق بالمبادىء الأساسية• أما فى الحرب العالمية الثانية فقد انهار تماما التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين بصورتين رئيسيتين : الصورة الأولى تتمثل فى « القصف الاستراتيجى » الذى دمر كل شىء : الرجال والنساء والأطفال ناهيك عن كل الكنوز والتراث الدينى والفنى من كل نوع • أما الصورة الثانية وربما كانت الأهم على الصعيد التاريخى ، فتتجسد فى انه كان هناك اتجاه فى العديد من البلدان المحتلة لأن يحمل السكان السلاح مرة ثانية بعد استسلام حكوماتهم • وقد طبق الألمان نظاما يشبه قانون اتحاد العمال الأمريكى عندما عاملوا الديجوليين الأحرار فى فرنسا كما لو كانوا جنودا مخلصين يخدمون حكومة شرعية • غير ان الوضع اختلف حين تعلق الأمر بحركات المقاومة فى العديد من البلدان ، فقد تعرض أعضاء تلك الحركات — أيا كانوا وأيا كان أسلوبهم فى المقاومة — للمطاردة والاعتقال والتعذيب والاعدام •

وكان النازيون يعتبرون المدنيين الذين يعتدون على جنودهم وهم لا يحملون أية علامة مميزة ولا يحملون السلاح بشكل علنى ، من القتلة• والأغرب من ذلك ان الحق كان فى صف النازيين من وجهة نظر القانون الدولى • ولكن انطلاقا من الشعور المتزايد بعد الحرب بعدم سلامة وجهة النظر هذه من جانب ، ومن تصاعد عدد حروب التحرير الوطنى منذ عام ١٩٤٥ من جانب آخر تم تدريجيا تعديل القانون الدولى • وفى عام ١٩٧٧ أقر اجتماع عقد فى جنيف بمنح « المقاتلين المستقلين » نفس حقوق المحاربين • وقد لا يشكل هذا القرار تطورا ايجابيا على نحو ما يبدو لأول وهلة ، فكل حكومة تصر من جانب على أن المتمردين من رعاياها ليسوا من المقاتلين المستقلين ، بل هم لصوص وارهابيون لا ينبغى أن يستظلوا بحماية القانون ، والأهم من ذلك انه لو لقى الارهابيون من جانب آخر

نفس معاملة المقاتلين فقد يلقى المقاتلون نفس معاملة الارهابيين ، فمن اذن الذى استفاد من ذلك التعديل ما لم يكن الإرهابيون أنفسهم ؟

نستخلص من ذلك أن قوانين الحرب على نحو ما هى عليه اليوم تعتبر بعيدة عن الكمال ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أنها تنتهك كل يوم . ومع ذلك فهى ما زالت على الأقل لا تجيز للمنتصر أن ينتهك بشكل مباشر المهزوم فى شخصه أو ممتلكاته ناهيك عن نسائه . وتفيد سجلات القضاء العسكرى الأمريكى ان عدد حالات الاعدام ، خلال الحرب العالمية الثانية ، بتهمة الاغتصاب يفوق مثيلتها فى أية جرائم أخرى ، لا سيما لو كان المغتصب من السود ولا سيما أيضا لو انتهى الأمر بموت الضحية بعد اغتصابها . وعلى النقيض من ذلك فقد يكون الاسرائيليون قد قتلوا عددا من الفلسطينيين ولكن الى يومنا هذا لم يحدث حتى الآن أن عرض التليفزيون الأردنى حالة اغتصاب واحدة من جانب الاسرائيليين .

ولو ان هذه الحقائق نقلت الى سلفنا لتساءلوا بلا شك : لماذا اذن يحارب الأمريكيون والألمان والاسرائيليون أصلا ما داموا لا يسمح لهم حتى باشباع الحاجات الطبيعية لأبطالهم ؟ . وبمقارنة الوضع الحالى بما كان سائدا فى الماضى يتضح ان التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين ، وهو أمر لا يمكن بأية حال الاستهانة به ولا اغفال جدواه بالنسبة للأسلوب العملى فى ادارة الحرب الحديثة ، هو الذى يحدد ما الذى تدور حوله الحرب .

* قانون الحرب : الأسلحة

ولقد كانت هناك أيضا على مر العصور قواعد تحكم استخدام الأسلحة فى الحروب . ولو ان النزاعات المسلحة كانت مجرد استخدام لأى نوع من القوة لتحقيق أغراض معينة ، على نحو ما يقضى به عالم كلاوزيفيتس ، لما كان هناك مثل هذه القواعد ، ولكن الواقع يشهد بأنها كانت موجودة فى كل الحضارات التى عرفت الحروب بما فيها حضارتنا.

وكم هى طويلة قائمة الأسلحة التى أعلن لسبب أو لآخر انها «غاشمة» وقد بدأت منذ العالم القديم ! . ونستشهد على ذلك من الماضى القديم بمثل « باريس » ، ذلك الرجل الذى اختطف الملكة هيلين ثم تزوجها بعد ذلك ، وذاع صيته كعاشق أكثر منه كمقاتل حيث كان سلاحه المفضل هو القوس ، وليس السيف ، ولذلك نعتته الالياذة بمجموعة من الصفات البغيضة مثل « الجبان » و « الضعيف » و «المرأة ».

وينسحب ذلك أيضا على أياكس وتوكروس ابنى تيلامون حيث كان الأول يقاتل بالرماح فكان يعد من كبار الأبطال أما الثانى فقد كان رامى قوس ماهرا ، ورغم أنه كان يبلى بلاء حسنا فى ميـدان القتال فقد كان جبـانا يختبىء وراء درع رفيقه فى الحرب لأنه كان أكبر من درعه حتى قيل انه « كطفل يختبىء فى ملابس أمه » • ولم يكن استهجان استخدام القوس مقصورا على الأساطير والملحمات ، فقد روى بلوتارش ان ليكورجوس كان اذا أراد اظهار شجاعة الاسبارطيين منعهم من استخدام القوس •

ولما كان الدين اليونانى القديم يجسد الآلهة فلا يبعث على الدهشة ان مثل ذلك التمييز كان سائدا فيما بين الآلهة فى جبل أوليمب ، فلم ينعت يوريبيديس فى حروبه أحدا بالجبن مثلما نعت هرقل نفسه حيث اتهمه بانه يفضل الرمى عن بعد عن الالتحام رجلا لرجل وعن اتخاذ مكانه فى الصف الأول خشية التعرض للجرح بطعنات الرمح • ولما كان التسليح المميز لبوسايدون اله البحر ، هو الرمح الثلاثى ، فقد كان يعد أقوى وأشجع وأقرب الى صـورة الانسـان من أبولو ذى القوس الفضى • وقد صنفت أيضـا الاناث من الآلهة بحسب الأسلحة التى كن يستخدمنها ، وكانت أقواهن أثينا البكر الاهة الحرب التى كانت ترتدى الدرع وتتسلح بالرماح ، وكانت الأقرب الى قلب أبيها من بنـات جيلها ، وكانت أشد بأسا من أختيهـا أرتميس الاهة الصيد وأفروديت الاهة الحب وكانت الاثنتان تستخدمان القوس •

ولا تخفى على أحـد الأسباب التى تبعث على استهجان اسـتخدام أسلحة القتل عن بعد حيث يقول عنها هوم انها لا تشكل اختبارا حقيقيا لقدرة الرجال ، فقد جعلت ضعيفا مثل باريس يصيب بالقوس ديوميدس ثم يقتـل أخيـل أعظـم بطـل فى التـاريخ • وعلى النقيض من ذلك ، يعبر الفرس عن ملامح القوة النموذجية بقولهم ان الرجـل ينبغى ان يتحلى بثلاث : ركوب الخيل ورمى القوس وقول الصدق • أما التقاليد العسكرية الغربية فهى على العكس من ذلك ترى فى استخدام القوس نوعا من الجبن ، فهو يصلح للصيد أو للرياضة لكن لا ينبغى ان يستخدم فى الحرب الا تحت وطأة الظروف • ومما يدل على مدى الالتزام بمثل هـذه التقاليد ان الأسلحة ذات المدى البعيد مثل السهام والمقلاع كانت على مدى العصور القديمة التى امتدت لزهاء ١٥٠٠ سنة تعتبر أسلحة العجزة • ولقد كان الجندى اليونانى القديم يربأ بنفسه عن استخدام هذه الأسلحة • وكانت وحدات رماة القوس والمقلاع ، بل والرماح تتكون من أفراد من الطبقات الدنيا ، أو من الأجانب من أنصاف المتحضرين • ولم تبلغ أى من

مثل هذه الوحدات أو أى من مثل هؤلاء الأفراد أية مرتبة عسكرية حقيقية فى الجيش الرومانى • ورغم ان اسهام مثل هذه الوحدات فى الحرب كان يكتسب أهمية كبيرة ، فقد كان يطلق عليها اسم الوحدات الملحقة (auxilia) وكانت تخدم لفترات أطول من الجنود العاديين وتتقاضى أجورا أقل منهم •

وعندما انتقل التاريخ من العصور القديمة الى القرون الوسطى أصبح استخدام القوس يرتهن بالجغرافيا ، فبينما كان البيزنطيون ، الذين يتكون عدد كبير من وحداتهم من المرتزقة الوافدين من السهول الروسية ، يلجأون لاسلوب القتال من فوق ظهور الجياد ويستخدمون الأسلحة بعيدة المدى كان الفرنجة الذين أقاموا الممالك الميروفنجية فى الغرب يفضلون القتال رجلا لرجل ويستخدمون الحراب والسيوف والبلط ، ثم تحولوا بعد ذلك الى استخدام الخيول وصاروا فرسانا مع الاحتفاظ بأسلوب القتال المتلاحم ، واستمر القوس ، مثلما كان فى العصور القديمة ، سلاحا من الدرجة الثانية • وقد تضمنت افتتاحية ملحمة الفرسان الكاروليين العظيمة المعروفة باسم « أغنية رولان » (Chanson de Roland) أبياتا تسخر من المسلمين لرفضهم القتال عن قرب واعتمادهم على « الصواريخ » ! ولقد حاول المجلس الكنسى الثانى « تحريم » استخدام القوس والنشاب باعتبارهما سلاحا وحشيا ، أو بالأصح سلاحا فعالا ضد المسيحيين • ولعل أفضل طريقة لفهم مغزى ذلك التحريم تتمثل فى التعرف على « الوضع الاجتماعى » للقوس ، فالانتصارات العظيمة التى حققها ادوارد الأول وادوارد الثالث وهنرى الخامس فضلا عن الفاتح وليم تعزى فى جانب كبير منها الى القوس • وكانت قواتهم تستخدم القوس فى البداية بطريقة النورمانديين ثم استخدموا بعد ذلك أقواسا أطول اقتبسوها من السلاح الوطنى لرجال قبائل ويلز الانجليزية • غير ان الملوك أنفسهم لم يستخدموا القوس ولم يسمحوا لأبنائهم أو باروناتهم بالتدرب به الا من قبيل الرياضة • ولكن ثمة وجها آخر للمسألة ، فمن بين أسباب نبذ استخدام القوس أنه سلاح رخيص ويمكن لأى شخص اقتناءه ومن ثم فهو لا يرقى لأن يكون رمزا لرفعة الشأن •

ومن جهة أخرى يمثل دور القوس فى غير أوقات الحرب — أى أثناء المسابقات أو ألعاب التسلية بكافة صورها — دلالة ثانية على مدى تدنى وضع هذا السلاح • فمنذ عهد أخيل على سبيل المثال كان الرمى بالقوس هو آخر المسابقات وأقلها شأنا فى العرض الذى أقامه

تكريما لصديقه باتروكلوس الذى لقى حتفه • وكان نفس الوضع سائدا فى مسابقات القرون الوسطى ، حيث كان استخدام القوس فى المسابقات بين الفرسان محظورا ، الا ان هذه القاعدة كانت تنتهك أحيانا فى الأيام الأولى • غير أن الأمور تغيرت مع الوقت وأصبحت تجرى مسابقات للرمى بالقوس ، ولكن فى الفواصل بين برامج الحفلات تماما مثل العروض الراقصة التى تقدمها الفتيات ، أو العروض الرياضية الخفيفة التى تقدم فى فترة الاستراحة بين شوطى مباريات كرة القدم الحديثة • وأحيانا ما كان الرمى بالقوس يتسبب فى نهاية الحفل•ولم يكن الفرسان يشتركون فى مسابقات الرمى بالقوس ولا النساء من طبقة النبلاء ، غير أن هؤلاء النساء أحيانا ما كن يستخدمن القوس والنشاب فى التدريب أو الصيد ، وفى ذلك دلالة أخرى على طبيعة القوس المثيرة للجدل كسلاح حرب من الدرجة الأولى •

ثم جاء دور الأسلحة النـارية • ولقد ابتكرت تلك الأسلحة فى القرن الرابع عشر ، غير أنها لم تصبح ذات قيمة الا بعد مرور ما يربو على قرنين من الزمان • ولما كان السلاح النارى يتيح لواحد من العامة ان يقتل فارسا من بعد ، فقد شكل تهديدا لوجود عالم القرون الوسطى ، ولقد ساعد بالفعل فى نهاية المطاف على انتهاء هذا العصر • ولقد رأى المماليك فى مصر والساموراى فى اليابان ان الأسلحة النارية لا تتناسب مع الوضع الاجتماعى للفئات الحاكمة ومن ثم قرروا تحريمها • وكانت هنـاك فى أوروبا أيضا مقاومة للأسلحة بعيدة المدى حيث أبدى عدد كبير من المشاهير ـ وعلى رأسهم أرسطو وسرفانتس وشكسبير وملتون ـ احتقـارهم لها ووصفوها بأنها من ابتكار الشيطان • وبما أن تلك الأسلحة اعتبرت فى الأصل أسلحة دنيا ، فقد كان من يستخدمونها ينسبون فى الغالب لفئة الفنيين أو السحرة أكثر منهم لفئة الفلاحين البسطاء • وتفسر هذه العوامل مجتمعة السبب فى تعرض من كان يستخدم الأسلحة النارية للعقوبة فى بعض الأحيان • وكان جيان باولو فيتيلى قائد المرتزقة الايطالى فى القرن الخامس عشر يلجأ الى فقء عينى أسراه من مستخدمى السلاح النارى وقطع أيديهم ، بينما كان زميله بايار ـ الذى سجله التاريخ بوصفه الفارس الذى لا يعرف الخوف ولا يخشى اللوم ـ يعدمهم •

ولم يكن ما تكفله الأسلحة النارية من سهولة القتل عن بعد السبب الوحيـد لما بدا من استهجان لها • فالجيل الأول من تلك الأسلحة كان يصعب ، ان لم يكن يستحيل ، استخدامه من فوق ظهور الجياد ، وبالتالى شـكل فى أوروبا وفى مصر المملوكية تهديدا بدنو أجـل نظـام اجتماعى بأكمله ظل على مدى مئات السنين يقسم البشر الى قسمين : من يركب

الخيل ومن لا يركب الخيل · وقبل ابتكار الخراطيش المعدنية فى نهاية القرن التاسع عشر ، كان استخدام الأسلحة النارية البدائية يتسم بالارباك والقذارة والخطورة ، حيث كان يتم تعمير البارود ــ وهو نوع من البودرة السوداء ــ بشــكل منفصل عن المقــذوف وتلك عملية تتسم بالتعقيد ، وأحيانا ما كان ينتهى الأمر بانفجار الشحنة في وجه الرامى · وأيا كانت الأسباب ، فقد استمرت مسألة استهجان الأسلحة النارية طيلة القرن التاسع عشر وامتدت الى مطلع القرن العشرين ، بل ان البعض من طبقة النبلاء الأوروبية استمر حتى قبيل الحرب العالمية الأولى يفضـل قتال الفرسان على أية صورة أخرى من صور الحرب ، وقد يعزى ذلك الى أن السلاح الرئيسى للفرسان ظل حتى ذلك الحين هو السيوف ·

ولعل من أهم الأسباب التى تبعث على نبذ سلاح ما هو مجرد أن يكون جديدا ، فبغض النظر عن كونه بصفة عامة فعالا أو غير فعال ، فهو غالبا ما يهدد الأفكار السائدة المتعلقة بكيفية ادارة المعركة وبالمحور الذى تدور حوله الحرب · وذلك يفسر لماذا تطلق عادة صفة « غاشمة » على الأسلحة المبتكرة فى أوقات التقدم التكنولوجى السريع ، ومن أهم الأمثلة على ذلك المنجنيق اليونانى المبتكر نحو عام ٤٠٠ قبل الميلاد ، وبالطبع الأسلحة النارية فى العصر الحديث · واذا اقتربنا بالتاريخ قليلا من الزمن المعاصر فسوف نجد ان الفترة ما بين ١٨٥٠ و ١٩١٤ كانت من الفترات التى شهدت طفرة تكنولوجية ضخمة ، فباستثناء الولايات المتحدة ، التى كانت قواتها المسلحة المحترفة محدودة وكان معدل تحولها الى صور الحرب التقليدية ابطأ نسبيا من غيرها ، شهد العالم تطورا مفاجئا ومذهلا فى التكنولوجيا العسكرية · وحتى عهد كلاوزيفيتس لم تكن ثمة بوادر لمثل هذا التقدم ، حتى انه لم يدرج فى كتابه «عن الحرب» الذى ظهر فى ١٨٢٠ التكنولوجيا العســكرية ضمن العوامل الرئيســية المهيمنة على الحرب ، ولا حتى أشار الى احتمال حــدوث تطور كبير فى هذا المجال · ولم يكد يمضى عام على وفاته ، حتى ظهر كم كان هو بعيدا عن الواقع فى هذا المجال حيث تم انتاج أول بندقية تعمر من الخلف وكان ذلك فى مصنع جوهان دريس التابع لمؤسسة ساكسون للأقفال ·

ومع تطور الصناعة واتساع نطاقها بدأت تؤثر على الحرب وبدأت المعدات الحديثة تظهر الواحدة تلو الأخرى ، فسرعان ما تلا التعمــير من الخلف ششخنة المواسير ، ثم انتاج البنادق نصف الآلية ثم البنادق الآلية ثم الرشاشات التى تستخدم بارودا لا يثير دخانا وتنشر الموت بمعــدل ٦٠٠ طلقة فى الدقيقة ، كما تطورت المدافع ، فبعد أن كانت المواسير من

البرونز أصبحت تصنع من الصلب • وبعد أن كان التعمير يتم من مقدمة الماسورة فلا يكاد مدى القذيفة يصل الى ميل واحد ، صارت المدافع تعمر من الخلف ولها كتلة ترباس ومواسير مششخنة وأصبحت معدات عملاقة يصل وزنها الى مائة طن•وقد ارتفع معدل نيران المدافع بعد ادخال أجهزة الرجوع الحديثة عليها ، وكان أول نموذج لأجهزة الرجوع من ابتكار الفرنسيين فى عام ١٨٩٧ • وكانت قدرة أكبر المدافع البحرية أوالساحلية فى زمن الحرب العالمية الأولى تقف عند حد اطلاق قذيفة واحدة كل دقيقة وزنها طن ويصل مداها الى خمسة عشر ميلا • وقد واكب استخدام مثل هذه المدافع ظهور المعدات والأجهزة المعاونة مثل السكة الحديد والتلغراف• ولم تكن هذه الأجهزة قد ابتكرت لغرض الحرب ولكن سرعان ما تم توظيفها للأغراض العسكرية • وكان من ضمن هذه المعدات أيضا السفن البخارية والغواصات والمناطيد والديناميت والأسلاك الشائكة وغيرها من الأجهزة المهمة •

وتلقى القصة المدهشة لكيفية استقبال التكنولوجيا الحديثة الضوء على العديد من الأفكار والدوافع الاجتماعية التى كانت تحرك المبتكرين • ولنضرب مثلا بالسكة الحديد ••• يقول رجل الاقتصاد الألمانى الشهير « فريدريك ليست » فى مقال رائع ان السكة الحديد قد يكون من شأنها أن تجعل من الحرب نفسها أمرا مستحيلا ، فهى ستساعد الطرف المدافع (بفرض ان شبكته ستبقى سليمة) وتعوق الطرف المهاجم (الذى سيواجه أرضا تعرضت للحرق والاتلاف)• وعندما ابتكر ألفريد نوبل الديناميت فى عام ١٨٨٧ ، كانت له آمال مماثلة تقوم على الاعتقاد بأن تلك المتفجرات تعد أقوى كثيرا من أن تستخدم فى الحرب • وغالبا ما كان العسكريون وقيادتهم السياسية يتلهفون على اقرار المعدات ذات الطابع الغامض لمحاولة السبق فى الاستفادة منها ، غير أنهم كانوا فى نفس الوقت يتأرجحون لأسباب أكثر عمقا ، حيث كانوا هم وغيرهم — من أمثال رجل البنوك اليهودى ايفان بلوش الذى ألف كتابا من ستة أجزاء عن النزاعات فى المستقبل — يخشون ان تعمل التكنولوجيا المتقدمة على تحويل الحرب الى شىء جديد مروع لم يسبق له مثيل •

وقد بدأت المحاولات لتنظيم استخدام الأسلحة الجديدة فى سان بطرسبورج فى عام ١٨٦٨ وانتهت فى لاهاى فى ١٩٠٧ ، مع انعقاد لقاءات عديدة فيما بين ذلك ولكنها لم تكن على نفس الدرجة من الأهمية • وكانت المشكلة الرئيسية التى تركز حولها الصراع فى هذه الاجتماعات هى تحديد ما الذى يمكن أن يشكل الحرب وما الذى لا ينبغى أن يشكل

الحرب ، وما هي الحكمة من فصل الوسائل « المشروعة » عن تلك التى يتسم استخدامها « بالخسة » ومن فصل التدابير التى تشكل « ضرورة عسكرية » عن تلك التى تسبب بالكاد « معاناة لا طائل من ورائها » .
ولما كان كل وفد له أفكاره ووجهات نظره فقد جاءت النتائج هزيلة ، حيث اتفق على منع استخدام المقذوفات المتفجرة التى يقل وزنها عن ٤٠٠ جرام، وعدم القاء المتفجرات من المناطيد ، وهى أصلا ليست الوسيلة الملائمة لذلك ، واتفق أخيرا على عدم لجوء الغواصات الى استخدام طوربيداتها لاغراق السفن التجارية ، الا بعد انذار طاقمها والسماح لأفراده بمغادرتها فى مراكب الانقاذ . غير أن كل هذه المحظورات انتهكت فيما بعد : فقد انتهك الحظر الأول عندما استخدم البريطانيون طلقات الدمدم لضرب « الهمج » فى أفغانستان ، ثم انتهك الآخران خلال الحرب العالمية الأولى . غير أن المناقشات التى دارت فى هذه المؤتمرات شكلت ، علاوة على ما توصلت اليه من قواعد وقوانين ، رؤية جيدة لفهم الحرب الحديثة .

ولقد كان الغاز من بين الأسلحة التى حرمها مؤتمر سان بطرسبورج وهو سلاح كان من الواضح أنه سيصبح مثارا للجدل أكثر من أى سلاح آخر . ولقد استخدمت الغازات الخانقة على هيئة دخان فى الحروب منذ قديم الأزل دون أن تعتبر بأية حال سلاحا ذا طابع خاص . ولما كانت فعالية الغاز مرهونة بدرجة تركيزه ، فعادة ما ارتبط استخدامه بالأماكن الضيقة التى تتميز بها حروب الحصار علاوة على عمليات التلغيم ومقاومة التلغيم المضاد . ومع ظهور الصناعات الكيماوية الحديثة فى القرن التاسع عشر تغيرت طبيعة المسألة ، فالغازات السامة مثلا كان من المتعذر فى الماضى تحضيرها الا فى المعمل وبكميات ضئيلة ، أما اليوم فبالامكان تصنيعها بأية كميات بما يجعل منها سلاحا خطيرا . ومثلما تدور فى الوقت الحالى مناقشات من أجل اطلاق العنان « لحرب الطقس » والزلازل الصناعية كان شبح الحرب الكيماوية يلوح منذ قرن مضى ويروع العسكريين لدرجة افقادهم جادة الصواب ، ومن ثم كان هناك اتفاق على تحريمها وتم الالتزام بهذا الاتفاق طيلة نحو خمسين عاما .

ولقد كان يدور فى أذهان من أبرموا هذه الاتفاقيات ووقعوا عليها صورة الحرب المفتوحة كالتى كان يخوضها نابليون ، ولم يخطر ببالهم صورة الحرب الخندقية من ذلك النوع الذى دار فى مواجهة ريشموند فى عام ١٨٦٤ . ولقد برزت فى الواقع فكرة استخدام ما يسمى « بالقنابل كريهة الرائحة » خلال الحرب الأهلية الأمريكية ويرجع السبب الوحيد لعدم استخدامها الى أن الحرب انتهت مبكرا . وفى عام ١٩١٥ واجه الألمان

موقفا لم يسبق له نظير على الاطلاق يتمثل فى القتال من خنادق ثابتة ، ومن ثم فكروا بنفس أسلوب جيش الاتحاد فى زمانه · فقد أوكلوا الأمر لعالم الكيمياء الألمانى اليهودى الأصل فريتز هابر الحاصل على جائزة نوبل والذى كرس خبراته وخرج عليهم بابتكار جديد هو غاز الكلورين · وقد تم انتاج هذا الغاز بكميات كبيرة عبئت فى خزانات من الصلب ، وعندما جاءت رياح مواتية فى أبريل ١٩١٥ أطلقت هذه الغازات فأحدثت ارباكا شديدا فى صفوف الانجليز وحققت نجاحا كبيرا ، غير أن الألمان أنفسهم لم يتوقعوا مثل هذه النتيجة وبالتالى لم يوفقوا فى استثمارها ·

وقد قوبل هذا الانتهاك للقانون الدولى بعاصفة عارمة من الاستنكار على كافة الجبهات ، وصدرت كتابات لا تحصى لتبرز ان استخدام الغاز انما يعكس صورة خاصة جديدة من الفظاعات التيوتونية من نفس النوع الذى ارتكبه الألمان قبل ذلك،عندما عمدوا الى تقطيع أوصال الأطفال وهتك عرض البكارى من البلجيكيين · غير أن حملات الاستنكار هذه لم تحل دون لجوء الحلفاء أنفسهم الى استخدام الغاز · ولم يكن قد مر عام على الحرب حتى انطلق الجانبان فى سباق لانتاج أكثر أنواع الكيماويات سمية من ناحية ، وأفضل أقنعة واقية من ناحية أخرى · وكان أى شك فى وجود الغاز يجبر الجنود على ارتداء الملابس الواقية ، مما كان يعوق حركتهم ويحولهم الى أنصاف مقاتلين (ولقد كان ذلك فى حد ذاته ، أى ما يسببه الغاز من كبح لحرية الجنود ، واحدا من أسباب النفور من استخدامه) · وكان الغاز سلاحا بالغ الفعالية ، لاسيما لو استخدمت متفجرات معه فى نفس الوقت ، وكان الهدف من ذلك ارغام المدافعين على اللجوء الى حفرهم ثم اطلاق الدخان عليهم وهم كالفئران فى جحورها · ورغم ما قد يتعرض له المرء من آثار الغاز كالاصابة بالعمى أو الغرق فى سنواتله من شدة السعال حتى لكأنه يشعر أن رئتيه تثبان خارج صدره ، فان الغاز يعد سلاحا أرحم نسبيا من غيره من حيث عدد ما يسفر عنه من قتلى ·

وقد شهدت فترة ما بين الحربين العالميتين لجوء الايطاليين الى استخدام الغاز فى الحبشة ، وثمة احتمال أن يكون البريطانيون أيضا قد استخدموه لقمع التمرد فى القرى الهندية البعيدة · وفى عام ١٩٣٧ وبينما كان شبح الحرب العالمية الثانية يلوح فى الأفق ، أعيد رسميا تأكيد اتفاقية تحريم استخدام الغاز ، غير أن الطرفين عمدا خلال الحرب نفسها الى انتاج الغاز وتخزينه بكميات ضخمة · ولم تكن الترسانات مقصورة على ذلك النوع البدائى نسبيا من الغازات الخانقة والحارقة المبتكرة قبل ٢٥ سنة ، وانما شملت أيضا مركبات أحدث وأكثر فتكا تستهدف اصابة

الجهاز العصبى المركزى بالشلل • وقد دارت مناقشات مستفيضة فى كل بلد بشأن ايجابيات الغاز وسلبياته • ففى ألمانيا على سبيل المثال كان على العسكريين أن يقاوموا الضغوط التى يمارسها أصحاب المصانع من أجل أن تستخدم منتجاتهم • وربما كان العامل الحاسم فى عدم استخدام الأسلحة الكيماوية هو قلة ملاءمتها للحرب الميكانيكية • والواقع أن استخدام الغاز ضد خط حصين محدد شيء ، واستخدامه فى امطار أقاليم بأكملها أو حتى بلدان به ، شيء آخر تماما •

ويقوم العديد من البلدان فى العصر الحالى بانتاج وتخزين الأسلحة الكيماوية بما فيها القوى العظمى • وليس هناك نسبيا عدد كبير من التقارير الجادة الدالة على استخدام الغاز ، وربما يرجع ذلك فى جانب منه الى صعوبة التحقق من استخدام ذلك السلاح •ولقد استخدم المصريون الغاز فى الستينات ضد القبائل اليمنية ، وبعد عقدين حذا العراقيون حذو المصريين واستخدموا ذلك السلاح ضد الايرانيين أولا ، ثم ضد اخوانهم ومواطنيهم من الأكراد • وفى فيتنام استخدم الأمريكيون مواد كيماوية لاسقاط أوراق الشجر لتكشف مخابيء الفيتكونج،كما استخدموا كيماويات لتدمير محصول الأرز فى المناطق « الموبوءة بالعدو » • ولما اكتشف فيما بعد أن بعض هذه الكيماويات تسبب الاصابة بالسرطان، ثار جدل حول ما اذا كان استخدام مثل هذه المركبات يدخل فى اطار الحرب الكيماوية على نحو ما هو معرف فى القانون الدولى • وكانت المخابرات الأمريكية تأتى بين الحين والحين بادعاءات تتهم فيها الصينيين باستخدام الغاز فى كمبوديا وتتهم السوفييت باستخدامه فى أفغانستان • وقد يكون الغاز قد استخدم فى حالات قليلة أخرى دون أن يعلن عن ذلك ، ومع ذلك فبالقياس الى عدد النزاعات المندلعة منذ عام ١٩٤٥ نجد أن عدد حالات استخدام الأسلحة الكيماوية ضئيل •

ولعله من العسير ايجاد سبب منطقى للنفور من استخدام الغاز ، فمنذ الحرب العالمية الأولى لم يثن الخوف من احتمال التعرض للانتقام أطراف النزاع عن اللجوء الى استخدام الغازات ، لا سيما الألمان الذين كان أحرى بهم أن يتوخوا الحذر بما أن الرياح غالبا ما تتجه فى بلادهم من الغرب الى الشرق ، ولا كان الخوف من الانتقام يخيم على البلدان المتقدمة أثناء خوضها النزاعات المحدودة فى المستعمرات البعيدة ، حيث ان معظم رجال حرب العصابات والمتمردين غير قادرين على انتاج الأسلحة الكيماوية حتى لو أرادوا استخدامها • ربما كان السبب اذن ثقافيا ، فقد نرى اليوم أنه من المقبول أن يتحول الناس الى أشلاء نتيجة القصف بالمدفعية أو أن

يحرق الناس بالنابالم ولكننا ننفر بصفة عامة من منظر انسان يختنق حتى الموت • وفى بعض الأحيان يستسلم الفكر للخيال بدلا من الواقع فتكون النتيجة ان يتحول النفور الى قوة رفض ذاتية ، ولو ترك السلاح لفترة ــ أية فترة من الزمن ــ دون استخدام ، فان فكرة الرعب منه تنمو وتترسخ غير أنه من المؤسف ان الزمن يجعل الناس تنسى بقدر ما يجعلها تتــــذكر • بمعنى أن الحلقة لا تكتمل أو تدوم • فمع اقتــراب القرن العشرين من نهايته ثمة مؤشرات تدلل على أن الرعب الذى ينظر به كثير من البلدان فى العالم الحديث للأسلحة الكيماوية تمتزج به بعض نزعات فضولية •

ومن ثم فالتمييز بين الأسلحة الكيماوية وغيرها ليس موجودا الا فى الفكر البشرى • انه اذن بمثابة اصطلاح شأنه فى ذلك شأن أى اصطلاح آخر ــ لا أكثر ولا أقل على الصعيد المنطقى ــ أى انه ظاهرة تاريخية لها بداية واضحة وسيكون لها على الأرجح نهاية واضحة • ويبقى السؤال : ما الذى أفادنا به كل ذلك فيما يتعلق بطبيعة الحــرب وما الذى تدور حوله الحرب ؟

* المعاهدات الحربية :

ورغم أن مجال القـــانون الدولى والأعراف المتعلقة بالأسرى وغــير المقاتلين والأسلحة يعد مجالا واسعا الا أنه لايمثل سوى جزء من اطار أرحب كثيرا يتمثل فى المعاهدات والتطبيقات • ولقد سعى الانسان دائما منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا الى تنظيم الحرب وتحديدها ، غير أنه كان فى نفس الوقت يتحرر من كافة القيود اذا توجــه للقتال • وقد عمدت بعض المجتمعات القديمة الأولى مثلاليهود التوراتيين واليونانيين الهومريين، الى وضع قوانين للنزاعات المسلحة تحدد الاسلوب الذى ينبغى أن تعلن به الحرب والطريقة التى تنتهى بها ، كما حرصت نفس تلك المجتمعات على ايجاد وسائل تمكن أطراف النزاع من الاتصـــال فيما بينها ، حتى أثناء القتال ، للاتفاق مثلا على عقد هدنة أو تجنب القتال فى بعض الأماكن وما الى ذلك من مستجدات •

وقد وضع القــانون الدولى الحديث فى وقت متأخــر من القــرون الوسطى واستند الى الأسس التى شكلها القــانون الرومانى والشرائــع الواردة فى الكتب المقدسة ، وأخذ ينمو كل يوم كمثل ثنايا سلسلة طويلة من الشعب المرجانية ، حيث تضاف اليها بين الحين والحين طبقة تلو الطبقة

حتى رغم انتفاء الغرض من القديم وتواريه فى عالم النسيان • وعلاوة على أن القانون الدولى الحديث يغطى كل المسائل التى تناولناها سالفا بكل فرعياتها ، فانه يشتمل أيضا على قواعد منظمة لعدد بالغ من الجوانب الأخرى • فلقد كان على سبيل المثال وضع دبلوماسيى الدول المعادية ومواطنيها وممتلكاتها مثار عدد كبير من الآراء والمدارس ، علاوة على العديد من الاتفاقيات الدولية التى يرجع معظمها الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر • وثمة شريحة كبيرة أخرى من القانون تتعلق بحقوق الأطراف المحايدة وواجباتها لا سيما فيما يتعلق بمساعدة أطراف النزاع ، وتتعلق أيضا بحق اللجوء السياسى والاعتقال وحق المرور وأيضا بالمسائل المتصلة بالأمتعة والبضائع الحيادية التى تنقلها سفن الدول المعادية والعكس •

وتنطوى بعض القوانين على اتجاهات لمنع تدمير الكنائس والمكتبات والآثار الثقافية بل والمدن بأكملها ، ومن القوانين ما يكفل حماية الجرحى والجهاز الطبى المعالج والوسائل التى تيسر العناية بهم ونقلهم ، وهناك قوانين أخرى تحظر اطلاق النار على العزل من أفراد القوات المسلحة ، أو من هم فى ظروف مؤقتة لا تسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم كالطيارين الذين يقفزون بالمظلات لدى تدمير طائراتهم والبحارة فى قوارب النجاة • ومازالت هناك جوانب أخرى لم نتحدث عنها مثل حق حمل السلاح وخدع الحرب • ولو حاولنا جمع كل هذه القوانين لما كفتنا كتب كثيرة •

وأحيانا ما ينتهك قانون الحرب ، كشأن أى قوانين أخرى (وقد يقول البعض انه عادة ما ينتهك) • غير أن كون القانون المذكور يتعلق بالحرب لا يعنى انه يتعرض لقدر من الانتهاكات يزيد على ما يحدث فى المجالات الأخرى ، بغض النظر عن القوانين التى ليس لها وجود أو التى ليست بذات جدوى • وسنكتفى بذكر مثل بارز واحد هو ما جرى فى الحرب العالميــة الثانية التى تعد « أشمل » حرب شهدها التاريخ فى أى زمان ومكان • وكم هو صحيح ان العادات الاجتماعية تتغير ! فحتى هتلر عندما شن الهجوم على ستالين لم يحذ حذو السلطان العثمــانى الذى توعد عند اعلان الحرب على امبراطورية هابسبورج فى عام ١٦٨٢ بأن « يعرى صدر » أية امرأة ألمانية تصادفه • ورغم أن كلا من هتلر وستالين كان يعامل مرؤوسيه بمنتهى القسوة فان أيا منهما لم يسع — على حد علمنا — الى قتــل الآخر كأسلوب لشن الحرب (ويقال ان هتلر رفض الفكرة تماما عنـدما طرحت عليه) ، ولم يلجأ أى منهما الى اســتخدام الأسلحة الكيماوية رغم توفرها فى المخازن ، كما ان كلا منهما كان حريصا فى معاملته لغير المقاتلين من الأعداء ، حيث لم يحدث أن تعرضت مدينة واحدة سـواء سوفيتية أو ألمانية لعمليـات نهب وسلب مثل تلك التى

تعرضت لها باداپوث على أيدى ولينجتون أو نانكينج على أيدى اليابانيين. حقيق ان الجانبين عاملا أسراهما بعنف وقسوة بلغت حد التجويع وعدم الايواء فى صقيع الشتاء القارس والتسخير حتى الموت ، ومع ذلك فلم يتم اعدام الجانب الأعظم من الأسرى ، ولم يكن ذلك ليكون مصيرهم لو كانوا من أفراد قبائل داسيا ووقعوا فى أيدى درة الحضارة الامبراطور الرومانى تراجان ٠

ومن جهة أخرى فأيا كانت الفظائع التى ارتكبت على الجبهة الشرقية، فقد كان القتال على الجبهة الغربية نظيفا بدرجة معقولة (طالما كان الأمر يتعلق بالقوات النظامية) ، بل ان بعض الجبهات كالشمال الأفريقى قد شهدت التزاما يصل الى حد أخلاقيات الفرسان ٠ ولولا الالتزام بقوانين الحرب لبلغ عدد من أزهقت أرواحهم من الأسرى والجرحى وأفراد الفرق الطبية والعاملين بالمستشفيات ، فضلا عن الناجين من بحارة السفن المدمرة ومن قائدى الطائرات المحطمة ، بضعة ملايين من الأفراد٠وليس ذلك بنهاية المطاف ، فاذا كنا اليوم نستمتع بروعة العاصمة الفرنسية فانما يعزى ذلك الى اعلان الفرنسيين فى عام ١٩٤٠ أن باريس مدينة مفتوحة ، وهو اعلان فهمه الغزاة الألمان وقبلوه واحترموه ٠ ومرة ثانية ، عندما أمر هتلر فى عام ١٩٤٤ بتدمير كبارى باريس وباحراق المدينة ، تردد القائد الألمانى الجنرال ديتريتش فون شولتيتز فى تنفيذ الأمر ثم انتهى به الحال ، بعد الحاح من جانب ممثل الصليب الأحمر المحلى الى رفض تنفيذه ، وأعلن ان باريس مدينة مفتوحة لينقذ بذلك واحدة من أعظم المنارات الثقافية وليفوز هو بكتابة اسمه فى سجل التاريخ ٠

ويتمثل الجانب « الاستراتيجى » فى قانون الحرب فى انه يتركز بدرجة كبيرة على المجموعات الهامشية من الناس ، من الضعفاء وغير المشتركين فى القتال ، ومن ثم فهم يستحقون الحماية ، كما أنه يختص بذلك النوع « الاستثنائى » من الأسلحة مثل الغاز ٠ ولا يقتصر هدف قانون الحرب على مجرد بث الطمأنينة والسكينة لدى قلة من أصحاب القلوب الرحيمة ، على نحو ما ذهب اليه فيما بعد فكر كلاوزيفيتس والعديد من أنصاره ، فان مهمته أولا وأخيرا تتجسد فى حماية القوات المسلحة ذاتها ، ذلك لان الحرب تعد مجالا للمجهول والكرب والعنف ، وما من شىء يضارع رعب الحرب فى وأد العقل وفى دفع الناس ، حتى أكثرهم حكمة ، الى الاتيان بتصرفات تتسم بالغرابة ٠ ومما يبعث على الدهشة ان الحرب هى أكثر أنشطة الانسان ربكة وارباكا ومع ذلك فهى فى الوقت نفسه من أعظمها تنظيما وترتيبا ، فاذا أريد لنزاع مسلح أن يجرى على

أمل النصر فلابد أن يسبقه تعاون وثيق بين عدد كبير من الرجال المتمرسين العاملين بروح الفريق • ولا يمكن للأفراد أن يتعاونوا ولا للهيئات والمنظمات حتى أن تقوم لها قائمة الا اذا كانت هناك قواعد عامة تحكم التصرفات ، ولابد أن تكون تلك القواعد متلائمة مع المناخ الثقافى السائد وواضحة للجميع وتصلح لأن تكون ملزمة •

ولقد كانت الطاعة ، على نحو ما وصفها بلاتو فى القانون منذ فجر التاريخ ، تتصدر الفضائل العسكرية وسوف تظل كذلك دائما • وتعد دائما الجيوش الأكثر انضباطا أفضل الجيوش ، وذلك منذ العصر الرومانى وحتى يومنا هذا • وليس من قبيل الصدفة أن كان القانون العسكرى دائما أكثر صرامةمن القوانين المدنية والمحادثة العسكرية أكثر تهذيبا وايجازا ودقة من أى نوع آخر من المحادثات • وما كان لحرب ناجحة أن تقع فى أى مكان أو زمان الا بعد أن تتاح للمشتركين فيها الفرصة لتفهم المهمة : من سيقتلون ومن سيتحاشون قتله ، وما هى أهدافهم من الحرب ، وبأى الوسائل سيخوضونها وتحت أى ظروف • واذا لم تكن كل هذه الأمور واضحة فى أذهان المقاتلين فسوف يتحول الجيش الى مجموعة من الغوغاء • ولما كانت هناك دائما حشود من الغوغاء فلقد كان رد فعلهم ، اذا واجهوا وحدة قتالية منظمة فعالة ، هو التشتت مثل العاصفة قبل هبوب المريح •

ولم تتوقف الحاجة الى وجود قوانين للحرب عند هذا الحد ، بل ذهبت الى أبعد من ذلك ، فالحرب بطبيعتها هى عبارة عن قتل واراقة دماء انسان آخر ، واراقة الدم والقتل عملان لا يسمح بهما أى مجتمع بما فى ذلك مجتمع الحيوانات الا لو حكمتهما قوانين دقيقة توضح تماما ما هو الممنوع وما هو المشروع • ودائما وأبدا ما من عملية قتل تسلم من المساءلة ، الا ما ينفذها أفراد مكلفون وفى ظل ظروف محددة وفقا لقوانين معروفة ، وقد تصبح فى هذه الحالة عملا يستحق الثناء • وعلى النقيض من ذلك فان أية عملية اراقة دم تتجاهل القوانين أو تتحداها فهى تستحق العقوبة ، أو كما يحدث فى بعض المجتمعات سواء القديمة أو الحديثة تستوجب الكفارة • صحيح انه كان هناك تفاوت كبير فيما بين المجتمعات المختلفة والأماكن والأزمنة فيما يتعلق بالاسلوب الذى يتحدد به على وجه الدقة الخط الفاصل بين الجريمة والحرب ، غير أن ذلك الخط فى حد ذاته يكتسى أهمية قصوى • ومن شأن المجتمع الذى لا يلتزم بذلك الخط الفاصل ان يتعرض للتمزق وتصبح الحرب ، كشىء يتميز عن العنف المطلق الأعمى ، أمرا مستحيلا •

وآخر ميزات معاجلة الحرب انها تساعد على تحديد نهاية العمليات

العسكرية حيث توضح للمهزوم متى يستسلم ٠ واذا كان القتال فى أغلب النزاعات لم يستمر حتى نهايته القصوى ، أى حتى مصرع آخر جندى معاد وتدمير كل ممتلكات العدو ، فانما يعزى ذلك الى أن قواعد الحرب تحدد ما الذى يشكل الانتصار وما هى معالمه ٠ ولقد كان هناك على سبيل المثال طريقتان فى عصر الجيوش اليونانية القديمة لتحديد « هزيمة » طرف ما فى المعركة ، وهما اما الفرار أو طلب الهدنة ٠ ولما كانت هناك حالات يفر فيها طرف بينما يطلب الطرف الآخر عقد هدنة ، أحيانا ما كان يثار جدل لتحديد من « المنتصر » ٠ وبما ان المعارك فى القرون الوسطى كانت بمثابة مباريات فى المبارزة تدور فى أرض مفتوحة ، كان من الوارد أن تواجه الجيوش فى ذلك الحين مثل هذا الموقف ٠ ولذلك فقد جرت العادة ، لإزالة أى لبس ولتحديد نتيجة المعركة بشكل رسمى ، أن يمكث المنتصر فى ميدان القتال لثلاثة أيام متتالية ٠ تلك كانت مبادىء الفرسان ، وذلك هو ما فعله السويسريون (رغم انهم لم يكونوا من الفرسان) بعد معركتى سمباش فى ١٣١٥ وجرانسون فى ١٤٧٦ ٠ أما فى بلدان العصر الحديث ، فقد كان من عادة القادة أن يحتفلوا بالنصر باقامة حفل دينى ينشد فيه الجنود نشيد النصر ، ويقول فولتير ان الخصمين عادة ما كانا يرددان ذلك النشيد ، كل فى معسكره ٠

ومازالت معاهدة الحرب قائمة فى العصر الحالى وفعالة ومستمرة فى الهيمنة على حياة وموت ما قد يصل الى مئات الألوف من البشر ٠ ومنذ أن اخترع نابليون لفظ « الاستراتيجية » الذى يعنى وفقا لمفهوم كلاوزيفيتس استخدام المعارك من أجل تحقيق الانتصار فى الحملات ، لم يعد احتلال ميدان القتال له نفس الأهمية كما كان من قبل حيث لم تعد الحرب مجرد مباراة يتمكن فيها مصارع من دفع خصمه الى خارج الحلبة ٠ فمنذ أيام مولتكى وحتى عهد ليدل هارت مرورا بزمن شليفن كان الهدف البارز للاستراتيجية هو عكس ذلك تماما : فقد كان يتمثل فى الالتفاف حول العدو ومحاصرته وعزله وقطع الامدادات عنه ، لدفعه الى الاستسلام بدون حاجة للقتال وذلك من أجل الفوز بالأرض التى يقف عليها ٠ واستمرت الاستراتيجية الحديثة تتكرر بنفس الأسلوب منذ حصار النمساويين فى أولم عام ١٨٠٥ وحتى حصار الجيش الثالث المصرى فى السويس فى ١٩٧٣٠ويعتبر أى تشكيل مسلح كبير أنه قد منى بالهزيمة بمجرد أن يتعرض للحصار وقطع خطوط اتصاله ، ويبعث ذلك أيضا ، وعلى نفس الدرجة من الأهمية ، أفراد هذا التشكيل على اعتبار أنفسهم مهزومين ؟

وفى ظل القواعد الحديثة لا يدور القتال حتى الفناء إلا عندما يجد

طرف أو كلاهما معا انه عاجز عن عزل الآخر وعن تحقيق « أبناط الفوز » • ومن منطلق هذه الحكمة المعاصرة فان الحرب العالميـة الأولى على الجبهة الغربية على سبيل المثال « لم تكن حربا » ، حيث لم تمكن الظروف أيا من الطرفين من الالتفاف ـ ناهيك عن التطويق والحصار ـ حول الآخر فكانت النتيجة ان الجانبين دخلا فى حرب استنزاف استمرت أربع سنوات أنهك فيها كل طـرف الطرف الآخـر بالهجمات المتكررة حتى كاد أن يهلكه • وعندما هاجـم الألمان الاتحاد السوفيتى فى عـام ١٩٤١ اتبعوا اسلوب الحرب الخاطفة التقليدى ، فاخترقوا الخطوط الخلفية للعدو وأوجدوا فيها جيـوبا ضخمة من القوات • غير أنهم ما لبثوا أن اكتشفوا أن السوفيت ليسوا كالفرنسيين فى الحرب السابقة ، فقد رفضوا الاستسلام حتى بعد أن حوصروا ، وكان لابد من دحرهم واحدا واحدا ، مما أبطأ الحملة وتسبب فى فشلها فى نهاية الأمر •

أما فى العصر الحالى فان من أسباب فشـل الجيوش فى مواجهة رجال حرب العصابات والارهابيين أن مثـل هؤلاء الخصوم لا قواعد لهم ولا خطـوط اتصـال ، ومن ثم لا يمكن عزلهم بالمعنى المفهـوم للكلمة ، فلو ولوا هاربين ما تحقق شىء ، والبديل هو الصمود ـ مثلما حدث فى مرتفعات هامبورجر ـ مع ما يمكن أن ينجـم عن ذلك من معركة دموية شرسة •

ويقودنا ذلك الى نتيجـة مؤداها ان معاهدة الحرب يمكن أن تقرر ـ سواء بشكل صريح أو ضمنى ـ معنى « النصر » فى المعارك بكافة أنواعها بقدر ما يمكن أن تقرره النتائج الواقعية الملموسة •

وتتكون معـاهدة الحرب ـ شأنها فى ذلك شأن أى قانون ـ من قواعد وتنظيمات صريحة فى جانب منها ومن أعراف جذورها متأصلة فى الثقافة من جانب آخر • انها كأى قانون آخر ، تمثل بصورة أو بأخرى حدا مسامياً رقيقا فوق رمال الحقيقة المتحركة • ولما كانت الظروف تتغير فيحل نزاع مكان آخر ولكن بصـورة مختلفة فان المعاهدة القائمة تضبح غير ملائمة ولابد من ايجاد مفاهيم جديدة •

وليس من العسير التكهن بما يمـكن ان يؤول اليـه مصير قوة لا تلتزم ، لسبب أو لآخر ، بقواعد الحرب ، ومن الاحتمالات القائمة ان يتحول الجيش الى حشود من الرعاع الذين يجرون هنا وهناك فى فوضى شاملة وينزلون خسائر جسيمة وحجم دمار رهيب بالبيئة، بل وبأنفسهم•

وكم هو بعيد ذلك العنف الفوضوى عن المفهوم الصحيح للحرب حتى ان الأساطير اليونانية ، التى تعد دائما مصدرا جيدا لرؤى المستقبل ، كانت تشمل الهين مختلفين يمثلان هذين المفهومين : الهة الحرب النظـامية الشريفة وهى الالهة البكر بالاس أثينـا واله العنف الفوضوى آريز الذى وصفه هومر بقوله : « آريز المجنون الذى يتفجر عنفا » • وقد ولدت أثينا مباشرة من مخ زيوس وهى تعد مقاتلة قوية وغالبا ما كانت تصور وهى متكئة على رمحها وخوذتها للخلف ومستغرقة فى تفكير عميق • وبينما تعد أثينا من أعظم الآلهة ، حتى انه قد شيد هيكل البارثينون ليمثلها فى المدينة التي تحمل أيضا اسمها تكريما لعظمتها ، نجد أن آريز ، وقد ولد من نفس الأب ولكن بالطريقة العادية ، كان الها ضئيل الشأن منبوذا من كل الآلهة وبنى البشر وليس له الا القليل من العبدة وأقل القليل من المعابد • وتروى الالياذة كيف ان آريز واجه أثينا فى احدى المعارك ومنى بهزيمة منكرة ، وكيف أنه فر من الميدان وهو ينزف ويصرخ من شـدة الألم ، وكيف انه توجه الى جبل أوليمب ليشـكو لزيوس ويتلمس منه النصر ولكنه لم يجد منه تعاطفا كبيرا •

ولا يجهل أحـد تلك الجيوش التى تحولت الى حشود من الرعاع تستشيط غضبا وتعيث فى الأرض فسادا وعنفا بلا أية سيطرة • وعندما تواجه قوات نظـامية رجال حرب عصـابات وارهابيين ، مثلما كان عليه الوضع فى فيتنام ، فان التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين غالبا ما ينهار • وازاء العجز عن خوض الحرب مع احترام القواعـد الواردة فى القـانون الدولى ، فان أى جيش مهما اتسم بالانضباط لن يجد من سبيل الا أن ينتهك هذه القواعد • ولما كان أفراد مثل هذا الجيش سيلجأون تحت وطأة الظـروف الى قتل مواطنين من غير المحاربين والى تعـذيب الأسرى والتنكيل بهم ، فانهم سيعيشون فى رعب مما قد يحدث لهم لو وقعوا هم فى أيدى الأعـداء ، ولو وقعوا فى الأسر فانهـم بلا شك سيحملون على قادتهم لانهم زجوا بهم فى موقف يدانون فيه لو عملوا ويدانون فيه لو لم يعملوا • أما القادة فلن يترددوا فى نفض أيديهم من الأمر برمته مدعين بأنهم لم يأمروا مرؤوسيهم مطلقا بانتهاك قواعد الحرب • وسـوف تقع فظاعات مروعة مثلما حدث فى ماى لى وسوف تكون هناك دائما محاولات لتغطيتها • ولو فشلت محاولات التغطية فغالبا ما سيكون هناك كبش فداء من صغار المرؤوسين بينما تنفى القيادات أية مسـئولية لها • واذا ضاعت الثقة فيما بين المرؤوسين والقادة وفيما بين الأفراد بعضهم البعض يبدأ التفكك • وعندما حدث ذلك فى فيتنام فان عشرات الألوف من الأفراد قد فروا هاربين بينما تحـول ما يقـدر بـ ٣٠٪ من الجنـود الى مدمنين

للمخدرات ، وما يلبث مثل هذا الجيش ان يكف عن القتال وينشغل كل فرد فيه بنفسه ، كى يريح ضميره وينجو بجلده ٠

يتضح من ذلك أنه لا يمكن أن تقوم حرب بدون قانون يحدد ما هو مسموح وما هو غير مسموح به ٠ واذا كان القانون الدولى المكتوب يعد حديثا نسبيا ، فان الأمم السابقة لم تكن أقل منا التزاما بمعاهدة الحرب فى قتالها ٠ ولا يعنى عدم وجود صيغة رسمية مكتوبة للقانون ان أسلافنا كانوا أكثر منا قسوة وغلظة فى ادارة الحرب ، وهل يجرؤ أبنـاء قرن موصـــومون بدريســـدن وهيروشـــيما وأوشـــويتز أن يتهموا أســلافهم بالبربرية !! وقبل أن يكون هناك قانون دولى كانت هناك دائما اتفاقيات ثنائية فيما بين الملوك٠وكانت هذه الاتفاقيات أيضا مسبوقة بقانون الطبيعة وقواعد الفروسية وقبلها الدين اليونانى والأعراف ، وقبلها أيضا كانت هناك عادات ومبادىء المجتمعات القبلية ٠ واذا كانت كل هذه القواعد غير مكتوبة فانهـا كانت تستمد قوتها من الاعتقاد بأنها تمثـل الحـكمة والاله والتقـاليد بل ـ بالنسبة للمجتمعات القبلية الأولى ـ فقد كانت تمثل « الحقيقة » ذاتها ٠ ولقد كانت كل تلك القوانين تتسم بنفس درجة فعالية الاتفاقيات الدولية الحالية التى صاغها الانسان والتى يمكن أيضا أن يلغيها الانسان ٠

واذا كانت القوانين فى العصور السابقة تختلف عن قوانيننـا ، فان من كان يخالفها كان يتعـرض ، مثلمـا يحدث اليوم ، للعقوبـة أو للمحاكمة ٠ ولم يكن كذلك مصير من لم يمثلوا أمام المحاكم من هؤلاء المخالفين ـ وهم اغلبية ـ أفضل حالا ٠ ويبدأ الأدب الغربى ـ على نحو ما جاء فى الالياذة ـ عند نقطة تعرض أجا ممنون الملك الفارسى للعقاب من جانب أبولو ، لمخالفته القانون برفضه قبول الفدية عن سيدة شابة كان قد أسرها ٠ وتروى الأساطير اليونانية أن المحاربين الذين كانوا ينتهكون حرمة المعابد،أو يرتكبون أى تجاوزات أخرى يتعرضون للانتقام والاضطهاد من آلهة الانتقام المروعة نيميسيز التى تحيل طعامهم الى شىء لا يؤكل ٠ وفى القرون الوسطى المسيحية ، كان مصـــير الفرسان الذين لا يحترمون حقوق الرهبان والراهبات والمواطنين الأبرياء بصفة عامة هو أن تتعقبهم الشياطين فى الدنيا ويلقون فى جهنم بعد مماتهم ٠

أما المصير الذى ينتظر من يتجاوز الحد الفاصل بين الحرب والجريمة فى العالم الحديث فلا يقل شدة ٠ ولقد مضى وقت طويل على ما جرت عليه العادة فى بلاد الفرس القديمة من طقوس تطهير الجيوش ومن سفك الدماء

فى عرض تمر فيه القوات فى طابور فيما بين شطرى كلب قربانى • ان ضعف الايمان أو ضياعه ، وعدم اقامة طقوس الجزاء الدينية تكفيرا عن الذنوب ، قد جعلا ارتداع النـاس عن ارتكاب المعاصى والخطايا أمرا بالغ الصعوبة • ولو انك زرت النصب التذكارى الفيتنامى فى واشنطن فى أى يوم ، فسوف تندهش لعدد من يتوجهون اليه من قبيل التوبة والاعتراف بالخطأ سواء من المحاربين أو غير المحاربين الذين يحاولون التصالح مع الحرب الفيتنامية حتى بعد مضى خمسة عشر عاما من نهايتها •

الباب الرابع :

كيف تدور الحرب

* المرسييز البروسية ـ تكملة :

تعرف ادارة الحرب فى المعتاد باسم الاستراتيجية · وتاريخ الاستراتيجية طويل ومشوق · ويشتق لفظ « استراتيجية » من الكلمة اليونانية « stratos » بمعنى جيش أو بالأصح حشد · ومن مشتقات « stratos » كلمة « strategos » وأيضا « Strategia » ولهما أكثر من معنى وفقا لسياق الكلام ، فقد تعنيان حملة أو قيادة أو رتبة جنرال أو مكتب الجنرال · ومن مشتقاتها أيضا كلمة « strategama » وأقرب معانيها بمفهوم اللغة الحديثة هو الخدعة أو الحيلة ويمكن أن تستخدم فى سياق يخص العدو أو يتعلق بالقوة المرؤوسة · وقد ألف القائد الرومانى المهندس سيكستوس ايونيوس فرونتينوس كتابا فى عام ١٠٠م باسم « Strategematon » ، جمع فيه عمليات الخداع العسكرية الناجحة التى قام بها القادة السابقون · ومن بين ما أورده من خداع ، عملية تضليل العدو عن طريق تنفيذ مخطط غير ذلك المعلن ، كأن يعلن القائد على سبيل المثال عن موعد للهجوم ثم ينفذ الهجوم فى موعد آخر · ومنها أيضا ما كان موجها للاستخدام الداخلى ، فقد أوصى فرونتينوس ، على سبيل المثال ، القادة بضرورة أن يشيعوا بين أفراد وحداتهم الفأل الحسن والتكهنات المبشرة من أجل رفع معنوياتهم وبث الشجاعة فى نفوسهم ·

وربما دل على حالة الشئون العسكرية وأيضا على الدراسات اليونانية أن الكلمات المشتقة من « stratos » كانت كلها تقريبا غير معروفة فى الغرب منذ أواخر العصر الرومانى · ولم تكن كلمة « استراتيجية » مستخدمة فى القرون الوسطى ، وكان اللفظ المستخدم لوصف ادارة الحرب هو « فن الفروسية » (l'art de chevalerie) وهو مستمد من مرجع يحمل نفس الاسم ألفه كريستين دى بيزان فى القرن الرابع عشر · وفى الفترة من ١٥٠٠ وحتى ١٧٥٠ استبعدت كلمة

الفروسية وأصبح المشاهير ، وعلى رأسهم مكيافيلي وفريدريك الكبير ، يستخدمون وصف « فن الحرب » • ولما كان القرن الثامن عشر قد اتسم باضفاء الصبغة العقلانية على كل مجالات النشاط الانسانى ، فقد تراجع تدريجيا فى أواخر ذلك القرن استخدام لفظ « فن » بصفته لفظا مبهما وحدسيا ، وبدأ الاتجاه الى اعتبار ادارة الحرب « علما » له مبادىء يمكن اكتشافها ويمكن تحويله الى « نظام » وتدريسه فى الأكاديميات العسكرية التى كانت قد بدأت لتوها تفتح أبوابها • ويعد لفظ « استراتيجية » لفظا جديدا ، وكان أول من استخدمه فيما يبدو الفرنسى جولى دى ميزيروا وكان كاتبا ذا نشاط كبير فى المجال العسكرى قبل الثورة •

وكان التمييز بين الاستراتيجية والتكتيك هو أهم ما أوردته القواميس فى أواخر القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر • وكلمة « تكتيك » مشتقة أصلا من كلمة يونانية بمعنى النظام ، وهى تعنى بالمفهوم الحالى ادارة المعركة أو ببساطة عملية القتال الفعلى ، أما كلمة استراتيجية فهى تعنى كل شىء يقع فى الحرب ، قبل الالتحام الفعلى وبعده• والهدف من التكتيك هو العمل على أن تسير العملية القتالية على أحسن وجه من أجل احراز أفضل نتيجة ، أما هدف الاستراتيجية فهو العمل على تهيئة أنسب الظروف للقتال ثم استغلال نتيجتة بالشكل الأمثل بمجرد انتهاء العمليات العسكرية •فالمخطط الاستراتيجى يجهز للعنف ويستغله ويستثمره ولكنه لا يمارسه • ومن ثم ما لبثت كلمة « استراتيجية » أن اكتسبت حالة من الغموض مازالت سائدة حتى اليوم•وتدار الاستراتيجية فى المكاتب وتستخدم فى ذلك التخت المجسمة والخرائط والأقلام الملونة ثم وفى وقت لاحق ، التليفونات وأجهزة الكمبيوتر ، وهى تتطلب قدرة ذهنية مختلفة وأرقى من تلك التى تلائم هرج ومرج العمليات القتالية • ولا تتوفر مثل تلك المواهب لدى عامة العسكريين ، ولقد أصبحت بمرور الوقت تتركز فى جهاز يتكون من أفراد مدربين تدريبا خاصا ويعرف باسم هيئة الأركان •

وعادة ما يتبع اكتشاف أداة فكرية جديدة سلسلة من المساعى المعقدة من أجل تحديد مضامينها • ولم تشذ الاستراتيجية عن هذه القاعدة • فقد اقترنت دراسة تلك النظرية العسكرية فى مستهل القرن التاسع عشر بطوفان من المساعى الرامية الى اكتشاف « أفضل » استراتيجية ، أو على الأقل صياغة مبادىء العمل المتعلقة بها • وقد صاغ ديتريتش فون بولو فيما بين ١٨٠٠ ــ ١٨٠٦ المصطلحات المتعلقة بالاستراتيجية ومعانيها الأساسية ، غير أن هذا العملاق المشوش انتهى

به الأمر الى الاصطدام بالقيصر ومهاجمته ، فسلمته بروسيا للروس وتوفى وهو فى طريقه الى منفاه فى سيبيريا • وكان فون بولو يرى أن محور الأستراتيجية يتركز أولا فى اختيار « خطوط العمل » السليمة التى ينبغى أن يتبعها الجيش ، ثم التنسيق فيما بين هذه الخطوط وفقا لبعض المبادىء الهندسية الملائمة والمختارة بعناية • وقد طور مؤلفون آخرون آراء فون بولو ، فقد رأى جوميني وفينتو رينوس وغيرهم أنه يمكن تمثيل مسرح العمليات بتختة ضخمة بالغة التعقيد • وجرت بالفعل محاولات لصنع تخت بهذه الأوصاف • وكان فن القيادة ، سواء على التختة أو فى الميدان يتجلى فى المناورة بالقوات بحيث يتم حشد المجهود الرئيسى فى اتجاه الهدف الحاسم •

ونحن نتحدث هنا فى هذا الكتاب عن أعظم واحد من هؤلاء الكتاب وهو كارل فون كلاوزيفيتس • ويورد واحد من أمتع وأفيد أبواب كتاب « عن الحرب » سجلا تاريخيا ملخصا للاستراتيجية حتى عام ١٨٢٠ • ويشمل هذا الباب سلسلة النظم المختلفة على مر التاريخ والتى كان يكتنفها الغموض ، ويناقش نقاط القوة فى كل منها ونقاط الضعف ، وكانت حروب الحصار هى أول ما تناوله بالتحليل المنهجى • وكان كلاوزيفيتس عنيدا متشبثا برأيه حريصا على عدم ذكر أسماء أسلافه حتى أكثرهم شهرة ، وان لم يكن من العسير التعرف عليهم من سياق الكلام • ولم يخف القائد والكاتب انطباعه بأنهم تركوا أنفسهم يتوهون فى النواحى التقنية ، وأنهم جميعا وبلا استثناء كانوا يلتفون حول النتائج وينسون أهم عامل حاسم وهو القوة الساحقة البحتة • ويرى كلاوزيفيتس ــ الذى كان معجبا بنابليون حتى انه أسماه « اله الحرب » ــ ان أفضل استراتيجية دائما هى أن نكون أقوياء للغاية ، بصفة عامة أولا ، ثم عند النقطة الحاسمة ثانيـــا •

وقد اختلفت وجهات النظر فيما يتعلق بما قصده كلاوزيفيتس ، من مقدار القوة التى ينبغى اعدادها واستخدامها ، وماهية النقطة الحاسمة وأين توجد • ولقد ناقش هو نفسه المسألة الى حد ما مؤكدا بشدة على عاملين هما العامل الهندسى للأرض والاستخدام الأمثل للمساحات وللزمن ، من أجل اعداد قوة فائقة أينما وحيثما كان استخدامها يحقق أفضل نتيجة • ولم يكن لدى كلاوزيفيتس ثقة كبيرة فى التنسيق بين أوجه النشاط المختلفة حتى داخل الفكر البشرى نفسه ، وقد أبرز فى كتابه بوضوح ان الاستراتيجية تنطوى على أكثر بكثير من مجرد تخطيط فكرى يترجم على الخرائط ثم يتم تجربته بمناورة أو تدريب حربى ، فهى تعد قبل أى

شيء مسألة تعبئة كل الطاقات الفكرية والعملية وصهرها فى بوتقة واحدة ، لتكون قوة عسكرية متينة يخشى بأسها • وقد تلجأ تلك القوة الى المناورة بطريقة أو بأخرى ولكن الأهم هو أن تنقض على العدو فتشتت شمله وتقوض عزيمته ، ولا يهم أى شيء بعد ذلك •

وربما بعث على الدهشة ، على الصعيد النفسى ، أن شخصا مثل كلاوزيفيتس ، بما يتسم به من حس مرهف ، يقدم الحرب بهذه الصورة • وقد انتهج خلفاؤه ذلك الفكر وحولوه الى نظام عنيف صاخب • ومع مرور الوقت كان هناك اتجاه متزايد لاضفاء آفاق أرحب على معنى الاستراتيجية، لا سيما فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، حيث اتسع نطاقها ليشمل تكوين القوة المسلحة الى جانب تخطيط استخدامها لدرجة أن أصبحت المسألتان تشكلان شيئا واحدا • ولسوف نكرس هذا الباب لشرح مختلف أوجه الاستراتيجية ، بدءا بأسلوب تكوين القوة المسلحة والتغلب على العقبات التى تعوقها وانتهاء بنشرها تمهيدا لمواجهة عدو حقيقى فعال •

* عن الاستراتيجية : تكوين قوة مسلحة

عندما تلوح البوارد الأولى لأى نزاع مسلح ، فان الاعداد له ينقسم فى المعتاد الى قسمين : الأول يتعلق بالعنصر البشرى والثانى يختص بالمعدات والعتاد • ويشمل اعداد العنصر البشرى جمع الأفراد وتهيئة أذهانهم للاستعداد للقتال ثم تعليمهم الانضباط وتدريبهم وشحذ هممهم القتالية وبث روح القتال فيهم • أما اعداد المعدات فيتضمن انتاجها وتخزينها وتوزيعها وصيانتها وتجهيزها بصفة عامة للاستخدام • وتعرف هذه الأعمال بمسميات تختلف باختلاف المجتمعات التى ستخوض الحرب ، ففى بعض الأماكن تتسم هذه الأعمال بأنها منفصلة ، بينما فى أماكن أخرى تنصهر مع بعضها • وبالطبع ليس الأسلوب المعاصر فى أداء هذه الأعمال هو الأسلوب الوحيد ، فقد شهد التاريخ مجتمعات بلغ بها الأمر أنها لم تكن حتى تفرق بين المرء وعتاده ومعداته • وأيا كان الأمر ، وبغض النظر عن مكان الحرب وزمانها، فلا مجال لأن تقوم الا لو أنجزت هذه الأعمال أولا وتكونت القوة المسلحة •

ولو رجعنا الى المجتمعات القبلية الأولى فسنجد أن فكرة التنظيم فى حد ذاتها ـ بمعنى تقسيم العمل بشكل منظم فى اطار من الانضباط ـ تكاد تكون غير موجودة فيما بين البالغين من الذكور • فلقد كانت الحرب كأى نشاط آخر تعتبر مهمة فردية بالنسبة لكل مقاتل ، ويتساوى ذلك تقريبا

مع القول بأنها لم تكن مهمة أى فرد بعينه · وأحيانا ما كان قرار الحرب يتخذ ارتجاليا كرد فعل لأحداث من قبيل الحاق الضرر ببستان أو سرقة المواشى أو الدواجن أو قيام أحد أفراد قبيلة مجاورة بخطف احدى السيدات · وفى مثل هذه الأحوال قد تشترك فى المعركة القبيلة بأسرها أو بعض أفرادها · وكان الرجال يأخذون أسلحتهم – وعادة ما تكون نفس الأسلحة المستخدمة فى الصيد – ويتجمعون فى مكان مخصص لهذا الغرض فى الغالب ، ثم ينتخبون قائدا من بينهم ، غير أن سلطاته لا تدوم الا بدوام الحرب نفسها · وكان اندلاع القتال ذاته يتم وسط طقوس تشبه الحفل الكبير ، حتى ان المقاتلين أحيانا ما كانوا يرقصون ويرددون الأناشيد بينما يقوم العراف بشحذ الهمم وتوزيع التعاويذ · وما أن تنتهى الحملة حتى يتفرق « الجيش » بنفس الطريقة التى تجمع بها ولكن بأسلوب عكسى ·

ولما كان رجال القبيلة فى المجتمعات الصغيرة المتآلفة هم أنفسهم المقاتلين ، ونظرا لانتشار الأسلحة فى أيدى الأفراد فقد كان تكوين قوة مسلحة يمثل بعض المشاكل · ولم تكن هناك آلية ادارية ولم تكن ثمة حاجة لها لوضع القبيلة على أهبة الاستعداد للقتال فى غضون ساعات قليلة · ومن ناحية أخرى فان نفس هذه العوامل تعنى انه أيا كانت القوة التى تشكلت فهى قوة صغيرة غير مستقرة وغير مستديمة · ولم يكن ثمة قدر يذكر من الانضباط أو من التدريب التكتيكى المنظم ، ولم تكن هناك أية محاولات لتشكيل وحدات تكتيكية مستقلة يمكنها القيام بعمل مشترك منسق · وحتى القيادة بصفتها مسألة حرجة فلم تكن حازمة بما ان السلطة القيادية لم تكن تقوم على أى أسس منظمة أو لها صفة الدوام · ومن أهم صفات الحرب القبلية انها رغم كثرة عددها فنادرا ما كانت تدوم طويلا ، وحتى لو طال أمد الحرب فنادرا ما كانت نتائجها تدوم ، بما أنه لم يكن هناك تنظيم مكلف بفرض هذه النتائج · ولم تكن فكرة الغزو أو حتى فكرة حيازة الأرض ذاتها واردة فى معظم الأحيان ·

وقد لجأت المجتمعات الأكثر تقدما الى وسائل مختلفة للتغلب على هذه المشكلات · ففى اليونان القديمة مثلا وفى جمهورية روما كان القائد العسكرى المنتخب يعمل وقت السلم كوقت الحرب · وكان هناك فى روما أيضا ما يسمى بال « dictator » وهو قائد عسكرى منتخب لمدة ستة أشهر وله سلطة مطلقة · وتعنى هذه الترتيبات ان الحاكم اليونانى أو الرومانى كانت له سلطة تفوق ما كان يحظى به زعيم أية قبيلة ، حيث كان من حقه اتخاذ التدابير للاستعداد القتالى والتدريب حتى فى زمن السلم · ومع ذلك فحتى القرن الثانى قبل الميلاد لم يكن لدى

دولة المدينة اليونانية أو جمهورية روما أية قوة مسلحة مستديمة • غير أن الممالك اليونانية حلت هذه المشكلة بشكل ما بينما تفوقت عليها قليلا الإمبراطورية الرومانية في هذا المجال ، حيث وضعتا الحرب تحت قيادة واحدة مستديمة هي قيادة الملك أو الامبراطور الذي كان يتولى المهمة اما شخصيا ، أو عن طريق نقل أوامره بوسائل بيروقراطية • وكانت أداتهما القتالية عبارة عن جيوش نظامية قوامها عشرات الألوف من الأفراد الذين يحصلون على أجورهم بانتظام ويتسمون بالانضباط الشديد وبمهارة التدريب • وظهرت تشكيلات تكتيكية مستديمة مثل الجماعة والشرذمة (ما بين ٦٠ – ١٢٠ فردا) والكتيبة (مائة فرد) والفيلق وسرية الخيالة • ويبدو أنه كانت هناك في بعض الأحيان ورش ملكية لتصنيع الأسلحة ، غير أننا لانستطيع أن نجزم بذلك نظرا لتشتت المعلومات الدالة على ذلك•

ولم يكن بوسع روما حتى في أوجها أن تعبيء من الموارد العسكرية ما يضارع الوضع في الدولة الحديثة ، مع مراعاة العامل النسبى • وكان الجيش الروماني يشتمل على قوات أجنبية بقدر ما كان لديه من فيالق ، وكانت هذه القوات قادمة من مختلف قبائل البربر وتخدم تحت امرة قائد منهم ، غير أنها لم تكن تخضع لسيطرة صارمة ، حتي انتهي بها الأمر الى الانقضاض على الامبراطورية ذاتها وانتزاع السلطة فيها • ولم يكن ثمة « وزير للدفاع » بمفهومنا الحالى أو على الأقل ليس هناك ما يدل على ذلك في سجلات التاريخ ، كما لم يكن هناك فيما يبدو شيء من قبيل هيئة للأركان تكون مسئولة عن تخطيط العمليات وادارتها ، ولا يبدو كذلك ان معدات الجيش كانت لها صفة المركزية أو التوحيد • ورغم انه كانت هناك خدمة بريدية فعالة عبر الطرق الرومانية الشهيرة كانت الهياكل التكنولوجية للحرب بدائية • ونظرا لعدم وجود خرائط جيدة أو آلات ضبط الوقت أو وسائل اتصال لاسلكية أو أى بيانات احصائية ، لم يكن بوسع الأباطرة تعبئة كل الموارد المتاحة حتى ان كانوا على علم بماهية مثل هذه الموارد ، وان كان ذلك أمرا بعيد الاحتمال ، وبالتالى لم تكن قوة الجيش حتى فى أواخر عهد الامبراطورية الرومانية ، فى عهد سبتيموس سيفيروس على سبيل المثال ، تزيد بأية حال على زهاء ستمائة ألف فرد وهو ما يمثل حوالى ١٪ من مجموع السكان • وكان ذلك يمثل عبئا ثقيلا• وفى عهد ديوقليتيانوس بدأت الامبراطورية تتفتت تحت وطأة ميزانية الابقاء على الجيش ، مما أدى الى تغيرات اجتماعية واقتصادية ضخمة أسهمت بشكل كبير فى انهيارها •

وفى نهاية القرون الوسطى تراجع الاتجاه إلى انشاء قوات عسكرية

الى ما دون المستوى الروماني بكثير. ففي ظل النظام الاقطاعي وما يتميز به من طابع لا مركزي لم تكن ثمة فرصة لتكوين جيوش مستديمة ، وبالتالي كانت القوات غير النظامية تتسم بقلة الانضباط وكان تعدادها في الغالب ضئيلا ، حيث كان أضخم جيش لا يزيد على زهاء عشرين ألف جندي منهم نسبة من الفرسان ولكن الأغلبية من الطبقة الدنيا من حملة الأمتعة والخدم الذين يجندون دون انتقاء أو عناية . غير ان الأمور بدأت تتحسن اعتبارا من عام ١٣٥٠ ولكن بمعدل بطيء ، وشهدت أواخر القرون الوسطى العودة الى الاقتصاد القائم على المال، والاستفادة بشكل أكبر من البيانات المسجلة، وأخيرا اختراع الطباعة . وبحلول الخمسينات من القرن السادس عشر كان لدى الممالك القوية قوات نظامية تشكل عصبا للجيش ، فضلا عن أغلبية مكونة من القوات المشكلة من المرتزقة العاملين بنظام العقود المؤقتة. وفي نهاية القرن السادس عشر كتب المنظر السياسي جوستوس ليبسيوس يقول ان البلدان « الكبرى » ينبغي أن يكون لديها ما لا يزيد على فيلقين يتكون كل منهما من ٦٦٠٠ فرد . وكان الملك لويس الرابع عشر ، الذي يعد من عدة زوايا أقوى حكام القرن الثامن عشر ، قد بلغ به الأمر في وقت من الأوقات ان جند عددا يصل الى خمسة في المائة من تعداد السكان؛ وكان تكوين جيش قوامه ٤٠٠ ألف جندي يمثل انجازا ضخما رغم أن عدد ما يمكن حشده في مكان واحد كان يقل عن ذلك كثيرا .

أما الجيوش الحالية في كل بلدان العالم المتقدم فهي تحظى بكل ما يلزم لتكوين قوات مسلحة . ومنذ عام ١٩٤٥ والأمور تسير على هذا المنوال حتى ان تكوين الجيوش صار يؤثر على كافة مظاهر الحياة . وكان هناك عرف سائد استمر حتى القرن الثامن عشر ويتمثل في أن بعضا من المسائل المتعلقة بانشاء قوة عسكرية لم يكن يعتبر جزءا من الحرب ، فلم تكن الجيوش على سبيل المثال تقوم بأعمال أركان حرب ، حيث كان يكلف بذلك رجل مدني يعين سكرتيرا للقائد وتعفيه المعاهدة الدولية من الاشتراك في القتال ، كما تقضي بأن يخلى سبيله اذا وقع في الأسر ، ولا كانت الجيوش أيضا تقوم بتدوين الأفراد المجندين وتسجيل بياناتهم ، فقد كان ذلك من اختصاص السماسرة أو ، على نحو ما كان عليه الحال في البحرية البريطانية ، ومن اختصاص كتائب التجنيد ـ وهي كتائب يقودها ضباط غلاظ وتقوم باكراه الناس على الالتحاق بالأسطول . وينسحب نفس الشيء على مجال الامداد والتموين والنقل وعلى شئون مثل الخدمات الطبية والشئون الدينية والتعيينات ومستلزمات الأفراد من السلع ونظافة الملابس وما الى ذلك . وكانت تلك الخدمات اما تتوفر عن طريق تعاقد الجيش مع مدنيين ، أو تؤدى على المستوى الفردي ويدفع الجندي ثمنها من ماله الخاص .

ويتضح من ذلك أنه فى معظم فترات التاريخ اما كانت المؤسسات العسكرية ضئيلة الشأن بدرجة لا تحتاج تنظيما مركزيا مختصا بالحرب ، أو كانت ـ مثلما كان الحال فى الامبراطورية الرومانية ـ ضخمة لدرجة لا يستطيع مثل هذا التنظيم أن يتحمل عبئها • وفى كلتا الحالتين ظلت عمليـة تكوين قوة عسكرية مسألة تتسم بالقصور • ولم تكن مثل تلك العملية تسفر الا عن تعبئة نسبة من الموارد المتاحة • وحتى تلك النسبة لم تكن تحظى بتنسيق جيد أو عناية طيبة نتيجة عدم توفر عقل مؤسساتى مركزى ولا معلومات تفصيلية دقيقة ولا وسائل اتصال فعالة • وقد كان لذلك أبلغ الأثر فى تحجيم الحدود القصوى لاعداد الجيوش سواء بصفة عامة أو فى اللحظات والمواقف الحاسمة • ولا يبدو انه كانت هناك جيوش، منذ معركة رفا فى ٢١٧ قبل الميلاد وحتى معركة مالبلاكيت فى ١٧٠٩ ، تزيد فى تعدادهـا على مائة ألف مقاتل الا فى الأساطير • وحتى عنـدما حشد نابليون ، الذى يعد أقدر القادة العسكريين على مر التاريخ ، أقصى طاقة له فى ليبزج فى ١٨١٣ وتقدر بنحو ١٨٠ ألف رجل ، فقد السيطرة على تلك القوات •

ولقد كانت نقطة التحول فى هذا المجال ـ ومجالات كثيرة أخرى ـ هى اختراع السـكة الحديد والتلغراف اللذين بدأ تـأثير كل منهما على الحرب اعتبارا من الثلاثينات فى القرن التاسع عشر ، حيث زادت السكة الحديد من سرعة النقل وحجمه عـدة أضعاف وفى الوقت نفسه خفضت تكاليفه • وقد أتاحت السكة الحديد أولا ربط بلدان بأكملها ثم قارات بعد ذلك بما يسر تعبئتها بشكل مشترك لأغراض الحرب • أما التلغراف فقد كان عاملا معاونا حيويا لسببين : أولا لانه أتاح استخدام السكة الحديد بكل طاقتها ، وثانيا لانه أتاح ابلاغ أوامر التعبئة بسرعة وكفاءة عاليتين• ومازال دور السكة الحديـد والتلغراف ممتدا الى ما بعد التعبئـة ، حيث انهما أتاحـا السيطرة على القوات وتزويدها بالمؤن • ولما كانت تجـربة المعدات الجديدة من اختصاص وزارات الحرب فى العديد من البلدان فقد كان البروسيون هم أول من أمسك بزمامها واستغلوها بكل طاقاتها • وقد جرت التجارب فى عام ١٨٥٩ عندما أدت الحرب الفرنسية النمساوية الى قيام البروسيين بتعبئة قواتهم على نهر الراين ، وخلال حرب ١٨٦٤ ضد الدانمرك • وقد كان من شأن التعبئة البروسية ضد النمسا فى عام ١٨٦٦ ثم ضد فرنسا فى عام ١٨٧٠ وما إتسمت به من سرعة ان جعلت العالم يلهث ، بل ان الأمر تجاوز ذلك الحد حيث انها أتاحت تحـديد نتيجة الحرب قبل اطلاق أول رصاصة •

ومن ناحية أخرى فلم تكن السكة الحديد والتلغراف سوى باكورة عالم كامل من الأجهزة الحديثة مثل الراديو والهاتف وآلة الطبع الدوارة والعربات الموتورية ثم ، وقبيل عام ١٩٣٩ ، آلات الحساب الآلية التى تعد اللبنات الأولى لما أصبح فيما بعد الكمبيوتر • وإذ أدت هذه الأجهزة الى ربط كل أنشطة المجتمع في شبكة دقيقة،فقد أضفت قدرا كبيرا من السرعة على عملية تكوين القوة العسكرية ووسعت كثيرا من نطاقها ، وأصبح بالامكان حشد الملايين فى ميدان المعركة ، بل وبقاء هذه القوات فى مواقعها لفترة غير محدودة • وصارت الجيوش تشبه أكثر ما تشبه مدنا متنقلة ، فهى تحتاج أن تتزود بالمأكل والملبس والعتاد والتدريب والرقابة الشرطية وان تحاط بكل أنواع الرعاية ، أى كأن كل أنواع الخدمات فى المجتمع المدنى قد نسخت مرة ثانية فى الجيش ، وبالتالى أصبحت الآلية الادارية العشوائية القديمة المعنية بتعبئة القوات والاشراف على عملياتها لا تكفى ، وكان لابد من انشاء جهاز آخر يتولى تلك المهام وكان أن تأسس هذا الجهاز على أحسن ما ينبغى ، فى صورة هيئة الأركان العامة •

وتتكون هيئات الأركان من أجهزة يعمل بها خبراء منتقون ومدربون تدريبا خاصا ، وهم يمارسون عملهم فى مكاتب وليس فى ميادين المعارك، وبدلا من القتال فهم يخططون ويديرون ، فكانت النتيجة على الصعيد الشخصى أن حظوا بمكانة خاصة ، وعلى الصعيد العسكرى العام أن بدت أحيانا الادارة والتخطيط كأنهما هما كل ما تتعلق به الحرب • وما لبثت هيئة الأركان ـ كأية منشأة فنية ناجحة ـ أن اكتسبت ديناميكية ذاتية وسعت الى توسيع نطاق قدرتها • ومع الوقت صارت تلك الأجهزة مسئولة عن كل كبيرة وصغيرة فى الحرب ، بدءا بعمليات الوحدات الكبيرة وحتى توفير بيوت الدعارة الخاضعة للاشراف الطبى لخدمة القوات ، مثلما حدث فى ويرماخت فى الحرب العالمية الثانية • ولم تعد خدمة الوطن مقصورة على الجنود ، فلقد أتاحت وسائل الاتصال الحديثة تسخير كل شيء واشتراك كل فرد فى عملية انشاء القوة المسلحة ، بما فى ذلك أساتذة الجامعات غير المتفرغين حيث كان يتم نقلهم خلف الخطوط الشائكة ليحلوا الشفرات وليبتكروا أجهزة غريبة !

وقد أخذت هيئات الأركان دفعتها من التعبئة البروسية فى ١٨٦٦ و ١٨٧٠ فجعلت أهدافها هى النظام والتنسيق وقبل كل شيء الكفاءة • ولم تكن عملية انشاء قوة حرب تقتصر على مجرد تعبئة كل الموارد المتاحة، فانها تعتبر فى الواقع عملية دمج لكل تلك الموارد وصهرها مع بعضها بحيث يتكون فى النهاية جهاز واحد متناغم • ولما كان ينسب لهيئات

الأركان انها تصنع الكفاءة ، فقد امتدت الفكرة الى مجالات أخرى · وقد برع البروسيون فى هذا المجال حتى ان الكتاب من أمثال ادوارد بلامى فى كتابه « النظر الى الخلف » (Looking backward) بدءوا يطـــالبون المجتمع بأسره بالعمل بنفس درجة كفاءة جيش مولتكى ، فنشط المدراء وأرباب العمل من أمثال فريدريك تيلور وهنرى فورد ونشروا ذلك الاتجاه وعززوه ، فأدخلوا سيور النقل الميكانيكية واستخدموا عـدادات الوقت وسجلوا معدلات حركة العمل من أجل الوصـــول الى اقصى كفـــاءة للعامل وللماكينة · ومع الوقت بدأ نظام مكافأة المجيدين وترقيتهم لكفاءتهم ، وهى فكرة طرحت لأول مرة عند منعطف القرن · وفى الثلاثينات من القرن العشرين اتخذ خبراء وزارة الخارجيـــة البريطانية من « الكفاءة » معيـــارا لتقييم الأمم بأكملها وتوصيفها · ولما جاءت ألمانيا بزعامة هتلر فى المقدمة كان من البديهى محاولة استرضائه على حساب أى شىء ·

ومهما اختلفت الظروف من مكان لمكان تظل أساليب تحقيق الكفاءة واحدة ، ويتطلب ذلك فى المقام الأول « عقلا » مدبرا قويا يثق فى نفسه وفى أهدافه · وينبغى أن يتألف هذا « العقل » من أفضل العناصر المؤهلة لهذه المسئولية ومن أناس لا يرمون الى استغلال وظائفهم لتحقيق أى نوع من المصالح الشخصية · وينبغى أن يكون لهذا « العقل » سلطة مطلقـــة شاملة ·ويتمثل أول جانب من أنشطته فى الحصول على بيان تفصيلى كامل بكل الموارد البشرية فى الوطن وبكل الموارد المالية وحتى وصلة ربط آخر عربة فى القطـــار · وتبـــدأ بعد ذلك عملية وضع الخطط لتعبئة كل الموارد المتاحة لغرض الحرب · وتشمل هذه الخطط مئات الألوف ، بل ملايين العناصر · ولابد من تنظيم هذه العناصر وربطها ببعضها والتنسيق بينها من أجل الوصول الى أعلى معدل من السرعة والسلاسة فى العمل · ولابد من آن لآخر من مراجعة تلك الخطط من أجل « تصويب الأخطاء » طبقا لمصطلحات الكمبيوتر المعاصرة · ولابد أيضا من اعادة دراستها بشكل منتظم بهدف تكييفها مع الظروف المتغيرة ولضـــمان مواءمتها مع أحـــدث ما وصلت اليه التكنولوجيا · ومن غير المسموح أن تكون هناك أى عوائق تعطل هذه الخطط ، ولا حتى الحاجة لأن يكون هناك اتصال مستمر مع القائـــد ·

وينبغي ألا تتجاوز الاجراءات اللازمة لوضع هذه الخطط موضع التنفيذ مجرد توقيع الوزير المختص ، على قصاصة من الورق هى نفسها معـــدة سلفا ولا ينقصها سوى وضع التاريخ عليها ، وبمجرد التوقيع على الورقة وصدور أوامر التعبئة ينبغى أن يجرى كل شىء بعد ذلك بشكل آلى وفقا

للمخططات : أى يتوجه الأفراد الى مراكز التعبئة حيث يتم تحويلهم الى جنود يرتدون الزى ويحملون السلاح ، ثم تتشكل السرايا ومنهـا تتكون الكتائب والكتائب تتجمع فى ألوية وأفواج ثم فى فرق وجيوش • ولابد من تجهيز الجيوش بوسائل الدعم كقطارات الامداد والتموين والمدفعية الثقيلة وطائرات الاستطلاع • ثم تتوجه هذه القوات صوب الحدود عن طريق السكة الحديد ـ أو المركبات فى عصر لاحق • ولابد من وجـود ترتيبات لاستقبال هذه القوات لدى وصولها ، وأن تكون المرحلة الأخيرة من التحرك خاضعة لنظام دقيق حتى انه لو كان التحرك يقتضى المرور على كبار أو فى أنفاق ، فان نظام المرور ينبغى أن يكون معدا سلفا • وبوصول القوات الى مواقع الانتشار تنتهى عملية تكوين القوة وتصبح الأمور مهيأة لبدء الحرب نفسها ، ولكن لابد قبـل أن يبدأ القتال من ايجاد السبل الكفيلة بتذليل الصعوبات التى قد تعوق الكفاءة والفعالية مثل عدم المرونة والاحتكاك واللبس •

※ عن الاستراتيجية : عوائق القوة

يعتبر اللبس والاحتكاك ، وفقا لرأى كلاوزيفيتس ، أهم ثنائى من العوائق التى يمكن أن تعرقل أية قوة عسكرية ، وربما أضاف اليهما عدم المرونة ليكمل بذلك ثلاثيا شكل على مر التاريخ عوامل معوقة لأداء القوات المسلحة • ولا تقف هذه المشاكل عند حد المستوى المعروف بصفة عامة باسم « الاستراتيجية » ولكنها تمتد لتشمل العمليات الكبرى فى الحرب ، بل ان السبب الرئيسى لمناقشتها هو على وجه التحديد أنها تظهر أينما وحيثما اندلعت الحرب • ويؤثر هذا الثلاثى المعوق على كل شىء وعلى كافة المستويات بدءا من الجماعة المشاة التى تحاول شق طريقها فى أرض طينية، وحتى المكاتب الأنيقة حيث تتم مناقشة المشاكل العسـكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية • ويبلغ هذا التأثير حدا حتى ان تقدير نوعية الأداء على كل من هذه المستويات يرتهن الى حد كبير بقدرتها على تخفيف هذا التأثير ، وكلما كان المستوى أعلى بصفة عامة زاد حجم المشاكل وزادت أيضا صعوبة علاجها • ويعد ذلك من الأسباب التى تفسر لماذا كلما اقترب الناس من القمة زادت أعبـاء مسئولياتهم وطالت ساعات عملهم وأيضـا تقاضوا أجورا أكبر •

ولقد رأينا فيما سبق ان الكثرة تعد فى حد ذاتها عنصرا رئيسيا للقوة • وثمة حكمة عامة مبنية على آراء كلاوزيفيتس ونابليون تقول بأنه : « لو تساوى كل شىء فالغلبة تكون فى جانب الكتائب الأكبر حجما » •

ويعزى ذلك فى جانب منه الى العامل النفسى • ويبدو أن تفضيل الكثرة — مادامت لم تزد عن الحد المعقول — تعد من الأسس التى بنيت عليها نفسية الانسان ، بل والحيوان • وحتى فى يومنا هذا نجد ان الأحراس الملكية تحرص — عندما يتعلق الأمر بالجذب السياحى — على ضم أعداد كبيرة من الأفراد الأشداء • وتعد الحرب فى المقام الأول مسألة نفسية ، ولو استشهدنا مرة أخرى بنص كتاب « عن الحرب » فسنجده يقول : « انها صراع عقلى وبدنى يقوم به الجسد » ، ومن ثم فلابد للجيش المتوجه للقتال أن يحرص كل الحرص على أن يظهر بأكبر حجم ممكن وبأقوى صورة ممكنة من أجل ارهاب العدو وردع الأطراف المحايدة وأخيرا تشجيع القوات الصديقة وأفراد الجيش ذاته •

أما الأسباب الأخرى التى تساعد على تشكيل القوة فهى التجهيز الفائق بالمعدات ، والتنظيم الجيد ، والتدريب الراقى ، والانضباط الصارم فضلا عن الروح المعنوية العالية • وقد تتغلب هذه العوامل على مسألة الكثرة المطلقة ولكن فى حدود معينة وطالما لم تكن الظروف معاكسة بدرجة كبيرة • وأيا كانت العلاقة بين الكم والنوع ، فلقد كانت مسألة الكثرة العددية وما لها من تأثير حيوى على الحرب موضوع حجم ضخم من الكتابات العسكرية •

غير أن الكثرة العددية تعد فى نفس الوقت مصدرا للمشاكل • فمن شأن القوة الأكثر عددا — لو تساوت الكفتان فى كل شىء آخر — أن تكون أقل مرونة • فقد يكون بوسع الجماعة أن تعمل على أى نوع من الأراضى ولكن لا ينطبق ذلك على الفرقة بكل ما لديها من وسائل نقل ، وقد تنفصل جماعة عن الخطوط الادارية الخلفية ومع ذلك تبقى وتعمل بشكل مستقل لبعض الوقت ولكن لا يتيسر ذلك لفرقة بكل حجم متطلباتها الادارية • واذا تعرض محارب بمفرده لهجوم فردى من أية جهة فبوسعه أن يستدير فى لحظة ليواجه ذلك المهاجم ، ولكن مثل تلك المناورة ستكون أصعب بالنسبة لخط يتكون من عشرة أفراد ، وكلما زاد عدد الأفراد زادت صعوبة الحركة • وليس الأمر مجرد مسألة هندسية ، فكلما زاد حجم الوحدة استفحل حجم الاجراءات القيادية وطال رد الفعل • وقد تعمل التكنولوجيا المتطورة على التخفيف بعض الشىء من هذه المشكلات ولكنها لا تقضى عليها بأية حال من الأحوال • وعلى سبيل المثال يفيد المعيار الحديث لاجراءات العمل (SOP) بأن معدل تلبية وتنفيذ الأوامر بالنسبة لقوة بحجم الجيش يتراوح بين أمرين الى ثلاثة أوامر على مدى ٢٤ ساعة ، وهو معدل ظل ثابتا على مدى قرنين من الزمان ، أى منذ ابتكار فكرة تكوين قوة بهذا الحجم أصلا •

ومن ناحية أخرى فان درجة مرونة التشكيلات التكتيكية للقوات تميل لأن تتناسب عكسيا مع قدرتها · ويوضح بوليبيوس فى وصفه لمعركة بيدنا المندلعة فى عام ١٦٨ ق·م· كيف ان القائد الرومانى لوسيوس اميليوس باولوس ارتعد لرؤية القوات المقدونية التى كان يقدر عددها ب ٤٠ ألف رجل ، وكانت تبدو كاسحة فى تقدمها غير أن ذلك لم يحل دون أن يكون لها مكمن ضعف ، بل ان عامل قوتها كان هو مكمن ضعفها ، حيث ان الأعمدة الضخمة التى كان يحمل كلا منها عدد يصل الى ستين رجلا ، كانت تحول دون أن يستدير هؤلاء الأفراد بحملهم ليواجهوا أى صدع أو هجوم على صفهم من الأجناب · ولنضرب مثلا آخر من القرن الثامن عشر حيث كانت التشكيلات التكتيكية تتمثل فى خطوط طويلة بها عدد قليل من الصفوف ، ليتيح ذلك استخدام كل بندقية ويوفر أكبر طاقة نارية · وكانت تلك الخطوط تتقدم بما يشبه الحوائط البشرية · ولكن لما كان تقدمها بطيئا وتتخلله وقفات متكررة لتنظيم الصفوف واعادة ترتيبها نتيجة ما يلحق بها من خسائر، فقد كانت دفعات النيران التى تطلق بمعدل دفعتين أو ثلاثة فى الدقيقة تتسبب فى وقوع خسائر كبيرة رغم عدم دقتها ، بل ان حجم الخسائر قد يصل فى غضون ساعات قليلة من القتال الى ٤٠٪ من القوات ما بين قتيل وجريح · وقد فهم الخبراء السبب وأثبته فريديريك الثانى فى لوثن فى ١٧٥٧ ، حيث أبرز أن وجه الضعف الكبير فى هذه التشكيلات يكمن فى عجزها عن الالتفاف بسرعة ، ومن ثم لو تعرضت لهجوم من الأجناب فسوف تكون كالمواشى فى مجزر آلى ·

ولقد تفاقمت هذه المشاكل خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، عندما حلت السكة الحديد مكان الترجل وأصبحت الوسيلة المفضلة للنقل الاستراتيجى ، فالسكة الحديد معقدة غير مرنة بطبيعتها بما أن القطارات لا تسير الا على القضبان ، فلابد اذن من اعداد جداول التحرك سلفا وبدقة ولابد أيضا من الالتزام بها حيث ان أى اهمال يؤدى الى التأخير والاكتظاظ ، بل قد يسفر أيضا عن وقوع تصادمات فيما بين القطارات ، علاوة على ذلك فان عملية شحن وتفريغ القطارات كانت عملية بطيئة وطويلة لدرجة انه كان يفضل بالنسبة للوحدات الكبيرة – فرقة فأكبر – أن تتحرك مترجلة لو قلت المسافة عن ٧٠ ميلا · ولم يكن أحد أشد ايمانا من مولتكى بأن استخدام السكة الحديد لنقل الجيوش قد بدأ ولا سبيل الى تغييره · غير أن ما شهدته أوروبا بعد ذلك من زيادة فى خطوط السكة الحديد قد حسن الوضع بدرجة ما وان ظلت المشاكل الأساسية كما هى · ومن أشهر الأمثلة على ذلك ان تفاصيل الخطة الألمانية فى الحرب العالمية الأولى كانت معدة قبل سنوات من اندلاع المعارك ،

وعندما اقترح القيصر في آخر لحظة تغيير الخطة لتتواءم مع ما بدا ـ بطريق الخطأ ـ انه انفراج دبلوماسى ألقى رئيس أركانه ـ وكان ابن أخ مولتكى الكبير ـ بسلاحه وأقسم ان ذلك لن يتم ٠

أما الجيوش الحديثة فهى أقل اعتمادا على السكة الحديد من أسلافها ، غير أنه لابد من الأخذ فى الاعتبار بما وصلت اليه الشئون الادارية من ضخامة فى الحجم ، فقد كان معدل استهلاك الفرقة خلال الحرب الفرنسية البروسية يصل الى ٥٠ طنا فى اليوم تتكون أساسا من غـذاء الانسان وأعلاف الحيوان ٠ وفى عام ١٩١٦ ارتفع هذا الرقم الى ١٥٠ طنا ، ويرجع معظـم هذه الزيادة الى الذخيرة والوقود وقطـع الغيـار والامداد الفنى والهندسى ٠ وفى الفترة ما بين ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢ بنت هيئة الأركان الألمانية حساباتها على أساس أن الفرقة المدرعة فى الصحراء الغربية تحتـاج الى ٣٠٠ طن يوميا ٠ ولاشك ان هذا الرقم زاد الى الضعف أو الى ثلاثة أمثاله منذ ذلك التاريخ وحتى الآن ٠ وازاء هذه الكميات فان الجيوش الكبيرة تحتاج آلاف العربـات وملايين تلو الملايين من جالونـات الوقود لنقـل اداريا‌تها ، كما انها بحاجة الى هيكل تكنولوجى هائل ليوفر كل ما تحتاجه اللوارى من صيانة وقطع غيار حتى الاطارات ٠ وتحول ندرة المعلومات المتاحة منذ عام ١٩٤٥ دون بناء تقدير لهذه الأمور ، غير أن البعض من المتشائمين والساخرين يقولون ان العدد الضئيل من النزاعات التى يمكن استخلاص نتائج منها تتحدث عن نفسها ٠ وأيا كان الأمر ، فثمة نوع من الشـك بأن الجيـوش الحديثة أصبحت ـ بفضـل قدرتهـا الهائلة ـ كالديناصورات الجبارة ، واذا كان تحليلنا صائبا ، فانها ستؤول مثلها الى الفنـاء ٠

ولننتقل الآن الى الحديث عن الاحتكاك ، وهو العامل المعوق الثانى فى عمليـة تكوين القوة ، وهو مرتبط بالعـامل الأول (أى عدم المرونة) وكلاهما من نواتـج الكثرة وزيـادة الحجم ٠ والاحتـكاك لفظ يبدو ان كلاوزيفيتس هو أول من استخدمه ، وقد اسـتعاره من علم الميكانيكا ٠ ويعرف كتاب « عن الحرب » الاحتكاك (Reibung) بأنه « الشىء الذى يميز بين الحرب على الورق والأمر الواقع » ، انه العامل الذى يقول عنه كلاوزيفيتس فى تشبيه فريد انه يجعل حـركة السير السهلة الرشيقة تبدو صعبة مستعصية وكأنها تجرى فى الماء ٠ ومعروف فى عالم الميكانيكا أنه كلما زاد عدد الأجزاء فى أية ماكينة ـ سواء بشرية أو ميكانيكية ـ زاد احتمال ان يتعرض أحد هذه الأجزاء للعطل بما يؤثر على سائر الأجزاء ويخلق الاحتكاك ٠ وبالمثل فان القوة المسلحة تتكون من عناصر منفصلة ، وكل عنصر له مشاكله ويتعامل ويتداخل مع العناصر الأخرى ، وذلك

من شأنه أن ينتج قدرا هائلا من الاحتكاك ، ومن ثم فاذا لم يكن هناك قدر ملائم من العناية والانتباه ، فان ذلك الاحتكاك قد يسفر ، مع شيء من سوء الحظ ، عن خسائر كبيرة قد تصل الى حد تعطيل تلك القوة تماما عن العمل ٠

ومما يزيد صعوبة مسألة الاحتكاك أنه كلما زادت درجة الكفاءة المطلوبة زاد تأثير الاحتكاك ٠ فعندما حلت السكة الحديد محل الترجل لم يكن فقدان واحدة من عجلات احدى العربات يمثل مشكلة للجيش الفرنسى ، فغالبا ما كان سيتجاوزها حتى لو أدى الأمر الى فصل هذه العربة ودفعها بعيدا عن الطريق حتى يكمل الطابور مسيرته ٠ ولكن لو خرج قطار بأكمله عن القضبان فلن يكون الأمر بهذه السهولة ، كما أن تدمير جزء من القضبان لا يمكن التغلب عليه مثل أية حفرة فى الطريق٠ وكلما كان التنسيق الذى تعتمد عليه درجة الكفاءة وثيقا زاد احتمال الخطأ والخلل فى انسياب الأداء فيما بين العناصر المتداخلة ، وزادت خطورة تعطل أى عنصر مما يؤدى الى تعطل شامل ٠ ومن شأن الأعطال بصفة عامة أن تكون مركبة ، فالرغبة فى الاحتفاظ بمعامل أمان شامل تعنى أن الأعطال المتتالية تحتاج الى معامل أمان لكل عطل ، وبالتالى يتزايد تدريجيا معامل الأمان مع كل مرحلة ٠ ولذلك فما أن يبدأ العطل فمن الصعب ايقافه ٠

ويعد تأثير الاحتكاك بالغا لدرجة ان بعض الجيوش الزاحفة الى المعركة قد تعرضت للجوع حتى قبل أن يبدأ القتال ٠ وليس من السهل ايجاد سبيل للتغلب على الاحتكاك بما انه يكمن فى طبيعة الأشياء ذاتها ٠ وقد يكون بوسع قائد قوى العزيمة أن يقرر — تحت وطأة ظروف معينة لا يد له فيها — أن يدفع بقوته الى الأمام بغض النظر عن الاحتكاك ، غير أن ثمن ذلك سيكون باهظا حيث ان التآكل والتصدعات الناجمة عنه ستكون فائقة ، لدرجة قد تؤدى الى انهيار المحرك ، ولو انهار المحرك بعد تحقيق الهدف فلا ضرر ٠ أما لو انهار قبل ذلك فالعواقب قد تكون وخيمة ٠ وعلى سبيل المثال فقد دفع الجنرال الألمانى رومل قواته مرارا الى نقطة الانهيار ، بل والى ما بعدها ، ففى عام ١٩٤١ أسفر اندفاعه صوب السلوم عن القضاء تقريبا على قواته ، وفى عام ١٩٤٢ وصل الى العلمين بدون وقود تاركا ذخيرته فى طرابلس على بعد ألف ميل خلفه وليس لديه سوى ١٩ دبابة عاملة ٠ ومما زاد من صعوبة الأمر أن خطوط اتصاله التى بلغت أطوالا عجيبة ، كانت تتعرض باستمرار لهجمات جوية وبحرية ، وكان واضحا ان الفيلق الأفريقى بذل كل ما فى وسعه وأنهك تماما ، ولم يفعل بعد ذلك الا محاولة

هجوم عاجزة فى علم حلفا ، ولما فشل ذلك الهجوم لم يكن بمقدور رومل الا الانكماش وانتظار أن يشن العدو ، الذى كان يزداد قوة يوما بعد يوم ، هجومه المضاد • ولما وقع ذلك الهجوم أطاح بالبقية الباقية من القوات الألمانيـــة •

ويرى كلاوزيفيتس ان الخبرة هى العامل الوحيد الذى يمكن ان يساعد الجيش على مواجهة الاحتكاك ، فمن شأن الخبرة أن تكون كالتزييت بالنسبة للأجزاء المتحركة فى الماكينة ، حيث انه يخفف من الآثار الضارة للاحتكاك ولكنه لا يلغيه • غير أن تلك المسألة يمكن أن تنقلب رأسا على عقب • فالقوات المتمرسة التى تعرف بعضها بعضا لمدة طويلة تدرك جيدا أن أى رجل وأية قطعـة فى معدة وأية وحـدة قد تتعرض لانهيار عرضى فتكون بذلك مصدرا للاحتكاك ، وبالتالى تهرع العناصر لمسـاعدة بعضها البعض تلقائيا • ومن صفات الجيش الجيد أن يتمكن ـ سـواء بنفاذ البصيرة أو بالخبرة أو بأية وسيلة أخرى ـ من تجنب الاحتكاك وأن يعرف متى وكيف يستطيع ان يحيا فى ظله ومتى لأيستطيع ذلك •

وتعتبر البيئة مصـدرا آخر من مصادر الاحتكاك علاوة على ذلك الناشىء داخل الماكينة • فقط تسقط الأمطـار مبكرا فتحيل الأرض الى مستنقعات تعطل تقدم القوات أو توقفها تماما ، أو قد تجد القوات الكوبرى المخطط عبوره فى حالة سيئة ولا يسمح بمرور دبابات الفرقة ، ويشكل الاعداد الدقيق المبنى على استخبارات جيدة الوسيلة الوحيـدة لتجنب مثل هذا النوع من الظروف • غير ان الموارد عادة ما تكون محدودة وبالتالى لايمكن ان يكون الاعداد نموذجيا • واذا كان الانسان لايعرف فى الواقع ماكان ينبغى عليه ان يعـرفه ، فان نفس الشىء ينسحب على الاستخبار والاستطلاع • يضاف الى ذلك ان الاستخبار يحتاج الى وقت لدرجة ان الحاجة لمزيد من المعلومات عادة ما كانت تستخدم كعذر للتاخـر وعدم التحرك • وقد يكون من شأن الجيش الذى يؤجل بدء حملته حتى يتسنى له الحصول على « كل » المعلومات التى يحتاجها أن ينتظر الى ما لا نهاية • وأخيرا وعندما يبدأ الجيش فى التحرك فسوف يكتشف على الأرجح ان الاستخبارات الزائدة عن الحد قد تكون لها نفس المضار الناجمة عن ندرة المعلومات • فعندما تتعرض الاتصالات للاعاقة ، مما يتسبب فى ارباك الترتيبات المخططة ، سيتأثر كثيرا أسلوب اتخاذ القرار • ومن ثم لايمكن ان يكون الاستخبار نموذجيا ولا ينبغى لأى جيش قويم ان يقع فى مثل هذا الاعتقاد الخاطىء •

ويبرز العامل المعوق الثالث الكبير للقوة ـ وهو اللبس ـ عنـدما

تدخل المعلومات فى نطاق التعامل • ويعد اللبس ـ شأنه في ذلك شأن الاحتكاك وعدم المرونة ـ نتيجة طبيعية لكبر الحجم ، ويتجه معدله الى الزيادة كلما تضخم الحجم ، فكلما كبر حجم القوة تعقدت مسألة تبليغ الأوامر وتوجيهها صوب تحقيق نتيجة ايجابية ، وازدادت صعوبة • بل ان القوة لو زادت عن حجم معين قد تفقد سيطرة القائد عليها لا لشيء الا لأنه لم يعد قادرا على الالمام بكل ما يتعلق بوحدته وفروعها الكثيرة : فأين هي ، وما أوضاعها ، وماذا تفعل ؟ • ولقد نفذ موسى ، عندما واجه هذه المشكلة ، نصيحة زوج أمه (Jibaro) فأقام التسلسل القيادى ـ الذى ظل ساريا حتى يومنا هذا ـ وفوض المسئوليات والسلطات وأقام قنوات واضحة للاتصال كما حدد ما أسميناه فى كتاب آخر بـ « التلسكوب الموجه » ونعنى به بعض الوسائل الكفيلة بتخفيف حدة المشكلة • والغريب فى الأمر ان أهم شيء فى الحرب هو الفردية فى القيادة وفى الوقت نفسه ما من فرد بوسعه الالمام بكل شيء ، وكلما كبر حجم القوات التى يرأسها القائد وازدادت تفرعا وتعقيدا ازداد اليقين بصحة هذه المقولة •

وتعد طبيعة العناصر البشرية فى الجيش مصدرا مهما آخر للبس فى الحرب • فالحرب تفوق أى نشاط آخر من حيث انها مجال لانفعالات وأحداث كثيرة كالغضب والخوف والألم والموت • والناس الذين يخوضون غمار مثل هذه التجارب المشحونة سيكونون بطبيعة الحال أقل موضوعية من رجل يجلس فى مكتبه يكتب أوراقا ، ولا وجه للمقارنة من حيث الموضوعية مع جهاز كمبيوتر « لا يعرف » حتى معنى المعلومات التى تدور فى برامجه • وفى ظل مثل هذه الظروف فلا مفر من أن تتأثر سرعة نقل المعلومات وترتيب مضمونها وترابط معانيها ومدى التعويل عليها ، ولذلك ينبغى على القائد الحكيم ان يأخذ كل ذلك فى حسبانه • ويمكن مرة أخرى تخفيف وطأة المشكلة ، عن طريق اقامة سلسلة من الاجراءات والتعليمات الصارمة واعداد قوائم المراجعة والنماذج الموحدة وتحديد الاشارات وكلمات السر وتوقيتات لتمام نقل المعلومات وهلم جرا • غير ان نوعية شتى قنوات نقل المعلومات وتداولها ستعود فى نهاية المطاف لتعتمد على العنصر البشرى ، وبالتالى فمهما بلغت هذه القنوات من تقدم لن تكون أفضل من الناس الذين يزودون الأجهزة بالمعلومات ثم يتلقونها وينقحونها ويقدمونها ثم أخيرا يستخدمونها ، انها مشكلة لاتحلها حتى مجموعة من أجهزة الكمبيوتر •

وقد يكون من الجائز اعتبار اللبس الناجم عن طبيعة الأداء فى أى تنظيم نوعا من الاحتكاك مرجعه صعوبة تداول المعلومات • أما فى الحرب فلا يأتى اللبس من طبيعة تنظيم الجيش أو من الظروف المحيطة به

فحسب ، ولكن كون الجيش يواجـــه عدوا حقيقيا من لحم ودم ويملك عزيمة حرة وله أهداف صعبة التـوقع بدرجة ما ، فذلك يشـكل بالفعل معيارا جديدا كبيرا واضافيا ينبغي الأخذ به في حساباتنا ٠ وليس من الحكمة أن نغفل أيضا أن وراء عزيمة الانسان عوامل نفسية قوية تؤثر عليه ولا يملك السيطرة عليها ، بل غالبا ما لا يمكن ادراكها ، وقد يؤدى ذلك الى أن يأتي حتى أعقل الناس من الأعـداء بتصرفات غير متوقعة ، ولمولتكي قول مأثور في ذلك حيث قال : انه اذا كان أمام العدو ثلاثة مسالك متاحة فانه هو سيتوقع المسلك الرابع !

ومن ناحية أخرى ، فمن شأن العدو الذكي الذى يسعى الى وضـع العراقيل أمام قوتنا أن يبذل كل ما في وسعه ليزيد من مقدار ما يعوقنا من لبس ٠ فسوف يلجأ الى التمويه والسرية والسرعة والاحباط والمفاجأة من أجل اخفاء تحركاته ، وسوف يحاول ستر « توقيعه » واشاراته عن طريق التشويش أو زيادة العمل على أجهزة الحس الصديقة أو تضليلها ، وسوف يقيم نظاما أمنيا دقيقا ويتعقب جواسيسنا ويعـدمهم ان أمكنه ذلك ، بل والأخطر من ذلك انه لو اعتقل جواسيسنا فقد يلجأ بالتهديد تارة وبالاقناع تارة أخرى الى استخدامهم لصالحه ضدنا ، حيث قد يجعلهم يدلون لنا بمعلومات مزيفة ، مثلما فعلت المخابرات البريطانية المضادة مع الألمان في الحرب العالمية الثانية ٠ وكم هي متنوعة ومعقدة طرق اللعب بالمعلومات حتى انها لتضارع العقل البشرى ذاته في تعقيدها ، فلا حدود للابتكار وكل شيء استخدم في وقت أو آخر سواء بنجاح أو غير ذلك ٠

ونخلص من ذلك الى ان الاهتمام بتكوين أكبر حجم من القوة ليس بالأمر الكافي ، فالقوة ما ان وجدت فانها تشكل مصدرا للمشاكل وفي مقدمتها اللبس والاحتكاك وعدم المرونة ، وكلما زاد حجم القوة تفاقمت تلك المشاكل ٠ وقد تتدخل عوامل أخرى في ادارة الحرب ، ولكن الأمر يتعلق بدرجة فائقة بمسالة التصدى لهذا الثلاثي المتداخـــل ، حتى ان النصر في الحرب قد يتوقف على مقدرة الجيش في التغلب عليه ٠ ويكمن كل من هذه العوامل الثلاثة في صلب تنظيم القوة نفسها وفي الظروف المحيطة بها ٠ غير ان عامل اللبس يختلف عن الاثنين الآخرين في انه قد يأتي أيضا نتيجة لتدخل العـــدو ، ومن ثم لايكفي مجرد التغلب عليه ، ولكن لابد من استخدامه ، فباستخدام اللبس ، وربما أكثر من أى شيء آخر ، يمكن ان يندلع القتال ٠

❊ عن الاستراتيجية : استخدام القوة

والآن وبعد ان تكونت القوة وتمت تعبئتها وتغلبنا على العوائق التي تعترضها بحث أصبحت قوة فعالة ، ما هو الأسلوب الأمثل لاستخدامها ؟

ينبغي دائما أن يتعلق أول قرار بعد ذلك بمسألة الدفاع أو الهجوم ٠ ويعتبر الدفاع ـ اذا تساوت الكفتان فى كل شيء آخر ـ أقوى صور الحرب مقارنة بالهجوم ٠ ويعزى كلاوزيفيتس تلك الحقيقة الى ثلاثة أسباب: أولا ، فان التمسك بالشيء يعد أسهل ويتطلب جهدا أقل من السعى الى اقتناصه ، ثانيا ، ولما كان هدف الدفاع هو حماية الأشياء على نحو ما هى عليه فان الزمن يعد فى صالحه ، وطالما لم يحدث شيء فذلك فى مصلحة الدفاع ، ثالثا ، فكلما كان الهجوم ينطوى على تقدم جغرافى ، انطلاقا من قواعد القوة المهاجمة ثم التقدم داخل أراضى العـدو ، زاد طول خطوط الاتصال ٠ ولقد كانت هذه المشكلة أقل وقعا عندما كانت طبيعة الشئون الادارية تتيح للجيوش البقاء لفترات طويلة خارج أرض الوطن ٠ فلقد حارب الاسكندر لسنوات فى آسيا دون أن تصله أى امدادات من مقدونيا باستثناء مرة واحدة أرسلت له فيها بعض التعزيزات ، وكذلك فعل جوستافوس أدولفوس فى ألمانيا ٠ غير ان تلك المسألة ازدادت أهمية بشكل مطرد منـذ القرن الثـامن عشر وبلغت ذروتها مع الحرب التقليدية الحـديثة ٠

وبوسع طرف النزاع الذى يلتزم بالدفاع فقط أن يحقق الانتصار عن طريق حرب الاستنزاف ، أى يعمل على التمسك بأرضه وينسق بين قواته وينظم التعاون فيما بينها ، مع استغلال الفرص التى قد تتهيأ لتكبيد العـدو الخسائر الى أن يستسلم ٠ وتتسـم مثـل هذه الاستراتيجيـة ، لو توافرت لها الظروف المواتية ، بالعديد من الميزات التى تجعلها مفضلة ، وبالطبع كثيرا ما طبقت منذ أيام بيريكليس ٠ غير أن النتيجة الطبيعية لمثل هذا المنهج الدفاعى البحت ليست الانتصار فى المعركة ولكن ابقاء الوضع على ما هو عليه ٠ وغالبا ما يقتضى التوصل الى نتيجة حاسمة للمعركة اللجوء الى الهجوم والى تدمير قوات العدو واحتلال مراكز قيادته ٠ أما المهاجم فانه يتمتع بميزة المبادرة ، فهو فى وضع يتيح له فرض مشيئته على العدو ويحرمه بذلك من جنى ثمار العديد من خططه ، بل أحيانا من مجرد الشروع فى تنفيذها ٠ وفى ذلك تكمن حكمة القول المأثور : « اذا كنت فى شك ، فاهجم » ٠ ولكن لا ينبغى مطلقا أن ننسى أن الهجوم بصفته يعد أضعف صور الحرب ، ولذلك يحتاج فى المعتاد الطرف الذى يزمع الهجوم تفوقا فى القوة سواء أكان تفوقا عدديا أم نوعيا أو كليهما معا ٠

وبفرض أن ظروف شن الهجوم قد توفرت ، فكيف يتم ذلك ؟ تتمثل أبسط صورة للهجوم فى ان تتجمع القوة فى موقع واحد ثم تنقض على

العدو كقذيفة ضخمة ، أما البديل فهو أن يتم تقسيم القوة الى مجموعتين أو ثلاث أو أكثر وتهجم كل مجموعة فى خط منفصل عن الأخرى • ولو وقع الاختيار على هذا البديل فالسؤال التالى هو : هل تتقدم كل القوات فى توقيت واحد أم يتم الهجوم فى شكل موجات متتالية كدرج السلم ؟ وفى هذه الحالة أى جناح يتقدم وأى جناح يتأخر ؟ ولو هجمت القوات فى توقيت واحد فهل تتقدم على محاور متوازية أم متقاربة أم متباعدة ؟ • وليست كل تلك المسائل بالأمور التافهة ، وثمة مجلدات ضخمة قد تناولتها وترد عليها • ويرجع تاريخ هذه الكتابات الى الفترة ما بين ١٨٠٥ و ١٩١٤ وكلها ترتبط بصلة وثيقة باسم انطوان جومينى هذا المفكر الاستراتيجى العملاق والمعاصر لكلاوزيفيتس • وترتهن كل العناصر المؤثرة فى الحرب بالظروف الفعلية السائدة ، ومنها يكتسب كل من ميزان القوة الطبيعية والجغرافية وخطوط الاتصال والعوائق الطبيعية وما شابه ، نقاط القوة أو الضعف •

وينطوى نسيج الاستراتيجية على مشكلة اضداد من البدائل من قبيل : الرمى من الخندق مقابل الرمى على الخندق ، واختراق الحصار مقابل التطويق ، والتقدم المباشر مقابل الزحف غير المباشر • وليست هذه المسائل بجديدة ولا هى مقصورة على مستوى معين من حجم القوات المقاتلة • فلابد اذن من اختيار البديل والتوصل الى قرار سواء أكانت الوحدة المقاتلة فيلقا رومانيا أم عصبة من أهل الكهف أم جيشا فى عهد مولتكى أو حتى ايزنهاور • ومن شأن سرية مكونة من خمسين رجلا وتنفذ أمرا بالهجوم على خندق حصين أن تواجه نفس الاختيارات والبدائل مثل جيش قوامه مليون جندى ويتقدم صوب نهر مهم • وتعد المصطلحات الاستراتيجية من قبيل : الهجوم والدفاع والتقدم والانسحاب والفرار والانهاك وغيرها مصطلحات عامة تستخدم على كافة المستويات ، بغض النظر عن حجم القوة المقاتلة أو طبيعة التكنولوجيا المستخدمة أو حتى مقدار العنف المندلع • بل ان تلك المصطلحات لا يقتصر استخدامها على الحرب فقط، حيث انها تستعمل أيضا فى العديد من الأنشطة الرياضية ابتداء بكرة القدم وحتى الشطرنج • ويتسع بشكل مدهش مفهوم الاستراتيجية كاطار تحليلى للعديد من الأنشطة حتى انه يمكن تحديد قاسم مشترك أساسى عام • وسوف نتناول فى القسم التالى طبيعة هذا القاسم المشترك ومعناه •

ولعلنا نذكر القارىء بما قلناه سالفا من أن نجاح العملية الهجومية يحتاج عادة تفوقا فى القوة ، وبالتالى فلو ان القوة المهاجمة متفوقة على

العدو فليست هناك مشكلة ، ولكن السؤال المطروح هو: ما العمل لو لم يكن الأمر كذلك ؟ لا شك ان دفع قوة ضد قوة تعادلها سيؤدى فى ظل ظروف عادية الى حرب انهاك ولن تسفر عن نتيجة حاسمة · وقد تكون مثل هذه النتيجة مقبولة ـ لو أن الطرفين على قدم مساواة فى قوتيهما ـ ولكنها ليست مرغوبة بأية حال · أما لو كان أحد طرفى النزاع أضعف من الآخر فلن يتحمل الاستنزاف ، وبفرض أن حجم الخسائر متساو على الجانبين ، فسوف يتعرض الجانب الأضعف للانهاك بمعدل متزايد بينما يحتفظ الطرف الآخر ببعض قوته · وقد استخدمت بعض السلطات هذا الخط فى التفكير للقول بأنه ليس أمام الطرف الضعيف من بديل سوى الهجوم أو الفناء · وليس من قبيل الصدفة أن ثلاثة من أكبر معتنقى هذا الفكر هم فريدريك الكبير والألمانى ألفريد فون شليفن وجنرال المدرعات الاسرائيلى اسرائيل تال ، حيث أن ثلاثتهم ينتمون لبلدان محاطة بأعداء أقوى منهم · والواقع انه اذا لم يتمكن المدافع الضعيف من تكبيد العدو حجم خسائر أكبر كثيرا مما يتكبدها هو (وذلك يعنى أن المهاجم يتسم بقدر كبير من الغباء) فمن الصعب التكهن بأى بديل آخر ·

ولو أراد جيش أن يشن هجوما ناجحا ضد عدو يضارعه فى القوة أو يزيد عليه ، فلابد له أن « يركز » ، ولن يكون أمامه من سبيل الا أن يضعف قوته فى اتجاه ليعززها فى اتجاه آخر ، وفى ذلك مغامرة لابد له أن يتحملها · وكلما كان الفارق فى القوة بين طرفى النزاع كبيرا زاد حجم المغامرة التى ينبغى أن يخوضها الطرف الضعيف من أجل تحقيق النصر · وكلما كانت المغامرة أكبر زاد احتمال الفوز ولكن الكارثة تقع لو لم يكتب النجاح لهذه المغامرة · وقد ركز الألمان خلال الحرب العالمية الأولى على سبيل المثال سبعة أثمان قوتهم فى الغرب ، تاركين بروسيا الشرقية بدون غطاء تقريبا · وقد ضربت القوات الجوية الاسرائيلية مثالا آخر فى حرب ١٩٦٧ (حرب الأيام الستة) حيث كان لديها ٢٠٠ مقاتلة حديثة ، فى مواجهة جيوش عربية مشتركة تربو قوتها على ٢ر٥ مثل حجم القوات الاسرائيلية ، وفى صبيحة الخامس من يونيو شنت القوات الجوية الاسرائيلية الموجة وراء الموجة من الهجمات المدمرة ضد المطارات والقواعد الجوية المصرية فأتت على ما يربو على ٢٠٠ طائرة فى زمن لايزيد على ثلاث ساعات · ولم تحتفظ اسرائيل خلال تلك العمليات الا بأربع طائرات على أراضيها ـ أى ٢٪ من حجم قواتها الجوية ـ تحسبا لأى هجوم سورى أو أردنى أو عراقى ضد المؤخرة الاسرائيلية · وقد يكون هذا المثل متطرفا ولكنه ليس مستحيلا · ومن حكمة التاريخ أن الجانب الأنجح فى تركيز

قواته ، حتى لو انطوى ذلك على مغامرة محسوبة ، هو الذى يعلو فى المعركـة ٠

ويأتى التركيز فى واحدة من صورتين : تركيز فى المكان أو تركيز فى الزمن ٠ ويعنى التركيز فى المكان تخفيف بعض قطاعات الجبهة لتعزيز قطاعات أخرى ٠ ومن أمثلة تطبيق ذلك الأسلوب ما قام به القائد ثيبان ايبامينونداس فى معركة لوكترا عام ٣٧١ ق٠م٠ ، فبدلا من نشر قواته على ثمانية صفوف بطول الجبهـة ، على نحو ما جـرت عليه عادة القوات اليونانية ، جعلها فى تشكيل غير متناظر ، حيث عزز جناحه الأيسر بحيث أصبح يضم ما لايقل عن ٤٨ صفا ، وفى المقابل ترك جناحه الأيمن خاليا من القوات ٠ ثم شن الهجوم على هيئة موجات متتالية كدرجات السلم بدءا من الجانب الأيسر الذى انقض بشكل ساحق على الجناح الأيمن للقوات الاسبرطية المواجـــه له ٠ ولم تكد تمضى ساعتان أو ثلاث ساعات حتى تجلت فائدة التركيز ٠ ويقول بلوتارك ان الاسبرطيين شعروا بالخطـر ولكنهم لم يتمكنوا من أن يخطوا خطوة جانبية فى التوقيت المناسب ، ولذلك تكبدوا أثقل هزيمة فى تاريخهم حتى انهم لم يتمكنوا بعدها من استعادة قوتهم مطلقا ٠

أما التركيز فى الوقت فهو لا يقل خطورة عن التركيز فى المكان ، ولكن ربما كان أصعب فى تنفيذه ، حيث ستسعى القوة الأقل حجما الى تعويض ضآلتها بالتزام السرية وبسرعة الحركة ، سوف تحاول ان تبقى العدو فى حالة تشتت مع السعى الى معرفة نواياه ، ثم تركز هجماتها على فصائله المتفرقة الواحدة تلو الأخرى ٠ وغالبا ما يكون العامل الجغرافى عاملا مساعدا فى هذه الحالة على نحو ما حدث مع اسرائيل التى استغلت هذا العامل فركزت قواتها أولا ضد مصر ثم استدارت وهاجمت الأردن ثم سوريا ٠ وفى بعض الأحيان لا يكون أمام مثل هذه القوة الا أن تتخذ مواقعها بين قوتين مختلفتين وتعمل على ما يسمى بالخطوط الداخلية ٠ وينبغى لها فى هذه الحالة أن تعمل على تحييد عدو منهما بينما تسعى الى تدمير الآخر ٠ وينطوى مثل هذا النوع من العمليات على مخاطر فائقة ، ومن أمثلتها الحملة الأولى لنابليون فى ايطاليا ، ثم بعد ذلك أثناء عملياته الدفاعية فى فرنسا عام ١٨١٤ ٠ ولا شك أن القائد الذى يقدم على مثل هذا النوع من العمليات ، لابد أن يكون قويا تملؤه الثقة فيما لديه من قوات وعتاد وأهم من ذلك الثقة فى نفسه ٠

ويتمثل جانب آخر من الجوانب الرئيسية للاستراتيجية ، سواء فى

الحرب أو فى كرة القدم أو الشطرنج ، فى معرفة الأهداف التى ستوجه ضدها القوة وبأى ترتيب • وهناك بالطبع أنواع عديدة من الأهداف ، منها ما هو جغرافى ومنها ما يتعلق بمعدات العدو وأفراده ، كما انها تتدرج من الواقعية والمادية البحتة ، كالأراضى والموارد الاقتصادية ، الى الأهداف غير المادية كنظم نقل المعلومات أو النيل من الروح القتالية للجيش المعادى • ويتمثل أقصى مطمح على الصعيد النظرى فى تدمير و/ أو احتلال كل الأهداف • غير أن مثل هذا المطمح لا يعد واقعيا على الصعيد العملى بسبب العدد المحدود من الموارد المتاحة لتحقيق كل الأهداف ، ومن ثم يقتضى الاستخدام الأمثل للقوة اختيار بعض الأهداف واستبعاد البعض الآخر ، وبالتالى يتعين على الاستراتيجية الرد على السؤال الكبير : أى الأهداف يختارون وأيها يستبعدون ؟

وثمة طرق عديدة لتوصيف الأهداف ، لعل أهمها هو ما يتعلق بمسألة القوة مقابل الضعف • وقد تكون أفضل طريقة لتوضيح ذلك الأمر هى الاستعانة بمثل واقعى : فقد واجه هيئة الأركان الالمانية على مدى ٢٥ عاما قبل الحرب العالمية الأولى السؤال التالى : أى الخصمين ينبغى أن يوجه ضده الهجوم أولا ، فرنسا أم روسيا ؟ كانت فرنسا أقوى وأخطر من روسيا وبالتالى فان التخلص منها سيوفر مزايا كبيرة ، حيث سيتيح لألمانيا التفرغ لدخول حرب طويلة مع روسيا مهما طال أمدها • غير أن استراتيجية البدء بفرنسا كانت لها مخاطرها العظيمة ، فلو أن تلك الحملة فشلت سيكون على الألمان مواجهة جبهتين يزيد مجموع مواردهما على مواردها وبالتالى سيتفوقان عليها فى نهاية الأمر • ودارت مناقشات ومناظرات على مدى أعوام لدراسة « خطة شليفن » الشهيرة ، وطرحت كل أنواع الخطط وبحوث العمليات وكانت النتيجة دائما عدم التوصل الى قرار • وفى عام ١٩١٤ تم ادخال تعديل على هذه الخطة الا أنها أيضا فشلت لدى اختبارها • وكانت دائما نتيجة اختبارات كل هذه الخطط هى ما يخشاه القلة من العقلاء ، أى الهزيمة •

وفى مواجهة استراتيجية البدء بمهاجمة الأقوى تبنى ليدل هارت وآخرون استراتيجية معاكسة تماما • وكانت وجهة نظرهم تتمثل فى أن مهاجمة العدو ، وهو فى الموقف الأقوى ، تعد ضربا من الجنون ، واحتمال الانتصار عليه ضئيل ، وقد يؤدى الفشل فى هذه الحالة الى وقوع كارثة ، ولذلك فالأفضل هو التركيز على مواضع ضعفه والقضاء عليها تباعا حتى يفقد الجزء المتبقى قدرته الدفاعية • وكانت هذه على وجه التحديد هى الاستراتيجية التى أوصى بها بيريكليز الأثينيين خلال الحرب

البيلوبونيسية • وقد ظلت الحرب بهذا النهج تسير بنجاح طيلة عقدين الى أن قرر الأثينيون ذات صباح الانقضاض على وليمة اتضح فيما بعد انها أكبر من قدرتهم على ابتلاعها ، فكان الهجوم على مدينة سيراكوزا الصقلية بمثابة كارثة ضاع فيها أعظم ما كانت تملكه أثينا من جيش وأسطول بحرى • وحتى بعد هذا الموقف لم تكن تعد قد خسرت الحرب لولا ان لجأت اسبرطة الى استخدام الأموال الفارسية فى بناء أسطول بحرى هاجمت به اثينا من أقوى اتجاه كانت تتميز به وهو اتجاه البحر • ولم يكن أمام اثينا بعد هزيمتها فى معركة اجوسبوتاموى البحرية الكبرى ــ التى كانت بمثابة انقطاع شريان حياتها ــ الا الاستسلام •

ويعد أفضل هدف من الوجهة النظرية هو الهدف الحيوى الذى لا يحظى فى الوقت نفسه بقدر كبير من الحماية • وغالبا ما تجرى المحاولات فى الحروب لاكتشاف أهداف حيوية، يأتى القضاء عليها بنتائج بالغة الأهمية تؤدى الى وقف الآلية المعادية برمتها • ولا شك أن التفكير العقلانى شىء جميل ولكنه يتضاءل عند التحول الى واقع ، ويعزى ذلك عادة الى عدم الالمام الكامل بحقيقة الأمور • ولعلنا نوضح ذلك بضرب مثل من واقع الحرب العالمية الثانية • فبينما كان المخزون من المعادن غير الحديدية يمثل ضرورة لا غنى عنها مطلقا بالنسبة للاقتصاد الألمانى (ومن ثم تشكل هدفا جذابا يغرى بقصفه) كانت كمياته ضئيلة نسبيا بحيث يصعب اتخاذه هدفا • وقد يكون من الصعب فى حالات أخرى الاستفادة بالمنطق نظرا لعدم دقة وسائل اصابة الأهداف • ومن شأن أسلوب العمل اللامركزى الذى يعتمد على وحدات قائمة بذاتها أن يؤدى الى احباط الهجمات الموجهة بدقة الى الأهداف الحيوية ، ويتحقق نفس الشىء بوجود شبكة واسعة من الاتصالات ، وهى تعد من السمات المميزة لأى نظام اجتماعى حديث يقوم على تنسيق جيد • ولعل أفضل مثل لاستخدام المنطق فى عملية آلت الى الى الفشل يتمثل فى الهجمات التى شنتها القوات الجوية الأمريكية فى صيف ١٩٤٣ ضد مصنع انتاج كراسى التحميل الكرية الألمانى فى شوينفورت ، فلقد كللت الغارة الأولى بالنجاح ولكنها فشلت فى وقف انتاج ألمانيا من الأدوات والمعدات اللازمة للحرب نظرا لوجود البديل ، وعندما شنت الغارة الثانية وجدت القوات الجوية الألمانية فى انتظارها ، وكانت النتيجة اسقاط ربع القوة المغيرة ، ولم تتكرر المحاولة بالطبع •

وتنطوى الاستراتيجية على عدد لا حصر له من مثل ما طرح سالفا من البدائل المتضادة ، ولانهاية لعدد التوافقات التى يمكن ان تتشكل بين الأهداف العسكرية وغير العسكرية ، بين الأقوياء والضعفاء من الخصوم ،

والأهداف المحمية وغير المحمية ، والأهداف التى يمكن بلوغها وتلك التى ينبغى تحقيقها وهلم جرا • ولا وجود لنظام فكرى يتمتع بالقـدرة على الالمام بكل البدائل بحيث يوفر دليلا كاملا لكيفية استخدام القوة • وحتى لو وجد مثل هذا النظام فلن يستطيع رجل بمفرده ، أو حتى منظمة ، أن تهيمن عليه حتى لو استخدمت أحدث ما وصل اليه علم الكمبيوتر ، وأية محاولة لاقامة مثل هذا النظام ستكون عملا أشبه بذلك الذى دفع أهل بابل الى اقامة برجهم ، ومن ثم تستحق ما وقع عليهم من عقوبة • ومن شأن النظريات العلمية أن تغنى المرء عن الرجوع دائما الى البدايات فى أى موضوع يتناوله وأن توفر له دائما نقطة بداية فى التفكير • ومع ذلك فكثيرا ما يأتى الوقت الذى ينبغى فيه للمـرء أن يدع النظـريات جانبا ويستخدم عقله ، فرغم كل شىء تدور الحروب بالعقول قبل ان تكون بالقـــوة •

* المنطق ومفارقاته

تتكون الاستراتيجية اذن من عنصرين رئيسيين هما تكوين القوة واستخدامها ضد العدو • ويتســـم العنصر الأول بأن معالمه تعد أكثر وضوحا من الثانى • ورغم ان تكوين القوة كان دائما « شيئا » ضروريا لخوض الحرب ، فانه لم يكن فى عهد كلاوزيفيتس ولا حتى فى معظم القرن التاسع عشر يعد بحق جزءا من الاستراتيجية • والواقع ان فكرة شمول الاستراتيجية لعنصر الاستعداد للحرب ـ حتى لو كان ذلك الاستعداد فى زمن السلم ـ لا ترجع لأبعد من الفترة فيما بين الحربين العالميتين ، وكان أول من طرحها هو لودندورف • وحتى فى يومنا هذا فان استخدام اللفظ فى هذا السياق لا يفهم جيدا • ويقول كلاوزيفيتس ان فنالاستعداد للحرب يمثل بالنسبة للحرب ما يمثله الحداد الذى يصنع السيف بالنسبة للمقاتل الذى سيستخدمه • ويذهب الساخرون الى أبعد من ذلك حيث يقولون ان الجانب الأكبر من الاستراتيجية ، بالمفهوم السائد حاليـا فى البلدان المتقدمة ، يعد فى الواقع مناورة ادعائية ضخمة • ويعزى ذلك الى أن شتى العوامل المختلفة ـ وعلى رأسها انتشار الأسلحة النووية ـ لم تعد تسمح لمعظم القوات المسلحة الحديثة بالقتال مثلما اعتادت عليه ولكن مازالت تلك العوامل سائدة « كما لو كان » بناء القوة المســلحة والاستعداد للحرب مازالا يشكلان الاستراتيجية !

واذا كانت عملية تكوين القوة تعد عملية سهلة نسبيا فان ذلك يعزى الى عـدم وجود معارضــة • ولا يعنى ذلك أن القائمين على الأمـر

لا يواجهون مسئولية الاختيار ، وأحيانا ما يكون الاختيار صعبا • ولابد لمن يخطط لبناء قوة مسلحة تصلح للاستخدام ، على مدى عقد تال أن يتميز ببعد النظر والشجاعة ، حيث ينبغي له أن يتكهن بذكاء بالموارد التي ستكون متاحة ، وبنوعية الخصم الذي يمكن أن تواجهه هذه القوة ، وبنوعية الظروف التي يمكن ان تسود في ذلك الحين • وبعد الاجابة على هذه المسائل يأتي دور تقرير أفضل الأساليب لمواجهة التحديات المقابلة • ولابد من اعداد المخططات ورصد الموارد ، فثمة آلاف تلو آلاف من العناصر البشرية والمادية التي يتعين استدعاؤها أو انتاجها ، ثم تجميعها والتنسيق بينها ، ولابد من التأكد من نجاح ذلك التنسيق عن طريق اجراء الاختبارات والبيانات العملية وتسجيل النتائج وتحليلها والاستفادة منها • ولابد من اقامة آلية التغذية الاسترجاعية لتصويب الأخطاء وادخال أي تعديلات على سير العمل • وما أن تبدأ العجلة في الدوران وتظهر بوادر النتائج المأمولة ينبغي مواجهة ما سيظهر حتما من معوقات وعلى رأسها عدم المرونة والاحتكاك واللبس • ويتطلب كل ذلك موهبة ادارية فذة لتحديد الأولويات وتوزيع الموارد وتحقيق المواعيد والتوقيتات المختلفة •

وعندما تتكافأ قوة مع قوة أخرى تنشأ المنافسة • ويمكن تعريف المنافسة بأنها اختبار للقوة بشكل غير مباشر عن طريق طرف ثالث وسيط • وقد تختلف وتتباين طبيعة ذلك الطرف الثالث بقدر اختلاف حياة الانسان ذاتها • فقد تكمن في عالم التجارة وتظهر في بيانات الميزانية كما في حالة المؤسسات الصناعية التي تحاول كل منها ان تزيد مبيعاتها على حساب الأخرى • وقد تتمثل في حارة سباق بأحد الملاعب أو بحمام سباحة في حالة المسابقات الرياضية • ومن شأن المنافسة من هذا النوع أن تكون ضارية لدرجة تصل الى حد افلاس مؤسسة صناعية أو وفاة متسابق نتيجة اصابته بأزمة قلبية • وقد تحتاج تلك المنافسة لقدر كبير من التخطيط نظرا لأن الموارد (سواء أكانت ميزانية المؤسسة في المثل الأول أم قدرة اللاعب على التحمل في المثل الثاني) غالبا ما تكون ضعيفة ومن ثم لابد من توزيعها بشكل جيد على المكان والزمان • وأحيانا ما نسمع عن الحرب الاقتصادية ، ومن غير المستبعد أن يتحول حدث رياضي الى معركة ، غير أن المنافسة ليست حربا ولا تنطوي على استراتيجية بحسب مفهومنا للفظ •

ولا تجيز القواعد التي تميز بين المنافسة والنزاع أن يواجه الأطراف بعضهم بعضا بشكل مباشر ، أو بأن يعوق بعضهم بعضا أو أن يدمر بعضهم بعضا ، حتى مع محاولة كل منهم تحقيق أهدافه ، بل على النقيض من ذلك فان فكرة المنافسة « الشريفة » تقوم أساسا على عكس ذلك • فلو أن عداء

حاول اعاقة منافسه ورآه الحكام فسيلغون سباقه ، ولو أن شركة وضعت أجهزة تصنت في مكاتب شركة أخرى ، أو حاولت تخريب مبانيها وثبتت ادانتها ستتعرض للعقوبة • غير أن الخط الفاصل بين المنافسة والحرب يتسم بشيء من اللبس ، فالعداءون المتخصصون في المسافات المتوسطة والطويلة يعرفون كيف يخططون سباقهم ، بما يكفل لهم أفضل استخدام لقدراتهم ، مع محاولة تحييد قدرات منافسيهم ولا يتنافى ذلك مع المنافسة الشريفة • وأحيانا ما تلجأ الشركات الصناعية الى ممارسات حادة لكسب المنافسة ، كأن تجعل انتاجها أكثر ملاءمة لحاجة السوق أو تروج لسلعتها باعلانات تحفيزية أو تخفض أسعارها عن منافسيها ، ومع ذلك يبقى التمييز بين المنافسة والنزاع قائما •

يتضح من ذلك أن بناء القوة والمنافسة لا ينطويان على قدر كبير من الاستراتيجية ، بل على العكس فان الاستراتيجية تبدأ من حيث ينتهي بناء القوة والمنافسة ولكن ، وأكرر ، عندما يتعلق الأمر بمنافس ذكي لا يقف موقف المتفرج من تصميمات خصمه ، بل يسعى جاهدا لاعاقتها حتى وهو يسعى الى تحقيق مراميه • ويمكن شرح الفكرة بطريقة أخرى : فالأنشطة التي لا تنطوي على نزاع بالمعنى المتقدم ـ مثل بناء القوة والمنافسة ـ لا تعتبر « استراتيجية » • وينطبق ذلك بغض النظر عن المجهود المبذول وبغض النظر عما يتطلبه من مجهود فكري • ومن ثم يمكن تعريف الاستراتيجية بأنها مذهب يحدد سير النزاع والأسلوب الذي يتحقق به •

وتستمد الاستراتيجية ـ باعتبارها أداة تحليلية ـ قوتها الوحيدة من أنها ليست مرهونة بحجم النزاع ولا بالوسط الذي يدور فيه ولا بالوسائل التي يجري بها ولا حتى بمقدار العنف المتفجر فيه • فلن يكون هناك اختلاف كبير في الاستراتيجية على سبيل المثال بين جماعتين تواجهان بعضهما في ميدان قتال ، أو جيشين قوام كل منهما مليون رجل يتقاتلان من أجل حيازة قارة • ولن يختلف الأمر كذلك لو كان ميدان الصراع مساحته ميل مربع من الأرض أو كان محيطا يمتد لملايين الأميال المربعة أو منطقة مترامية بلا نهاية أو حتى لوحة شطرنج • ولن تتأثر الاستراتيجية لو جرى النزاع بالصواريخ الموجهة أو البنادق أو الحراب أو حبات الفاصوليا ، فالاستراتيجية تهيمن على الحرب وهي أعنف أنشطة الانسان ، كما أنها تهيمن على أنشطة أخرى ـ على نحو ما يوحي به بالفعل استخدام اللفظ لوصف مظاهر تلك الأنشطة مثل الهجوم والدفاع وما الى ذلك من قبيل رياضيات مثل كرة القدم وكرة السلة والشطرنج ، بل ومن قبيل بعض ألعاب الأطفال مثل التك تكتو •

وتستهدف الاستراتيجية فى الحرب التغلب على القوة بالقوة ، غير أنه قد يحدث فى بعض الأحيان أن يكون طرف أقوى كثيرا من الطرف الآخر ، فلا يحتاج الأمر فى هذه الحالة الى استراتيجية ، ولكن يحتاج قوة ساحقة ماحقة لتحقيق الهدف ٠ ولو كان الطرفان المتصارعان متساويين فى قوتيهما يمكن للمباراة ان تبدأ ٠ ولا مجال لأن تسفر المواجهة بين طرفين الا عن القضاء على أحدهما أو فى أحسن الفروض عن استنزاف قوتيهما٠ومن ثم يتمثل فن الاستراتيجية فى استخدام القوة ضد الضعف. أو لو استعرنا تعبير الكاتب العسكرى الصينى القديم صان تسو ، فانه يتمثل فى قذف البيض بالحجارة ٠ غير أنه يفترض فى الخصم أن يكون ذكيا وفعالا ، وبالتالى سيسعى ، لو استطاع ، الى تحديد الاتجاه الذى نعتزم أن نوجه قوتنا صوبه ، واما أن يأتي هو بقوات فى هـذا الاتجـاه لنواجه قوتنا أو يجرى استعداداته بحيث يجعل انقضاضنا يذهب أدراج الريح ، اذن يتمثل أول شرط لتحقيق النجاح فى القدرة على قراءة ما يدور بفكر العدو مع حجب ما ينطوى عليه تفكيرنا ٠ وحتى مع ذلك فان الأمر يجرى بالعكس ٠ فلو كان الهدف هو منع العدو من تركيز قوته ضـــد مواضع ضعفنا فينبغى أن نحجب هذا الفكر حتى ونحن نحاول أن نقرأ ما يدور فى ذهنه ٠ وغالبا ما يسفر ذلك عن تفاعل شـديد ومعقـد بين فكرين متعارضين ، وهو شىء مميز للاستراتيجية تنفرد به على كافة المستويات ٠ وبما أن كل طرف يحاول أن يتكهن بما يدور فى ذهن الآخر، فان فكرنا يرتهن بفكره الذى يتوقف هو بدوره على فكرنا ٠ ويمكن تشبيه ذلك بمرآتين متقابلتين تعكس كل منهما صورة الأخرى فتكون النتيجة سلسلة لانهائية نظريا من الصور ٠

. . .

واذا كانت الصور بين المرآتين تنعكس بقدر كبير من الأمانة ، فان روح الاستراتيجية – سواء فى الحرب أو فى كرة القدم أو الشطرنج – تتمثل فى القدرة على الخداع والتضليل وبث الاحباط ٠ فكل طرف يعلن انه سيفعل شيئا بينما يعد العدة سرا ليفعل شيئا آخر ، وكل طرف يركز قواته فى المكان « أ » بينما يزمع أن يكون فى المكان « ب » ويوهم العدو بأنه يخطط للهجوم من الاتجاه « جـ » حتى لو كان هدفه الحقيقى هو « د » ٠ ولا يقف الأمر عند ذلك الحد ، حيث تتمثل اللمسة الفنية الحقيقية فى اجراء تبديلات بين « الحقيقة » و « الخدعة » ، وذلك فى زمن قصير لا يكفى العدو لأخذ حيطته مع ادخال تعديلات عليها وفقا لتحركات الخصم ، بحيث تتم مواجهة مخططاته واستغلال أخطائه ٠ وقد يحدث أثناء تلك العملية أن يتحول ما كان مخططا فى الأصل أن يكون مجرد خـدعة ليصبح اتجاه المجهود الرئيسى والعكس صحيح ٠ ومع الوقت تصبح الحقيقة هى الخدعة والخدعة هى الحقيقة ، أى تصبح كل منهما هى الأخرى٠ولما كانت

السرية تقتضى أن يحجب المسئول نواياه الحقيقية حتى عن رجاله ، فقد يأتى وقت ـ مع استمرار هذه التباديل ـ يلتبس فيه الأمر على واحد من الطرفين أو على كليهما معا ، فلا يعرف أيهما هذا وأيهما ذاك ٠

ولن تنكشـــف مفـــارقات المنطق الاســـتراتيجى بشـــكل جلى الا بتصوير هذا النوع من التباديل بأمثلة ملموسة ٠ فلقد جرت العادة فى الحياة اليومية على أن العمل الذى ينجح مرة يمكن أن ينجح مرتين ، شريطة أن تتوفر له نفس الظروف ، بل ويمكن أن يتكرر النجاح مرات ومرات ٠ غير أن هذه الحقيقة المبدئية ـ التى يقوم عليها كل صرح العلوم والتكنولوجيا ـ لا تنطبق فى الحرب أو كرة القدم أو الشطرنج أو أى نشاط آخر تهيمن عليه الاستراتيجية ، حيث ان الاحتمال الأكبر فى هذه الحالة هو أن يفشل العمل اذا تكرر لمرة ثانية بعد نجاحه فى المرة الأولى ، والغريب فى الأمر هو أن الفشل فى المرة الثانية لن يحدث « رغم » النجاح الأول ولكن « بسبب » هذا النجاح على وجه التحديد لأنه سيبعث الخصم على مواجهته بما يكفل عدم تكراره ٠ ويمكن لنفس المنطق أن ينطبق فى الاتجاه المعاكس ٠ فلو منيت عملية معينة بالفشل فى المرة الأولى سيتوقع الخصم أنها لن تتكرر ، واذا اقتنع بالفعل بأنها لن تتكرر فان أفضل طريقة لضمان النجاح هى على وجه التحديد أن تتكرر ٠ ونستنتج من ذلك أن ثمة تفاعلا ديناميكيا مستمرا من شأنه أن يقلب الانتصار الى كارثة والكارثة الى انتصـــار ٠

وينطبق على المكان نفس المنطق الذى ينطبق على الزمان ، فمن المعروف بالنسبة للأنشطة غير الاستراتيجية أن أقصر طريق لهدف معين هو عادة الخط المستقيم ٠ أما فى الحرب فان أقصر طريق هو أيضا الأكثر احتمالا ان يمتلىء بجثث من يسلكونه ، فعلى هذا الطريق ، ولأنه على وجه التحديد هو أقصر طريق ، سيركز العدو قواته بما يحيله الى أطول طريق محفوف بالهلاك وبالتالى فانه يهدد مخططاتنا٠والعكس صحيح ، فان أطول طريق هو الأقل احتمالا أن يتوقع العدو أن نسلكه فيصبح بالتالى الأمن ، ومن ثم أقصر طريق ، ولذلك فان فرص نجاح هجوم يسلكه تعد كبيرة ٠ وليس ذلك الكلام نظريا ، فان أسلوب الاقتراب غير المباشر قد طبق عمليا فى كثير من العمليات وله من المزايا ما كان يكتسى فى بعض الأحيان قدرا من المبالغة يبعث على السخرية ٠ كمـا أن نفس اللفظ قد تعرض للمط بما جعله يفقد معناه الأصلى الى حد ما ٠ وعلى أى الأحوال فلا شك ان أسلوب الاقتراب غير المباشر يمثل تاريخيا ونظريا أحد الأعمدة الرئيسية التى تقوم عليها الاستراتيجية ٠

وتعد العلاقة بين الحشـــد والتفرق من العوامل الأساســـية لفهم الاستراتيجية • ولما كان الهجوم الناجح يقتضي في المعتاد تفوقا في القوة ، فان ذلك يجعل من الحشد في الزمان والمكان من أهم أدوات الحرب • غير أنه كلما زاد حشد القوات صعب اخفاؤه عن العدو ، واذا اكتشف فغالبا ما سيقابله العدو بحشد مماثل في مواجهته • ومن ثم فلا يقتصر فن الاستراتيجية على مجرد حشد قواتنا ، ولكنه يتمثل أيضا في جعل العدو يفرق قواته ، غير ان ذلك يستلزم عادة أن نفرق نحن قواتنا لتضليل العدو وابعاده عن هدفنا الحقيقي • ويعني ذلك أن الحشد يتكون من التفرق والتفرق يتكون من الحشد ، أما النصر فسوف يكون من نصيب من يحكم السيطرة على قواته ولا يقع في اللبس ويتمكن من التحول بسرعة من صورة الى أخرى • وقد ضرب الجيش الفرنسي أروع الأمثلة في درجة تنوع عملياته ومقدار تعقيدها • وبفضل العمليات والأساليب التي ليس لها مثيل في روعة المزج بين التفرق في التحرك والحشد في المعـارك ، تمكن نابليون من اجتياح معظم أوروبا في غضون سنوات قليلة •

وأخيرا فليس هناك ما يميز عالم الاستراتيجية أكثر من العلاقة بين الكفاءة ودرجة الفعالية ، وسواء في الحياة المدنية أو في أية عملية لتكوين قوة مسلحة على النحو الذي تناولناه ، تعد الكفاءة في المعتاد نتاج التنسيق الجيد • ويشمل التنسيق الاختيار الأمثل لكل واحد من العناصر ثم اعداده وتجهيزه ليتآلف تماما مع بقية العناصر • وينبغي كذلك التغلب على الاحتكاك واللبس بحيث تتحقق السلاسة في الأداء على النحو الذي يمكن أن يكون سائدا مثلا في مصنع ناجح لانتاج السيارات أو في شركة ضخمة للبتروكيماويات • أما في الحرب فلا تنطبق تلك المبادىء ، أو تنطبق بدرجة محدودة • وكلما كان التنظيم اقتصاديا ويعمل بكفاءة وسلاسة كان أكثر قابلية للخسارة ، فلو أن عنصرا واحدا تعطل في منظومة تعمل بدقة بالغة فسوف ينعكس ذلك العطل سريعا على باقي الأجزاء ويتجه الى الاستفحال ، بل ان الأخطر من ذلك ان الدقة البالغة تفقد التنظيم مرونته • ورغم عدم المرونة فقد تنجح عملية تكوين قوة ضخمة عند نقطة معينة لتحقيق هدف معين ، ولكن تحويل هذه القوة من هدف الى هدف آخر ، والحرص على أن يتم ذلك دون أن يلحظه العدو يعد شيئا آخر تماما •

يكمن الفن اذن في ايجاد التوازن السليم بين الفعالية والكفاءة وهما عنصران لا يعتبران ـ فيما يتعلق بعالم الاستراتيجية على الأقل ـ مكملين لبعضهما ، بل على العكس فانهما يعدان في الواقع متضادين • واذا كان الهدف دائما هو تكوين أكبر قوة ممكنة ، فلابد في الوقت نفسه من مراعاة توازن حجم هذه القوة مع القدرة على استخدامها في ظل ظروف اللبس

التى أشرنا اليها آنفا ، لابد أن تكون الماكينة بأكبر حجم ممكن ولكن ليس لدرجة لا تسمح باخفائها عند اللزوم ، لابد أن تكون قوية للغاية ولكن ليس لدرجة تعجزها عن سرعة تغيير الهدف الذى تعمل على تحقيقه ، لابد أن تتمكن فى لحظة معينة من أن تحشد كل مواردها فى اتجاه معين ، ولابد أن يكون بوسعها أيضا أن تفرقها على وجه السرعة وتحركها من مكان لمكان ، ولابد أن تعتاد بدرجة كافية على تكرار القيام بنفس العملية بأقل قدر من الخسائر ولكن لا يجب ان يصل التدريب الى درجة تفقدها روح المبادرة وتبقيها عاجزة عن مواجهة الظروف غير المتوقعة ·

ومن الخصائص الفريدة للاستراتيجية انها تملى بشكل ما نوعا من الأمزجة ليجد المرء سبيله الى الحيلة والخديعة ، فليس من فراغ أن اكتسب العديد من المشاهير سمعة تضعهم فى مصاف الفاسقين · فقد عرف يوليوس قيصر بفسوقه بدرجة مرضية حتى انه أطلق عليه صفة « الزانى السافر » · واعتاد هنرى الرابع ملك فرنسا على وضع ما يستولى عليه من أعلام العدو تحت قدمى عشيقته جبرييل ديست · وكان دوق مارلبورو الشاب يغازل عشيقة الملك تشارلز الثانى وتدعى نيل جوين ، وقد اضطر ذات مرة أن يقفز من الشباك لينجو من الأسر · وكان نابليون ، على صعيد آخر ، مولعا بالغش فى لعب الورق كبراعته فى « سرقة » زحف ما ، ولكنه كان مخططا بارعا فريدا فى قدرته التنظيمية والتحليلية والادارية · وكان مولتكى أيضا منظما عظيما وتعد مذكراته عملا فنيا ينم عن استقامة فكره وبعد نظره ، الا أن طابعه لم يخل من مسحة خبث جعلت منه لاعب ورق بارعا ، وكانت تتجلى فيما يطلقه من نكات ساخرة على نفسه وعلى هيئة الأركان التى أنشأها · وكان أيزنهاور وزميله الجنرال أرشيبالد وافيل يشبهان مولتكى فى هذه الصفة ، فكلاهما كان يتسم بشىء من الخبث بل والنفاق ولكنهما كانا يخفيانه بأسلوبهما الصريح الواضح ·

وفى النهاية فلا المنطق فى حد ذاته ، ولا مزجه بذلك المكر المتعلق بالمقامرة والنزوات النسائية يكفيان لخوض الحرب · فالحرب تنطوى على ما هو أكثر بكثير من مجرد تجنيد الموارد واستخدامها فى تكوين أقوى قوة مسلحة ممكنة وحشدها عند نقطة ما ، ثم الانطلاق بها فى هجوم ساحق ، ولا هى مسألة حشد وتفريق ونشر واخفاء كلعبة « الاستغماية » ، ولكن الحرب ــ تعد ــ حتى قبل أن تظهر الاستراتيجية ــ بمثابة رقصة الموت ، انها ، حسبما يقول نابليون : « تقرر مصير الأمم والجيوش والتيجان » · انها تكتسى على المستويات الدنيا طبيعة قوية لتتلاءم مع ذلك الخليط الغامر من المشقة والاجهاد والخطر ، وعلى المستوى الأعلى ، فان اللبس اذا اقترن

بالمسئولية المهيمنة على الحياة أو الموت فمن السهل أن يسحق من هو غير مهيأ للتعامل معه . ولابد فى المعتاد من التمتع بقوة ذهنية كبيرة من أجل الحفاظ على سلامة المرء ، ناهيك عن الامســـاك باستمرار بزمام الأمور والعمل بفعالية . ولا قيمة لأى مذهب استراتيجى لا يحدد الأشياء التى يقاتل الانسان من أجلها والدوافع التى تجعله يقاتل ، بل على العكس ، فان أية محاولة لفهم الحرب ينبغى أن تنطلق من هذه المسائل على وجـه التحـــديد .

الباب الخامس :

ما الذي تشن من أجله الحرب ؟

* الحرب السياسية :

لقد رأينا أن العنصرين الرئيسيين في العالم الكلاوزيفينسي هما : أولا : لابد أن تكون الدولة هي الجهة المسئولة عن شن الحرب ، وثانيا لابد أن يكون الاتجاه في الحرب هو استخدام القوة بغير قيود · ولقد حان الوقت لدراسة مبدأ أساسي ثالث ، وهو أن الحرب تعد وسيلة لتحقيق غاية ، أو اذا شئنا استخدام صيغة الكاتب الرائعة فهي تعد « امتدادا للسياسة بمزيج من الوسائل الأخرى » · ولم يشتهر أي تعبير آخر لكلاوزيفيتس بمثل ما حظي به هذا التعريف ، ولا يضارعه أي وصف آخر في تكرار استعارته لا سيما من جانب من ـ وقد يؤكد البعض على كلمة « من جانب من » ـ لم يكلفوا أنفسهم عناء قراءة هذا العمل · وكم تنطبق الفكرة القائلة بأن الحرب تخدم السياسة في معظم النزاعات المسلحة الحديثة ، حتى ان العديد من الناس أصبحوا لا يرون شيئا غير ذلك · ولعل هذا الوصف يستحق أن نتناوله بدراسة تحليلية متأنية ان لم يكن لشيء فلمجرد كونه قد أصبح راسخا لدرجة طغت حتى على معناه ·

وتعد ال « Politick » وهي كلمة ألمانية في الأصل وتعني السياسة ، هي الغاية التي يفترض ان الحرب تخدمها · ومرة أخرى لابد أن نرجع الى الخلفية الفكرية السائدة في عهد كلاوزيفيتس اذا أردنا أن نفهم فكره جيدا · فلقد كان معظم الكتاب المستنيرين في هذا العصر ، من « مونتسكيو » الى « كانت » ، يرون في الحرب انحرافا عن المسار الطبيعي للأمور ، فهي تمثل انقطاعا للممارسة السياسية ، بل في الواقع انقطاعا للحياة المتحضرة بصفة عامة ، انها تجسد اللحظة التي انتهت فيها حكمة الانسان ، أو على أقل تقدير اللحظة التي لم تنتصر فيها بعد هذه الحكمة · وكان لهذه الفكرة وقعها على مجرى الحرب ، حيث تأثر بها معظم قادة القرن الثامن عشر ومن ثم حاولوا أن يخوضوا الحرب بأسلوب يتسم

بالحرص و « التحضر » مع السعى الى اقلال حجم ما تتعرض له البيئة من خسائر • ولذلك ، فعندما أكد كلاوزيفيتس ان الحرب هى مجرد صورة من صور الممارسة السياسية كان ذلك شيئا جديدا ومهما • لقد قدم كتاب « عن الحرب » الحرب بوصفها لغة للسياسة أو باستخدام تعبير الكاتب : هى لغة يتكون « النحو » فيها من الدانات والقذائف بدلا من الصرف والاعراب •

ومن شأن مثل هذا الرأى أن يسفر عن عدة اعتبارات ، أولها ان القيادة العليا للحرب ينبغى أن تخضع للساسة أو أن تكون على أقل تقدير مرهونة بالاعتبارات السياسية ، ثانيا : لابد أن تكون الأغراض السياسية هى السبب الوحيد لشن الحرب ، ثالثا : لابد أن تكون السياسة هى المعيار الرئيسى لتقييم نتائج الحرب ولاعداد الحرب التالية • غير أن هذه الاعتبارات لا تكتسى طابع البداهة ، فقد قوبلت بمقاومة شديدة خلال القرن التاسع عشر ، لا سيما من جانب العسكريين الذين رفضوا الاعتراف بأن هناك شيئا يعلو على الحرب وبالتالى ينبغى عليهم الخضوع له • أما الآن فلقد ترسخت كل هذه الاعتبارات فى الفكر الاستراتيجى الحديث فى البلدان المتقدمة لدرجة انها أصبحت من المسلمات •

وأيا كان المعنى الدقيق لكلمة « سياسة » فلا يمكن تعريفها على الأقل بأنها « أى نوع من العلاقات التى يديرها أى نوع من الحكومات فى أى نوع من المجتمعات » • وقد نقول بشكل أصح ان السياسة هى شىء يتصل اتصالا وثيقا بالدولة ، انها الطابع المميز لعلاقات السلطة فى تلك المؤسسة المعروفة باسم الدولة • وحيثما لم تكن هناك دولة ــ كما كان عليه الحال فى معظم تاريخ البشرية ــ فان السياسة ستمتزج بكل العوامل الأخرى بحيث تفقد معناها تماما • وحتى فى وجود الدولة فان السياسة تشكل بطبيعتها جانبا من شئون تلك المؤسسة مع سائر الجوانب الأخرى الادارية والقانونية • ومن ثم فان القول بأن الحرب هى امتداد للسياسة لا يعنى أكثر ولا أقل من أنها تمثل أداة فى يد السلطة ما دام ذلك فى اطار ان الدولة تستخدم العنف لتحقيق أغراض سياسية • **انه لايعنى أن الحرب تخدم أى نوع من المصالح فى أى نوع من المجتمعات، ولو كان ذلك مرماه لأصبح مجرد شعار أجوف لا معنى له •**

وتتلاءم الحرب جيدا ، بوصفها شيئا يخدم السياسة ، مع «الثالوث» المتمثل فى الحكومة والجيش والشعب • ولو سلمنا بتلك الفكرة فسوف نلاحظ أن ظهورها يسبق ظهور ذلك « الثالوث » بعدة سنوات • وترجع

جذور هذه الفكرة على الأرجح الى أوائل القرن السادس عشر وهو العصر الذى شهد مولد الممالك الأوروبية الكبرى ، ولم تكن فكرة « الدولة » قد أخذت بعد صورتها الحديثة على نحو ما وصفها المفكر الفرنسى جان بودان فى أعماله • غير أن ايطاليا كانت تعيش فى هذه الأثناء فى ظل نظام دولة المدينة بكل أبعاده • وكان الاستبداد هو الطابع السائد فى معظم دول المدينة هـذه ـ بما فيها تلك المتمركزة فى روما ـ وكانت تخضـع لحكم مجموعة من الطغاة الشرسين الذين لم يكونوا يعبأون بأى قوانين سماوية أو بشرية ، فى صراعاتهم المتواصلة ضد شعوبهم وفيما بينهم ، من أجل البقاء فى السلطة • وفى ظل هذه الظروف كانت الأفكار المتعلقة بالجوانب الدينية والفروسـانية والقانونية للحرب تتـلاشى سريعا • وكان التجاسر باعلان ان الحرب ليست سـوى أداة للسلطة فى أيدى الأمير يعـد تحديا يحتاج قدرا كبيرا من الشجاعة ويعرض فى الوقت نفسه مروج هذه الفكرة للعنة • وكان الدبلوماسى والكاتب الفلورنتينى نيكولا مكيافيلى هو الرجل الذى اتصف بتلك الشجاعة وتعرض لذلك المصير •

ولا حاجة لنا هنا لان ندرس الطريقة التى انتزعت بها سلطة الحرب من أيدى الحاكم وانتقلت الى الدولة ، والواقع أن الفارق بين الحالتين يعد حتى يومنا هذا مجـرد شىء نظـرى • وتجدر الاشارة الى أن التعـريف الاستراتيجى الحديث للحـرب ما كان ليتماشى مع معظـم الحضـارات السابقة • فعلى سبيل المثال وضع صان تزو ـ الذى يعد من أعظم الكتاب فى الشئون العسكرية على مدى التاريخ ـ على رأس قائمة أسباب نجاح العمل أن يكون « من أجل دخول الجنة » ، ولو كان قد سمع بفكرة ان الحرب انما هى مسألة سياسية محضة لكان قد صدم واعتبرها فـكرة غبية وبعيدة عن التقوى• أما المفكرون المسيحيون من أمثال سان اجوستين، والمفكرون الوثنيون من أمثال بلاتو ، فقد كانوا سيعتبرونها فكرة تشاؤمية اجرامية مستمدة من المصالح الشخصية وتتنـافى مع المبادىء • وحتى القرن الثامن عشر كان يرى المفكرون من أمثال مارشال دى فوكيير ـ الذى قال فريديريك الثانى ان كتابه شمل كل شىء عن الحرب ـ ان من أهم صفات القائد الأمانة والشرف •

يتضح من ذلك أن فكرة أن الحرب هى امتداد للسياسة تعد بشكل ما فكرة مبتكرة حـديثا لا ترجع الى أبعد من عصر النهضـة حتى بفرض استبدال « الدولة » بـ « الحاكم » ، ولما كانت قد ابتكرت فى لحظة زمنية معينة فليس ثمة ما يبعث على الاعتقاد بأن لها جذورا متأصلة أو ان لها بالضرورة مستقبلا كبيرا • وسوف نلقى الضوء فى الأقسام التالية على مفاهيم الناس الذين عاشوا فى أزمنة وأماكن غيرنا بشأن مهام الحرب •

✱ الحرب السياسية : العـدل

لقد عرف الفكر السياسي الغربي – منذ عهد هوجو جروتيوس ، ان لم يكن منذ عهد مكيافيلي – الحرب بأنها أداة في يد الدولة ، أي ذلك الكيان السياسي ذا السيادة والذي لا يعترف بأي قانون أو حكم فوقه . غير أن تلك النظرة لم تكن سائدة على مدى الألف عام السابقة على القرن السادس عشر والتي تعرف بشكل مبهم باسم القرون الوسطى . وكانت مبادىء السياسة في هذا العصر تقوم على الحق وليس على القدرة . ولم يكن مفهوم الحق نفسه يعرف بأنه من صنع الانسان بل كان يعتبر أن له على الأقل جذورا الهية ، وبالتالي فقد كان للحق « دور وسلطة » على حياة الناس أكبر مما هو عليه اليوم .

ومثلما ان العلم في القرون الوسطى لم يكن قد اكتشف الجاذبية بعد ، لم يكن المجتمع أيضا يعتبر أنه مكون من وحدات متباينة ، كل تسعى في اتجاهها ، وكل تعمل على تحقيق مصالحها حتى لو تطلب ذلك استخدام القوة . ولكن كان هناك بدلا من ذلك الجمهورية المسيحية الشاملة التي كانت تعتبر جهازا واحدا يتألف من عدة أقسام متباينة ترتبط فيما بينها بالقانون سواء أكان القانون الالهي أو البشري . ولم يكن معظم القانون البشري مكتوبا ولكنه كان مستمدا من العادات والأعراف وان كانت جذورها قد توارت منذ القدم في عالم النسيان . ومع ذلك فمثل هذا الظلام يعتبر ميزة في مجتمع يسوده الجهل ، وكان القانون يعتبر من الأسرار المتصلة بطبيعة الأشياء ، وكون القانون لم يكن مكتوبا لم يكن بالتالي عامل ضعف بل على العكس فقد عزز قوته .

وفي ظل مثل هذه الظروف فان فكرة قيام كيان سياسي ذي سيادة لا يقبل أي تدخل ، لا من جهة عليا أو حتى مناظرة في شئونه «الداخلية» ، تعد فكرة غريبة من أساسها على روح ذلك العصر : كان المجتمع يعتبر هرما متماسكا ينبض بالحياة ويتكون من عدة فئات متفاعلة فيما بينها ولا أحد على قمته الا الله . ويأتي تحت الرب مباشرة ، وبحسب اختلاف وجهات النظر ، الامبراطور أو البابا وقد يكون الاثنان معا على درجة واحدة وفقا لمذهب مستمد من احدى فقرات العهد الجديد يعرف باسم « السيفان » . وكان الامبراطور و/أو البابا يعدان ، بحكم مسئوليتهما أمام الله عن ادارة الأمور وفقا لمشيئته ، بمثابة مركز السلطة العليا . وكانت تنبثق منهما شبكة من العلاقات الشرعية وشبه الشرعية تمتد أفقيا ولأسفل وتشمل الهيئات الاقطاعية والكنائسية بتدرجها .

وكان الناس والبلدان الذين لا ينتمون للمجتمع المسيحى يعتبرون من حيث المبدأ خارجين على القانون ، ومع ذلك فأحيانا ما كانت تطبق ازاءهم بعض القيود الواردة فى اتفاقيات مبرمة معهم • وكان العالم المسيحى يفرض شبكة من الحقوق والواجبات المتبادلة التى تحكم العلاقة بين الأمراء والخدم ، بين اللوردات والكهنة وبين أهل الحضر والريف • وكانت هناك مدارس مختلفة تعبر عن شتى الآراء فيما يتعلق على وجه التحديد بالدور الذى يلعبه الانسان فى هذا العالم بصفة عامة • وكانت معظم هذه المدارس تعتبر ان الطبائع المتضادة مثل النشاط والبلادة ، الحيوية والخمول تربطها نفس مجموعة القوانين الالهيـة أو المستوحاة من السماء فيتكون بذلك مجتمع ديمقـراطى متناسـق ومتماسك تحت مظلة الرب •

وحيث ان النظام نفسه يتسم بالتناسق والتناغم ويعد خاليا من العيوب ، فمن شأن الالتزام التام بالقانون ألا يجعل ، على الصعيد النظرى، ثمة بابا مفتوحا لشن الحرب الا ما كان فى يد الامبراطور و / أو البـابا لمحاربة الوثنية • غير ان الأمور لم تجر فى الواقع على هذا النحو ، فدائما ما كان هناك أشرار مستعدون لانتهاك القانون سواء أكان سماويا أم وضعيا• وكان بعضهم من المهرطقين الذين كانوا يهـددون بتمسكهم وترويجهم للأفكار المنشقة على المذاهب الدينية ، بالنيل من الأسس الأخلاقية للمجتمع بأسره ، وكان آخرون يزعمون أحقيتهم لأشياء لا تخصهم • ويتضح ذلك فى مثال صارخ وقع فى عام ١٣٣٧ ، عندما اتهم الملك ادوارد الثانى ملك انجلترا الملك الفـرنسى فيليب السادس بالاستيلاء على مملكة بأكملهـا مما أدى مباشرة الى اندلاع حرب المائة عام • ومن ناحية أخرى ، فصحيح أن القانون الالهى يعد نموذجا للكمال ولكن قد تختلف الآراء وتتباين فى تفسيره ، وينسحب نفس الشىء ، وبشكل أعمق، على القانون الوضعى الذى عادة ما ينقصه أيضا الوضوح •

وكانت مثل هذه المشـاكل التى تتسم بطبيعتها بالصبغة الشرعية تعرض ، فى السياق الطبيعى للأمور ، على المحاكم سواء المدنية أو الكنائسية بحسب وضع أطراف النزاع ونوع المشكلة القائمة ، ولكن اذا كان النزاع قائما بين شخصيات قوية أو بين جماعات فاما كانت المحاكم تعجـز عن اعمال سلطتها ، واما كان المتنازعون يرفضون أساسا اللجوء الى المحاكم ، ومن ثم أصبح من الضرورى ، بل ومن المحبذ اللجوء الى استخدام العنف المنظم • وبذلك صارت الحرب هى عصا القانون والوسيلة التى يمكن بها رد « المظـالم » (بالمفهوم الرئيسى الشـامل للغـة السياسة فى القرون الوسطى) وتأديب المتمردين وضرب شتى صور الاهانة •

وإذا كانت الحرب تعتبر مكملة للعدالة ، وليس للسياسة ، فقد كان أى نزاع مسلح ينطوى بالضرورة على انتهاك للقانون سواء من جانب أحد الطرفين أو كليهما • وأصبح من الضرورى التمييز بين الخير والشرير من الخصوم ، وبين الحرب التى تندلع بقوة القانون وتلك التى تجرى بدونه أو ضده • وقد يحتكم فى شن الحرب الى واحد من القوانين الوضعية أو الكنيسة • ويرجع التماس الرأى الكنسى الى عهد القديس توما الاكوينى واستمر حتى عهد القديس أوجستين • ورغم اختلاف القوانين بشأن التفاصيل ، يمكن تلخيص أصل فكرة « الحرب العادلة » فى ثلاث نقاط هى أولا : يشترط أن تكون الجهة التى تشنها هى سلطة عامة وليس أفرادا ، ثانيا : يشترط أن يكون هدفها هو تحقيق «غرض عادل» ، من قبيل الانتقام لاهانة أو توقيع عقوبة أو رد مظلمة ، ثالثا : لابد أن يتناسب حجم الخسائر التى يتكبدها العدو مع السبب الذى من أجله شنت الحرب • وبالتالى كانت الحرب العادلة تشبه نظريا العقوبة التى كان يطبقها أب كريم محب للخير •

ولقد شكل القانون الرومانى ، على نحو ما كان مطبقا فى عهد الجمهورية ، العرف الثانى الذى يوفر أسلوب التمييز بين الحرب العادلة والحرب غير العادلة • وكان الروم — شأنهم فى ذلك شأن العديد من المجتمعات الأولية — يعتبرون العدالة شيئا من صنع الآلهة وليس الانسان• وكانت الحرب فى نظرهم تعد بمثابة دعوى قضائية أو كنوع خاص من المعالجة الشرعية تستخدم فى حالة فشل كل المساعى الأخرى • وكشأن أية محكمة كان الحصول على حكم « عادل » مسألة مرهونة الى حد كبير بالقاضى الملائم الذى ينتهج الاجراءات المناسبة • وكان الزحف الى الحرب يبدأ عادة عندما تطلب روما رد اهانة من قبيل تعرض أحد حلفائها للهجوم (كحالة الحرب الهانيبالية) • ولو فشل ذلك الاسلوب تجرى مجموعة خاصة من الكهنة تعرف باسم « Fetiales » طقوسا معينة تصب خلالها لعنات رهيبة وتعلن رسميا أن قضية خصوم روما قضية غير عادلة ، بينما قضية روما عادلة وتفتح أبواب معبد « مارس » ويخرج منها وفد يسدد رمحا فى أرض العدو معلنا بذلك القرار ، وتصبح الفرصة مهيأة لأن تندلع الحرب • واستمر الحال على هذا النحو ليس حتى أواخر العصور القديمة فحسب ولكنه امتد الى أواخر القرون الوسطى ، حيث كان المحلفون المتأثرون بشدة بالنموذج الرومانى ، يسعون دائما الى ايجاد المبررات التى يعللون بها الحروب التى يشنها سادتهم من النبلاء •

ومن منطلق أن الحرب — سواء من وجهة النظر الرومانية أو المسيحية —

كانت تعد عملا يستهدف تحقيق العدل فى جانب ، وفى الوقت نفسه تعد عملا جائرا فى نظر الآخر ، فقد كانت لها آثار مهمة • وتعنى وجهة النظر هذه انه كان لابد ، بمجرد انتهاء المعارك ، تطبيق قانون القصاص • ولما كان الخصوم يرفضون تلبية ما يطلب منهم فكانوا يعتبرون مجرمين ويستحقون القصاص ، فكان الروم المنتصرون يفقأون العين مقابل العين ويقلعون السنة مقابل السنة وهلم جرا • • • وكثيرا ما كانوا يستغلون ذلك الحق أسوأ استغلال فيدمرون المدن ويذبحون أبناءها ويستعبدون شعوبا بأكملها فى كل أنحاء حوض البحر المتوسط •

وربما فـاق هذه الفظاعات ــ التى تشـكل على أى الأحوال رصيد الحروب فى كل العصور ــ المصير الذى كان يتعرض له من يوقعـه سوء حظه فى الأسر من قادة العدو • كان هؤلاء يجبرون مع مجموعة مختارة من الأسرى على السير فى العرض المقام احتفالا بالنصر ، وفى النهاية يعدمون على الملأ ثم يمثـل بجثثهم بكل أنواع التنـكيل تنفيذا للعقوبات الموقعـة ضدهم ، والتى لم تكن مقصورة على العـالم الدنيوى فقط • وقد يختـار المنتصرون التحلى بالرأفة فيستعيضون عن القتل بالسجن أو النفى ، بل كان من الوارد العفو عن القائد المهزوم والسماح له بالعودة الى قبيلته أو مملكته • وقد يستخدم موقف لجوء القائد المهزوم الى الاستعطاف من أجل الابقاء على حياته والعفو عنـه ، لتحقيق مآرب سياسية مفيدة • بل قد يستغل مثل هذا الموقف فى صورة مسرحية ليشكل دليلا اضافيا على أن الحرب ضد روما تعد جريمة ومن ثم تستوجب العقاب • وربما كان لجوء كليوباترة الى الانتحار بوضع أفعى سامة فى صدرها ، عملا أرادت به تلافى مثل هذا المصير •

ولقد سادت فكرة الحرب من أجل العدل فى القرون الوسطى ، وكان وقعها على ادارة المعارك أقوى حتى مما كانت عليه فى العصور القديمة ، وذلك لأنه اذا كانت الحرب هى وسيلة لاعمال القانون ، فلابد أن توكل قيادتها لمن له الامكانات والميول الملائمة لهذا الغرض • ومثلما ان لدينا اليوم أناسا مدربين خصيصا ومندوبين للعمل كقضاة وضباط شرطة كان لابد من وجود مجموعة من الرجال متمكنين ومتمرسين على استخدام السلاح وقادرين على ادارة الحرب • وقد اتفقت تماما فكرة وجود مثل هذه المجموعة مع الفكر السائد فى ذلك الحين والذى كان يؤكد على ضرورة أن يكون كل شىء فى مكانه الملائم وكان بالتالى يقسم المجتمع الى طبقات • وكانت عضوية المواطن فى أى من الطبقات تعد من حيث المبدأ شيئا وراثيا وغالبا ما كان ذلك يطبق عمليا • وكان هناك تمييز كبير بين الطبقات ، ليس على الصعيد

الاقتصادى فقط ، ولكن فيما يتعلق أيضا بالحقوق والواجبات والمهام الاجتماعية ، كما لو كانت كل طبقة تشتمل على نوعية مختلفة من البشر . وكان المجتمع مقسما بصفة عامة الى ثلاث طبقات هى الطبقة العاملة وطبقة الكهنة وطبقة صناع الحرب .

وفى بداية القرون الوسطى أطلق على من يتبوءون مهمة تنفيذ القانون وصنع الحرب « bellatores » (أى مجاربين) و « Pugnatures » (أى مقاتلين) . وقد تولى هذه المهمة فى القرن الحادى عشر من عرفوا باسم الـ « miles » وهى كلمة لاتينية فى الأصل وتعنى (جنود) غير أنها ترجمت الى كل من الفرنسية والألمانية والانجليزية بمعنى الفرسان . ويعتقد ان ظهور الفرسان كممثلين مسلحين للمجتمع مسئولين عن حمايته وعن تصحيح الأخطاء فيه ، قد واكبه دخول تغييرات مهمة على تكنولوجيا الحرب حيث استخدم الركاب وابتكرت صهوة الفرس ، فضلا عن ادخال أسلوب القتال بالرمح . ولا شك أن ما أضفته هذه التغييرات من تفوق عسكرى على الفرسان شكل خطورة على الطبقة الاجتماعية المعروفة باسم الاقطاع . ولم يكن التفوق العسكرى يستند بالطبع الى ذلك العامل فقط ، حيث كان الفارس يعد فى المقام الأول انسانا كل مهمته فى الحياة هى صنع الحرب من أجل قضية احلال العدل . أما لو تجاهل القانون وحارب من أجل « مصلحته الشخصية » فسوف تحجب عنه مميزاته ويوصم بالخزى وقد يتعرض أيضا للعقاب أو لكل ذلك معا .

كانت الحرب اذن عبارة عن فارس يقاتل فارسا من أجل اظهار الحق ، وقد تكون القضية التى يدافع عنها هى قضيته الخاصة ، غير أنه لم يكن ثمة فارق أن تكون قضية ربه أو قضية الدين المسيحى أو — على الصعيد النظرى وأحيانا على الصعيد العملى — قضية أرملة أو يتامى مساكين (وتعنى كلمة مسكين هنا العيش فى ظل ظروف صعبة ، لان الفرسان لم يكونوا فى العادة يحاربون دون أن يضمنوا نوعا من المكافأة على الأقل) . وكان الفرسان يصرون فى بعض الأحيان على أن يكون خصومهم من طبقة مماثلة لطبقتهم الاجتماعية وذلك من قبيل تعزيز الطابع الطبقى للحرب ، وكانوا يعتبرون التحدى من قبل أحد أفراد طبقة أعلى من طبقتهم بمثابة نوع من الشرف ، بينما كانوا يرفضون حمل السلاح ضد من هو من طبقة اجتماعية أدنى منهم . أما الناس من غير الفرسان فقد كانوا ممنوعين من حيث المبدأ من حمل السلاح ، ومن يخالف ذلك كان يتعرض للعقاب . ويروى التاريخ ان جنديا فرنسيا من طبقة اجتماعية دنيا قد قتل ، فى أحدى معارك القرن الخامس عشر ، الكونت سان بول وبدلا من أن يكرمه قادته

كان مصيره الاعدام . وكان المكسب الذى يعود نظريا على أبناء الطبقات الدنيا نتيجة عدم الاشتراك فى الحرب هو تحصنهم من ويلاتها . وكان المجتمع ينظر الى هؤلاء الناس على انهم أقل شأنا من أن يشتركوا فى نشاط يخص الطبقات العليا .

وكانت أول محاولات عملية لاعمال القانون ولوضع حدود للحرب وحماية « الأبرياء » من التعرض لعواقبها الوخيمة قد انطلقت فى نهاية القرن العاشر ، وقامت بها حركة أسستها الكنيسة باسم « سلام الله » ، وبدأت على نطاق محلى فى جنوب فرنسا ثم اتسع نطاقها وانتشرت شمالا. وكانت تستخدم التهديد بالحرمان من حق عضوية الكنيسة ورفض القرابين ، وذلك سعيا الى ضمان سلامة الكهنة والرهبان والراهبات والممتلكات الكنسية بصفة عامة .

وبمرور الوقت وتعدد المدارس ضم قانون الفرسان فئات أخرى الى رجال الكنيسة فطالت قائمة الناس والممتلكات المحظور المساس بها . وقد جمع « اونوريه بونيه »هؤلاء الناس فى كتاب « شجرة المعارك » (Arbre de batailles) الذى ألفه فى أواخر القرن الرابع عشر وصنفهم فى أربع فئات : وتضم الفئة الأولى كل ما يتعلق بالكنيسة ورجالها من أساقفة وقساوسة ملحقين لجهات خارج الكنيسة (كالقصور والسفن وغيرها) وشمامسة ونساك وحتى القائمين برحلة قاصدين بها الأماكن المقدسة . وتتكون الفئة الثانية من السفراء وأعضاء الوفود القائمين بمهمة سلام . وتشمل الفئة الثالثة الأرامل واليتامى والمساكين أو بمعنى آخر الضعفاء والأبرياء الذين يستحقون الحماية . أما الفئة الرابعة فهى تعد ــ من منظور الأفكار الحديثة بشأن الحرب « الشاملة » الموجهة ضد المرافق الاقتصادية للعدو ــ أهم فئة حيث تتألف من الرعاة والمزارعين وسائقى عربات الكارو ، أو باختصار من أى شخص يؤدى نشاطا اقتصاديا « نافعا » ويعمل بذلك من أجل خير الانسان بصفة عامة . غير أن كل تلك الأعراف غالبا ما كانت تنتهك ، ولكن لا يعنى هذا انها لم تكن بلا تأثير على الاطلاق .

وكانت الحروب فى القرون الوسطى مقسمة الى نوعين يحمل كل منهما اسما مختلفا عن الآخر : الحرب الأولى هى التى يشنها الفرسان ضد فرسان ، والثانية هى التى يشنونها ضد الناس بصفة عامة ، أما النزاعات التى كانت تقع بين الطبقات الدنيا فلم تكن تعد حروبا ، بل كانت تؤخذ بمأخذ السخرية . ويصف بونيه النوع الأول ــ الذى كان يطلق عليه بالفرنسية « Guerre » أى الحرب ــ بأنه شىء خير رائع ولكن يشوهه

للأسف ما يقدم عليه الأشرار من أعمال اجرامية • ولم يكن المشتركون فى هذا النوع من الحرب يعتبرون بأية حال من سفاكى الدماء ، بل كان ذلك بمثابة شرف لهم • وكان النزال الفردى على وجه الخصوص بين خصمين متكافئين فى المكانة العليا يعد شيئا مشوقا للغاية •

ولم يكن النوع الثانى من القتال ـ الذى كان يندلع ضد ما نسميه اليوم « بالسكان المدنيين » ـ يعتبر حربا بالمفهوم المطلق ، بل كان نوعا من الحرب البديلة تعرف باسم « guerre guerroyante » ••• وفى الحالات القصوى التى لا يكون هناك أى نوع من المقاومة فيها ، فتشبه بذلك عمليات الاغارة ، كانت تسمى « chevauchée » ••• ، وكان هذا النوع الثانى من القتال أكثر شيوعا وأكثر تدميرا ، وكان فى نفس الوقت أقل شرفا ، بل كانت الكتابات الفرسانية تعتبره نشاطا شريرا يستوجب العقاب • ولما كان من شأن هذا النوع من الحروب أن يأتى بخير كثير فأحيانا ما كان يجتذب بعضا من النبلاء • وقد ضرب « الأمير الأسود » فى عام ١٣٥٥ رقما قياسيا لمثل هذا النوع من النشاط حيث أخذ هدنة من حرب المائة عام وتوغل لمسافة ٩٠٠ كم داخل Languedoc ونهب وخـــرب ودمر كل ما صادفه ، ولم يكن أحد يرى فى ذلك شيئا غير عادى • ومع ذلك فقد كانت هناك حدود ـ لاسيما فيما يتعلق بنهب الكنائس أو اغتصاب النساء اللاتى تنتمين لطبقة النبلاء ـ يتعرض من يتجاوزها للمحاكمة ، وكان ذلك يحدث فى الغالب لو وقع مرتكب هذه الأعمال فى الأسر • ولا يخلو التاريخ من حالات مثل فيها أمراء أمام محاكم فرسانية ، وعادة ما كان حكم المحـكمة يتمثل فى اسقاط الصفات التشريفية والألقاب ومصادرة الممتلكات ، وقد يصل الأمر فى الحالات القصوى الى الاعدام •

وكان هناك مجال ثالث أثرت فيه أفكار الحرب بوصفها أداة لتحقيق العدالة بين الأفراد ويتمثل فى حل النزاعات عن طريق النزال • ويزخر التاريخ بالأمثلة التى يدعو فيها الناس خصومهم الى النزال ، وكان ذلك تجسيدا لفكرة ان الحرب هى وسيلة لاظهار الحق • ففى عام ١٠٥٦ تحدى الامبراطور هنرى الثالث هنرى الأول فى فرنسا ، وفى عام ١١٩٤ تحدى فيليب اجوستوس ملك فرنسا ريتشـارد قلب الأســد ملك انجلترا على أساس نزال بين خمسة ضد خمسة،غير أن التحدى قوبل بالرفض لاستبعاد الاشتراك بصفة شخصية فى القتال • وهناك أمثلة أخرى عديدة تشمل الملك بيتر ملك Aragon ضد كارل ملك Anjou فى عام ١٢٨٢ ، وكازيمير الثالث ملك بولندا ضـــد الملك الضرير جـون ملك بوهيميا فى ١٣٤٦ ، وريتشارد الثانى ملك انجلترا ضد الملك الفرنسى شارل الرابع فى عام ١٣٨٣ • وقد استمر هذا النوع من التحديات طويلا حتى انه فى عام ١٥٢٨

تحدى الامبراطور شارل الخامس الملك فرانسيس الأول ، بسبب النزاع على ملكية اقليم بورجوندى • وكان الملك الفرنسى ميالا الى قبول التحدى ، أو هكذا أعلن ، غير أن دولته رفضت ذلك النزال بأسلوب فظ حيث قالت له : « انك لست فرنسا » ، وكان ذلك خير شاهد على أن التحول من القرون الوسطى الى العصر الحديث قد بدأ أخيرا •

وكانت الأسباب التى تعلل بها مثل هذه التحديات وغيرها دائما واحدة وهى الرغبة فى « حقن دماء المسيحيين » • وكان هذا الهدف الخير يتحقق بقصر القتال على أطراف النزاع الرئيسيين أو على من يتقاتلون (سواء فرادى أو فى جماعات) من أجل مصالح خاصة • غير أنه ما من نزال تحدى به الملوك بعضهم بعضا قد نفذ ، بل ان كون هذه المواجهات شيئا يتم التخطيط له ليلقى الضوء على الطابع الشرعى للحرب فى القرون الوسطى • أما التحديات الجماعية بين الفرسان فكانت تنفذ فى بعض الأحيان ومن أمثلتها « معركة الثلاثين » التى دارت بين الفرنسيين والبريطانيين فى Brittany فى ١٣٥١ و Disfetta di barletta التى جرت فى ١٥٠٣ بين ١٣ فارسا ايطاليا ومثلهم من الفرنسيين وكان النصر حليف الايطاليين •

وأخيرا وليس آخرا ، ومن منطلق ان الحرب عمل مشروع يسعى فيها الناس الى تحقيق نصر مشهود يعترف به الجميع ، أحيانا ما كان يلجأ أطراف النزاع الى التخلى عن بعض المميزات التكتيكية ليكون القتال على قدم مساواة • ومن أمثلة ذلك معركة ماليدون — التى كتبت فى وصفها قصيدة شعر شهيرة فى القرن العاشر — والتى تخلى فيها الساكسون عن موقعهم الحصين ولكنهم منوا بهزيمة نكراء • وفى عام ١٢٦٠ قدم الملك بيلا الرابع ملك المجر طلبا رسميا للملك اوتوكار الثانى ملك بوهيميا ناشده فيه السماح لقواته بعبور نهر مارش من أجل خوض معركة كريسينبرون وقد استجاب لطلبه • وفى عام ١٣٦٧ فى نايرا بأسبانيا تخلى الملك هنرى ملك تراستا مارا عن موقعه المميز ليواجه العدو فى أرض مفتوحة • ولما كان الأمر يؤول فى معظم هذه الحالات الى هزيمة من يقدم طواعية على تقديم مثل هذه التنازلات ، فغالبا ما كانت مثل هذه الروايات تثار كمبررات للفشل • ولا شك أن كل عصر له أسلوبه فى التفكير • فلو ان جنرالا فى العصر الحديث علل هزيمته بسوء الحظ فلن يجنى الا نظرات السخرية والاتهام بالغباء • وعلى النقيض من ذلك فان مجرد ترويج مثل هذه الروايات فى القرون الوسطى وتوقع ان تلقى آذانا صاغية يوضح كيف كان الناس يفكرون فى ذلك العصر •

ونخلص فى نهاية هذا الفصل الى ان الحرب فى العصر الرومانى وفى القرون الوسطى - على سبيل المثال لا الحصر - لم تكن تشبه الحروب فى القرون التالية ولم تكن تعتبر « خروجا على القانون » • وأيا كانت أوجه الاختلاف بين الحروب فى العصرين ، فانها فى الحالتين لم تكن تخضع لوجهة نظر « هوبس » التى تساوى بين الحرب من أجل الحق والحرب بدافع القدرة (right & might) ، بل على العكس كانت النزاعات المسلحة تعتبر نشاطا يظلله القانون وتستخدم كأداة لاعماله • ولما كانت القوانين تعد ، فى جانب منها على الأقل ، مستوحاة من السماء ، فقد كان من ينتهكها يواجه التعرض لعقوبة سماوية الى جانب ما يناله من عقوبة على أيدى البشر • وبينما كان الرومان يعتبرون حروبهم تجسيدا فعليا للقصاص ، كانت لمختلف المدارس فى القرون الوسطى (وأيضا الأمراء الذين كانوا يستخدمون الحروب ضمن أساليبهم القيادية) آراء متباينة بشأن تعريف الحرب من أجل اقرار العدل • وكان كل طرف يحاول بالطبع لى القانون ليتلاءم مع أهدافه ، ويعد ذلك فى حد ذاته دليلا كبيرا على ما كان يحظى به القانون من أهمية • واذا كان قانون الحرب عادة ما ينتهك فعادة أيضا ما كان يحمى من يرفعون لواءه أو يؤدى الى تقديم من يضبطون وهم ينتهكونه الى المحاكمة والعقوبة •

ويبين ذلك أن وجهة النظر الاستراتيجية الحديثة ، التى ترى ان الحرب ما هى الا امتداد للسياسة ، ليست وجهة النظر الممكنة الوحيدة ، بل وليس هناك ما يحتم صحتها بشكل مطلق •

* الحرب غير السياسية : الدين

وقد ينظر للحرب من منظور دينى ، ولا يبعث ذلك على دهشة من نشأوا وسط الأعراف الدينية اليهودية والمسيحية ، فالدليل موجود بالفعل فى « العهد القديم » حيث كانت الحروب بين الشعوب تعد نزاعات يتجلى فيها تفوق آلهة هذه الشعوب • ومن ثم كان المعيار الدينى يستخدم للتمييز بين أنواع الحرب ولاقامة قوانين خاصة لكل نوع • ويأتى على رأس القائمة ما أطلق عليه حديثا اسم « الحرب المقدسة » (milchement mitzvab) • وهناك نوعان من الحروب المقدسة ، النوع الأول هو الذى يندلع ضد الشعوب التى يصفها الاله ذاته بأنها أعداء له مثل الـ Amalekites ، والنوع الثانى هو الذى يستخدم لتحقيق أهداف مقدسة كحيازة أرض اسرائيل • وفى كلتا الحالتين كانت الحرب تعتبر أكبر من مجرد شئ يخص البشر ، بل يمكن القول بأنها كانت تعد حرب الاله ذاته •

وتتسم الحرب المقدســة فى هذا السياق بأنها حرب ابادة بمعنى الكلمة ، حيث كان يفرض بشكل صارم على الاسرائيليين المشتركين فيها الا يفلت منهم أحد أو شيء : كان لابد من افناء كل شيء من رجال ونساء وأطفال بل وحتى الكائنات الحية غير البشرية مثل الحمير والمواشى ، وكان لابد من احراق كل الممتلكات المادية باستثناء الذهب والفضة والنحاس والحديد (حيث كانت هذه تعد من المعــادن النفيسة) وكانت تخصص « لاستخدام الآلهة » • وكان يدعم هذه التكليفات تهديد بتوقيع عقوبات سماوية لمن يخالفها • وقد ورد فى التوراة أنه عندما استولى أحد العصاة على عبــاءة وبعض الذهب والفضــة بعد ســقوط أريحــا ، تسبب فى انزال العقاب على الاسرائيليين فمنوا بالهزيمة فى معركة Ai • كما تروى التــوراة فى موضـــع آخر قصـــة الملك شاؤول الذى قهـر العمــاليق ولكنه لم يمتثل أوامر الله ولم يقتل ملكهم ويدمر الغنائم ، فما كان من النبى صمويل الا أن خلعه من العرش فأصابته لعنة لم يشف منها وتتمثل فيما كان يعرف وقتها بالروح الشريرة أو ما يعرف اليوم بالاكتئاب النفسى•

وكان النوع الثــانى من الحروب الدينية هو من قبيــل ذلك الذى شبه الاسرائيليون ضد أهل مدين ، وكان سبب الحرب فى هذه المرة هو الانتقام من هذا الشعب الأدنى منهم ، حيث حرض زعماؤهم على تعذيب شعب اسرائيل ، فأمر الله نبيه موسى بمحاربتهم فقتل كل ملوكهم والبالغين من رجالهم وحــرق مدنهم ، وقد حاول فى البداية الابقــاء على نسائهم وأطفالهم ، ولكنه خشى بعد ذلك غضب الله فأمر بأن يلحق الذكور من الأطفال علاوة على النساء الثيبات بمصير الرجال • غير أن الأمر فى هذه المرة لم يشمل تدمير الغنائم سواء أكانت من البشر أم غير ذلك ، ولذلك لجأ موسى بعد اقامة الشعائر لتطهيرها الى تقسيمها بين خزائن الله وبين المحاربين أنفسهم •

وبغض النظر عن الحروب المقدسة باختلاف درجاتها ، تحدثت التوراة أيضا عن الحروب الدنيوية أو الحروب « العادية » التى تختلف مبادئها عن تلك الخاصة بالمعارك المقدسة • ورغم أنه لم يكن هناك تدخل مباشر من الله فى هذا النوع من الحروب الا أن أوامره بشأنها كانت صارمة • وكانت تلك المبادىء تقضى بمنح العــدو الفرصة للاستسلام قبل قتــاله بشرط أن يصبح أفراده من « العبيد دافعى الجزية » • واذا رفض العدو ذلك العرض الكريم ينبغى على الاسرائيليين تصريف الأمر على نحو ما جرت عليه العادة حيث قتل كل الرجال وسبى النساء والأطفال • وكان الفارق بين هذا النوع من الحروب والحروب المقدسة هو انه كان يسمح فيها بأخذ

الغنائم والتمتع بها بما فى ذلك طعام العدو • ولما كانت الحروب الدنيوية لا تنطوى على أهداف دينية ، كانت التعبئة فيها أمرا شبه تطوعى • وبينما كان كل الناس ملزمين بالاشتراك فى الحرب المقدسة حتى لو كان ذلك يوم عرس الرجل ، كان يعفى من الاشتراك فى الحروب الدنيوية أى شخص لمجرد انه بنى بيتا أو زرع كرمة أو اتخذ زوجة أو حتى ارتضى لنفسه أن ينعت بالجبن •

ولما كانت الحرب أداة دينية ، فقد كان حق اعلانها يعود على الكنيسة وليس على السلطة المدنية • وكان المعيار الدينى هو العامل الفيصل فى تحديد من يشترك فى الحرب وفى تقرير مصير أفراد العدو من حيث عتقهم من القتل وأيضا فى كيفية التصرف فى الغنائم • علاوة على ذلك ، فقد علم الله بحكمته وبصيرته ما سيقع من صراع شديد بين الدين وما يمكن أن نسميه اليوم « المصلحة » ، فحذر الاسرائيليين فى حالة الحروب المقدسة من اتخاذ بيوت أعدائهم المهزومين سكنا لهم وأمرهم بتدميرها حتى آخر حجر •

وبقدر ما كان كتاب العهد القديم زاخرا بالأمور المتعلقة بالحرب بقدر ما خلا منها كتاب العهد الجديد حتى ان المسيحيين الأوائل وقعوا فى حيرة ، ونتيجة حرصهم على تنفيذ ما جاء فى الآية رقم ٥٢ : ٢٦ من انجيل متى Mathews والتى تنص على أن « من يحيا بالسيف فلابد سيفنى به »، لم يكن ثمة مجال لان يتخذوا من القادة من أمثال موسى و Jashua وداود مثلا عليا يحذون حذوهم ، ولو كانوا قد فعلوا ذلك لما كانوا قد نبذوا الحرب • وقد تناول القائمون على الكنائس هذه المسألة بالبحث والدراسة وطرحوا حلولا عديدة • غير أن فكرة نبذ الحرب وادارة الخد الآخر كانت خلال القرون القليلة الأولى أقرب الى الملاءمة مع المتطلبات العملية لمجتمع صار ضئيلا لا حول له ولا قوة •

ولقد تغير ذلك الوضع عندما زاد عدد المسيحيين وأصبحوا يشكلون نسبة كبيرة من السكان ، ثم تعزز وضعهم بعد أن اتخذ قسطنطين من المسيحية الدين الرسمى للامبراطورية • وقد قسم يوزبيوس المسيحيين خلال النصف الأول من القرن الرابع الى مجموعتين : المجموعة الأولى وتشمل السواد الأعظم من الناس وتقع على عاتقهم مسئولية ادارة الشئون العامة وخوض الحروب شريطة أن تكون من أجل اقرار العدل ، وعلى مستوى أعلى تأتى المجموعة الثانية وتتكون من رجال الدين وهم مكرسون تماما لشئون الدين ولا دخل لهم بالحرب أو أى أنشطة دنيوية أخرى • غير أن

هذا الخط فى التفكير لم يدم طويلا حيث أثار الكاهن الرومانى امبروز ـ الذى تعلم الادارة بالممارسة بقدر ما كان قديسا بالفطرة ـ رفض البربر الخضوع للامبراطور المسيحى جراسيان ، وهو الممثل لذات الله على الأرض، فأصبحوا بذلك فى نظره أعداء الله ، ولم ير غضاضة فى اشتراك المسيحيين فى الحرب ضدهم ، بل رآه واجبا يفرضه عليهم الايمان بالله ، وأخذ يمتدح شجاعة الجنود المسيحيين فى حربهم ضد هؤلاء البربر ٠

وكانت وجهة نظر امبروز سليمة فى الفترة التى كان فيها أعداء المسيحية ـ الذين كانوا قد امتزجوا مع مجتمع الامبراطورية الرومانية ـ من الوثنيين وكانوا يعتبرون دون مستوى الحضارة ٠ وقد استمرت هذه الآراء سارية مع شىء من التعديل خلال معظم القرون الوسطى ، حيث شهدت هذه الفترة اندلاع العديد من الحروب ضد المهرطقين المرتدين والكافرين بهذا الدين ، وكان هؤلاء يعتبرون أعداء الله ومن ثم كان قتالهم مهمة ملزمة مقدسة ٠ وأحيانا ما كانت الحرب من هذا المنطلق حرب ابادة تفنى فيها مجتمعات بأسرها على نحو ما حدث فى حملة البيجنسيان (Al bigensian) الصليبية خلال القرن الثالث عشر ٠ وكانت الحملات الصليبية الأولى تخضع لنفس هذه الأفكار حتى ان المسيحيين عندما استولوا على القدس فى عام ١٠٩٩ أخذوا يذبحون السكان حتى فاضت الشوارع بالدماء وأصبحت الخيول تغوص فيها حتى كاحلها ٠ وحتى فى مثل هذه الظروف كانت حالة الحرب تؤدى مع الوقت الى تعارف أطراف النزاع ، ويلى ذلك انحسار الضراوة مع ميل متزايد للحد من العنف والحفاظ على غير المقاتلين ، ثم قبول الفدية فمبادلة الأسرى وهلم جرا ٠ واذا كان ريتشارد قلب الأسد قد شهد مذبحة حامية سان جان داكر St Jean d'acre فى عام ١١٩١ ، فان الحملات الصليبية فى مجملها لم تكن على الأرجح تختلف كثيرا من حيث اراقة الدماء عن حروب القرون الوسطى برمتها ٠

ولم يكن ثمة مفر من أن تؤول فكرة شن الحرب ، من أجل العقيدة الدينية ، الى نهايتها المنطقية ومؤداها أن الحرب بهذا المفهوم ستخوضها الكنيسة وحدها أو على الأقل ستندلع من أجل الكنيسة أو لصالحها ٠ وقد توصل الى ذلك الاستنتاج عدد من كبار رجال الدين فى القرن الحادى عشر مثل البابا جريجورى السابع وأوربان الثانى ٠ ورغم أن البابا انيوسنت الثالث فى مطلع القرن الثالث عشر لم يكن على درجة كبيرة من القوة تمكنه من تحقيق وجهة النظر هذه فلم يسلم الأمر من المحاولة ٠ ولقد بلغ من أمر الكنيسة أن كونت عددا من المجموعات العسكرية المختلفة التى حاولت الجمع بين صفات الرهبان والمحاربين بهدف خوض المعارك فى سبيل احلال

الخير • ومن جهة أخرى حاولت الكنيسة وضع حدود للحروب غير الدينية، وما حركة « سلام الله » التى اشرنا اليها آنفا الا واحدة من المحاولات الرامية الى ضمان أن يلقى المسيحيون معاملة تختلف عن تلك التى يتعرض لها المرتدون والوثنيون • ثم ظهرت بعد ذلك حركة « هدنة الله » التى سعت الى الحد من زمن القتال ، حتى انتهى بها الأمر الى حظر القتال على مدار الأسبوع الا خلال الفترة من الاثنين الى الأربعاء • وذهبت الكنيسة أيضا الى حد الاهتمام بأسلحة الحرب حتى ان المجلس الكنسى الثانى — وليس محكمة الفرسان — هو الذى حظر فى عام ١١٣٩ استخدام السهام باعتبارها أسلحة لا يجب أن تستخدم الا ضد الوثنيين •

ومع اقتراب القرون الوسطى من نهايتها ، لم تكن فكرة الحرب من أجل الدين قد اندثرت ، بل على العكس فقد تحققت بعد ذلك انتصارات كبرى تحت لوائها • فقد شن الأسبان والبرتغاليون بعد عام ١٤٩٢ حملات باسم الصليب فى أمريكا الجنوبية والوسطى ، وكانوا دائما يلجأون — بدافع من خشية الله — الى تخيير الهنود بين اعتناق المسيحية أو الابادة • وقد تنافس الكاثوليك والبروتستانت على مدى قرن ونصف من الزمن — بعد أن ثبت لوثر رسالته الخامسة والتسعين على باب الكنيسة فى فيتنبرج — على الدعوة لخوض الحرب المقدسة • وعادة ما كانت مثل هذه الحروب تسفر عن ذبح السكان الذين كانوا لا يوافقونهم الرأى بشأن طبيعة المسيح • ولقد بلغ من تمسك الجيش الأسبانى بالدين أنهم كانوا دائما يحملون صورة السيدة مريم العذراء حتى فى حالات التمرد • وكانت قوات جوستافوس أدولفوس تزحف الى المعركة وهى تردد التراتيل والترانيم الدينية ، حتى ان الناس كانوا يعزون ما تحققه هذه القوات من انتصارات الى تلك العادة • وقد انعكس الدور الذى لعبه الدين فى الحرب على الكتب والمراجع العسكرية فى ذلك الحين ، وقد شملت الأبواب الافتتاحية فى العديد من تلك المراجع التعاليم الدينية التى ينبغى ان يقيمها القادة وتلتزم بها القوات •

وهكذا ظلت الحرب الدينية تشكل أهم صورة للحرب فى أوربا حتى مطلع العصر الحديث • واذا كان من العسير تحديد الأهمية الفعلية لتلك الحروب ، فانه يمكن بيانها عن طريق مقارنتها مع وقائع حديثة ، فلم تكن على الأرجح المحاولة الأمريكية « لحماية الديمقراطية » فى فيتنام — أيا كان رأينا فى ذلك — تختلف كثيرا عن محاولات الملك فيليب الثانى عاهل أسبانيا الرامية الى حماية مرؤوسيه الهولنديين من الردة والهرطقة البروتستانتية التى كانت تجتاحهم ، ففى الحالتين لم تكن دعاوى ومبادئ

الخير تخلو من شتى أنواع الاعتبارات الانتهازية ، بل ان مثل هذا المزيج كان أحيانا ما يسفر عن وقوع أعمال غريبة ، من قبيل ما كان يتردد على أسماع الجنود الفيتناميين من تعبيرات حديثة مثيرة للدهشة كأن يقال ان « حرق المنشقين يجلب الخير لأرواحهم » ٠ ومع ذلك فهنـاك سمة خير مشتركة فى الحالتين ، لا سيما من حيث المظهر ، فمثلما ان العالم الغربى الحالى لا يتصور قيام مجتمع سليم بدون ديمقراطية ، لم يكن أحد يتصور فى مستهل العصر الحديث قيام مجتمع قويم فى أوربا ، دون أن يكون مبنيا على أساس دينى صحيح ٠ وأيا كان الأمر فلا جدال أن التقيد بالمبادىء والمثل كان له دوره فى عملية اتخاذ القرار وظل يؤثر عليها لفترة طويلة حتى بعد أن تغيرت الظروف ٠ ولكن مع تراجع التمسك بهذه المثل اتجهت الحرب الدينية أيضا الى الأفول ٠

وتعد معاهدة وستفاليا هى الأولى التى أبرمت بغير اعتبار لتعاليم الله ، حيث تخلى الغربيون تقريبـا عن الدين وبحثوا عن أسباب أكثر استنارة لتبرير التقاتل والتناحر فيما بين الناس ٠

ولم يكن الأمر مختلفا فى ذلك الجزء من العـالم الخاضـع للدين الاسلامى ، الا فى أن نفس الأحداث جرت فى وقت متأخر كثيرا ولفترة محدودة تماما قياسا بما شهده العالم المسيحى ٠ فلقد قسم الفقهاء العالم الى قسمين هما دار الاسلام ودار الحرب التى يفترض أنها فى حالة حرب دائمة ٠ وتختلف شتى الطوائف الاسلامية اليوم بشأن مدى أهمية الجهاد قياسا بالواجبات الدينية الأخرى ٠ وعلى أى الأحوال فان أى مسلم بالغ قادر وحر مكلف بالجهـاد والاستشهاد فى سـبيل الله العلى العظيم ٠ أما المسألة التى يدور بشأنها الجدل فهى تتعلق بامكان منح هدنة للكفار ولو مؤقتة ٠ وكان العديد من المدارس الاسلامية الأولى من أنصار الرأى القائل بأنه يحق للفاتحين العرب قتل سكان الأراضى المحتلة اذا لم يبادروا الى اعتناق الاسلام ٠ أما فى الواقع فقد كان العرب يمنحون هؤلاء السكان فرصة الاستسلام ، على أن يدفعوا الجزية ويعيشوا بعد ذلك فى ظل حمايتهم وان كانوا يعدون كطبقة ثانية (*) ٠

ولقد كان يعتقد خلال الأحقاب الأولى بعد مولد الاسـلام أن العالم الاسلامى سيبقى متحدا تحت قيادة الخليفة ، وانه سيتسع حتى يشمل الأرض من أقصاها الى أقصاها ٠ وعلى هذا الأساس كان « الجهاد » هو نوع العلاقة الوحيد الذى يمكن ان يجرى بين المؤمنين والكافرين ٠ ولكن مع مرور الوقت تغير الحال وظهرت أنواع أخرى من الحروب ٠ فلقد كان

(*) هذا الرأى مثال للآراء الخاطئة التى تشيع عن الاسلام فلا يوجد فى الفقه الإسلامى أى مدرسة تجيز قتل السكان المسالمين حتى وان كانوا من المشركين ــ (المترجم) ٠

لابد من تقبل احتمال التعايش لفترة طويلة مع كيانات سياسية غير مسلمة، مثل البيزنطية ، وكان لابد أيضا من التفكير فى الأراضى الاسلامية التى ستقع فى أيدى الأعداء ، مثلما حدث لأول مرة فى القرن الحادى عشر عندما احتل النورمانديون صقلية • ولقد ظهرت اعتبارا من القرن الثانى عشر مؤلفات كثيرة منها ما هو دينى ومنها ما يكتسى الطابع الشرعى ، تبحث فيما يمكن للمسلمين أن يفعلوه بشأن غير المسلمين وفى ظل أى ظروف • وقد ذهبت بعض المدارس الى حد التفكير فى اقامة فئة ثالثة تقع بين دار الاسلام ودار الحرب وتسمى دار الصلح وتشمل تلك الدول غير المسلمة التى تربطها معاهدات بالعالم الاسلامى •

ولقد واجهت فكرة « الجهاد » قدرا أكبر من المشاكل عندما انقسم العالم الاســـلامى الى دول متناحرة كل تدعى تمسكهـا بأحد المذاهب الاسلامية • بل لقد أصبح من الضرورى اليوم التمييز بين نوعين من الحروب على الأقل ، وهما الحرب ضد الكفار من ناحية والحرب فيما بين الفرقاء المسلمين من ناحية أخرى • ثم انقسمت حرب المسلمين ضـــد المسلمين الى ثلاثة أنواع ، وهو تقسيم أقامته مدرسة الماوردى التى كانت تخدم الخليفة فى بغداد فى القرن العاشر ، وكان النوع الأول من الجهاد موجها ضد المرتدين (وكان يطلق عليهم أهل الرضا) والنوع الثانى ضد المنشقين والمتمردين (أهل البغى) ، أما النوع الثالث فكان ضد الرافضين لسلطة الزعيم الروحى (وهم المحاربون) • وكانت كل من تلك الحروب تجرى بأسلوب متباين عن الأخرى وتنطوى على نهج مختلف فى التعامل مع العدو • فلم يكن المحاربون على سبيل المثال يتعرضون للاعدام لو وقعوا فى الأسر باعتبار أنهم يعدون من أبناء دار الاســلام ، ولم تكن بيوتهم تحرق ولا زروعهم تقلع •

ولقد حدد الاسلام — شأنه فى ذلك شأن اليهودية والمسيحية — المبادىء التفصيلية للجهاد ، فقضى بمنح الكافرين الفرصة لاعتناق الدين الاسلامى ، ومن يرفض ذلك يتعرض لهجوم قد يأتى مفاجئا بلا حاجة لاعلان الحرب • واذا كانت هناك خشية من تعرض القوات الاسلامية ذاتها للخطر ، واذا كان الاسلام قد أجاز قتل الكافرين المهزومين ، فانه أيضا أعطى المسلمين حرية اختيار العفو عنهم وأمر بعدم مهاجمة النساء والأطفال والمستضعفين وبعدم تدمير سبل معيشتهم أو الاستيلاء عليهـا ، وكان الأسرى يعتبرون جزءا من الغنـائم ويعرض عليهم اعتناق الاسلام ومن يرفض فقد يستخدم كعبد أو قد يعدم أو — وفقا لبعض الآراء — قد يتم اســتفداؤه بمبلغ من المال • وكانت الغنـائم توزع على النحو التالى : الخمس للقائد ، وخمس للرسول (وكان يذهب فى الواقع لأعمال الخير

والبر) والباقى للمقاتلين . ولما كانت تلك القسمة محددة تفصيلا فى القرآن فلم يكن هناك اعتراض أو محاولة لمشاركة القائد فى نصيبه .

ولا يتسع المجال فى هذا القسم المختصر لجمع كل نماذج الحرب بصفتها أداة للدين . ولو أردنا مجرد ذكر قائمة مقتضبة لمثل هذه النماذج لما خلت من ال Aztecs - الذين كانت تدور استراتيجيتهم كلها حول محور واحد هو القبض على أسرى لتقديمهم كقرابين - والعديد من المجتمعات البدائية فى شتى بقاع العالم . ولكننا اكتفينا هنا بذكر الأديان السماوية التوحيدية الثلاثة الكبرى التى تباينت بعد ذلك مواقف الشعوب التى تعتنقها ، بشأن الحرب على مدى التاريخ واتخذ كل منها مسارا مختلفا . ففيما يتعلق باليهود ، فقد فقدوا استقلالهم منذ تدمير المعبد الأول ولم يتمتعوا منذ ذلك الحين وحتى القرن الحالى بظل دولة مستقلة الا خلال فترة وجيزة من عام ١٦٤ الى عام ٥٧ قبل الميلاد . ونتيجة لذلك استبعدت الأفكار المتعلقة بالحرب عندما بدأ فى القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد السعى الى تطوير القوانين الدينية ، ولم يكن يهتم بمثل هذه الأفكار سوى بضع من المدارس البعيدة عن واقع الحياة . ومع ذلك فلم يتوار مطلقا مفهوم « الحرب المقدسة » أو مصطلحاتها فى عالم النسيان . ورغم أن اقامة دولة اسرائيل فى العصر الحديث كانت من صنيع قوم اشتراكيين منكرين حتى لوجود الله ، فكثير من رأوا الانتصار الساحق الذى حققته اسرائيل فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ أنه من عند الله ومن ثم ألبسوه ثوبا دينيا ، وتشهد اسرائيل اليوم صحوة لمجموعات متطرفة تسعى الى احياء المفاهيم الدموية برمتها .

وفيما يتعلق بالعالم المسيحى ، فرغم ان التعاليم المسيحية فى مهدها كانت تعارض الحرب وسفك الدماء ، فان الأمر تغير بعد أن قويت شوكة المسيحيين . وشهدت القرون الوسطى وحتى بداية العصر الحديث حروبا شنها المسيحيون ضد الوثنيين وحروبا أخرى دارت فيما بين الطوائف المسيحية . ودائما ما كان المسيحيون يقاتلون الوثنيين - وأحيانا يتقاتلون فيما بينهم - باسم الصليب ، وكانوا يحملونه أمام القوات فى المعارك مثلما فعل قسطنطين من قبل فأرسى بذلك عادة ظلوا يعملون بها . ولقد بلغ من أمر الكنيسة فى القرون الوسطى أن حاولت احتكار مقاومة العنف المنظم عن طريق تكوين مجموعات عسكرية تجمع بين مثل الدين ومبادىء الحرب معا . غير أن الكنيسة لم تفلح مطلقا فى تحقيق هدفها المتمثل فى تحويل الحكومة العلمانية الى سلاح فى يدها . واعتبارا من القرن السادس عشر كان هناك دائما من يشنون الحرب باسم أفكار مختلفة . ومع ذلك فقد ظل هناك فى الكنيسة عناصر أصرت على رفض سفك الدماء ، ويأتى على رأس هذه العناصر القديس فرانسيس أسينى .

ولم تكن فكرة الحرب المتصلة بالدين فى أى عصر فى أوروبا أقوى مما كانت عليه خلال القرن الذى تلا النهضة ، ولذلك فقد شهدت تلك الفترة عددا لا حصر له من الحروب التى اتسمت كذلك بدرجة ضراوة غير مسبوقة فى التاريخ • غير أن تأثير الأفكار الدينية بدأ يخبو بعد عام ١٦٤٨ • وقد يكون الحكام قد ظلوا يستخدمون تلك الأفكار لشحذ همم مرؤوسيهم الا انهم اعتبارا من القرن السـابع عشر وحتى ظهور الدولة الحديثة لم يزحفوا الى حرب باسم الدين ولم يطبقوا فى حرب تعاليمه • وكان هناك اتجاه لفصل « الادارة الفعلية » للحرب عن أى شىء آخر • واذا كان الدين قد ظل يستخدم فى بعض الأحيان فى أمور من قبيل الشئون المعنوية للقوات وعلاج الجرحى ، فقد صارت « الاستراتيجية » تجسد بشـــكل متزايد النهج العنيد الذى ابتدعه مكيافيلى وانغرس فى فكر كلاوزيفيتس •

أما بالنسبة للعالم الاسلامى ، فقد كان تأخر ظهور الدولة المدنية ، حتى نهاية القرن التاسع عشر ، هو السبب الوحيد الذى أبطأ تخلى المسلمين عن الحرب الدينية • ورغم ان مصر وسوريا وسائر البلاد الاسلامية ترفع شعار الدولة المدنية ، فان معظمها مازال يضم عددا كبيرا من العناصر الأصولية التى تستهدف العودة الى تطبيق الشريعة والتى تعزى على وجه التحديد أى فشل يقع فيه الحكام الى رفضهم ذلك • ولقد أظهرت بوضوح الأحداث التى جرت فى لبنان وايران وإفغانستان ان فكرة « الجهاد » ما زالت قوية للغاية لدرجة أنه ــ وعلى عكس معظم الدول الحديثة ــ ليس ثمة صعوبة فى ايجاد من هم على استعداد طوعا للقيام بعمليات انتحارية استشهادا فى سبيل هذه الفكرة • ولما كان الجهاد فى معظم الأحيان صار يستهدف فى المقام الأول الصفوة من الحكام « المسممين بالأفكار الغربية » ولم يعد الكفار يمثلون الا هدفا ثانويا له ، لم تكن القوة المحركة له على مدى التاريخ الاسلامى كله أقوى مما هى عليه اليوم • وتفيد كل الدلائل بأن فكرة الحرب المتصلة بالدين ــ بما فى ذلك أقصى صورها المتطرفة على وجه التحديد ــ ما زالت حية بل وبعيدة كل البعد عن الأفول • ولابد للاستراتيجيين الغربيين من أتباع كلاوزيفيتس من الأخذ بذلك فى حسبانهم ، والا لو فشلوا فى فهم فكرة « الجهاد » فقد ينتهى بهم الأمر الى أن يصبحوا ضحاياها •

※ الحرب غير السياسـية : البقاء

لقد تأسس تحليلنا حتى الآن على ان الحرب تندلع « من أجل شىء ما » ، وذلك يعنى أننا سـلمنا فيه بالتمييز الكلاوزيفيتسى بين الحرب

ووسائلها وأهدافها أيا كانت • ولقد تنوعت تماما الأهداف التى قاتل الناس من أجلها على مدى التاريخ ، فتضمنت كل أنواع « المصالح » الدنيوية من قبيل التوسع فى الأراضى وفى فرض الهيمنة والاستغلال ، كما شملت أيضا بعض المبــادىء والمثل مثل تطبيق القــانون وتكريس العدالة واقرار « الحقوق » والقتال فى سبيل الله • وكثيرا ما امتزجت تلك الأهداف بصور شتى فيما بينها وأيضا مع المصالح الدنيوية • ورغم أن هذا المفهوم صحيح الى حد ما ، فانه لا يشمل ما يعد على الأرجح أهم صورة منفردة للحرب على مدى كل العصور وهى الحرب من أجل بقاء المجتمع • وازاء مثل هذه الحرب تتضاءل تماما كل المفاهيم الأساسية للاستراتيجية ، مما ينم عن عدم ملاءمتها كأداة للتحليل والفهم •

ومما يبعث على السخرية انه عندما يكون الخطر عظيما ويبذل مجتمع كل ما لديه من طاقة فى صراع من أجل البقاء تفقد الألفاظ الاستراتيجية العادية مضمونها ، فأن نقول فى ظل مثل هذه الظروف ان الحرب هى « أداة » تخدم « السياسة » فى المجتمع الذى « يخوضها » ليعنى مط هذه الألفاظ بدرجة تفقدها حتى معناها • وعندما ينهار التمييز بين الأهداف والوسائل فان مجرد فكرة أن الحرب تندلع « من أجل » شىء ما تصبح بلا معنى • ويتمثل بالتحديد وجه الصعوبة هنا فى أن مثل هذا النوع من الحرب لا يعد امتدادا للسياسة ، وربما كان أكثر دقة ان نقول ـ نقلا عن كتاب لودندورف « عن الحرب الشاملة » ـ انها تمتزج بالسياسة أو تتحول الى سياسة أو تكون هى السياسة • ولا يمكن القول بأن مثل هذه الحرب « تستخدم » من أجل تحقيق هذا الهدف أو ذاك أو بأنها « تخدم » هذه القضية أو تلك ، بل على العكس ، فلا شىء يقرب مفهوم انفجار العنف الى العقل أفضل من تصويره بأنه مظهر للوجود ذاته وأقوى تعبير عنه •

واذا تعلق الأمر بمسألة « يكون أو لا يكون » فان الحرب تخلع كل معانيها العادية وتصبح عارية مجردة تماما ، وعند هذا الحد فان التفكير بمنطق الغاية ـ أى التفكير الذى يقوم على ألفاظ من قبيل « السبب » و « الهدف » و « من أجل » ـ يكون ضرره أكثر من نفعه • وتكمن صعوبة الأمر فى أن كل هذه الألفاظ تستمد معناها من الاستمرارية المنتظمة بين الماضى والحاضر وبين الحاضر والمستقبل • فلو تعرض مجتمع للهزيمة فى صراعه من أجل البقــاء ودمر تراثه ـ أى ، وفقا للانذار الفــارسى لميليتوس فى سنة ٤٩٠ ق•م ، تعرض الرجال للاستعباد والأطفال للخصى والنساء للنفى وسقط البلد فى أيدى أجانب ـ فان هذه الاستمرارية ستــنقطع بالنسبة له ، بل ستنتهى • ومجرد التفكير فى حرب تنتهى

بتدمير المستقبل ومحو الماضي يعد أمرا شديد الصعوبة حتى ليجبر الكاتب على الاستعانة بالاستعارات والأمثلة ·

وان يقال في هذا السياق على سبيل المثال ، ان الشعب الجزائرى قد استخدم - في الصراع الذى خاضه ضد فرنسا لمدة ثمانى سنوات من أجل التحرير - الحرب كامتداد للمصالح السياسية لهو قول ينطوى في الواقع على مغالطة كبيرة ، فذلك يشكل خلطا بين السياســـة والهوية المستقلة للأمة ، بل ووجودها ذاته · ان حجم الأداة أو الوسيلة في مثل هذه الحالة يتضخم حتى يتساوى مع الغاية التى تخدمها ، وبالتالى تفقد معناها والصحيح الذى ينبغى ان يقال هو ان الدولة الفرنسية - وقد ضمنت ان البحر المتوسط يكفل لها الأمان - هي التى قاتلت فيما بين ١٩٥٤ و ١٩٦٢ من أجل أغراض سياسية قد تتمثل في استمرار فرض الهيمنة ، أو حماية المستعمرات الأوروبية ، أو الوصول الى بترول منطقة الصحراء ، أو الحفاظ على مكانتها كدولة عظمى (وكانت مثل تلك المكانة ما زالت مرتبـطة بشـــكل وثيق بامتلاك المستعمرات) · أما الشعب الجزائرى « فلم يكن » يحارب من أجل مصالحه ، بل لم تكن له حتى حكومة قادرة على مجرد تحديد تلك المصالح · ولو كانت المصالح ، بمعنى ما يعود بالنفع على الجزائريين كأفراد ، هى مربط الفرس لآثر معظمهم وعمل خيرا ان يمكث في داره ليرعى شئونه الخاصة ، ولو كانت جبهة التحرير قد حفزت الشعب على القتال من أجل نوع من « السياسة » لما حصلت حتى على نسبة من المساندة التى حظيت بها رغم كل ما كانت تفعله فرنسا وما كان يمكن أن تفعله ·

ولسنا هنا بصدد الحديث عن علم دلالات الألفاظ ، ولكننا نقول ان استخدام اللغة الاستراتيجية والتفكير في « أهداف سياسية » ، كما لو كانت شيئا ينطبق على الفرنسيين والجزائريين على حد سواء ، هو بمثابة خلط للأمور بلا مبرر ، بل انه يطمس المعانى الحقيقية للنصر والهزيمة · ومن منطلق أن الحكومة الفرنسية كانت تقاتل من أجل ما كانت تعتبره مصالحها السياسية ، فقد كانت الحرب بالنسبة لها مسألة حسابية قدرت فيها النفقات والأرباح ، بغض النظر عن مدى دقتها ومدى صوابها ، ثم « عينت » القوات التى ستشترك فيها ثم « استخدمتها » لقمع « التمرد » · وتقدر الخسائر الفرنسية في الواقع ب ٢٢ ألف قتيل من العسكريين وحوالى ثلاثة آلاف من المدنيين ، وهو رقم لا يقارن حتى بعدد من لقوا مصرعهم في حوادث المرور العادية على مدى فترة الحرب ! وعلى أى الأحوال فقد انتهى الأمر بالفرنسيين الى الاعتراف بخطئهم وأدركوا أن ثمن الاحتفاظ بالمستعمرة يفوق أى مكسب متوقع · ويتضح من ذلك ان المنطق الذى

شنت به الحرب كان هو نفسه السبب في الاستسلام : بمعنى آخر ، فلقد خسرت فرنسا لأنها على وجه التحديد خاضت الحرب بوصفها امتدادا للسياسة ولكن بوسائل أخرى ٠

أما على الجبهة الجزائرية فقد كان الوضع مختلفا تمام الاختلاف ، وكلما طال أمد النزاع بدا ذلك أوضح ٠ فلم يدخل الشعب المنضوى تحت لواء جبهة التحرير الجزائرى فى أى حسابات تكاليف أو أرباح ، ولو كان قد فعل ذلك لما كان بدأ القتال من أساسه ٠ وكان القتال من أجل البقاء مثلما فعل الشعب سيكلفه عددا لا حصر له من العقوبات ، وقد بلغت الخسائر البشرية الجزائرية ، بعد انتهاء الحرب عددا يتراوح بين ٣٠٠ ألف ومليون قتيل ، من مجموع لا يتجاوز ثلث تعداد فرنسا ٠ والأهم من ذلك ان حساب النفقات والأرباح انطبق معهم بطريقة عكسية : فكلما زاد حجم المعاناة والدمار قل حجم ما يخشى الجزائريون أن يخسروه ، وبالتالى ازدادوا اصرارا على ألا يذهب ذلك النضال سدى ٠ وبما أن الفرنسيين كانوا أسرى الفكر الاستراتيجى التقليدى ، شأنهم فى ذلك شأن أمم « منطقية » كثيرة سبقتهم وتلتهم ، فقد استغرق الأمر وقتا طويلا لفهم هذه الحقائق ٠ وعندما استوعبوا ما يجرى وأدركوا ان كل فرد ، رجلا كان أو امرأة ، يقتل على الجانب الجزائرى انما يشكل سببا جديدا لمواصلة القتال ، انتهى بهم الأمر الى الاستسلام ٠

وتعد الحرب التى خاضتها اسرائيل فى ١٩٦٧ مثلا نموذجيا آخر للحرب من أجل البقاء ٠ كانت اسرائيل محاطة من كل جانب بالأعداء الذين يفوقونها كثيرا من حيث عدد السكان ٠ ولم يكونوا يخفون عزمهم على التخلص من الدولة الاسرائيلية بمجرد ان تسنح الفرصة ، ولذلك عاش الاسرائيليون طويلا على حافة الخطر ٠ وعندما أرسل عبد الناصر فى شهر مايو من ذلك العام ست فرق الى سيناء وصرف قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة وأغلق مضايق تيران ، أحست اسرائيل حكومة وشعبا بالرعب ، وازداد رعبهم عندما انضمت سوريا والأردن الى مصر ٠ وشعر الاسرائيليون انهم على شفا حرب ابادة ثانية ، حيث تعقد دائما — ليس فى اسرائيل وحدها — مقارنة بين الزعيم المصرى بأدولف هتلر ٠ وكان هناك اعتقاد بأن عبد الناصر وحلفاءه يرمون الى تدمير دولة اسرائيل وقتل نسبة كبيرة من الشعب اليهودى وطرد الباقين ٠

وكلما احتدمت الأزمة تضـــاءلت فى الواقع أهمية الاعتبـارات السياسية ٠ وعندما ظهرت نوايا الحلفاء ومراميهم قدر حجم الخسائر

الاسرائيلية المتوقعة بأعداد ضخمة ، فحل محل « السياسة » شعور بالجزع دفع السكان الى العزم على التضحية بأرواحهم ، وعند هذه المرحلة دخلت اسرائيل الحرب ، ولمدة ستة أيام حاسمة كانت الحرب هى اسرائيل واسرائيل هى الحرب • وعندما انطلقت اشارة البدء أحس كل الناس بطاقة انطلاق جبارة تشبه تلك التى يشعر بها العداء فى بداية سباقه وهو متحفز تماما وكل عضلة وعصب فى جسمه مشدود وجاهز للانطلاق • وقاتلت قوات الدفاع الاسرائيلية ببراعة ودحرت العرب وحققت انتصارا ساحقا بقدر ما كان غير متوقع •

ويفيد هذان المثالان وأمثلة تاريخية أخرى كثيرة بأن الحرب من أجل البقاء ، طويلة كانت أم قصيرة ، تبث فى الناس قدرا من الشجاعة والعزم يفوق كثيرا ما كان سيتولد لديهم لو كانوا قد دعوا الى الحرب من أجل « بلوغ » بعض الغايات أو « تحقيق » هدف سياسى أو « توسيع نطاق » بعض المصالح أو « الدفاع عنها » • وهى أيضا تبث فيهم روح التضحية بأى شىء مهما بلغت قيمته وما لم يكن أحد يتصور أن يحدث فى الأوقات « العادية » ، وتتأجج تلك الروح عندما تنقلب حسابات الخسائر والأرباح ، ويصبح كل قتيل جديد رصيدا يضاف الى القوة الدافعة فى القتال • وعلاوة على ذلك ثمة ميزة أخرى يحظى بها من يقاتل من أجل البقاء : فالضرورات تبيح المحظورات ، ومن ثم فهو يكسر القيود ويتحرر من معاهدات الحرب ويستخدم كل ما لديه من قوة بغير حدود ، وهذا شىء لا يستطيع أن يقدم عليه الطرف الآخر الذى يحارب من أجل السياسة والا تحمل تبعات ذلك على نحو ما أشرنا سالفا •

ومن الخطأ ان نعتقد ان الحرب من أجل البقاء هى ظاهرة ثانوية تشكل نسبة ضئيلة من النزاعات ، بل على العكس تماما ، فكلما طال أمد النزاع ، اتجهت الحرب الى أن تكون صراعا من أجل البقاء ، لاسيما لو كانت المعارك على درجة كبيرة من الضراوة والخسائر بالغة الجسامة • ويبرر ذلك بأنه كلما امتد زمن القتال وزاد حجم الخسائر تلاشت من الأذهان الأسباب الأساسية التى اندلعت من أجلها الحرب ، وكلما زاد حجم التضحيات كانت الضرورة أكثر الحاحا لتبريرها أمام العالم •

وتعد الحرب العالمية مثلا جيدا يوضح كيف تجرى الأمور فى مثل هذه الصراعات • واذا شئنا استخدام المصطلحات التى استعملها الدبلوماسيون فى شهر يوليو من عام ١٩١٤ ، وهو شهر مزدحم بالأحداث ، فقد اندلع النزاع بسبب أشياء من قبيل « ميزان القوى » و « الأقاليم المتنازع عليها » ، والتحالفات التى تحولت بعد ذلك لتتناغم

مع شيء اسـمه « المجـد » . ولم يـكن لهذه المسـائل أى تأثير مباشر يهدد حيـاة أحـد فى كل من البـلدان المتنازعة ، ولـكن كان هنـاك كثيرون فى كل بلد من أمثال الجندى الطيب « شفيك » ، يظنـون أن نظـام التحالفات القائم يرغم النمسـا على محـاربة تركيا ، والألمان على مهاجمة النمسا ، والفرنسيين على تقديم العون للنمسا ، وعندما اندلعت الحرب أخذ « شفيك » ـ الذى أقعده الروماتيزم على كرسى متحرك ، يهتف لها بحماس ضـد ألمـانيا . ولم يتوقف عن الهتـاف عنـدما زال سوء الفهم وتبين أن القتال يدور بالتحالف مع ألمانيا ضد فرنسا ، مما يثير سؤالا مهما : هل كان حماس الناس من أمثال « شفيك » ، والذين لا حصر لعددهم فى كل بلد من أطراف النزاع ، قائما على سوء الفهـم ؟

ويعد الوقت أكبر عدو للانفعال ، ولا تسـتثنى الحرب من هـذه القاعدة ، ولذلك فمع مرور الوقت فى هذه الحرب العالمية فتر الحماس ولكن حل محله عزم ضار . ولا يمكن أن يعزى سقوط ما يناهز ٧٥٠ ألف قتيل من الكومنولث البريطانى الى محاولة انقاذ بلجيكا الضئيلة المسكينة التى لم تبرم معها بريطانيا فى واقع الأمر أية معاهدات رسمية ، ولا يمكن أن يبرر سقوط مليون ونصف قتيل فرنسى بالرغبة فى استعادة منطقة الالزاس لورين لاسيما ان الأمور فى فرنسا سارت على ما يرام على مدى ٤٣ سنة بدون هذه المنطقة . كذلك لا يمكن ان يفسر سقوط مليونى قتيل ألمانى بسعى الرايخ الثانى الى مساعدة حليفه النمساوى ، ناهيك عن التعلل بمحاولة الحفاظ على شيء غامض اسمه ميزان القوى . وكلما زاد نزيف الدم والموارد ، كانت الحاجة أكبر لأن يكون الهدف أسمى وأقيم . واذا كانت الحرب تندلع فى الأصل من أجل أهداف محدودة نسبيا ، فان نطاق هذه الأهداف يتسع بشكل متزايد بمضى الوقت . ولقد تنوعت ادعاءات الأمم فقيل انها زحفت للحرب من أجل انشاء أوروبا الوسطى ، ومن أجل القضاء على « العسكرية » الألمانية ، ومن أجل احلال الديمقراطية أو حتى من أجل وضع نهاية للحرب ذاتها . غير أن كل تلك الشعارات تخفى بالكاد حقيقة ان الانسان يتورط فى حرب حياة أو موت دون حتى أن يدرى فى الحقيقة لماذا يخوضها ولأى غرض . ويستمر الصراع ويتواصل القتال وتسيل أنهار من الدماء ، ولا تتوقف الحرب الا عندما تستنزف قوى أحد الأطراف ، لدرجة تهدد بانهيار التلاحم الاجتماعى فتتحول ذروة الانشغال والقلق بشأن بقاء كيان الأمة الى الخوف على حياة أفراد هذه الأمة .

وتمثل الحرب العالمية الثانية فى بعض جوانبها نموذجا أفضل من سابقه ، لتحول الحرب من حرب « سياسية » الى حرب من أجل البقاء .

فلقد حولت هزيمة ١٩٤٠ « الموت من أجل دانسيج » الى حرب من أجل استمرار البقاء المستقل للدولة الفرنسية وللأمة الفرنسية وتحول شعار تشامبرلين من « الوفاء بالتزاماتنا تجاه بولندا » الى « وقف النازية البهيمية » ، كذلك كان شعار تشرشل « سنقاتل على السواحل » . وعلى الجانب الآخر من الجبل أسدل شتاء ١٩٤١ - ١٩٤٢ الستار على حرب بدأت من أجل أهداف من قبيل « مراجعة معاهدة فرساى » أو « استعادة ممر بولندا » وحلت محلها حرب شعارها Rimgen « من أجل بقاء الأمة » اشترك فيها كل الألمان حتى من لم يكن منهم فى الأصل مؤيدا للحرب . وحدث نفس الشىء فى الشرق الأقصى حيث لم يدم طويلا شعار « اقامة عالم ينعم بقدر أكبر من الازدهار المشترك » وحل محله صراع ضد « الأشرار الأجانب » الذين يستهدفون القضاء على كل رجل يابانى وسيدة ، ومن شأن مثل هذا الصراع ان يبرر استخدام كافة الوسائل بما فيها الكاميكاز . وكانت الولايات المتحدة هى القوة العظمى الوحيدة من بين أطراف النزاع التى لم تقاتل من أجل البقاء ، وتجلى ذلك عندما اشترط روزفلت « استسلاما ألمانيا غير مشروط » .

وقد تنقلب المسألة وتسير فى اتجاه عكسى ، وأفضل دليل على ذلك هو المأساة الأمريكية فى فيتنام . فبالنظر الى الفارق الضخم فى الحجم والقوة والى المسافة الشاسعة التى تفصل بين البلدين ، يكتشف المرء أن أى فكرة لوصف تلك الحرب بأنها صراع من أجل البقاء تغرق فى سخافتها . ولقد كانت الأهداف التى زحفت الولايات المتحدة من أجلها فى الأصل - وتشمل وقف المد الشيوعى وحماية الديمقراطية فى فيتنام الجنوبية - تتسم بقدر كبير من المثالية حتى وان لم تكن المثل دائما نقية خالصة . وعندما احتدمت المعارك تزايد الالحاح بألا يكون هدف الحرب هو مجرد مثل براقة ، بل أن تكون من أجل « مصالح » حقيقية أكيدة . ولقد استخدمت كلمة « مصالح » لتبرير حجم الخسائر الأمريكية المتزايد فى الأرواح والموارد ، ولكن كلما كان حجم الخسائر أكبر زادت صعوبة تحديد ماهية المصالح التى تستحقها . وعندما تولى هنرى كيسنجر أخيرا رئاسة مجلس الأمن القومى نشر مقالا جاء فيه ان الولايات المتحدة موجودة فى فيتنام لأنها موجودة هناك . ويعد ذلك بمثابة اعتراف بأنها ذهبت للحرب بلا أى داع على الاطلاق .

ولم تكن التجربة الأمريكية فى فيتنام شيئا فريدا ، فلقد تكررت مع بلدان أخرى كثيرة ، بل حتى مع اسرائيل التى لقنت فى وقت من الأوقات أعداءها (بل والعالم كله) درسا عمليا فى ما يمكن أن تسفر عنه الحرب من أجل البقاء . ففى أواخر السبعينات كانت اسرائيل تسعى

ـ وفقا للتقارير المتاحة ـ الى تنمية ترسانتها النووية حتى رغم ابداء بعض البلدان العربية علامات تنم عن استعدادها لاحلال السلام • وكانت قوات الدفاع الاسرائيلية قد وصلت فى نفس الوقت الى مرحلة من التطور الكمى والنوعى بحيث أصبحت أقوى جيش يكونه بلد بمثل هذا الحجم ، وبحلول عام ١٩٨٢ بدت وكأن وجودها لم يعد يمثل مصدرا لقلقها ، واندفعت حكومة مناحم بيجين الى أهداف أبعد وقامت بغزو لبنان • ولم تحظ تلك التجربة ، بوصفها حربا « ذرائعية » ، بأى اجماع سياسى • وكلما طال أمد هذه الحرب تبدد وضوح الرؤية بشأن السبب الذى بعث اسرائيل أصلا على شنها • وقد ظل الجدل قائما حولها حتى بعد مضى سنوات على نهايتها لدرجة أن تعرض الزعماء السياسيون للاتهام علنا بالقتل تماما مثلما اتهمت الجهات المعارضة للحرب فى الولايات المتحدة الرئيس ليندون جونسون فى وقت من الأوقات بقتل الأطفال الأمريكيين •

ويبعث ذلك الموقف على السخرية ، فمن بين كل الحروب الاسرائيلية كانت اسرائيل فى هذه المرة أكثر استعدادا وأكثر حرصا على الاقلال بقدر المستطاع من الخسائر البشرية • وقد حسبت قوات الدفاع الاسرائيلية ما يمكن أن تجنيه من مكاسب من هذه المغامرة اللبنانية مقابل ما يمكن أن يكلفها ذلك ، ليس فقط فيما يتعلق بالخسائر البشرية ، ولكن ما يمكن ان تتعرض له من خسائر سياسية ناجمة عن سقوط عدد كبير من القتلى من « الأبرياء » العرب • وكانت النتيجة أن كان تقدمها بطيئا تعــوزه البراعة • صحيح ان أداء القوات الجوية كان رائعا فى مواجهة الصواريخ سام الدفاعية السورية • غير أن الأمر كان مختلفا بالنسبة للقوات البرية التى جاء تحركها بطيئا للغاية بسبب الحرص الزائد على أرواح الجنود • ورغم أن الطوابير المدرعة شملت أحدث المعدات على الاطلاق الا أنها كانت تتوقف فى مواجهة أدنى مقاومة وتطلب معاونة المدفعية على فتح الطريق • لقد كان أداؤها أقل من كل المرات السابقة رغم أنها كانت تواجه خصما أقل منها نوعا ، ولأول مرة فى تاريخ المواجهة العربية الاسرائيلية ، أقل منها عددا •

ونخلص من ذلك بأن المفهوم الكلاوزيفيتسى للحرب بوصفها امتدادا للسياسة لا يصلح الا لتفسير الحقائق التاريخية • أما الحرب من أجل البقاء فهى تمثل صورة مهمة جدا للنزاعات ، وهى تتحدى القوانين وتؤدى بذلك الى قلب موازين الحسابات فتحيل المكاسب الى خسائر والخسائر الى مكاسب ، وعندما يحدث ذلك فان المنطق الاستراتيجى قد يتحول الى سبب

للهزيمة . فمن الحرب الأمريكية فى فيتنام الى الحرب السوفيتية فى أفغانستان كثير من كتشفوا خطأ حساباتهم ، وواجهت مخططاتهم عزم العدو واصراره على التحمل ومواصلة الصراع من أجل البقاء . وقد يشكل تزييفا للحقيقة أن نقول انه يكفى لشعب أن يقاتل من أجل البقاء لكى يحقق الانتصار .

وبقدر ما جرت صراعات من أجل البقاء فقد تبين خطأ المذاهب المنبثقة عن العالم الكلاوزيفيتسى والتى تقوم على المنطقة وعقد الأولوية للسياسة وعلى حسابات المكاسب والخسائر . وبما أن بعضا من هذه الصراعات سيستمر بلا جدال ، فلا يمكن أن تصلح هذه النظريات كأساس للتفكير وبالتالى للتخطيط للحرب وخوضها وتوقع تحقق النصر فيها . وليس ذلك بالكلام النظرى، فيتعين على صانعى السياسة،وعلى غيرهم ممن يفكرون انه بوسعهم منطقيا أن يستخدموا القوات المسلحة لبلادهم لتحقيق أغراض سياسية ، أن يتعلموا درسا وهو أن طاقة الحروب التى تمليها المصالح طاقة محدودة بحسب تعريفها ، وبالتالى فان الزج بها فى مواجهة حرب لا ذرائعية ليكون فى العديد من الحالات بمثابة دعوة لالحاق الهزيمة بهذه القوات .

* تحولات المصالح

« هل لاحظت صعوبة وصف شخصية رجل وصعوبة التعرف على وجه التحديد على ما يميزه : كيف يشعر وكيف يعيش ، كيف ترى عيناه الأمور ، كيف يقيسها بروحه ويجتبيها بقلبه ؟ وهل لاحظت مدى العمق الذى يتسم به طابع شعب واحد منفرد ؟ واذا كان الأمر كذلك فكيف يتسنى اذن للمرء أن يقيم محيطا بأكمله من البشر ومن الأزمنة ومن البلدان ويفهمهم بنظرة خاطفة ويعبر عنهم بانطباع واحد أو بكلمة واحدة ؟ لابد أن يتوفر لذلك ، أو حتى أن يسبقه ، قائمة كاملة تشمل سلوكيات ذلك الشعب ذاته وعاداته واحتياجاته وخصائص أرضه وسمائه ، لابد أن يغوص المرء فى قلب الشعب وروحه قبل أن يفكر فى مشاركته ولو فى واحد فقط من أفكاره أو أفعاله ، ينبغى أن يكتشف المرء ذلك اللفظ الذى يشمل كل شىء ذى معنى أو مغزى .

ومنذ عهد مكيافيلى وحتى زمن كيسنجر كان لفظ « المصلحة » هو أفضل لفظ جامع شامل للغرض الذى تندلع من أجله الحروب . وتعد « المصلحة » بمثابة تابوت العهد فى معبد السياسة وبمثابة مخزون صناع القرار على كافة المستويات . وعادة ما يعنى تفسير تصرف شخص محاولة

ايجاد علاقة حقيقية أو خيالية بين هذا التصرف و « مصلحة » ذلك الشخص ، ومن ثم فليس من الخطأ القول بأن لفظ « مصلحة » بالمفهوم السياسى للكلمة ـ أى كشيء حققته دولة أو تدعيه أو تعتزم السعى الى نيله أو الدفاع عنه بغض النظر عن السبب أو الحق ـ بعد لفظا حديثا ٠ ولقد دخل هذا اللفظ اللغة الانجليزية فى القرن السادس عشر ـ باعتبار أنه يتصل بوجهة النظر القائلة بأن القانون والأخلاقيات تعتبر شيئا من صنع الانسان ولا علاقة لها بالقوة ـ أى فى الوقت الذى تأسست فيه أول دولة حديثة ٠

ولو حاولنا افراد قائمة بالأهداف التى كان الناس قديما يسعون الى تحقيقها من خلال الحروب لكان ذلك بمثابة كتابة تاريخ حضارة البشرية ، ومن ثم لا يتسع المقام هنا الا لذكر الخطوط العريضة باختصار ٠ ولعلنا نبدأ بالمجتمعات القبلية ٠ لم تكن الحروب فى هذه المجتمعات تستهدف « مصلحة » المجتمع ككل بقدر ما كانت من قبيل الثأر الشخصى أو لتحقيق أهداف أو أمجاد شخصية ٠ وكان يطلق على الذكور البالغين فى هذه المجتمعات اسم « brave » أى الشجاع وهو اسم يوحى بمعناه ، وكانوا يستمدون أوضاعهم فى المجتمع بما يظهرونه من بسالة فى الحرب ، فالرجل المعروف بشجاعته عادة ما يكون له صوت مسموع فى شئون القبيلة ، بما فى ذلك صنع القرار فى مسألة الحرب والسلام ٠ وكانت البسالة العسكرية تترجم أيضا الى مميزات ملموسة واقعية فى شتى جوانب الحياة ٠

وقد استمر التركيز على الشجاعة الفردية هو السمة المميزة للحروب حتى القرون الوسطى الإقطاعية ، فكانت قبائل الهنود فى أمريكا الشمالية، على سبيل المثال ، تهتم بعدد ما يجلبه المحارب من جماجم ومعدات استولى عليها أكثر من اهتمامها بأساليب خوض المعركة وبالتشكيلات التكتيكية المنظمة ٠ ولذلك ، ولأسباب أخرى ، كانت تكتيكات هذه القبائل تتمثل فى الكمائن والمناوشات والاغارات ٠ أما لو دخلت فى مواجهة مفتوحة مع قوات نظامية ـ حتى ان لم تكن تفوقها تكنولوجيا ـ فعادة ما كانت تمنى بالهزيمة ٠ ويمكن القول اذن ان العلاقة بين مثل هذا المجتمع و « مصالحه » تكاد تكون معكوسة ، فلم تكن الحرب أداة لتحقيق « سياسة » القبيلة ككل ، بل على العكس كان الأسلوب الذى تجرى به يضيع السياسة فى سبيل تحقيق أهداف أخرى كانوا يعتبرونها أهم وأسمى ٠

وكان الهدف الرئيسى للحرب فى بعض المجتمعات البدائية هو الحصول على الأسرى من أجل أكل لحومهم ٠ ولم تكن معظم القبائل من

آكلي لحوم البشر تقدم على ذلك نتيجة الجوع أو نقص المؤن وان كان ذلك قد حدث في مرات نادرة • وكان من عادة مثل هذه المجتمعات ، التي انتشرت في المنطقة التي سكنتها فيما بعد البرازيل الكولومبية ، وفي داهومي في القرن الثامن عشر ، وفي جزر فيجي في القرن التاسع عشر ، ألا تأكل لحوم القتلى والأسرى بعد الحرب مباشرة ، بل كانت تؤجل تلك الطقوس لتقيمها أثناء الاحتفالات بالنصر • وأحيـــانا ما كانت تتمثل تلك الطقوس ، في داهومي وفيجي على وجه الخصوص ، في الرغبة في اكتساب الصفات القوية التي يتمتع بها الخصم •

وكان أيضـــا الهدف الرئيسي للحرب في الحضارات الميزو أمريكية المتقدمة ــ والتي دمرها كورتيث بعد ذلك ــ هو أسر أكبر عدد ممكن من الأعداء ، غير أن ذلك لم يكن هذه المرة من أجل أكل لحومهم ولـــكن لاستخدامهم كقرابين أملا في « اخصاب » الكون وتجديده بدماء قلوبهم ، ويبدو أن ذلك كان يتم بشيء من « التعاون » من جانب الضحايا • وكلما كان الأسير شجاعا علت قيمته • وأحيانا ما كان يبقى هؤلاء الأسرى على قيد الحياة لمدة تصل الى العام يجرون خلالها طقوسا مخصوصة استعدادا لهذا « الدور » • وكان تقديم القرابين يتم في حفل يتحدد مستواه بناء على أهمية الاله الذي تقدم له القرابين • وكانت تلك المسألة بالغة الأهمية بالنسبة لحياة المجتمع لدرجة انه اذا لم تسنح الفرصـة لاندلاع حرب بطبيعة الأمور كانت تجري حرب مخصوصة لتحديد من سيقدم كقربان • وحتى عندما جاء الوقت الذي واجه فيه الهنود الأوروبيين ظلوا لا يهتمون بقتل خصومهم بقدر اهتمامهم بأسرهم ، وذلك أمر يقال انه لعب دورا في انهيارهم •

ولم تكن تلك الشعوب الغريبة والبعيدة هي وحدها التي زحفت للقتال من أجل أهداف تبدو غير مفهومة لعقولنا • وفقد ورد في سـفر القضاة التوراتي قصة شعب اسرائيل الذي خاض الحرب انتقاما لاغتصاب امرأة (هي عشيقة Gib'ah) فكانت النتيجة سقوط عشرات الألوف من القتلى والقضاء المبرم على قبيلة بنيامين • وقد بدأت الحضـارة الغربية تتفتح في اللحظة التي اندلعت فيهـا حرب استمرت عشر سـنوات واستخدمت فيها آلاف السفن ، من أجل استعادة سيدة ذهبت بملء ارادتها وراء حبيبها • ولم يمض وقت طويل على لجوء الأوروبيين الى التناحر بعد أن فشلوا في حسم الجدل الدائر بينهم بشأن امكان اعتبار النبيذ والخبز بمثابة آلهة • وقد يعتبر المرء كل هذه الأهداف وكثيرا غيرهـا ضمن « المصالح » ، غير أنه ينبغي أيضا أن يسترجع المرء ما جاء في الفقرة الأولى من هذا القسم ، وهو من أقوال الحكيم الألماني جوهان جوتفريد هردر الذي

عاش فى القرن الثامن عشر ، فعندما تتعرض معانى لفظ ما للمط لتشمل كل شيء فقد يصل الأمر الى حد ان يصبح هذا اللفظ بلا معنى على الاطلاق .

ولا شك أن حيازة الأرض والهيمنة عليها تعد واحدا من الأهداف الرئيسية التى تندلع من أجلها الحروب اليوم . أما قبائل البدو وشبه البدو الذين كانوا يعيشون قديما فى الصحارى والغابات فلم يكن مفهوم الأرض يشغل بالهم . وكان أسلوب تفكيرهم عكس أسلوب تفكيرنا حيث كان الناس هم الذين ينتمون للأرض وليست الأرض ملكا للناس ، فقد كانوا يعتقدون أن أرواح أسلافهم الذين أعطوا معنى الحياة للقبيلة كانت مقصورة على أماكن معينة . ولذلك فأيا كانت الأهداف التى كانت هذه المجتمعات تتقاتل بشأنها ، لم يكن من الوارد غزو الأراضى بحسب مفهومنا الحالى .

وقد سادت المجتمعات اليونانية القديمة أفكار مماثلة حيث كان يعتقد أن كل دولة مدينة حصلت على أراضيها بشكل مباشر من أحد الآلهة . ولذلك كانت الأسباب التى تبعث على اندلاع القتال بين دول المدن هذه تتمثل اما فى مساعدة أحد الحلفاء أو فى الانتقام لضرر ألم بها : صحيح أنه كانت ثمة حالات تتنازع فيها دولتا مدينة بشأن بعض الأراضى الواقعة على الحدود بينهما وقد يتكرر النزاع ، بل قد تندلع بهذا الشأن حروب ، مثلما حدث على وجه الخصوص فيما بين ٤٣١ و ٤٠٤ ق.م ، تسفر عن تدمير مدن بأكملها وذبح سكانها أو استعبادهم . ومع ذلك فحتى فى مثل هذه الحالات القصوى لم يكن من الوارد غزو الأراضى التى خلت من السكان نتيجة المعارك أو حتى ضمها . وعندما قام شعب أثينا بنهب دولة مدينة ميلوس ودمروها تماما لم يضموها الى « أرضهم القومية » ، بل كونوا فيها دولة مدينة جديدة سكنها مستوطنون حلوا محل سكانها الأصليين . وكان بلاتو يشبه العلاقة بين المدن ومستعمراتها بالعلاقة بين الآباء والأبناء ، حيث تتجه الروابط بين « الأم » و « ابنتها » مع مرور الوقت الى التراخى ، الى أن يأتى وقت تصبح فيه الابنة مستقلة تماما .

ولا ينبغى لأحد أن يعتقد أن احجام دول المدينة عن الغزو والاستيلاء على أراضى بعضها البعض هو عمل غريب لا أهمية له ، فالواقع ان تاريخ اليونان القديمة كله ، بل حتى فشلهـــا فى تكوين قوة كبيرة لمواجهة التهديدات الخارجية الخطيرة ، يقوم على مفهـوم مؤداه ان دولة المدينة وأراضيها تعد شيئا مقدسا لا ينبغى أن ينتهك . وبما أن كل دولة مدينة كانت تؤمن بأنها تأسست بفعل الهى خاص بها لم يكن الأمر يتعلق بالانسان فقط وانما يرتبط بالآلهة ، ولذلك كان ضياع الاستقلالية السياســـية يعنى ضياع الدين ذاته والعكس . ومن ثم كان أقصى ما يمكن أن تلجأ اليه معظم دول المدينة اليونانية فى سبيل اقامة وحدات سياسية أكبر

هو عقد تحالفات فيما بينها مثل التحالف البليبونيزى « Peloponnesian league » والتحالف الدلفى و « Delian league » وفيما بعد التحالف الايتولى « Aetolian League » والتحالف الآخى « Achaean League » وكانت معظم هذه الرابطات تبدأ باتفاقيات للدفاع المشترك وتنتهى بأن تخضع لحكم دولة مدينة واحدة قوية . وكثيرا ما كانت العضوية تتحول مع مرور الوقت الى رابطة الزامية تعتبر محاولة الاستقلال عنها بمثابة تمرد . ومع ذلك فهى لم تتحول مطلقا الى ولايات أو امبراطوريات على النحو الذى نعرفه .

ومع الوقت أخذت الأفكار السياسية الوضعية تحل محل الأفكار القائمة على الدين . وقد بدأ ذلك الاتجاه خلال الحرب البيلوبوينزية . وبعد ذلك ، أى نحو القرن الرابع ق.م. ، شرع الاسكندر وخلفاؤه المقدونيون فى غزو الأراضى وان كانوا قد حرصوا على أن تكون أراضى غير هيلينية . وعندما تم بعد ذلك « تأليه » هؤلاء القادة قاموا بتأسيس العشرات من المدن الجديدة . وكان من نتيجة ذلك ان استبعدت كل الأفكار المتعلقة بما كانت تحظى به دول المدينة وأراضيها من حماية مقدسة . وبما أن اقامة الامبراطوريات الجديدة وتحديد حدودها تم بالقوة فيمكن بالقوة أيضا تغيير هذا الوضع . وهكذا ولد مفهوم الحرب من أجل التوسع الاقليمى ، وصاحب ذلك انتهاء عصر ، هو العصر القديم ، ومولد عصر ، هو العصر الهيلينى . وقد أدى المفهوم الجديد الى توفير الأداة اللازمة لتحقيقه ، أى تأسيس الجيوش النظامية ، أو ربما جرت الأمور بشكل عكسى . وبوجود المفهوم والأداة صارت الحروب الهيلينية تندلع لأسباب تشبه تلك التى نعرفها اليوم .

ودارت عجلة الزمن وظلت الأهداف التى كانت تدفع الناس الى الحرب على مدى معظم القرون الوسطى تكتسى الطابع الدينى أو الشرعى . وعلى النقيض من ذلك ، فلم يكن ثمة شىء يميز العصر الحديث بقدر انفصال الاعتبارات السياسية عن تلك الشرعية أو الدينية ، مما أسفر عن انتهاء الصلة التى كانت تربط تلك الاعتبارات الأخيرة بالحرب . ومنذ عام ١٦٤٨ بدأت الدوافع التى تبعث على شن الحروب تكتسى طابعا وضعيا بحتا وتقوم أساسا على حسابات القوة . ولقد ابتكرت فيما بين ١٦٠٠ و ١٦٥٠ فكرة الدولة الاقليمية وجاء ذلك مواكبا لظهور أول خرائط حديثة . ومنذ عهد لويس الرابع عشر ، ومرورا بعصر نابليون وحتى أدولف هتلر ، صارت التوسعات الجغرافية هى أهم هدف للنزاعات المسلحة . ولقد قال فريديريك الثانى ذات مرة ان قرية على حدود البلد لهى أفضل من اقليم كامل يبعد مائةميل . ولو كانت مثل هذه الشخصيات العظيمة على قيد الحياة حاليا لما صدقوا أعينهم ولتساءلوا لماذا تذهب شعوب

ما بعد الحرب العالمية الثانية الى الحرب وقد نص ميثاق الأمم المتحدة على حظر تغيير الحدود الدولية باستخدام القوة ٠

ولن يجد المرء اجابة سهلة على هـذا السـؤال ما دام الأمر يتعلق بالحرب بين الدول ٠ فلقد أوجد ميثاق الأمم المتحدة والرأى العام الذى يستند اليه وضعا تضاءل معه امكان ان تقدم الدول على الاعلان صراحة ان هدفها هو الغزو ، ناهيك عن القول بأنها تستهدف ازالة دولة أخرى من على خريطة الأرض ٠ والأهم من ذلك انه حتى لو وقع الغزو فان فرص ان يعترف به المجتمع الدولى أصبحت شبه معدومة ٠ ومن ثم لا تتهيأ الفرصة لابرام معاهدة سلام ولكن تعقد هدنة أو توقف العمليات العسكرية وتتحول المسألة الى قضية قد يستغرق حلها سنوات ، بل عشرات السنين ، وهذا هو الوضع فى الشرق الأوسط منذ ١٩٤٨ ٠ وثمة وضع مماثل فى الشرق الأقصى منذ ان احتل الاتحاد السوفيتى سخالين الشمالية فى عام ١٩٤٥ ٠ ومنذ ذلك الحين فان عدد الحالات التى أدت فيها الحروب الى تغيير فى الحدود الدولية تعد على أصابع اليد الواحدة ٠

ولم يحدث على مدى ثلاثة قرون ونصف ، منذ انتهاء حرب الثلاثين عاما ، ان ذهب أحد الى الحرب ليثبت أن الله معه ، أو هكذا كان يعتقد معظمنا الى أن اعتلى آية الله الخومينى الحـكم فى ايران وعلمنا شـيئا مختلفا ٠ واذا كانت الأهداف التى اكتسبت فى وقت من الأوقات أهمية تاريخية ــ مثل الغنائم والعبيد والنساء ــ قد خرجت من دائرة الاهتمام فى العصر الحالى فذلك لا يعنى بالضرورة انهـا لن تعود مرة أخـرى ٠ وفيما يتعلق بالمستقبل ، فمن حق كل منا أن يطلق لخياله العنان ، غير أن الشىء الذى يبدو أكيدا ، استنادا الى المنطق ، هو أنه ما دامت طبيعة الجهة صاحبة قرار الحرب تتغير ، فلا مفر أيضا من أن تتغير الأهداف التى تدفعها للقتال ، فالأشياء التى سيقاتل الناس من أجلها فى المستقبل لن تماثل تلك التى تندلع الحروب من أجلها اليوم ٠ وقد تختلف كذلك الصلة التى تربط تلك الأهداف بالاعتبارات الدينية أو الشرعية عن تلك القائمة حاليـــا ٠ ولا ينبغى فى جميع الأحـوال اغفال الجانبين الدينى والشرعى من الحسـبان ، ومن يفعل ذلك يقع فى خطأ اغفـال الطبيعة البشرية ٠

خلاصة القول ان الرأى الاستراتيجى المعاصر الذى يرى ان الحرب لا تتلاءم مع المنطق الا اذا جرت من أجل أهداف سياسية ، أو تحقيق المصالح يعد رأيا حديثا يتركز فى أوروبا ولا يرجع تاريخه لأبعد من عام ١٦٤٨ ٠

وكان صاحب قرار الحرب فى هذه الفترة هو الدول المستقلة فى المقام الأول ، وكانت علاقاتها بالتالى تقوم على القوة وليس على الدين أو القانون أو على صلة القرابة مثلما كان عليه الحال فى العديد من المجتمعات البدائية ، وقياسا بمفاهيم الأزمنة يعتبر هذا الرأى اما بلا معنى أو محدودا للغاية ، أما فيما يتعلق بالمستقبل فهو يعد بلا شك غير صائب ، حيث تفيد الأحداث التى وقعت مؤخرا بأن الاعتقاد القائل بأن قدرة القانون والدين على حث الناس على القتال والموت تقل عن حافز السعى الى تحقيق المصالح ، اعتقاد بعيد عن الواقعية بل وينم عن الغباء .

وأسوأ من ذلك ان الفكر الكلاوزيفيتسى المعتاد قد عجز عن ادراك ما يعد بشكل ما أهم صورة للحرب ، وهى الحرب من أجل البقاء ؛ ففى مواجهة مثل هذه الحرب يبدأ البنيان الاستراتيجى كله فى التصدع ، وتصبح فكرة الحرب من أجل السياسة فى غير موضعها . والأمثلة على ذلك كثيرة من أمريكا فى فيتنام الى اسرائيل فى لبنان ، حيث منيت هذه القوات بخسائر جسيمة لا لشىء الا لأنها توجهت الى الحرب وفى أذهانها اعتبارات استراتيجية . ويعنى كل ذلك أن السياســة والمصالح وحتى المنطق ذاته هى عوامل تتغير من مكان لمكان ومن زمان لزمان . بل ان تلك العوامل ذاتها تعتبر جزءا من ميثاق الحرب وليس ذلك بشىء أبدى أو من المسلمات .

الباب السادس :

لماذا تندلع الحرب ؟

* الرغبة في القتال :

لقد افترضنا وفقا للمفهوم الاستراتيجي الذى التزمنا به في هذا الكتاب ـ رغم الاشارة بايجاز الى الحرب من أجل البقاء ـ أن الحرب تتمثل أساسا في أعضاء مجتمع يشنون أعمال عنف فتاكة ضد أعضاء مجتمع آخر وأن القتل يعد ـ أو ينبغى أن يكون ـ وسيلة منطقية تستخدم من أجل تحقيق أغراض منطقية • وسوف نثبت هنا اننا لو سلكنا أسلوبا عكسيا في التفكير سنجد ان تلك الركائز الأساسية التى يقوم عليها العالم الكلاوزيفيتسى تعد خاطئة ، وما دامت خاطئة فهى تبعث على الهزيمة •

فالحرب تعد حسب تعريفها نشاطا اجتماعيا يستند على نوع من التنظيم ، ومن ثم فان فكرة أن الحرب هى وسيلة ترمى الى توسيع نطاق بعض المصالح أو الدفاع عنها ـ سواء أكانت سياسية أم شرعية أم دينية أو أى شيء آخر ـ يمكن أن تنسحب على المجتمع بأسره • وحتى في هذه الحالة يقول المعلقون ان النهج الأستراتيجى ينطوى على درجة مبالغ فيها من المنطقة البحتة • غير أن صناع القرار في أى نظام هم أولا وأخيرا بشر من لحم ودم • ولعله من الشطط الاعتقاد بأن القوة يمكن ان تجعل الناس يتصرفون كماكينات حاسبة خالية من أى مشاعر • ولو سيطرت الاعتبارات المنطقية البحتة المستمدة من المنفعة المجردة على حياة شخص ما فانها تحوله الى وحش غير آدمى ، وليس كل صناع القرار بوحوش • أما من ليس لديهم أى مشـاعر انسانية ـ مثل أدولف هتلر أو الدكتاتور الأوغندى السابق عيدى أمين ـ فربما جاز نعتهم بهذه الصفة •

وكلما ابتعدنا عن المستويات القيادية العليا اقتربنا من العـالم الطبيعى • وعندما نصل الى ميدان القتـال ونسمع دوى المدافع وأزيز الرصاص ونجد الأبدان والعقول تصارع بكل طاقة لتحقيق التركيز المطلق

من أجل النجاة والبقاء على قيد الحياة فان معانى كلمات مثل « بسبب » أو « من أجل » تتلاشى تماما ·

ولا يشغل بال المقاتلين على مستوى القاعدة الغرض الذى يجرى من أجله القتال ، وذلك لسبب بسيط هو انه ليس للأموات مصالح · وقد يبذل شخص حياته فى سبيل الله أو الوطن أو فداء للملك أو لأسرته أو لكل ذلك معا ، ولكن أن يقال انه فعل ذلك من أجل « مصلحة » لما بعد الوفاة ، حتى لو تمثلت فى بقاء أقرب أو أعز الناس اليه على قيد الحياة ، فذلك يحول المسألة الى نوع من الهزل · ومن هذا المنطلق ، تشكل الحرب أكبر دليل على أن المقاتل لا تحركه المصلحة الشخصية ، بل انها تعتبر بشكل ما أكثر أنشطة الانسان ايثارا بما يقترب بها من الأعمال المقدسة · وهذا يفسر لماذا تخصص المجتمعات أكبر قدر من التكريم لمن يموتون فى سبيل أهداف هى أبعد ما تكون عن المصلحة الشخصية لدرجة أن اليونانيين القدامى كانوا ينقلون شهداءهم الى البانثيون ويؤلهونهم ·

ويعنى ذلك ان الدوافع التى تجعل الناس يضحون بحياتهم تعد هى نفسها الأهداف التى يخوض المجتمع كله الحرب من أجلها ، بل ان من الناس من يجد نفسه يقاتل حتى دون ان يدرى ماهية هذه الأهداف · ويمكن تشبيه العلاقة بين العاملين بقطار يحمل شحنة ثقيلة فى طريق جبلى صاعد وتحركه قاطرتان واحدة فى مقدمته تجره والثانية فى مؤخرته تدفعه ·

وتتعلق نقطة الخطأ الثانية فى الفكر الاستراتيجى التقليدى بذلك الجزء من التعريف القائل بأن الحرب تتمثل أساسا فى قيام أعضاء مجتمع بقتل أبناء مجتمع آخر ، فالحرب لا تبدأ فى الواقع بقوم يقتلون آخرين ، بل على العكس فانها تبدأ عندما يتعرض قوم للقتل انتقاما لعمل اجرامى سابق ارتكبوه · ولا يسمى الناس فى الحالة الأولى محاربين ، لأن الوصف الملائم لهم هو انهم جزارون أو سفاحون أو قتلة أو ما شـــابه ذلك من أوصاف · ولما كانت الجريمة موجودة ــ بمعنى أى انتهاك للمبادىء والنظم الاجتماعية ــ فان معظم المجتمعات تسن القوانين أو تتبع الأعراف التى تبيح ــ ان لم تكن تفرض ــ الاعدام فى ظل ظروف معينة · غير أن الاعدام ــ بمعنى القتل بدون مقاومة ــ لا يعد حربا ولا يعد منفذه من المحاربين ولا يستحق التكريم الذى يناله المقاتلون · ولذلك غالبا ما تحجب ، فى البلدان التى تطبق عقوبة الاعدام ، شخصية المنفذ سواء أكان الاعدام بالكهرباء أم الغاز · وكان من الصعب ، فى المجتمعات السابقة التى كانت تنفذ فيها عملية الاعدام على الملأ ، اخفاء شخصية المنفذين رغم ارتدائهم

الأقنعة ، وغالبا ما كان يعهد بهذه المهمة لأفراد أسر معينة ، غير أن مثل تلك الأسر كانت تعيش منبوذة فى عزلة عن المجتمع باعتبار أنها تقوم بعمل كريه •

ويمكن أيضا لمس ما تنطوى عليه عمليات الاعدام من طابع بغيض الى النفس ، من خلال الأسلوب الذى كان يتم به اختيار فرق الاعدام العسكرية فى العصر الحديث ، وطريقة تنفيذهم لهذه المهمة • فعادة ما يختار أفراد هذه الفرق بشكل عشوائى ويتراوح عددهم بين ستة واثنى عشر فردا ، وذلك حتى لا يتهم أحد أو يشعر بأنه ارتكب جريمة قتل • وغالبا ما كان يتم تعصيب عينى المحكوم عليه بالاعدام ـ بعد تنفيذ آخر رغبة له ـ حماية لمنفذ العقوبة وله هو أيضا • وعادة ما يتم تجهيز خزنة أحد أفراد فريق الاعدام (وفى بعض البلدان أكثر من فرد) بعبوة كاذبة حتى اذا وقعت المعجزة تجلت الحكمة من « رصاصة الرحمة » حيث تعنى أن رمى شخص أعزل لا يمثل فى ظل ظروف معينة جريمة قتل •

وأخيرا كم بذل هيملر من جهد فى مناسبات عديدة ليقنع مرؤوسيه بأن ما يقومون به من عمل مروع باعدام اليهود العزل بالغاز هو عمل جليل • وحتى فى عهد النازى فى ألمانيا لم يكن ما جرى فى معسكرات الابادة بالشىء المشرف ولذلك فقد كان يحدث فى السر ، بل ان الألمان زعموا بأنه لم يحدث على الاطلاق • وقد قال الكولونيل رودولف هوس المسئول عن هذه المعسكرات لدى سؤاله بعد ذلك فى زنزانته بنورمبيرج ان أفعاله أفسدت حياته الزوجية حيث أدت الى هجر زوجته له فى الفراش • وكان مرؤسو هوس من قيادات وحدات الاعدام ينتمون كلهم تقريبا للطبقات الدنيا فى المجتمع • وكان بعضهم من المجرمين الذين أفرج عنهم من السجون بشرط الخدمة فى هذه الوحدات • وعندما كان هؤلاء الناس يتحققون من طبيعة المهمة الموكلة اليهم كانوا عادة ما يطلبون نقلهم ، ولما كان طلبهم يقابل بالرفض كانوا يتجهون لادمان الخمر • وكانت القوات النظامية تطلق على أفراد هذه الوحدات « أبطال اليهود » (Juden Helden) وهو اسم يتحدث عن نفسه •

ليست الحرب اذن موقفا يقوم فيه شخص أو قوم بصرع آخرين ، حتى لو كان القتل منظما ويجرى من أجل غاية معينة فى ظل من الشرعية ، ولكنها موقف يبدأ عند التعرض لرد انتقامى فتاك • ولايتعارض ذلك مع قول باتون الساخر بأن الفكرة الرئيسية للحرب هى ارسال ابن المسكين الآخر ليموت فى سبيل « وطنه » •••• ويعنى ذلك ان الطريقة الوحيدة لتحقيق هذا الهدف الجليل هى أن يقدم المرء حياته فداء له ، وذلك يعنى بالتالى

أن العامل الرئيسى الوحيد فى أية حرب هو الاستعداد لتكبد المشاق وتحمل الأهوال ، بل والاستشهاد ، وأيضا الاستعداد للقتل • وبدون هذا العامل سوف يتحول أى جيش مهما كان قوامه وتنظيمه وتدريبه وتجهيزه الى أداة قابلة للكسر • وينسحب ذلك على جميع الحروب بغض النظر عن الزمان والمكان أو الظروف ، وبغض النظر أيضا عن درجة التقدم التكنولوجى وعما اذا كانت الأداة المستخدمة هى عصاة أو دبابة • وليس ذلك بكلام نظرى ، فلو حللنا من هـذا المنطلق معظم النزاعات المسلحة على مـدى التاريخ ـ لا سيما تلك التى جرت بعد عام ١٩٤٥ والهزائم التى منى بها بعض من أعتى جيوش العالم ـ لخرجنا بنتيجة مؤداها أنه حيثما كانت هناك عزيمة فهناك دائما سبيل •

واذا كان الفكر الاستراتيجى السـائد فى أواخر القرن العشرين يستند الى فكرة أن الحرب هى أداة سياسية ، فان ما ناله كلاوزيفيتس من شهرة يرجع الى انه كان هو أول من أرسى تلك النظرية • ولأن كتاب « عن الحرب » يقوم على أن الحرب هى عملية قتل من أجل تحقيق هدف معين ، فهو لم يذكر ـ ولن يذكر أى كتاب آخر يقوم على نفس هذا المبدأ ـ ما الذى يجعل النـاس على اسـتعداد للمخاطرة بأرواحهم • ولما كانت الأسباب التى تبعث الناس على القتال تشكل أهم عامل حاسم فى أية حرب ، فقد يكون من المناسب الآن أن ندع الاستراتيجية جانبا ونتناول بدلا منها طبيعة النفس البشرية •

* الوسـائل والغايات

ويعد القتال جوهر الحرب ، وأى شىء آخر يقع فى الحرب ـ سواء أكان تجميع المعلومات أم التخطيط والمناورة أم الامداد ـ اما يكون من قبيل التمهيد للقتال أو استثمار نتائجه • ويقول كلاوزيفيتس ان القتال واراقة الدم بالنسبة للحرب يماثلان الدفع النقدى بالنسبة للأعمال التجارية والصناعية وما شابه ، وانهما هما اللذان يضفيان المعنى على كل ما عداهما •

ولعل أفضل وسيلة لفهم معنى القتال هى اعتباره نشاطا « عكسيا » ، أى انه لا يبدأ عندما يقضى البعض من الناس على حياة البعض الآخر ، ولكنه يبدأ عندما يكون الناس على استعداد للتعرض للتهديد بالقتل • ولقد كان هناك تقليد منذ القرن الثامن عشر يتمثل فى أن يتوجه الضباط الى ميدان المعركة وهم مسلحون بأسلحة رمزية مثل الطبنجة أو المخضرة وكأن الحرب بالنسبة لهم هى موقف لا مجـال فيه لأن يلقى النـاس حتفهم • صحيح ان المرء قد يعتاد بمرور الوقت مواجهة الخطر ولكن لا شىء يجعله

لا يكترث به، فليست هناك مكافأة مهما عظمت تفوق النجاة من الموت وليست هناك عقوبة مهما بلغت شدتها أقسى من الموت ، وان من يرى الموت محدقا به ينتقل الى عالم لا يخضع فيه لأى شيء الا ما تحدثه به نفسه •

وبقدر ما يعد سؤال من قبيل « لماذا يأكل الناس » أو « لماذا ينامون » سؤالا غير منطقى ، بقدر ما يعد القتال بشكل ما غاية وليس وسيلة • ويشهد التاريخ بمختلف عصوره أن كل شخص يرهب الحرب يقابله شخص آخر يعتبرها أروع ما يمكن أن يتعرض له الانسان من تجارب ، حتى انه قد يقضى عمرا بعد ذلك يظل يردد ويكرز على مسامع ذريته انجازاته فى الحرب لدرجة قد تبعث أحيانا على الملل والضجر • ونسوق بعض الأمثلة من العصر الحديث وكلها تنتمى للحضارة الغربية : فيقال ان « روبرت لى » قال : « من الخير أن تتسم الحرب بهذا القدر من البشاعة والا لكنا أحببناها كثيرا » • ولم يكن تيودور روزفلت يعشق شيئا بقدر حبه لمعركة مثيرة • أما ونستون تشرشل فقد قضى شبابه ينتقل من حرب الى حرب ، وقد كتب عشية الحرب العالمية الأولى رسالة لاحدى صديقاته يصف لها فيها كم هو منفعل متحمس ويشعر بالاثارة ازاء هذه الحرب ، وفى عام ١٩٤٥ شعر مع قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية وكأنه مقدم على الانتحار • وقد كتب جورج باتون ذات مرة فى يومياته يصف كم « يحب » الحرب ! •

ومن الخطأ الاعتقاد بأن مثل هذه المواقف تمثل أطوارا غريبة لبعض كبار الشخصيات وان كانت تبعث على الدهشة ، فالواقع ان من لايستهويه القتال لايمكن ان يحث غيره عليه • ومن الأسباب التى جعلت من شخصيات مثل باتون وتشرشل وروزفلت ولى زعماء عظماء أن القتال كان بالنسبة لهم الوسط الذى يحيون فيه ويستمتعون به ومن ثم كان بوسعهم ، هم ونظراؤهم فى كل زمان ومكان ، ان يلهموا عددا لاحصر له من الناس ، فكان هؤلاء اذا ذهبوا الى المعركة عرفوا معنى الاثارة والانفعال والنشوة والانتعاش • وقليل منا من هو محصن ضد هذه المشاعر ، بل ان من لا تحركه هذه الانفعالات لايستحق التمجيد • وكم هى طويلة قائمة من سجلوا استمتاعهم بالحرب ، بل انها تتضـــمن البعض ــ من مثل الشـــاعر البريطانى سيجفريد ساسون ــ الذين نشروا كتابات صاخبة فى وصف أهوال الحرب وويلاتها •

واذا انتقلنا من الواقع الى الخيال فسنجد ان الالياذة « وأغنية رولان » و « Nibe lingenlied » تعد ثلاثة أمثلة من عدد لاحصر له من روائع الكتب التى يدور موضوعها حول الحرب • وقد اكتسب كل من هذه الأعمال

شهرته ، لأنه يسبح بأمجاد من بذلوا حياتهم فى الحرب ويصف أعمالهم البطولية • وقد نجد أيضا الفنانون المقاتلين والجيوش فى أعمالهم سواء أكانت تماثيل منحوتة أم لوحات مرسومة • ولولا الحرب والنضال لخلت معظم أرفف المكتبات من كتب التاريخ • ويبرر هيرودوت ، « ابو التاريخ » اتجاهه الى الكتابة التاريخية برغبته في تسجيل « الأعمال العظيمة الشهيرة » التى يصنعها الانسان ولم يكن يعنى بالطبع تربية الدواجن •

ويشكل تاريخ المباريات دليلا آخر على ما تتسم به الحروب من طابع مثير ممتع • فلقد كانت دائما أكثر المباريات اثارة وشعبية ، منذ أيام القبائل الجرمانية وحتى مباريات كرة القدم الحالية ، هى أقربها شبها بالقتال أو حتى التى تشكل بديلا له • وينطبق ذلك على تلك الحفنة من المجتمعات ، مثل الاسكيمو بألاسكا ، التى لم تعرف الحروب لأسباب عديدة • ولقد بلغت الاثارة ذروتها فى المباراة التى اقامها أخيل على قبر باتروكلوس وكانت عبارة عن نزال مسلح بين أكبر بطلين آشوريين وهما ديوميدس واجاكس ، والشيء الوحيد الذى ميز هذه المباراة عن القتال الحقيقى هى أنها توقفت فى آخر لحظة قبل أن تخترق الحربة رقبة اجاكس • ولا ينبغى للقارىء ان يقع فى الخطأ المعتاد بأن ينظر الى هذه المباريات كشيء لا يستمتع به الا المجانين المتعطشين للدماء • فرغم أن أوجستين كان أشد الناس تمسكا بمسيحيته الا أنه أدلى فى « اعترافاته » بوصف يكاد يكون حيا للاسلوب الذى كان يشعل به الـ **Ludi** الرومانى الحماس فى نفوس المتفرجين حتى انهم كانوا يتحولون الى مهاويس من شدة الاثارة •

والواقع ان المعارك الحقيقية لا تعد من الأحداث التى تجذب المشاهدين فحسب ، بل انها تعتبر أكثر « العروض » تشويقا • ولقد كان تسلق امرأة طروادة الحائط لتتابع المعركة الفردية بين أخيل وهتكور أول حالة معروفة لشغف مشاهدة المعارك ، ومنذ ذلك الحين تكررت تلك الحالات بأعداد لا حصر لها • وقد وصل الأمر فى بعض الحالات فى مستهل القرون الوسطى ــ عندما كانت الحرب تجرى من أجل اقرار العدل ــ الى تحديد مكان المعركة سلفا لاتاحة الفرصة للناس لمشاهدة القتال ، فلا ينبغى ان تنفذ العدالة فحسب ، بل يجب ان يشهدها الناس • وأحيانا ما كانت جيوش الفرسان تكف عن القتال ويغمد المحاربون سيوفهم ويقفون لمشاهدة قتال بين أفراد أو مجموعات يختارونهم • وحتى عندما بلغت الضراوة قمتها فى معركة أجينكور فى أواخر القرون الوسطى ، لم يمنع ذلك الناس من التجمع على مرتفع قريب من ميدان المعركة لمتابعة الخصوم وهم يذبحون بعضهم بعضا •

وقد أدى ابتكار الأسلحة النارية واستخدامها فى المعارك الى تباعد القوات المتحاربة والى اتساع نطاق جبهات القتال ، كما أصبح يشكل خطرا على المولعين بمشاهدة الحرب · ومع ذلك فقد كان فاندر فيلد من أشهر الفنانين الذين حضروا المعارك البرية والبحرية اعتبارا من أواخر القرن السابع عشر · وسواء أكان حضورهم بتكليف معين أم بمبادرة شخصية منهم فقد كانوا يصورون المعارك فى رسومهم ثم يبيعونها فى نهاية المطاف · واستمر هذا الاقبال على مشاهدة القتال حتى عهد قريب ، حتى انه فى عام ١٨٦٣ تجمع الألوف من أبناء واشنطن بملابسهم الأنيقة ليتابعوا معركة « first bull Run » وكانوا يتصرفون وكأنهم فى نزهة ، وعندما انتهى القتال جروا الى الناجين بعد أن حققت القوات الفيدرالية نصرا غير متوقع · ولم يكد يمضى وقت طويل على هذا الحدث حتى ازدحم الناس مرة أخرى فى مارس ١٨٦٣ على جانبى خليج هامبتون لمتابعة المعركة المندلعة بين السفينتين المدرعتين « فرجينيا » و « مونيتور » · وحتى فى يومنا هذا فان أى شخص واتته الفرصة لمتابعة معركة جوية يشهد بأنه كان يلوذ بالصمت ويحبس أنفاسه ، الا ما يفلت من صرخات مكتومة رغما عنه أو من تهليل فى كل مرة تتصاعد فيها ألسنة الدخان معلنة اصابة طائرة وسقوطها · ومقابل كل شخص رأى تلك الوقائع رؤى العين كان هناك الألوف الذين يدفعون المال لقراءة هذه الأحداث على صفحات الجرائد أو يتابعونها على شاشات التليفزيون ·

ويتضح من ذلك ان الفكر الاستراتيجى التقليدى قد وضع العربة أمام الحصان ! فالخطر يعد فى معناه أكبر كثيرا من مجرد المناخ الذى تدور فيه الحرب · ولو لم تكن الحرب تنطوى على تحد للخطر وتستهدف مكافحته والتغلب عليه ، لما انتفى الغرض من القتال فحسب ، ولكن لأصبح هذا النشاط فى حد ذاته مستحيلا · ويبعث خوض المخاطر صفات أصيلة فى النفس مثل الاقدام والكبرياء والولاء والعزيمة ! انه يبث فى الناس طاقات تتجاوز قدراتهم ، وفى المقابل فان مواجهة الخطر أيضا تفجر نفس هذه الصفات فى الناس · ونستنتج من ذلك أن الخطر هو المحور الذى تدور حوله الحرب · وفى عالم الرياضة كلما كان الخطر كبيرا تأجج التحدى وازداد مجدا فى الوقت نفسه · ولا يقف الأمر عند هذا الحد حيث يضفى الخطر شعبية ومتعة على ألعاب اللهو والتسلية ، حتى ان موسوعة جينز للأرقام القياسية تزخر بالمغامرات الطائشة التى يبلغ فيها الخطر ذروته · واذا كانت الحرب تحتل مكانة فريدة فلأنها تعتبر على وجه التحديد النشاط الذى ينطوى على أكبر قدر من الخطر على الاطلاق · واذا كانت الألعاب محكومة بالقوانين والقواعد التى تحدد نوع المعدات المستخدمة فيها ونوع الطاقة البشرية المبذولة ، وأهم من ذلك مقدار العنف الذى يمارس

فيها ، فان الحرب تنفرد بأنها كانت ومازالت النشاط الخلاق الوحيد الذى يتيح ، بل يستوجب استخدام كل ملكات الانسان وقدراته بغير حدود ضد خصم على نفس الدرجة من القوة • ويفسر ذلك لماذا كانت الحرب على مدى التاريخ كله تمثل أقصى اختبار لمدى جدارة الانسان بالحياة ، انها تمثل بلغة العصور القديمة ميزان حكم الله على الانسان •

ومما يضفى على مواجهة الخطر هذا القدر من المتعة أنها تبعث فى النفس شعورا فريدا بالحرية • ويقول تولستوى على لسان الأمير اندريه عشية معركة اوسترليتز : « ان من يفقد الاحساس بالمستقبل يتحرر من القلق » ، وهذا يفسر كيف يمكن أن يبعث رعب القتال فى النفس انفعالات مثل الاثارة والانتعاش بل وحتى دوخة النشوة • ولعل النشاط الوحيد الذى يقترب بالانسان من مثل هذه المشاعر هى الممارسة الجنسية ، وقد يدلل على ذلك استخدام نفس الألفاظ لوصف النشاطين• غير أن رعشة النشوة فى القتال قد تكون أشد مما يشعر به المرء فى المخدع ، فالحرب تفجر كل طاقات الانسان ، أفضلها وأسوأها ، بأقصى درجة من التركيز • ومنذ عهد هومر كان هناك دائما اتجاه لا يشعر فيه بكامل ذاته وبكامل انسانيته الا من يخاطر بحياته طوعا بل ويستمتع بذلك •

ولا شك أن هناك عوامل أخرى تمتزج مع حب المغامرة مثل المكافأة والاجبار على الاشتراك فى القتال ، ولكن عندما يتعلق الأمر بمواجهة الموت تفقد كل هذه العوامل معناها • وهناك أيضا عامل الوقت الذى عادة ما يؤدى امتداده الى تخفيف حدة الاحساس بالخطر • وقد تتحول البهجة الشديدة أو الكآبة البالغة الى شىء غير محتمل لو تجاوزت حدا زمنيا معينا ، علاوة على ذلك فهناك علاقة متبادلة بين الألم والبهجة رغم تناقضهما ، فالانفعال البالغ وخفقان القلب اللذان يسبقان النشوة هما جزء من هذه العلاقة ومثلهما النفس اللاهث والارهاق اللذان يليانها • ولا يقتصر ذلك على الحرب ، فلا يمكن حتى لأكثر أنواع الألعاب اثارة ان تبقى الجمهور فى حالة انفعال الى ما لانهاية ، بل ان من أسباب تحديد أزمنة للمباريات أن تبقى اللعبة مثيرة • وربما تمثلت متعة الكفاح فى أنها تهيىء الفرصة للممارسين وللجمهور على حد سواء ان ينسوا الواقع وينسوا أنفسهم لفترة من الزمن •

ولما كان المقاتل يخاطر بكل شىء فلا شك أنه لن يقاتل الا فى سبيل شىء أغلى من حياته • وحتى مكيافيلى ــ وهو من أكبر دعاة « المصلحة » ــ عندما حث أتباعه الايطاليين على القتال من أجل تحرير بلادهم لم يشر الى ما يمكن ان يجنوه من مكاسب ، ولكنه لجأ الى بعث القيم والمعانى فى

نفوسهم . ويأتى الله على رأس قائمة المعانى التى يمكن ان يبذل الانسان دائما حياته فى سبيلها وتشمل البلد والوطن والنوع والطبقة والعدل والشرف والحرية والمساواة والاخوة . ويمكن للمسألة ان تجرى فى اتجاه عكسى ، فكلما أريق الدم من أجل أحد هذه المعانى ازداد هذا المعنى قدسية ، وكلما ازداد قدسية قل الاستعداد لأن يقابل بالمنطق وبالأدوات ، ومع تعاظم حاجة الانسان لان يربط اراقة الدم بأحد المعانى الكبيرة أو حتى المقدسة يتضاءل عامل المنطق حتى يصبح عديم الفائدة تماما .

وقد يستمتع الناس فى الحرب بأشياء ليست بذات قيمة مادية كبيرة ، بل قد تكون عديمة الفائدة تماما ، ولكنها تستمد قيمتها من كونها متصلة بالحرب وتذكر بالمخاطر التى واجهها المرء فيها وصارعها وتغلب عليها . وما حرص هنود أمريكا الشمالية على الاحتفاظ بالجماجم أو ببعض الأعضاء البشرية الا مثالا لذلك ، شأنها فى ذلك شأن الميداليات وشتى أنواع التذكارات التى يعلقها المقاتلون فى بيوتهم . وقد سئل جنكيزخان ذات مرة عن أمتع شىء فى حياته فأجاب بأنه ضم زوجات وبنات العدو المهزوم الى صدره بما يحمل ذلك من احتمالات أخرى . وأحيانا ما يدور القتال حول مناطق لا أهمية لها على الاطلاق الا مجرد انها كانت موضع نزاعات متكررة ، لدرجة أن الأجيال التالية التى لم تشترك فى القتال قد تعجز عن فهم الأسباب التى بعثت سلفهم على تصعيد الأمور الى حد الحرب واراقة الدماء .

واذا كان هناك خط فى التفكير يضخم قيمة الأشياء المتعلقة بالحرب فهو أيضا يبعث على « تجميل » الوسائل المستخدمة فيها . وكثيرا ما عمد المقاتلون على مدى التاريخ الى « تدليل » الأسلحة والمعدات ، بل وتعظيمها ، لا لشىء الا لأنها مرتبطة بالقتال ، وقد بلغ من الأمر ان كانوا يطلقون عليها أسماء كما لو كانت كائنات حية . ولم تكن الأسلحة تعتبر مجرد أدوات قتالية ، بل كان ينظر اليها على انها رموز للقدرة . ولذلك فمن المفارقات الغريبة أن نجد أن الأسلحة ، وهى أكثر الأدوات تعرضا للخسارة والدمار فى المعارك ، تتسم بقدر كبير من التجميل بما يجعل منها فى بعض الأحيان قطعا فنية باهظة التكـــاليف . ومثلما كان اليونانيون والرومان القدامى ينسبون أسلحة لآلهتهم ويعلقونها على معابدهم ، فنحن نتباهى اليوم بأسلحتنا ونعرضها فى الميادين ونستعرضها فى المناسبات الخاصة بنا .

ومما يميز الأسلوب الذى يرتقى به شأن الأسلحة حتى تتحول الى رموز للقـــدرة أن الغرض من تلك الأســـلحة قد يتحقق دون الحاجـــة لاستخدامها . فقد تجعل الدعاية والعروض العملية من الأسلحة شـيئا

نفيسا بدرجة لا تبعث على المغامرة بها ، لا سيما اذا كانت على قدر كبير من الفعالية وبالتالى تكون باهظة الثمن ومحدودة العدد · وهذا على وجه التحديد هو ما حدث بالنسبة للسفن الحربية فى الحرب العالمية الأولى على سبيل المثال ، فقد اكتسبت فى البداية شهرتها نتيجة العروض البحرية والدعاية المكتوبة على مدى سنوات ، ولما وقعت الحرب لم يتحرك معظمها من الموانى واقتصر اشتراك الأساطيل فى المعارك على القطع الأصغر والأرخص والأكثر مرونة مثل الغواصات والمدمرات وزوارق الطوربيد · وينسحب الموقف نفسه اليوم على حاملات الطائرات ، حيث تبرز القوة والثمن الباهظ وقلة العدد والطابع الرمزى كعوامل يعزز بعضها بعضا · وتكتسى هذه المعدات — سواء على الصعيد المادى أو الرمزى — قيمة عظيمة حتى انه صار من العسير التفكير فى الهدف الذى يستحق المخاطرة بها من أجل تحقيقه ، وبالتالى فلو اندلعت الحرب غالبا ما سيكون مصيرها هو نفس مصير سابقتها ·

وقد حظى الزى العسكرى بنفس القدر من الاهتمام فانطبق عليه ما انطبق على الأسلحة · فقد حرص المحاربون منذ قديم الزمان فى المجتمعات القبلية على الذهاب الى المعارك فى أبهى زينة وهم يرتدون أجمل ما يملكون بما فى ذلك الريش والأقنعة والرسم على جلودهم · واذا كان ثمة شىء لم تخل منه أية ملحمة كبرى فهو التغنى بالمظهر الرائع للأبطال فى المعارك · وفى وقت لاحق ، اختار أغسطس — رغم انه كان سياسيا كبيرا أكثر منه جنرالا — أن يضع فى المتحف الذى يحمل اسمه تمثالا له وهو بالزى العسكرى المدرع ، وحذا حذوه فى ذلك ماركوس اوريليوس رغم أنه كان أكثر الحكام حبا للسلام · وتبين النماذج المعروضة فى المتاحف كيف أن الزينة التى تتميز بها الدروع فى القرون الوسطى تغلب على الطابع العملى · وكان المماليك حتى عام ١٧٩٩ يرتدون أفضل ما لديهم من حلى فى المعارك ، حتى ان الفرنسيين بعد انتصارهم عليهم كانوا يغوصون فى النيل وينتشلون جثث ضحاياهم للفوز بتلك الحلى · وان من يزور أى متحف حربى سيبهر لما يكتظ به من ثروة تنم حتى عن التبذير وتتمثل فى الخوذات المذهبة والدروع المحفورة والمزخرفة والمرصعة وما شابه · وقد بلغت المغالاة فى هذا الاتجاه حدا حتى ان الزى الذى يرتديه الفرد من فرسان حرس ملكة انجلترا يصل تقريبا فى سعره الى ثمن سيارة صغيرة ·

ولما انتهى عصر الدروع وحل محلها الزى الذى ابتدع فى أواخر القرن السابع عشر لم يكد يمضى وقت طويل ، حتى بدأ أضفاء ملامح الزينة عليه · وبلغ من الأمر أن أصبح تصميم الملابس العسكرية وزينتها هواية

انشغل بها بعض كبار الشخصيات فى القرن الثامن عشر مثل الملك لويس الرابع عشر وبيتر الأكبر وشارل السابع • ولم تكن مظاهر اناقة الزى مخصصة للعروض العسكرية فحسب ، فقد كانت الحروب على مدى معظم فترات التاريخ وحتى عهد نابليون تمثل فى حد ذاتها أعظم عروض حتى أثناء المسيرات وعمليات نهب المؤن أو حتى حفر الخنادق • وعادة ما تنكب القوات عشية كل معركة كبرى على تلميع أسلحتها وتوضيب زيها ، فالمعركة على نحو ما يصفها بلاتو هى الوقت الذى ينبغى أن يظهر فيه المرء أنيقا • غير أن انتشار الأسلحة وتنوعها وما اكتسبته من طابع فتاك أجبر الجيوش على تغيير زيها الأنيق والاستعاضة عنه بزى عملى قبيح المنظر • ولقد كان الزى العسكرى حتى الحرب العالمية الأولى هو الزى المفضل لقادة الدول ، ومازال كذلك حتى اليوم بالنسبة للعديد من حكام الدول النامية وقادة حركات التمرد من أمثال جوناس ساويمبى • ورغم أن هذا الزى لم يعد يستخدم فى معظم الدول المتقدمة بالنسبة للقادة ، فقد ظل يشكل زى التشريفة فى الحفلات ، فضلا عن أن الملوك والرؤساء اذا أرادوا اضفاء الجلال على مشهد عادة ما يحيطون أنفسهم بحرس الشرف بزيهم الاستعراضى أكثر منه العملى •

ويحتفظ كل رجل عسكرى بمجموعة كاملة من الأشياء التى ابتكرت خصيصا كرموز تجسد التقاليد العسكرية وتعتبر أغلى حتى من الدم ، ومنها الأعلام والرايات وأشياء أخرى ، وهى تعد قديمة قدم الحرب ذاتها وتكتسى أهمية كبرى بالنسبة للروح القتالية • ولقد كان لتلك الرموز معنى دينى فى التاريخ القديم كتابوت العهد عند اليهود وال Oriflamme الفرنسية فى القرون الوسطى،وكان نابليون شخصيا يقدم كل فيلق بالنسر الرمزى الخاص به • وأيا كانت الأساطير المطروحة فان هذه الرموز تستمد معناها من القيم العليا للمجتمعات التى تمثلها ، والأهم من ذلك أن هذه المعانى تتعاظم عندما يدور القتال حولها ويراق الدم فى سبيلها • وكم من حالات لا حصر لها منذ عهد قيصر الى عصر نابليون بذلت فيها القوات أرواحها من أجل تلك الرموز ، ليس لقيمتها المادية ولكن لانها انصهرت مع الكرامة وأصبحت كلها تمثل شـــيئا واحدا هو الشرف • وعندما تفقد المكافآت معناها ، ويبطل مفعول العقوبات ، يظل الشرف هو القوة المحركة التى تدفع الناس حتى الى سد فوهات المدافع بأجسادهم ، كما أن الشرف هو الشيء الوحيد الذى يمكن أن يبقى مع الانسان حتى فى قبره • ولا تنبع ممارسة الطقوس الرمزية ـ من ارتداء الدروع والسير خلف الرموز ـ من جهل القوات بطبيعتها المادية ، ولكن من المسلم به ان الادارة الناجحة للحرب تحتاج بعضا من الحماس الشبابى ، فالحرب أولا وأخيرا هى عمل يقوم به الشباب فى المقام الأول •

وتعد الحرب باختصار مسرحا كبيرا ، مسرحا يحل محل الحياة ، يصبح هو الحياة ، وتتحول الحياة بالتالى الى مسرح • وقد نسخر نحن الاستراتيجيين المتصلبين من المظاهر المسرحية للحرب التى تبدو لنا سخيفة وبعيدة عن مفاهيمنا ، ولكن التاريخ يشهد بأن هذه الدمى السخيفة هى التى تدفع الناس الى تحدى الخطر واظهار البطولات والمغامرة بالحياة ، وما ذلك على وجه التحديد الا لأن الخطر هو المحور الذى تدور حوله الحرب • فليست الحرب وسيلة كلاوزيفيتسية من أجل تحقيق غاية معينة ، ولكن الحرب تبعث الناس على القتال لانها تعد النشاط البشرى الوحيد الذى يذيب الفوارق بين الغاية والوسيلة ، انها اللعب بأكثر قدر من الجـــدية •

✻ التوتر والاســـترخاء :

رأينا أن الخطريعد سبب وجـــود الحرب وأن المقـاومة هى شرط أساسى لها ، وفى المقابل لا يعد القتل بدون مقاومة حربا وانما يعتبر جريمة ، الا لو كان فى اطار تنفيذ حكم قضائى بالاعدام • والواقع ان عدم وجود مقاومة يبدد جدوى الاستراتيجية العسكرية ، والجيش الذى يحارب بدون مقاومة انمـــا يرتكب حماقة لا داعى لها • ويعنى كل ذلك ان كلاوزيفيتس واتباعه فى العصر الحديث قد قلبوا الحقيقة رأسا على عقب ، عندما وصفوا اللبس بأنه سمة مميزة للحرب ، فالواقع ان اللبس ليس مجرد الوسط الذى تجرى فيه الحرب ، والذى يساعد على الهيمنـة على تحركات الخصم ولكنه يعد فى المقام الأول شرطا لوجود النزاع المسلح •

وحيثما يلوح أن الحرب لن تســـفر عن نتيجة ذات قيمة ، عادة ما تتوقف المعركة باستسلام أحد الأطراف ، بينما يكون الطرف الآخر قد مل القتال • وقد جرت العادة على مر التاريخ على ان يلجأ الأفراد أو الجيوش الى الاستسلام وطلب الابقاء على حياتهم اذا فقدوا الأمل فى موقفهم • وغالبا ما كان المنتصرون يقبلون ذلك ما لم يكن يســـتبد بهم الغضب وتتملكهم الرغبة فى الانتقام • وأيا كان الضرر الذى يقع بعد ذلك ــ وأحيانا ما يكون أبلغ حتى من الحرب ذاتها ــ فلم يكن يعتبر جزءا من القتال ولكن كان يجرى من قبيل الثأر • وقد يكون هذا العمل الثأرى ضروريا بشكل ما وله ما يبرره ويتماشى مع الأعراف الحربية السائدة • ولو أسفرت الحرب عن نتيجة حاسمة فانها تخلو من جو التوتر الذى يعد بمثابة وقود القتـــال •

وتعتبر عمليات الحصار التى اشتهر بها القرن الثامن عشر أفضل

تجسيد لما يمكن ان يأتى به اليقين ووضوح الرؤية من أثر على الحرب ٠ ولقد كان للخبرة العملية الممتزجة بالتفكير العلمى أبلغ الأثر فى صقل العمليات الحربية ، لدرجة أن تلك العمليات قد تقلصت حتى كادت تكون مجرد تطبيق لقوانين الفيزياء التى وضعها جاليليو ونيوتن ٠ وبناء على ذلك ، صار بالامكان حساب حجم الحصن وعدد المدافع وكميات الذخيرة المتوفرة لدى الجانبين ومن ثم استنتاج النتيجة المتوقعة للحصار ، بل وتقدير مدته سلفا ٠ وقد تحول بالتالى هذا النوع من الحرب الى فن اتخاذ القرار الصائب ســـواء أكان الاستمرار فى الدفاع عن الحصن أم الاستسلام بشرف ٠

ولا ينبغى للقارىء أن يعتقد أن كل ذلك يمثل مسلسلا تاريخيا لا علاقة له بالحاضر ، بل على العكس ، فبما ان الحرب أصبحت مقصورة على الفيزياء صار بالامكان حساب نتائجها المتوقعة ، وأصبح عدم وجود دفاع ، يمثل العنصر الحرج الوحيد الذى يحكم العالم المعاصر ، حيث انه المبرر الرئيسى لاستحالة اندلاع حرب نووية ٠ ويفسر ذلك لماذا لم يندلع أى نزاع منذ ٤٥ سنة رغم المواجهة الساخنة بين القوتين العظميين ورغم ان خبرة التاريخ توحى بأن فرصة اندلاع مثل هذا النزاع كانت مهيأة منذ زمن بعيد ٠ ولا يعنى ذلك بالضرورة أن السلاح النووى لن يستخدم ، بل ان البعض قد يقول ان احتمال حدوث ذلك يتزايد يوما بعد يوم نتيجة سباق التسلح ، غير أن المسألة تتلخص فى انه لو استخدمت هذه الأسلحة فان ما سيجرى لن يكون حربا وانما سيشهد التاريخ مذبحة جماعية أو عملا انتحاريا أو كليهما معا ٠

ونتوقع لنفس الأسباب ألا تتحقق رؤى الحرب الآلية ٠ فان أداء أجهزة الكمبيوتر يرتهن ببلوغ درجة اليقين فيما يتعلق بالعوامل والمعلومات التى يعالجها : ولا يعنى ذلك استبعاد استخدام الكمبيوتر بصفة نهائية ، ولكن يمكن استعماله فى بعض أنواع العمليات العسكرية المحددة تماما والتى تتسم بوضوح تام ٠ غير أن ذلك يعنى أيضا أن المعلومة لو كانت كاملة وصحيحة وأمكن عمل النموذج الرياضى لميدان المعركة،فسيكون بوسع الكمبيوتر تحديد نتيجة الحرب ، ولو أمكن تحديد نتيجة الحرب سلفا فلن يكون هناك معنى للقتال ، فهو لن يجرى من قبيل اختبار نتيجة الكمبيوتر ولا من قبيل التسلية ٠ ولو كان الأمر كذلك لتمت الاستعاضة عن النزاع المسلح بجهاز كمبيوتر ! وقد ذكرنا فى فصل سابق من هذا الكتاب ان أحد أسباب حلول النزاعات المحدودة محل الحروب العادية هو ان الكمبيوتر قد بدأ يهيمن على تلك الحروب ٠ فمازالت الحرب الآلية اذن بعيدة عن التحقيق ، بينما نأمل ألا تقع الحرب النووية على الاطلاق ٠

وتعد العلاقة بين القوة والضعف في ظل الظروف التاريخية الحالية ـ هى العامل الرئيسى المؤثر على مسألة اللبس وليس قلة المعلومات أو نقص الجانب الدفاعى · وتتكون القوات المسلحة الحالية من نظم ضخمة معقدة متعددة الجـــوانب ، وكذلك المجتمعات التى تنتمى اليها · وترتكز قوة الجيوش على عناصر قد يكون بعضها يعمل فى اتجاهات مختلفة ، بل ومتعارضة فى بعض الأحيان · ومن الوارد ، بل ومن الطبيعى ، أن يكون أى جيش قويا فى بعض النواحى وضعيفا فى البعض الآخر ، وعادة ما يكون الظاهر مختلفا عن المستتر · ولا شك أن القوة والضعف يمثلان ـ رغم كل هذه التحفظات ـ حقيقة مطلقة ملموسة ، فمن الجيوش من يمتلك القوة العددية والقيادة والتنظيم والمعدات والتدريب والخبرة والجانب المعنوى ، وبالتالى تتمتع بالقوة ، بينما لا تتوفر هذه العوامل لجيوش أخرى أو تتوفر بقدر أقل ومن ثم فهى تعانى من الضعف بنسب متفاوتة ·

ونحن هنا بصدد تناول وضع تكون فيه العلاقة بين القوة والضعف متخالفة ، أى يكون أحد طرفى النزاع أقوى كثيرا من الآخر · ان مثل هذا الوضع كفيل بخلق المشاكل فى ادارة الحرب · فلو تخيلنا على سبيل المثال رجلا بالغا يقتل طفلا عن عمد ، فان مثل هذا الرجل سيتعرض لا محالة للمحاكمة حتى لو كان ذلك الطفل يحمل سكينا فى يده ، وسوف يدان الرجل اما بتهمة القتل أو بتهم أخرى أقل شأنا · وينسحب نفس الشيء على الحرب المشروعة ، حيث يقتضى التقاتل أن يكون الخصمان على درجة كبيرة من التقارب فى طبيعتيهما · ولا يعنى عدم وجود ندية أنه لن يكون هناك عنف ، حتى لو كان هو العنف المنظم الهادف ذا الدوافع السياسية · بل قد يندلع العنف فى مثل هذه الظروف على نطاق أوسع ، غير أنه لن يسمى فى هذه الحالة حربا ، ولكن قد يوصف بأنه قلاقل أو تمرد أو جريمة وتقابلها على نفس المستوى مسميات من قبيل القمع والمناهضة والعمل الشرطى ·

ولو جرت مواجهة بين طرفين،أحدهما أقوى كثيرا من الآخر، فثمة عدة احتمالات على الصعيد الاستراتيجى · فقد يلجأ الطرف الضعيف الى رفض حمل السلاح أصلا مثلما فعلت حركة المقاومة الهندية تحت قيادة المهاتما غاندى · ولو اختار الطرف الضعيف طريق العنف فسوف يسلك أحد سبيلين ، فاما سيحتمى بساتر سواء أكان طبيعيا أم صناعيا ، أو سيستخدم تكتيكات المفاجأة والـــكمائن والخداع والضرب من الحركة ثم الفرار · ولا شك أنه سيسعى على الأرجح الى تجنب المواجهة المفتوحة · أما لو اضطر الى مثل تلك المواجهة ـ سواء بسبب حسابات خاطئة أو لأى أسباب أخرى خارجة على ارادته ـ فالنتيجة لن تكون معركة بقدر ما ستكون مذبحة

ومن ثم فان اندلاع القتال يقتضى فى معظم الأحوال ، على الصعيد العملى ، درجة من التكافؤ والتوازن ٠

ولا شك أن الحرب التى يشنها طرف ضعيف ضد طرف قوى تتسم بالخطورة ٠ ولكن مادام الفارق فى القوة ليس كبيرا لدرجة تجعل الموقف برمته ميئوسا منه ، فانه لا يمثل الا بعض المشكلات على الصعيد التكتيكى، أهمها هو كيف يمكن تكبيد العدو أكبر قدر من الخسائر دون خوض قتال مفتوح ٠ ولذلك فمع مرور الوقت قد يسفر القتال عن تقارب مستوى الخصمين حتى لدرجة قد تنقلب فيها الموازين وتتحول القوة الى ضعف والضعف الى قوة ٠ ويعزى السبب الرئيسى فى ذلك الى ان الحرب ربما كانت أكثر أنشطة الانسان المتسمة بالتقليد ٠ ومن ثم يكمن سر النصر فى محاولة فهم العدو تمهيدا لخداعه ٠ وتجرى حتى أثناء القتال عملية تعلم واستفادة على الجانبين ، حيث يكيف كل طرف نفسه بناء على الواقع سواء فى الأساليب التكتيكية أو فى الوسائل المستخدمة أو ، وأهم من ذلك كله ، فى الروح المعنوية ٠ ولو سار الأمر على هذا النحو فعاجلا أو آجلا ستذوب الفوارق ولا يصبح ثمة وجه للتميز بين الخصمين ٠

ولو ان طرفا ضعيفا واجه قوة جبارة فهو فى حاجة الى روح قتالية عالية تعوض النقص فى المجالات الأخرى ٠ ولما كان الأمر يتعلق فى مثل هذه الحالة بالبقاء أو الفناء ، فان أى نصر مهما كان محدودا فهو يعزز من هذه الروح القتالية ٠ والعكس صحيح ، فلو ان طرفا قويا حارب طرفا ضعيفا فانه سيعانى مع الوقت من انخفاض الروح المعنوية ، فليس هناك ما يبعث على السأم أكثر من سلسلة مستمرة من الانتصارات المتكررة ، ولذلك تلجأ مثل هذه الجيوش عادة الى توزيع ترفيه على قواتها ، ويذكرنا ذلك بعلب البيرة المثلجة التى كانت طائرات الهليكوبتر تلقيها على الوحدات الأمريكية العاملة فى الغابات الفيتنامية ، بل وأكثر تفاهة من ذلك ان الاسرائيليين اصطحبوا معهم أثناء غزو لبنان بنوكا متحركة ٠ غير أنه مهما بلغت درجة « التدليل » فلن يغير ذلك من الأمر شيئا ، فان محاربة طرف ضعيف من شأنه ان يحط من قدر الجيش ويضعف أهدافه ٠ ولذلك فاذا هزم هذا الجيش فقد خسر وأيضا اذا انتصر فقد خسر ٠

وتعد الظروف السلوكية المختلفة التى يحارب فى ظلها كل من طرفى النزاع سببا آخر بالغ الأهمية يبعث مع الوقت على تقارب مستوى القوى والضعيف ، بل وقد يقلب ميزان القوة ٠ فلما كانت الضرورات تبيح المحظورات ، قد يذهب الطرف الضعيف الى أبعد مدى ويستخدم كافة الوسائل المتاحة له ويرتكب أى نوع من البشاعات دون ان يفقد سنده

السياسى ، وأهم من ذلك دون ان يعتبر ذلك انتهاكا لمبادئه الأخلاقية ٠ وعلى النقيض من ذلك فان كل شىء تقريبا يقدم عليه الطرف القوى يعد من أحد الزوايا غير ضرورى وبالتالى يعتبر عملا وحشيا ٠ ويتمثل السبيل الوحيد للخلاص بالنسبة لمثل هذا الطرف القوى فى أن يحقق نصرا سريعا حتى يفلت من التبعات المشينة لوحشيته ، فقد تكون القسوة والضراوة والشراسة أكثر رأفة من بعض التقيد المستمر ، ولا شك ان النهاية الفظيعة الحاسمة تعد أفضل من الرعب المستمر بلا نهاية ، كما تعد بالطبع أكثر فعاليــة ٠

وبغض النظر عن الجانب الأخلاقى ، فان مسألة الخطأ والصواب ترتهن الى حد كبير بميزان القوة ٠ فمنذ حرب طروادة والملاحم التى نسجت حول الكيانات القتالية التاريخية ، مثل جيش فرجينيا الشمالية والفيلق الأفريقى ، تشهد بحقيقة جلية مؤداها أن القضايا العادلة لا تصنع حروبا قوية ولكن الحروب القوية هى التى تصنع القضايا العادلة ، لاسيما عند استعادة الأحداث ٠ والحرب القوية ــ شأنها شأن المباراة الرائعة ــ هى تلك التى تجرى ضد خصم يكون على الأقل على نفس المستوى من القوة ، والأفضل والامتع ان يكون الخصم أقوى ٠

ومن شأن القوات التى لا تؤمن بقضيتها ان ينتهى بها المآل الى رفض القتال ٠ ولما كانت مقاتلة الضعيف تعد شيئا خسيسا بطبيعته فسوف يؤدى مثل هذا القتال مع الوقت الى وضع العدو فى موقف لا يحتمل : فلو انه لم يرد على الاستفزازات فستنهار الروح المعنوية لقواته ، حيث ان الانتظار السلبى يعد من أسوأ الأمور بالنسبة للقوات المحاربة ٠ أما لو ضرب فبقدر ما يكون الخصم ضعيفا بقدر ما ستتسم الضربات بالوحشية ، وبما ان الناس ليسوا ساديين بطبيعتهم فسينتهى بهم الأمر مع الوقت الى كره أنفسهم ، ولو وصلوا الى ذلك الحال فسوف يكون من شأنهم أن يتفتتوا ويتمردوا ويستسلموا أو يهجروا أوطانهم أو يدخلوا السجن أو يدمنوا المخدرات أو يقتلوا قادتهم أو ينتحروا أو يفعلوا أى شىء ، ليتفادوا به العار الذى ينطوى عليه قتال الضعيف ٠ ولا يختلف الوضــع بالنسبة لمن يواصلون القتال لمجرد تحسين أوضاعهم ٠ وعندما يرجع هؤلاء من « ميدان المعركة » سيجدون انهم منبوذون من المجتمع وليسوا أبطالا كما كانوا يتصورون ٠ والنتيجة فى مثل هذه الأحوال حتمية ، وقد يكون اجلاء القوات من الميدان ــ مثلما حدث فى فيتنام ــ هو البديل الوحيد للانهيار التـــام ٠

وعادة ما تبعث مقاتلة خصم ضعيف الى ارتكاب تجاوزات ، بل أن

ذلك هو التجاوز بعينه ، ولذلك يجد الطرف القوى نفسه مجبرا على فرض أسلوب خاص للسيطرة والرقابة،فيضع القوانين والتعليمات والقواعد التى تحظر استخدام الأسلحة الا بأوامر صريحة ، وفى ظل ظروف معينة ، وضد أنواع معينة من الأهداف ، وتحدد من ينبغى الضرب عليه ومن أية مسافة وبأى نوع من المقذوفات • غير أن هذه القيود تحرم القوات من حرية الحركة وتقتل روح المبادرة فى نفوسهم ، ولذلك فهى تؤدى بلا شك الى خفض الروح المعنوية ، حيث يصير الأفراد أقرب الى الانسان الآلى منهم الى البشر • وينبغى أيضا السيطرة على قنوات المعلومات سواء الداخلية أو الخارجية من أجل منع تسرب أنباء الفظائع المرتكبة الى عامة الجمهور ـ ولعلنا نذكر بأن كل شىء تقريبا يرتكبه القوى ضد الضعيف يندرج تحت بند الفظائع ـ وذلك بهدف ارجاء انقلاب الرأى العام ضد الحرب والمسئولين عنها وان كان الى حين • غير أن هذه السيطرة على المعلومات لا يمكن ان تستمر الى ما لانهاية دون أى تسرب • ولو وصل الأمر الى تشكك القوات والجمهور فيما يقال لهم ، فانهم سيبحثون عن المعلومات البديلة ، أو حتى سيلجأون الى تأليف الروايات وترويج الشائعات •

ومع ذلك فمازلنا نقول ان السيطرة الذاتية قد تكون أهم ما ينبغى أن يتحلى به الطرف القوى فى حربه ضد طرف ضعيف ، حتى انه قد يلجأ الى « اضعاف » قواته عن عمد بحيث يصل تقريبا الى حجم ومستوى قوات العدو ، لكى يتجنب التبعات الضارة التى قد تنجم عن مثل هذه المواجهة على نحو ما ذكرنا • وقد ضرب البريطانيون مثلا جيدا فى هذا السياق فى الحرب التى يخوضونها منذ عشرين سنة ضد أيرلندا الشمالية • واذا كانت الحرب ضد الجيش الجمهورى الأيرلندى أصبحت تشكل اليوم صعوبة بالنسبة للقوات البريطانية ولم تخل بالطبع من تجاوزات عارضة ، فان ما يتسم به الجيش الملكى من انضباط ورقى فى التدريب ـ وهما من سمات الحرفية العسكرية ـ قد جعلا هذا الجيش يتحلى بضبط النفس ولا يلجأ الى استخدام العنف بلا تمييز أو الى توقيع عقوبات جماعية أو حتى الى استخدام الأسلحة الثقيلة ، ولذلك لم ينفر عامة الشعب ولم يفقد تأييد الرأى العام البريطانى •

وفى غياب السيطرة الذاتية المحكمة ، لاشك ان الطرف القوى سيصل الى حد انتهاك ما وضعه هو نفسه من قيود وقواعد ، وسينتهى به الأمر الى ارتكاب الجرائم • ولاخفاء هذه الجرائم سيضطر الى الكذب ، وذلك من شأنه أن يهز الصورة القديمة للنظام العسكرى ، ويخل بنظام القيادة ويخلق هوة من عدم الثقة تحت أقدام الجيش • واذا وصل الأمر الى هذا الحد فلا أبطال ولا أشرار ولكن الكل يصبح ضحايا ، فاذا أرادت الآلهة أن تدمر

أحدا فهى تصيبه بالعمى أولا · وقد يكون اصلاح مثل هذا الموقف من الصعوبة بمكان بحيث لا يمكن معالجته ، بل قد يكون السبيل الوحيد لاستعادة القدرة على الحرب هو تسريح القوات المسلحة الموجودة وتشكيل قوات جديدة بدلا منها ، وقد يقتضى ذلك نوعا من الثورة السياسية ·

ولا شك أن الجيش الذى يلقى هزيمة على أيدى طرف قوى سيسعى الى الانتقام وسينتظر الفرصة المواتية · وهذا على وجه التحديد هو ما فعله البروسيون بعد عام ١٨٠٦ والفرنسيون بعد عام ١٨٧١ والألمان بعد عام ١٩١٨ · أما لو منيت قوة بالهزيمة من طرف ضـــعيف فغالبا ما ستخجل من تكرار التجربة ، وستبحث دائما عن الأسباب التى تبرر احجامها عن القتال مرة ثانية · ولو اعتاد جيش على مواجهة خصوم ضعفاء دائما ، فلن يكون من شأنه على الأرجح الا الانهيار والفرار اذا خاض حربا حقيقية ضد طرف يعادله فى القوة أو يزيد عليه مثلما حدث للجيش الارجنتينى فى فوكلاند · وقد لا نكون مبالغين اذا قلنا ان القوات المسلحة الأمريكية لم تنس فيتنام الى أن شكلت لها أخيرا أزمة الخليج فرصــة لا تعوض · وفى بقعة أخرى من الأرض ، لا نعتقد انه سيكون بوسع القوات المسلحة السوفيتية ــ بعد اخفاقها فى أفغانستان ــ أن تخوض حربا أخرى خارج حدود بلادها ، بل ان الأمر يبدو كما لو كانت مقدمة على مرحلة ستبذل فيها كل جهدها من أجل منع تفتت المجتمع السوفيتى (هذا الكتاب صدر بالطبع قبل انهيار الاتحاد السوفيتى) ·

واذا كنا قد تناولنا فى هذا القسم بعض العوامل « المطاطة » مثل الخير والشر فذلك لأن الجانب الأخلاقى يشكل العمود الفقرى للحرب · وربما كانت العلاقة بين القوة والضعف وما تثيره من جدل أخلاقى تمثل أفضل تبرير لظهور الجيوش الحديثة فى المعسكرين الشرقى والغربى ، بهذا الشكل غير الفعال فى مواجهة النزاعات المحدودة على مدى الحقبة الماضية· ولا شك أن كل حركات التمرد المناهضة للاستعمار هى من صنيع أناس مضطهدين وضعفاء · وقد رفض هؤلاء الناس « اللعب » وفقا للقواعد التى وضعتها البلدان « المتقدمة » تبعا لما يناسبها ، وعمدوا الى تحديد شكل الحرب التى تلائمهم ، بل وبدءوا يصدرونها · ولذلك لا يبعث على الدهشة ان تكون النزاعات المحدودة هى العمل الانتقامى الذى سيلجأون اليه · وبما أن القواعد تتولد أساسا فى العقل وتسكنه ، فما أن تنكسر حتى يصبح من العسير اصلاحها · وحيث انه لا يكاد يمر يوم دون ان يقع عمل ارهابى فى أى مكان فى العالم ، فيبدو ان العجلة قد دارت ولا سبيل الى ايقافها أو حتى احتوائها ·

❋ اعتبار منفرد : النســـاء

ولقد جرت العادة على أن يكون الأسلوب غير المباشر هو الأفضل فى الوصول الى لب الموضوع · ولكى نفهم طبيعة النزاعات المسلحة لابد أن نعرف الدور الذى تلعبه ــ أو لا تلعبه ــ المرأة فى الحرب · ولو كانت الحرب مجرد أداة رشيدة تستخدم لبلوغ غايات اجتماعية رشيدة لما زاد دور المرأة ونقص عن دور الرجل ، فهى تشكل أولا وأخيرا نصف المجتمع ، ولكنه بلا جدال يعد النصف الأقل أهمية · وبقدر ما تعد الحرب أداة لزيادة الخير وتحسين الأحوال فى المجتمع أو للمحافظة عليها ، فان نصيب المرأة لا يقل عن الرجل · وذلك قول صحيح بصفة عامة ، لا سيما وأن الهزيمة من ناحية أخرى من شأنها ان تخلق وضعا تكون فيه النساء وأطفالهن فى مقدمة الضــحايا ·

وقد اعتادت المجتمعات فى الوقت الحالى وفى بعض الأوقات السابقة على تبرير عدم اشتراك النساء فى الحرب بالخوف من تعرضهن للاغتصاب اذا وقعن فى الأسر ، ومن ملاقاة أنواع أخرى من المعاملة السيئة · ويقوم هذا التبرير على اعتقاد خاطىء حيث يعتبر التمييز فى الوقت الحالى بين المقاتلين وغير المقاتلين أمرا مسلما به · ولو عدنا الى الوراء فسنجد أنه على مدى معظم فترات التاريخ لم تكن عمليات الاغتصاب الجماعية بمثابة فرصة تتاح للجنود من قبيل المكافأة على انتصار معين فحسب ، بل كانت واحدة من الأهداف الرئيسية التى يقاتلون من أجلها · ويروى هومر فى الالياذة على سبيل المثــال أن السبب الوحيــد الذى منع الاغريق من الاستسلام والعودة الى ديارهم هو تطلعهم الى « مضاجعة نساء طروادة » · وحتى فى العصور القديمة ، فقد اتهم الناس الاسكندر المقدونى بأنه غير سوى جنسيا لمنعه الاساءة الى النساء اللاتى أسرهن من داريوس · وعندما أحجم سيبيو افريكانوس عن الاحتفاظ بأسيرة جميلة كانت قد خصصت له اعتبر ذلك أمرا يبعث على الثناء ولكنه أيضا كان شيئا غريبا على عكس معظم أفراد قواته الذين كانوا أقل منه تحفظا · ولقد استمر الأمر على هذا الحال لزمن طويل ، حتى انه عند سقوط ماجدبورج فى عام ١٦٣١ كاد الصراخ والعويل ينبعث من المدينة بعد الاستيلاء عليها ــ وبغض النظر عن ان النساء اشتركن أم لا فى القتال الفعلى ــ وكان السبيل الوحيد لمنع هذه الكارثة هو الاستسلام فى الوقت المناسب ، غير أن ذلك لم يمنع أيضا وقوع بعض التجاوزات ·

ولم تحل مطلقا الرغبة فى حماية المرأة من التعرض للاغتصاب دون اشتراكها فى شتى حركات التمرد والثورات وحرب العصابات · ولما كان

المتمردون يختلفون عن المحاربين فى نظر قانون الحرب ، حيث يعتبرهم من المجرمين فلا مجال لأن يتوقعوا معاملة رحيمة • ففى الأرجنتين على سبيل المثال لم تحظ النساء المشتركات فى حركات التمرد والانقلاب واعتقلتهن الحكومة العسكرية ، حتى بتدابير الحماية التى كان يلقاها اسرى الحرب مهما كانت وهمية أو واهية • ولقد لعبت المرأة دائما منذ العهد القديم وحتى التمرد الأسبانى ضد نابليون دورا بارزا ، ان لم يكن حاسما ، فى جميع حركات التمرد تقريبا • ولم يكن اشتراكها فى هذه العمليات يجعلها تنحى انوثتها جانبا ، فاذا كانت قصة قتل هولو فيرنيس على أيدى جوديث بعد ان قضت الليل فى أحضانه قصة مشكوكا فى صحتها ، فهى ليست غريبة كأسلوب متبع منذ المجتمعات البدائية • وتوضح القضايا الحديثة مثل قضية الجزائر وفيتنام والانتفاضة الفلسطينية ان درجة اهتمام المرأة بالثورة الشعبية واشتراكها فيها مؤشر جيـد على مدى النجاح المرتقب لتلك الثورة • ودائما ما كانت المرأة تبدى فى قتالها ومعاناتها وتعرضها للاصابة قدرا من العزم والثبات تنافس به الرجل ان لم تتفوق عليه • •

ولقد كتبت مؤلفات ضخمة بشأن أوجه الاختلاف بين الرجل والمرأة • وقد اتهمت المرأة باتهامات عديدة فى مناسبات شتى وأماكن مختلفة منذ زمن سنيكا وحتى فرويد ومنذ عهد سان بول الى اريك اريكسن • ومن بين هذه الاتهامات الطيش والعبث والثرثرة والغيرة والميل الى المشاكسة والشجار والنهم الجنسى • وقد جـرت محاولات على مدى العقود الأخيرة لايجـاد أسس علمية لهذه الادعاءات ، فأجريت تجارب عديدة لقيـاس مدى ذكاء المرأة قياسا بالرجل ومدى شجاعتها ومقدار موهبتها فيما يتعلق بالأنواع الخاصة من العلوم ، مثل الرياضيات والنواحى التقنية والفضـاء وأى شىء آخر بدا على درجة من الأهمية فى ذلك الحين ، غير أن كل تلك التجارب باءت بالفشل الذريع • ولو نظر المرء الى الوراء فسيجد أن معظم الدراسات التى انتهت الى وجود مثل هذه الفوارق ترجع الى الخمسينات والستينات ، أما تلك التى تنفى هذه الاختلافات فترجع الى السبعينات والثمانينات • ويمكن القول اذن ان نتائج هذه الدراسات ترجع الى الوضع الاجتماعى السائد أكثر من ان تكون شيئا حقيقيا •

غير أن القوة الجسدية بين الرجل والمرأة بصفة عامة ـ لا سيما الجزء الأعلى من الجسد ـ تشكل وجه اختلاف واضح لا يحتاج حتى الرجوع الى التجارب العلمية • وتعد الحرب فى المقام الأول مجالا للتعب والمعاناة والتعرض للخطر ولا يستطيع تحملها الا من يقدر عليها • ولذلك فمن اولى الخصائص التى ينبغى ان يتسم بها المقاتل هى القوة والقدرة على الاحتمال، وليس من فراغ أن أى برنامج تدريبى أساسى يستهدف أول ما يستهدف

تنمية القدرة الجسمانية للمتدربين • صحيح ان بعض الرجال يعدون أضعف من معظم النساء وان من النساء من يتفوقن في قوتهن على كثير من الرجال ، ولكن لم يحدث على مدى التاريخ أن قارن جيش بين الرجال والنساء من حيث القوة ليختار بعد ذلك من يصلح ومن لا يصلح للتجنيد • ولقد حاول سقراط في قديم الزمان اجراء شيء من هذا القبيل غير أن فكرته قوبلت باستنكار شديد ، ولو كان قد نفذ هذه الفكرة لتمرد عليه الرجـــال •

بيد أن الضعف الجســـماني النسبي للمرأة لم يمنع العديد من المجتمعات من استخدامها في الأعمال الشاقة التي لا تمت للحرب بصلة ، والتي لا تنطوي على منافسة بينها وبين الرجل • ولا يعد الشرق الأوسط العربي المكان الوحيد الذي يمكن أن ترى فيه المرأة تحمل جرة ثقيلة مملوءة بالمياه على رأســـها وتســـير خلف زوجها وهو يركب الحمار • أما الاتهام التقليدي ، الذي عادة ما كان يرجهه أصحاب الأصوات العالية من الغربيين أيام الحرب الباردة ، فهو أن النساء في البلدان الشيوعية يكلفن بأشق أنواع العمل مثل الزراعة وتنظيف الشوارع أو التسوق لاسيما وان هذه البلدان تعاني من أزمات اقتصادية • وكان الرد الشيوعي في المقابل – والذي عثر عليه حتى في مذكرات ماركس – يتمثل في أن أصحاب رؤوس الأموال في العالم الرأسمالي يعاملون المرأة كما لو كانت سلعة تجارية أو أمة أجيرة أو كلاهما معا • ومع ذلك تعتبر المرأة في المجتمعات المتقدمة بصفة عامة أكثر حظا من نظيرتها في كثير من البلدان النامية ، حيث يتعين عليها في مثل هذه البلدان أن تكلف ببعض الأعمال الشاقة بالاضافة الى حمل الأطفال على ظهورهن • ولكن اذا أمعنا التفكير ، هل نجدهن بالفعل محظوظات ؟

ويتبين من ذلك ان عدم اشتراك المرأة في الحرب الا نادرا – بغض النظر عن بعض الاستثناءات التي سنتناولها في وقت لاحق – لا يعزى لا الى الرغبة في عدم تكبيدها المشـــاق ولا الى الســـعي الى حمايتها من الاغتصاب • ويبدو أن السبب الحقيقي لاستبعاد المرأة من الاشتراك في المعارك ليس سببا عسكريا على الاطلاق وانما هو ثقافي واجتماعي • فثمة فصائل من الحيوانات تنتفي فيها أهمية الذكور – لا سيما صغار السن – بمجرد ان تتم عملية الانجاب • وهناك العديد من الأساطير القديمة والحديثة التي تعكس أمل الاناث ورعب الذكور ، وتفيد بأن ذلك قد يكون حال الرجال أيضا • واذا اتبعنا هذا الخط في التفكير فلن نكون مبالغين لو قلنا – ولقد قيل هذا بالفعل – ان معظم الحضـــارات يمكن فهمها بشـــكل أفضـــل لو اعتبرناها محاولة من جانب الرجال لتعويض هذا العجز الضخم المتمثل

فى عدم القدرة على الاتيان بأروع عمل على الأرض وهو الانجاب • وقد يفسر ذلك لماذا كانت معظم الانجازات البشرية على مدى التاريخ وفى أى مجتمع من المجتمعات هى من صنع الرجال سواء أكانت انجازات دينية أم فنية أم عملية أم تكنولوجية أو غير ذلك ••• ولا نعنى بذلك بالتأكيد أن المرأة لم تشارك فى أى شىء مهم ، وذلك بخلاف ان معظم المجتمعات ــ على نحو ما أشارت اليه مارجريت ميد ــ تعتبر ان الأشياء تكتسى أهميتها بسبب وبقدر ما هى من صنع الرجل •

ويندرج أى نوع من النشاط تقوم به المرأة فى المرتبة الثانية فى سلم المكانة الاجتماعية لا لشىء الا لكونه نشاطا نسائيا ، وأكثر من ذلك ، فنادرا ما يعتبر عمل المرأة عمــلا من أساسه ، ولذلك فهى لا تؤجــر عليه ولا يظهر فى الاحصائيات الاقتصادية • ومن هذه الأنشطة على سبيل المثال الأعمال المنزلية رغم انها تعد أساسية فى أى مجتمع ، بل وتحتاج الكثير من الحنكة نظرا لتشــعبها وتنوعها • كذلك فلقد اعتبرت المجالات التى تهيمن عليها النساء على مدى التاريخ مثل القبالة وصناعة الملابس مجالات دنيا لنفس السبب • ومازال نفس الشىء ينسحب حتى يومنا هذا على بعض المهن مثــل التمريض والتعليم وأعمال السكرتاريــا ، وفى الاتحاد السوفيتى على التطبيب ، حيث ان الطبيبات يشكلن ٦٠٪ من ممارسى هذه المهنة •

ولا تسمح المجالات التى تهيمن عليها النساء بطبيعتهــا أن يحقق الرجال ذاتهم فيها ، ولعل أسوأ ما يمكن أن يسب الرجل به فى أى مجتمع ان يقال له انك « امرأة » • وقد يشكل دخول عدد محدود من النساء فى مجال عمل ما حافزا يدفع الرجال الى بذل أقصى طاقاتهم وتقديم أفضل ما لديهم ، ولكن اذا زاد العدد عن نسبة معينة ــ ١٥٪ عن سبيل المثال ــ يتجه الرجال الى هجر ذلك المجال والى البحث عن مجال آخر أكثر ملاءمة لهم • وقد يصل الرجل الى مراكز عليا مثل مدير بنك أو مدير هيئة عامة بينما تظل المرأة فى المراكز الدنيا مثل صرافة فى بنك أو موظفة عامة فى أية هيئة • وما أن يبدأ التمييز بين الرجل والمرأة فى العمــل حتى نجد أنفسنا ندور فى حلقة مفرغة ، فلما كان عمل المرأة يعتبر فى أى مجتمع عملا من الدرجة الثانية ، يقل مع الوقت اقبال العمالة المتميزة على مثل هذا المجال من العمل فتكون النتيجة أن ينخفض العائد المالى لمثل هذا النشاط فتقل بالتالى مكانته الاجتماعية وهلم جرا • وبما انه من العسير فى كل الدوائر من هذا النوع الفصل بين السبب وتأثيراته ، فعادة ما يكون الاتجاه الذى تفضى اليه معروفا • والأهــم من ذلك ان هذه الدائرة تنطبق بغض

النظر عن نوع العمل المعنى ، أى سواء أكان كنس الشوارع أم العمل على آلة كاتبة أم التدريس فى الجامعة ٠

وما ينطبق على الأنشطة الاجتماعية ينسحب وبدرجة أعظم على الحرب ٠ فالحرب تعد فى كل المجتمعات التى مارستها ، المجال الذى يبرز فيه التمييز بين الرجال والنساء فى أجلى صوره ٠ ولقد كانت الحرب على مدى التاريخ أهم نشاط يختص به الرجال ، انها الفرصة التى تعد فيها الرجولة عاملا أساسيا لتحقيق النصر ، وبالتالى فهى ليست مجرد نشاط مسموح به ، بل انها تشكل شيئا مطلوبا مرغوبا فيه ٠ ولقد بلغ من اقتراب معنى كلمتى « رجل » و « محارب » فى العديد من اللغات أنه يمكن استخدام أى منهما مكان الأخرى ٠ ومن شأن اشتراك النساء فى الحرب ان تقل قيمتها الاجتماعية بدرجة كبيرة وان تفقد غايتها ويدمر أصلها٠ ولو كانت الحرب نشاطا يقاتل فيه الرجل الى جوار المرأة أو يواجهها كعدو له لفقد النزاع المسلح معناه بل ولخمد سريعا ٠

ويعد السبب الحقيقى الذى يحول دون اشتراك المرأة فى الحرب هو نفسه الذى يمنع تشكيل فرق مختلطة للعب كرة القدم ٠ فنحن على استعداد لان نشاهد أية رياضة نسائية ونشجعها بشرط أن تكون منفصلة عن رياضات الرجال ولا تتداخل معها ٠ ولو نجحت النساء فى استصدار قانون يقضى بتشكيل فرق مختلطة فسيعنى ذلك وقوع اللاعبين من الرجال فى مأزق ، فهم سيتعرضون للنقد لو لم يستخدموا الخشونة مع اللاعبات ولن يسلموا منه أيضا لو استعملوه معهن ، ومن ثم فسوف يؤول الأمر الى اعتزالهم اللعبة بدلا من أن تفترش أرض الملعب بأجساد اللاعبات ، أو أقسى من ذلك أن يواجهوا عار الهزيمة على أيدى الفتيات ٠

وتشكل الحالات التى اشتركت فيها النساء فى حركات التمرد ، على نحو ما أشرنا اليه سالفا ، الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ٠ فحيثما يواجه الثائرون جهازا قويا على درجة عالية من التسليح سواء أكان حربيا أم شرطيا ، فان الفارق فى ميزان القوة يسمح للمرأة أن تشترك دون أن يشكل ذلك مساسا بمفهوم ما يقوم به الرجل ٠ ولكن ما أن يؤدى الانتصار الى تضييق الفجوة بين القوة والضعف تعود قوانين الحياة الى سيرتها الطبيعية وتعود المرأة — ومرة أخرى بلا جريرة من جانبها — الى الانزواء فى مرتبتها الثانية ٠ ويتمثل أفضل دليل على ذلك فى البالماخ ، وهى وحدة الصفوة من المتطوعين الشباب الذين شكلوا فيما بعد نواة قوات الدفاع الاسرائيلية ٠ بدأت البالماخ كمنظمة شبه سرية فى ظل الحكم البريطانى

وكانت قائمة على أيديولوجية اجتماعية تكرس المساواة بين الجنسين بدرجة غير مسبوقة وقد لا تتكرر • فقد كان الرجل والمرأة يعملان معا ويتدربان معا ويعيشان معا في خيام متجاورة ، بل كانا يستخدمان نفس الحمامات لا يفصل بينهما سوى لوح من الصاج المجلفن • وكان شيئا طبيعيا تماما أن تصحب النساء الرجال في أي نوع من المهام ، لاسيما في المهام السرية التي تستهدف الاستخبار أو توصيل الرسائل أو تهريب الأسلحة وما شابه •

وعندما انسحب البريطانيون واندلعت حرب الاستقلال الاسرائيلية تحولت القوات الى العمل المكشوف • وما لبثت قوات الدفاع الاسرائيلية ان تكونت رسميا حتى انطلقت تحقق كل يوم تقدما جديدا ولم يعد للمرأة المحاربة الاسرائيلية وجود تقريبا الا في أذهان العرب • وبعد الانتصار في حرب ١٩٤٨ عادت المرأة الاسرائيلية ـ وكانت لاتزال متأثرة بالتيار السابق ـ الى أعمالها التقليدية كسكرتيرة أو عاملة تليفون أو في مجالات الخدمة الاجتماعية أو ـ على نحو ما يقضي به فولكلور قوات الدفاع الاسرائيلية ـ كصانعة شاي • وقد تم استثناء فئة الضباط من النساء رغم ان أقصى ما كن يطمحن اليه هو أن يسمح لهن بارتداء البيريه الأحمر وطي البراشوطات وان يقبلهن أفراد القوات شبه العسكرية من قبيل مكافأتهم • أما الانطباع الذي تبعثه الصور الصحفية لبنات فاتنات يقمن بتنظيف أسلحتهن فهو انطباع مزيف ، وما تدريب النساء الاسرائيليات في الجيش على استخدام الأسلحة الا شيئا رمزيا ، ولو فحصنا الأسلحة التي يتدربن عليها لوجدنا أنها اما الأسلحة التي استبعدها الرجل أو أنها متوفرة بدرجة تسمح حتى للمرأة باستخدامها •

ولقد قامت اسرائيل عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ بتوسيع نطاق قواتها كما ونوعا بدرجة كبيرة مما أوجد مجالا للعمالة الماهرة على وجه الخصوص • وازاء ذلك تجددت محاولات استخدام المرأة في الجيش • وقد تولت بعض النساء في البداية قيادة الرجال أثناء التدريب الأساسي أو تعليمهم قيادة الهاوتزرات الثقيلة ذاتية الحركة ، غير أنه تبين فيما بعد أن من الأفضل استخدامهن في مجالات الصيانة الفنية والاتصالات وعلى الأجهزة المتطورة كالكمبيوتر والرادار • ولقد كان أداؤهن بصفة عامة على درجة عالية من الكفاءة حتى انه تم اعتبارا من عام ١٩٨٠ التوسع في استخدامهن في كافة المستويات حتى وصلن الى رتبة العميد ، ومع ذلك فلم تمض التجربة بدون خسائر اجتماعية ، فلم يقتصر الأمر على اسناد بعض الأعمال الرديئة للمرأة ولكن أصبحت بعض الأعمال منفرة بسبب قيام المرأة بها • ولابد ان هناك

عوامل كثيرة قد تضافرت وعملت على اهتزاز المكانة الاجتماعيــة للجيش الاسرائيلي وزادت من صعوبة اجتذاب اليد العاملة من رجال الطبقة الأولى ، ويبدو ان زيادة وجود النساء فى كل الرتب هي واحدة من هذه العوامل ٠

وقد شهد التاريخ بعض الحالات القليلة التى تنكرت فيها النساء على هيئـــة رجال واشتركن فى حمــلات عســكرية استمرت شهورا أو حتى أعواما ٠ ورغم أنهن أثبتن أنهن لسن أقل من الرجال شجاعة ، الا أن اكتشاف أى منهن كان كفيلا باستبعادها ، ليس بسبب ضعف الأداء ولكن لان وجودها كان يسبب الكثير من الحرج والارباك ٠ وبخلاف تلك الحالات ، يبدو ان المواقف التى اشتركت فيها النساء فى معارك مفتوحة فى الحروب وليس الثورات أو حركات التمرد ، لم تخرج عن الأساطير ٠

وينبغى على العاملات فى الجيوش الحديثة أن يرتدين رباط العنق وأن يقصرن شعورهن كما يحظر ارتداؤهن الحلى والملابس القصيرة والمبالغة فى وضع المساحيق باعتبار انها أشياء تثير الرجال ٠ ولقد أعدت مثل هذه الجيوش كما ضخما من التعليمات التى تحدد كيفية معاملة النساء المجندات لدرجة أن من يقرؤها يتصـــور أن كل ما يدور فى أذهان الرجال هو الاغتصاب ٠ فعلى سبيل المثال تقضى قوات الدفاع الاسرائيلية (نظريا) بمعاقبة كل من المجند والمجندة اللذين يقضيان الليل معا ، كما تحظر على القادة محاولة هتك عرض مرؤوساتهم ٠ وتعيش النساء فى أماكن خاصة بهن بعيدا عن الرجال ٠ وقد لا يسمح للأطباء العســكريين بالكشف على المجنــدات كما أنه محظـور على أفراد الشرطة العســكرية الامســاك بهن الا لو كانت هنــاك احتياطات تمنع استغلال الموقف بشكل سيىء ٠ وقد سعت بعض الجيوش الأخرى الى حل تلك المشكلات بطرق مشابهة حتى لو كان ذلك على حساب الكفاءة العسكرية ، ومن هذة الاجراءات على سبيل المثال منع أى اتصــال غير رسمى بين الضباط والدرجـات الأخـرى من النساء ٠ وعندما شكل الجيش الأمريكي بعض الوحدات المختلطة فى بداية الأمر وزع على النساء تجهيزات خاصة تتيح لهن التبول وهن وقوف فى الميدان !! ٠

وتعزى ضرورة وجود كل تلك الاحتياطات الى أن المجتمع العسكرى يعد أحد صور التنظيم الاجتماعى ٠ وترتهن قدرة الجيش على العمل – كأى تنظيم اجتماعى آخر ولكن بدرجة أكبر كثيرا – على مدى التلاحم بين أفراده ٠ ولقد كانت دائما أفضل الجيوش هي التي تنسى – حتي في أحلك الظروف – كلمة « أنت » و « أنا » ولا تبقى سوى كلمة « نحن » ٠ ولا شك أن المطلب

الحتمى بأن يتشاطر كل الأفراد ظروف الشقاء والهناء يتعارض تماما مع العلاقة بين الرجل والمرأة ، وهى علاقة تتسم بطبيعتها الخاصة سواء لأسباب بيولوجية أو اجتماعية • وقد تكون للتنظيمات الاجتماعية عادات لا تصلح للجيش • فمن المجتمعات القبلية ما يبيح مثلا تعدد الزوجات أو الازواج ، بل ومنها ما يسمح بتبادل الرجال والنساء ، بل ان تعدد الزوجات موجود فى مجتمعات ليست بدائية • وليس هناك أى مجتمع أباح ممارسة الجنس بشـــكل مطلق أو عامل الرجل والمرأة على قدم مساواة تماما • ويبلغ من تعارض المصلحة العامة والارتباطات الخاصة ان الجيوش كثيرا ما سعت الى تحويل قواتها الى شبه أغاوات عن طريق منع ممارسة الحاجة الطبيعية للرجال • بل ان وجـود المرأة فى الجيش لا يسمح به الا بقـدر تنحيتها أنوثتها جانبا، فلا يبقى الا أن تتحول الى ملكية عامة ، أى تتحول الى البغاء ، أو أن تعمل كبديل للرجل وذاك خيار تعتبر الكثيرات منهن انه يحط من قدرهن •

ولعلنا نقول فى الختام ان المعاملة التى لقيتها المرأة دائما ومازالت تلقاها على أيدى العسكريين تشكل حجة قوية ضد رأى كلاوزيفيتس فى الحرب بوصفها أداة لتحقيق غاية • ولا ينبغى فى المقابل اعتبار نجاح المرأة فى دخول القوات المســـلحة فى العديد من الدول الغربية منذ منتصف السبعينات مؤشرا على تغير العلاقة بين الجنسين أو انها فى سبيلها الى التغير• ولقد كانت اسرائيل ـ وهى الأمة الصغيرة التى واجهت على مدى أعوام عديدة خصوما يزيدون عليها كثيرا من حيث العدد ـ هى الدولة الوحيدة التى رحبت قواتها المسلحة بالوجود النسائى الزائد عن الحد رغم ان ذلك لم يكن بلا مشاكل • ولم يكن دخول المرأة القوات المسلحة فى الحالات الأخرى بناء على رغبة وزارات الدفاع ، بل كانت نتيجة ضغوط نسائية أسفرت عن سن قوانين تبيح ذلك • أما القوات المسلحة نفسها فهى تبدو على يقين بأن دورها كماكينة قتالية حقيقية يقترب من نهايته • ومع دخول عصر الأسلحة النووية واتساع نطاق اندلاع النزاعـات المحدودة بدأت تتضـاءل جدوى القوات المسلحة وصار آخر شىء تخطط له الجيوش النظامية هو الزحف الى القتال ، وفى ظل مثل هذه الظروف فقد يكون نجاحها فى ايجاد عمل للمرأة مفهوما بشكل أفضل لو تناولناه من منظور زوال أسباب وأغراض العمل نفسه •

❋ سترة المجانين الاستراتيجية

يروى الكاتب السوفيتى ايليا ايرنبرج فى « المزمار رقم ٤ » فى كتابه

« المزامير الثلاثة عشر » قصة جنديين من الخصوم فى الحرب العالمية الأولى تواجها بينما كان كل منهما يقوم بمهمة مكلف بها • كان الجندى الأول فرنسيا ويدعى بيير وهو قصير القامة من صناع الخمر ويصطبغ وجهه بحمرة الشمس ويعيش فى أحد الأقاليم ، أما بيتر فهو ألمانى ضخم الجثة قوى البنية وان كان شاحب اللون وكان فلاحا من بروسيا الشرقية أصلا • وكان بيير يحارب من أجل « الحرية أو خام الحديد أو الفحم أو أى سبب آخر شيطانى » وكان بيتر أيضا يحارب من أجل « الحرية أو خام الحديد او الفحم أو أى سبب آخر شيطانى » • وعندما تشابك الجنديان وهم كل منهما بقتل الآخر تذكرا نهدى زوجتيهما •

قد تكون الحرب من وجهة نظر صناع القرار على القمة أداة لتحقيق أهداف سياسية أو للدفاع عنها ، وان كان التحقيق عن قرب يكشف عادة أن ذلك المنطق ما هو الا قشرة واهية تغطى بالكاد دوافع أخرى أقل شأنا • وأيا كان الأمر ، فالواقع يفيد بأن الجنود لم يكونوا فى معظم الحروب التى اندلعت على مدى التاريخ على علم بطبيعة الاعتبارات السياسية التى من المفروض أنهم يقاتلون من أجلها • ولا شك أن السياسة فى أى مجتمع قويم تتطابق مع أهداف أبناء هذا المجتمع الا فى الحالات القصوى عندما تكون الحرب قتالا من أجل البقاء ، ففى هذه الحالة تتحول مصالح المجتمع مباشرة الى هدف انقاذ حياة الأفراد ، وحتى فى هذه الحالة لا يكون التطابق مطلقـا •

ولا شك أنه كلما كبر حجم الكيان الذى يشن الحرب وازداد تعقيدا قلت نسبة التطابق بين مصالح الأفراد ومصالح الدولة ، وذلك يفسر لماذا دعا بعض الكتاب مثل بلاتو وروسو الى تحديد المجتمع بحجم نموذجى يتمثل فى دولة المدينة • وللتدليل على ذلك نســـوق مثال الحرب الأمريكية فى فيتنام ، فعنـــدما نقلت القوات الأمريكية الى هناك لم يكن الفيتكونـــج أو جنود فيتنام الشماليـــة قد دمروا أحد الممتلكات الأمـــريكية الخاصـــة أو اعتدوا على أحد من الأمريكيين ، ولذلك لم يفهم معظم أفـــراد الجيش الأمريكى السلسلة المعقدة من التفـــكير التى أدت الى اتخاذ قرار التدخل العسكرى ، وذلك على فرض أن هناك شيئا يفهم فى الأصل ، وهذا ما أثبتته الأيام بالفعل • وما الدولة فى الواقع الا وحش بلا قلب ، ولا يمكن وصف ارسال الجنود ليقتلوا فى سبيل مصلحة شخص معين أو شيء معين بأنه الحرب ، فما ذلك الا جريمة بل ومن أحط أنواع الجرائم • أما الاعتقاد بأن الرجال سيقاتلون بمجرد الضغط على زر لمجرد ان تلك هى « سياسة » الدولة فهو يمثل أول ســـمة فى ستيرة المجانين التى نســـجها التفـــكير الاستراتيجى الحديث •

وحتى لو علم الناس منذ البداية لماذا يقاتلون ، فلو طال أمد الحرب غالبا ما ستتلاشى الأهداف الأصلية وتتحول الوسائل الى غايات • ولعل أفضل تصوير لمثل ذلك الموقف يتمثل فى حملات الاسكندر المقدونى : ففى مرحلة الاستعداد للحرب ربما كان الفلاحون الذين كون جيشه منهم على دراية بما سيفعلون ، أما معظم اليونانيين من غير المقدونيين فلم يقتنعوا فيما يبدو بأن هناك هدفا محددا ليقاتلوا من أجله ففضلوا البقاء فى منازلهم • وعندما عبر الجيش الحدود وبدأت العمليات فى أرض العدو قاتل الجنود بشكل تلقائى دون تفكير • ولما واصل الجيش زحفه وراء قائده محققا انتصارا تلو الآخر حتى بلغ أطراف العالم المتحضر لم تكن القوات تتقدم وتقاتل لهذا السبب أو ذاك ولكن لان الزحف والقتال أصبحا مسار حياتهم •

ولو رجعنا الى وصف الكاتب « اريان » لهذه الأحداث فسنجده يقول ان الاسكندر نفسه كان يعلم تماما أن كل هذه الجهود لم تكن فى الحقيقة تمت بصلة لأية سياسة « واقعية » ، وكلما ابتعد عن مقدونيا ازداد ذلك يقينا • وبعد أن سحق الاسكندر الامبراطورية الفارسية وقهر « داريوس » وجد نفسه يهاجم المرة بعد الأخرى القبائل البربرية البعيدة ليس لان ذلك كان ضمن مخططه ولكن لمجرد أن تلك القبائل كانت تدعى أنها لا تقهر • وعندما وصل الى الهند كانت قواته قد فاض بها الكيل وطالبت بالعودة الى الديار • وعبثا حاول الاسكندر اقناع الناس بالاستمرار فى المسيرة مستخدما كافة الذرائع ومذكرا بكل الانجازات السابقة وواعدا بشتى صور المكافآت علاوة على ما نالوه من قبل ••• ولما لم يفلح دفع بحجته الأخيرة قائلا ان « العمل بقدر ما هو شىء نبيل فهو يعد غاية فى حد ذاته » • ولقد ظلت حملة السنوات العشر المكللة بالانتصارات المتصلة بلا نظير على مدى التاريخ بعد ذلك ، ومع ذلك فبمجرد ان طرح السؤال « من أجل ماذا » حتى انتهت الحملة فى غضون أيام قليلة •

وتنبثق من هنا السمة الثانية لسترة المجانين وتتمثل فى الاعتقاد بأنه مادام الرجل يقاتل من أجل هذا الهدف أو ذاك ، فلا دخل لما يحسه من مشاعر انسانية فى مسألة الحرب • ولقد ذهب كلاوزيفيتس نفسه الى مدى بعيد فى التأكيد على الجانب النفسى فى النزاعات ، ولكن جرت العادة على انه كلما كانت الكتابة فى مجال الاستراتيجية الحديثة « جادة » خلت من الاشارة الى أبسط صور المشاعر الانسانية وأهمها فى نفس الوقت • ويبدو الأمر كما لو كان الزى العسكرى يحول الناس الى آلات عاجزة عن الاحساس بأبسط المشاعر كالحب والبهجة والرغبة الجنسية

والصداقة والخوف والغضب وحمية الثأر والتعطش للمجد · ولقد جرى العرف على مر التاريخ على ترك هذه الأشياء ليعالجها علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الانسان وغير ذلك من العلوم ، بل وحتى فى الحدود التى جرى فى اطارها الاهتمام بهذا الجانب فقد تم فصله وتصنيفه تحت عنوان « اللاعقلانية » ·

ومن أهم الأمور التى لم تشملها أيضا وجهة النظر الاستراتيجية بالنسبة للحرب هو دور المرأة وأى شىء يتعلق بها · ففى الطبعة الألمانية الحديثة لكتاب « عن الحرب » لم ترد سيرة المرأة ولو مرة واحدة على طول صفحات الكتاب البالغ عددها ٨٦٣ صفحة ، بل ان من يقرؤه لا يمكن أن يتصور أن النساء يمثلن ٥٠٪ من البشرية أو أن المؤلف نفسه لم يعش أية حياة زوجية · ومنذ عهد كلاوزيفيتس وحتى يومنا هذا لم يرد فى الكتب الاستراتيجية ذكر المرأة الا ككونها البديل الأدنى للرجل · ولا مجال فى الواقع حتى لأن يكتمل أى تفسير للحرب ـ لاسيما فيما يتعلق بالنزاعات المحدودة المستقبلة على الأقل ـ الا اذا أخذ فى الحسبان بمختلف الأدوار التى تلعبها المرأة كمحفزة أو كموضع اعجاب أو كمحظية مدللة أو كهدف أو ضحية أو عاملة أو مقاتلة ·

بل ان معنى الحرب بالنسبة للعلاقة بين الجنسين يتجاوز ذلك الحد، فمثلما أن الرجل عاجز بطبيعته عن الولادة ، فان النزاعات المسلحة كانت على الدوام المجال الوحيد الذى استبعدت منه المرأة بشدة · وبقدر ما تصل رغبة الرجل فى المرأة الى ذروتها عندما يحين وقت الانجاب ، تبلغ حاجة المرأة للرجل أقصاها عندما تريد أن يحميها من رجال آخرين · وليس من قبيل الصدفة ان يشهد التاريخ زيادة ضخمة فى عدد المواليد عقب كل حرب تتسم بتردى الجانب الأخلاقى · علاوة على ذلك ، فان كلمة « من أجل » تنطوى على لى للحقيقة · فلو لم تكن الحروب موجودة ولو لم تكن تفرق بين الجنسين وتلهب الشوق بينهما لكانت قد ابتكرت على الأرجح ·

أما السمة الرئيسية الثالثة لسترة المجانين الاستراتيجية فهى تكمن فى الاعتقاد بأن الحرب ، بما أنها تتمثل فى استخدام أكبر قدر من العنف من أجل تحقيق غاية اجتماعية ، فنادرا ما تراعى اعتبارات من قبيل الأخلاق والقانون والشرعية · واذا كانت الحكمة القديمة تقول ان سم شخص قد يكون غذاء شخص آخر فذلك يعنى ان العدل « الموضوعى » شىء ينفرد به الرب ولا يعلمه البشر · وانه ليبعث على السخرية ، ولمن الخطأ الادعاء بأن كل القضايا نشأت على نفس الدرجة من الاستواء ، لا شك أن بعضها

كان أكثر عدلا من البعض الآخر • ويرتهن ذلك بطبيعة القضيــة ذاتها وبالوسائل المستخدمة فى القتال من أجلها • فلا يجــوز لمجرد ان أحد الأشخاص لديه ما يكفيه من قوة أن يتجاهل هذه الاعتبارات دون حتى أن يتعرض للجزاء ، وذلك لان الغالبية العظمى من الجنود ليسوا مجرمين ، ولم يحدث على مر التاريخ أن نجح المجرمون فى تكوين جيش قويم •

وعندما تنتهى كافة الاستعدادات من قول وعمل ، فلن يقدم الجنود على بذل أرواحهم الا اذا كانوا مؤمنين تماما بعدالة قضيتهم • صحيح ان الارهاب وغسيل المخ قد يساعدان مجتمعا ما فى وقت ما على تحديد ما يمكن أن يعتبر عادلا ، غير أن الارهاب والاعلام المضلل لن يحفظا هذا الاعتقاد الى ما لا نهاية ولن يحلا بالطبع محله • ولو أن جيشا انتهك ما يروجه هو نفسه من اعتبارات يدعى عدلها،وخالفها لمدة طويلة وبشكل سافر،فسينتهى به المآل الى الوهن بدرجة قد تؤدى الى انهياره تماما • ومن ناحية أخرى فأيا كانت الأهداف التى يندلــع من أجلها القتــال وأيـا كانت الأساليب المستخدمة فيه ، فلن تكون الحرب عادلة الا اذا قامت بشكل أو بآخر على أساس من توازن القوى بين الخصمين • صحيح ان مثل هذا التوازن صار اليوم معقدا ومن الصعب تحديده ، بل ان هناك حالات لا يظهر فيها ميزان القوة الحقيقى الا بعد انتهاء القتال ونتيجة له ، ومع ذلك فلا ينبغى أن ننكر وجود شىء أو لا نبالى به لمجرد انه يصعب تحديده أو التكهن به •

ومازالت قائمة ما تنطوى عليه الاستراتيجية الحديثة من جنون ممتدة ، وكلها تنبع من خطيئة واحدة تجسدها الفكرة القائلة بأن الحرب تتمثل فى قوم يقتلون قوما آخرين « من أجل » تحقيق هذا الهدف أو ذاك • ولقد أشرنا سالفا الى أن الحرب لا تبدأ عندما يقضى بعض الناس على أرواح بعض آخر ، وانما عندما يكونون هم أنفسهم على استعداد للمخاطرة بأرواحهم • ولما كان من قبيل الحماقة أن يموت المرء من أجل مصلحة أشخاص آخرين او أشياء أخرى فان نموذج القوات المسلحة « المحترفة » الحديثة التى تقاتل من أجل « زبائنها » يعد أفضل قليلا من « روشتة » تؤدى الى الهزيمة • وبما أن اقدام المرء على الموت من أجل مصلحته الشخصية لا يقل حماقة عن ذلك ، فهناك خطأ فى التفكير يقول ان الناس لا يذهبون للقتال الا بقدر ما يرون ان الحرب وكل ما يتعلق بها انما تعد غاية فى حد ذاتها • وحيثما أن الحرب تقوم فى المقام الأول على القتال ــ أو بعبارة أخرى على المخاطرة

والمجازفة بملء الارادة ـ فهى تعد امتدادا للرياضة وليس للسياسة ، ولأن الحرب تعد على وجه التحديد شيئا يقوم على الذرائع والأسانيد ، فلم يفشل الفكر الاستراتيجى فى أن يحدد لماذا يحارب الناس فحسب ، بل انه حال حتى دون أن يطرح السؤال أصلا • وما زلنا نكرر أن هذا السؤال هو أهم ما ينبغى الاجابة عليه بالنسبة لأية حرب ، فمهما بلغ أى جيش من قوة فلا جدوى لكل الاعتبارات والعوامل اذا لم تكن هناك روح قتالية •

الباب السـابع :

الحـرب المستقبلية

✻ من الذى سيخوض الحرب :

ولقد كان من نتيجة تفشى الارهاب مع قرب انتهاء الألف الثانى بعد الميلاد أن بدأت تتداعى محاولات الدولة لاستمرار القبض على زمام العنف فى يديها ٠ فقد اتجهت فجأة أعتى الامبراطوريات وأضعفها الى التـلاقى من أجل مواجهة هذا الخطر المسـتفحل ٠ ولو استمر هذا الخطر فسوف ينقرض فى الغالب ذلك النوع من الحرب القائم على الفصل بين الحكومة والجيش والشعب ٠ وما لم يتم سريعا احتواء هذا الاتجاه الى النزاعـات المحدودة فمن شأن اتساع نطاقها أن يؤدى الى تدمير نظام « الدولة » ، ليحل محلها على المدى البعيد نوعا آخر من الكيانات صانعة الحرب ٠

وقد تعيننا دراسة الماضى على فهم المستقبل ٠ « فالدولة » تعد ابتكارا حديثا نسـبيا ، حيث كان هذا المفهوم مبهما حتى عهد مكيافيلى ، وكان ارتقاؤها وتوليها السلطة هو أحد الأسباب الرئيسية لتسمية الزمن الذى نعيش فيه « بالعصر الحديث » ٠ وكانت الحرب على مدى القرن السادس عشر مازالت عبارة عن صراعات من صنع الأقاليم والولايات والمدن والرابطات الدينية وأفراد من النبلاء ، علاوة على عصابات النهب والسلب من الرسميين وغير الرسميين ٠ وكانت الدولة فى تلك الفترة مازالت فى طور النمو الى أن تمكنت لأول مرة من أن تمارس نوعا من السيطرة المشروعة على استخدام العنف المنظم ، وكان ذلك متزامنا مع ابرام معاهدة وستفاليا ٠ ومع ذلك ظلت الدولة مفهوما غريبا لا يظلل سوى زهاء ٣٪ من مساحة العالم ٠ وبغض النظر عن المستعمرات الأوروبية فلم يظهر نظام « الدولة » فى معظم أنحاء العالم الا مع حلول القرن العشرين ٠

وكان الأسلوب الذى نشأت به الدولة فى جانب منه سببا ، وفى الجانب الآخر مظهرا ، للتمييز الثالوثى بين الحكومة والجيش والشعب ٠ ولقد تطورت الحرب بعد ذلك وأصبحت تقوم على الطرفين الأول والثانى

من هذا الثالوث بينما استبعد الطرف الثالث . ثم جاء القانون الدولى واتجه بشكل متزايد فيما بين ١٦٤٨ و ١٩٣٩ الى منع الأفراد من غير العسكريين من الاشتراك فى الحرب (أيا كان السبب) ، ويتعرض من يخالف ذلك للعقاب . ومع حلول القرن التاسع عشر صار هذا التمييز صارما لدرجة أن التمسك به أصبح محكا للبلدان غير الأوروبية المتطلعة لأن يكون لها وضع « حضارى » ، ومن بينها الامبراطورية العثمانية وبلاد فارس وتايلاند والصين واليابان ، وقد عبرت هذه الدول عن تضجها بالانضمام فى عام ١٩٠٥ الى ميثاق الحرب . وقد جرت مع الوقت حالات لا حصر لها من انتهاكات الجيوش لحقوق المدنيين ومن حمل المدنيين السلاح فى مواجهة الجيوش . وكان وصف الحالة الأولى « بالانتقام » والحالة الثانية « بالتمرد » خير دليل على الالتزام بالتمييز الثالوثى حتى فى حالات الصراع . ومن ثم كان هذا التمييز هو الأساس الذى قامت عليه بعد ذلك كل الممارسة العسكرية الغربية، كما كان أيضا الأساس للفكر الكلاوزيفتيسى الذى نظمه بعد ذلك ووضع قواعده .

واذا كان التقسيم بين مدنيين وعسكريين ، وحكومات ودول قد طرأ نتيجة ظروف تاريخية معينة ، فثمة مجموعة أخرى من الظروف قد عملت فيما يبدو على اضعاف هذه الكيانات اعتبارا من عام ١٩٤٥ . ولا يتسع المجال هنا لمناقشة هذه العوامل بالتفصيل ولكننا سنكتفى بالاشارة الى أبرزها . فلقد جرت العادة على أن أى صراع مهما كان لابد مع الوقت سيصل الى نهاية . وهذه هى حرب « الثلاثين عاما » من ١٩١٤ ــ ١٩٤٥ قد جاءت فى أعقاب ثلاثة قرون من النزاعات فيما بين الدول ، ويبدو أنها كانت سببا فى اقتناع كثير من الناس فى العالم المتقدم بأن القوة المسلحة لم تعد تصلح لحل النزاعات بين الدول ، على عكس حرب الثلاثين سنة الأولى التى كفلت حل الخلافات بين المجتمعات الدينية . وما لبث أن تحول هذا الرأى الى قانون دولى رسمى . وكان قد تولد اقتناع عقب عام ١٩٤٨ بأن الخلافات الدينية لا يمكن أن تحسم بالقوة ، مما أدى بالرابطات الكاثوليكية والتحالفات البروتستانتية الى الكف عن القتال ثم التلاشى بعد ذلك . وقد تكون « الدولة » ، التى حلت محل هذه التنظيمات ، فى سبيلها هى الأخرى الى الأفول وذلك لسببين : أولا لان قدرتها على محاربة كيانات من نفس مستواها صارت موضع شك متزايد ، وثانيا لانه لا مجال للانتماء لكيان لا يحارب ولا يستطيع ولن يحارب ، فذلك شىء يبعث على النفور .

ويعزى ذلك الوضع بالطبع الى انتشار الأسلحة الذرية التى يعد استخدامها بمثابة انتحار متبادل . وكان أول من دفع بأن « التداخل

اللصيق مع العدو » يمثل أعظم أمل للقوات التقليدية لتجنب الدمار النووى، هو تلك المجموعة من المنظرين من أنصار « الحرب النووية التكتيكية » الذين ظهروا فى أواخر الخمسينات ودعوا الى استخدام المدفعية الذرية والصواريخ قصيرة المدى • وكانت تحليلاتهم صائبة ، ولكنهم لم يذهبوا الى أبعد من ذلك • وتعد الصواريخ الحديثة ذات المدى غير المحدود ، والتى يمكن أن تصل الى أية نقطة من أرض العدو بدقة متناهية ، ثم الطاقة التدميرية الفائقة للرؤوس النووية التي تحملها هذه الصواريخ ، وغياب عناصر الدفاع الفعالة عوامل تفقد الحدود الدولية معناها • ولو وقع قتال فى مثل هذه الظروف فلن تكون القوات المسلحة هى المتداخلة فقط ، وانما سينسحب ذلك على كل الكيانات السياسية التى تنتمى اليها تلك الجيوش • ولو حدث مثل هذا التداخل فلن تكون القوات المسلحة التى سترسلها هذه الكيانات الى أرض القتال قوات من النوع التقليدى • وفى هذه الحالة سوف ينهار التمييز بين القوات المسلحة والمدنيين ليعود الأمر كما كان عليه خلال معظم الحروب المندلعة على سبيل المثال فيما بين ١٣٣٨ و ١٦٤٨ •

واذا كان احتمال تقاتل الدول يتضاءل ، فان من نتائج هذا التداخل انطلاق النزاعات المحدودة كبديل بدأنا نلمسه بالفعل • ويتمثل الدافع الأساسى فى هذه النزاعات فى تطوق الهيكل الثالوثى للدولة الحديثة والحط من قدره ، وذلك يفسر لماذا تظهر الدولة على مثل هذه الدرجة من العجز فى معالجة هذا النوع من الحرب • وكان احتواء الارهاب هو أقصى ما نجحت فيه بصفة عامة بعض البلدان المتقدمة مثل بريطانيا (فى ايرلندا الشمالية) وايطاليا واوزبكستان (فى الكتلة الشرقية) • ولقد صار المجتمع يتقبل درجة من العنف كانت حتى وقت قريب فى الستينات تعد وحشية وتبعث استنكارا شديدا • أما اليوم فهى تعتبر من المخطر التى تفرضها الحياة الحديثة لدرجة ان الخسائر الناجمة عنها صارت تقارن بضحايا حوادث المرور • علاوة على ذلك ، فان النزاعات المحدودة تتحول سريعا لتصبح سلعة التصدير الأولى للبلدان النامية التى ليس لديها الكثير غير ذلك لتصدره • وقد شهدت الحقبة الأخيرة ظهور العديد من الدويلات الصغيرة الجديدة فى العالم الثالث • وغالبا ما تعجز هذه الدويلات عن الوقوف على أقدامها فى مواجهة الأنواع الأخرى من الكيانات الاجتماعية ، لا سيما القبائل العرقية ، ولذلك يبدأ التمييز بين الحكومة والجيش والشعب ينهار قبل أن يستتب •

ومما يضفى مصداقية تامة على هذا السيناريو أن الحرب تعتبر ــ كما أشرنا سالفا ــ على رأس الأنشطة التى يقلد الناس فيها بعضهم بعضا • فمنذ أن هزم الرومان فى البحر وجهز نيبال رجاله بالأسلحة الرومانية

المستولى عليها ، كانت دائما نتيجة أية معركة متكافئة هى التعلم المتبادل ٠ ولو كانت هناك أوجه اختلاف كبيرة بين طرفى النزاع فان أول ما يتعلمانه - وبالتالى يقرب من مستويهما - هو الأساليب المستخدمة فى المعركة ، ثم يبدأ التماثل يعم تدريجيا بقية الجوانب ، حتى يأتى وقت - لو طال أمد النزاع - تتلاشى فيه الأسباب الرئيسية لاندلاع القتال ٠ وقد يعزف المرء عن مشاركة هيجل وجهة نظره ، بشأن أولوية الحرب بالنسبة لأنشطة الانسان ، ليؤيد وجهة نظر أخرى تقول بأن محاربة المجتمعات الأخرى هى دائما وسيلة استخدمتها المجتمعات البشرية من كافة الأنواع لبناء هياكلها الداخلية ٠ وليس هناك مثل يصور تلك الحقيقة أفضل من الدولة الحديثة ذاتها ، فهى تشكل تنظيما كون مؤسساته المميزة - بما فيها على وجه التحديد القوات المسلحة وعملية فصلها عن الحكومة والشعب - من خلال الرغبة فى مقاتلة التنظيمات الأخرى المماثلة ٠

ولا شك أن الأسلوب الذى ستنحسر به قبضة « الدولة » على العنف المسلح لصالح نوع آخر من الكيانات سيكون على مراحل متدرجة وبمعدلات متفاوتة ، ولن يخلو من العثرات ، ولا جدال انه سيختلف من مكان لمكان ٠ ومن المتوقع أن يكون التفكك مصحوبا بثورات وصراعات عاتية ، على غرار تلك التى حدثت فى أوروبا أثناء فترة النهضة وبلغت ذروتها فى حرب الثلاثين عاما ٠ ومن المنتظر أن تكون أولى المناطق التى سيلحق بها هذا التفكك هى آسيا وأفريقيا والكاريبى وأمريكا اللاتينية ٠ وقد يقول قائل ان البوادر قد بدأت بالفعل تظهر فى بعض منها ٠ وتأتى بعد ذلك الامبراطوريات الكبيرة غير المتجانسة ، مثل الاتحاد السوفيتى (بما فى ذلك بعض الأعضاء الآخرين فى حلف وارسو) ، التى تشهد بالفعل بداية طريق الانهيار ٠ وتعد الصين والهند كذلك من البلدان المهددة بهذا التفكك ، فكلاهما متخم بأعداد هائلة من السكان بما يجعل حل مشاكلهم الاقتصادية أمرا شبه مستحيل ، ويمتلك كلاهما قوة مركزية جبارة ، لكن لديه أيضا أعدادا غفيرة من الناس الذين تبددت من أذهانهم الصور السابقة لشكل الاستقلال السياسى ٠ ولو سنحت الفرصة الملائمة لمثل هذه الامبراطوريات الضخمة فلن يكون هناك تردد فى كسر هذا النظام ٠

وتعد الولايات المتحدة مجتمعا آخر يتسم بالضخامة وبتعدد الجنسيات ، وتنتشر فيه الأسلحة على نطاق واسع ، كما أن العنف الداخلى متفش فيه بدرجة تشكل طابعا مميزا له ٠ وقد حظيت الولايات المتحدة خلال الجانب الأكبر من تاريخها بغزارة الموارد الطبيعية مما أتاح ارتفاع مستوى معيشة الفرد الأمريكى ، وساعد على ذلك فتح حدودها ، وفى وقت

لاحق ، توسعها وانفتاحها على العالم · وقد مكنها كل ذلك من القيام من وقت لآخر بشن احدى الحروب ، ودائما ما كانت تجد مخرجا لأعمالها العدوانية · غير أن تلك العوامل الثلاثة لم تعد موجودة الآن ، فلقد أغلقت الحدود منذ وقت طويل ، وبدأ المستوى الاقتصادى الأمريكى ينحدر اعتبارا من عام ١٩٧٠ على وجه التقريب ، ونتيجة لذلك بدأت هيمنتها على سائر بلدان العالم تضعف ، ولم يؤد حتى انتصارها على العراق الى وقف هذا التدهور. ولقد ازدادت حدة التوتر الاجتماعى على الصعيد الداخلى وانتشر ادمان المخدرات حتى صار يشكل، حسب وصف الرئيس ريجان ، « الحرب الأمريكية الأولى » · ولابد من وقف هذا التدهور الاقتصادى والا فان الجريمة المتفشية فى شوارع نيويورك وواشنطن قد تتحول الى نزاع محدود تتخبط فيه الاتجاهات العنصرية والدينية والاجتماعية والسياسية ويفلت تماما من زمام السيطرة ·

أما بعض الدول القديمة ، وفى مقدمتها اليابان وبلدان أوروبا الغربية، فبحسبها ان تقوم على تقاليد قديمة راسخة ، مما يتيح لها التماسك لأطول فترة ممكنة فى مواجهة هذا التيار · وتحظى اليابان على وجه الخصوص بوضع متميز ، فهى معزولة وشعبها متجانس بدرجة فائقة وتتمتع حاليا بقدر كبير من الثراء · ومع ذلك يرتعد الساسة اليابانيون حاليا من احتمال أن يبدأ تدفق « جموع غفيرة من النـــاس » من البلدان الفقيرة القريبة من سواحلها · وفيما يتعلق بدول أوروبا الغربية فمن المحتمل أن تتعرض لعوامل تحط من قدرها ومن سيادتها سواء من أعلى ، من قبـل المنظمات الدولية ، أو من الداخل · ولو انتهى الأمر بأوروبا الى الاتحاد ، فأيا كان التنظيم الذى ستعيش فى كنفه فلن يشـــبه « الدولة » بالمفهوم الحالى للكلمة · ولن يكون من شأن مجتمع ممتد على مساحة قارة بأكملها ، هدفه الوحيد هو زيادة الدخل وتنمية اجمالى الناتج القومى ، أن يعتمد بالطبع على أناس من العسير أن تتحد ولاءاتهم · غير أن التكامل سيؤدى على الأرجح الى زيادة الضغوط الاقليمية من أجل الاستقلال فى أماكن مثل اقليم الباسك وكورسيكا وسكتلندا وبعض الشعوب الأخرى · ولو نجح شعب من هؤلاء فى الاستقلال فسـوف يفتح المجال أمام الآخرين · ولن تلجأ كل تلك الحركات الى استخدام العنف من أجل تحقيق أهدافها · ومع ذلك فمازال هناك احتمال ــ مع زيادة عدد الأجانب من غير الأوروبيين وغير المسيحيين ــ لاندلاع نزاع محدود يعصف على الأقل بجزء من القارة ·

والآن ما هو الشـكل الذى سيتخذه المجتمع والذى قد يحـل يوما ما محل « الدولة » ليصبح الكيان الرئيسى الصانع لقرار الحرب ؟ ان تاريخ

البشرية زاخر بالنماذج التي يمكن الاختيار منها • ففي الماضي كانت هناك المجتمعات القبلية الممتدة من عصور ما قبل التاريخ وحتى وقت قريب ، وهناك دولة المدينة من النوع الذي كان شائعا في العالم القديم وأيضا في القرون الوسطى وفي بداية العصر الحديث في أوروبا ، وهناك الممالك الاستبدادية مثل الامبراطوريات الأشورية والفارسية واليونانية والرومانية ، وهناك الهياكل الاجتماعية الاقطاعية التي كانت مهيمنة في بعض الأزمنة في أوربا واليابان ، وهناك التنظيمات الدينية المختلفة التي تسعى لتمجيد هذا الرب أو ذاك ، وهناك عصابات المرتزقة الخاصة التي يقودها لوردات الحرب ، وهناك حتى التنظيمات التجارية مثل الشركة البريطانية الهندية الشرقية وما يقابلها من أعداد كبيرة من الشركات المماثلة في البلدان الأخرى •ولم تكن معظم هذه الكيانات تنظيمات « سياسية » (وكانت السياسة في هذه العصور ممتزجة بعوامل أخرى كثيرة) ولا كانت لها « سيادة » (وهو مصطلح يرجع تاريخه الى القرن السادس عشر) ولم يكن لديها جيوش وحكومات وشعوب بمفهومنا لهذه الكلمات ، ومع ذلك فقد خاضت أعمال عنف على نطاق واسع وبشكل منظم ومن أجل أهداف شتى ، أى أنها عرفت الحروب •

وليس بوسع أحد أن يتكهن بأهمية النظام الجديد الذى سيظهر بعد انهيار النظام الحالي • ومع ذلك ، فانطلاقا من الواقع الذى يفيد بأنه ما من واحد من النزاعات التي يشهدها العالم حاليا ، ويربو عددها على العشرين ، هو نزاع بين دولة ودولة ، يمكن طرح بعض التصورات • فمعظم الكيانات التى تشن مثل هذه الحروب فى أفريقيا تشبه القبائل ، أو هى قبائل بالفعل، أو بالأصح هى ما تبقى منها تحت تأثير عوامل التآكل التى شكلتها الحضارة الحديثة • وقد يتجسد أفضل تماثل بالنسبة لجانب من آسيا وأمريكا اللاتينية فى بارونات النهب الذين ابتليت بهم أوروبا فى مستهل العصور الحديثة ، أو التنظيمات الاقطاعية الكبيرة التى كانت تتقاتل فى اليابان فى القرن السادس عشر • أما في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية فأغلب الظن أن الكيانات التى ستصنع الحرب فى المستقبل ستشبه السفاحين ، أو المجموعة التي روعت الشرق الأوسط على مدى قرنين فى العصور الوسطى بدافع من اعتبارات دينية •

ولن تشن الحروب في المستقبل جيوش ، ولكن سيخوضها من نطلق عليهم اليوم اسم ارهابيين أو رجال حرب العصابات أو المتمردين أو اللصوص • ولكنهم بالطبع سيبحثون عن اسم ملائم يصفون به أنفسهم، وسوف تعتمد تنظيماتهم على أسلوب الابهار بدلا من القيام على مؤسسات ،

ومن ثم سيقل اعتمادهم على « الحرفية » حيث سيحل محلها الولاء القائم على التعصب والايديولوجيات • وسوف يقود هذه التنظيمات زعامات ذات قوة تعتمد على الأسلوب القسرى ، غير أنه لن يكون من اليسير التمييز بين تلك الزعامات والتنظيم ككل • وسوف يقوم المجتمع على أساس شعبى ، ولن يكون الناس معزولين عن جيرانهم المتاخمين أو عن تلك العصبة — التى ستشكل دائما أقلية — التى ستقوم بمعظم النشاط القتالى • ولابد للكيان الذى سيصنع الحرب — أيا كان حجمه — أن يتخذ قاعدة اقليمية له تخضع لسيطرته • غير أن هذه القاعدة لن تكون على الأرجح ثابتة أو ضخمة أو مغلقة ، ولن تكون لها حدود معينة مرسومة على خريطة ، بل على العكس ستكون متنقلة ، فأينما سيحل هؤلاء الناس فستكون قاعدتهم التى يحددونها بالمتاريس ويعينون فيها أماكن قادتهم •

وتعد حماية الناس هى المطلب الأكثر الحاحا ويقع على عاتق أى كيان سياسى • فالتنظيم الذى لا يستطيع حماية أعضائه وممتلكاته أو مواطنيه أو رفاقه أو اخوانه أو أيا كان المسمى المصلطلح عليه لا يستحق أن يدين له الناس بالولاء ولن يدوم طويلا •• والعكس صحيح، فاى تنظيم يقدر ، وأهم من ذلك لديه العزم ، على حماية أعضائه يمكن الاعتماد على ولاء ناسه حتى انهم قد يقدمون حياتهم فداء له •• وسوف يعتمد استقرار هذه الدولة الحديثة ووقوفها على أقدامها على درجة فعاليتها تجاه التنظيمات الأخرى من صناع الحروب • فلو لم تستطع الدولة —وهذا هو الحال اليوم— ان تدافع عن نفسها فى مواجهة النزاعات المحدودة سواء الداخلية أو الخارجية — فلن تصمد أمامها الا لو أخذت الدولة مثل هذا النزاع بالجدية اللازمة ، فانها فى هذه الحالة سوف تقضى عليه بسرعة وبشكل حاسم • أما البديل فهو أن القتال سيؤدى الى الاضرار بمرافق الدولة ، وهذا هو العامل الرئيسى وراء تقاعس العديد من البلدان الأوروبية على وجه الخصوص عن مواجهة الارهاب • وليس ذلك السيناريو بالتأكيد شيئا خياليا ، فالعالم يشهد اليوم فى العديد من أماكنه مشاهد واقعية تجسد ذلك •

* ما الذى ستدور حوله الحرب

ولفهم المستقبل لابد من دراسة الماضى • فلقد كان الناس دائما على استعداد لانتهاك القانون أو ليه بما يتناسب مع أهوائهم وأهدافهم ، وتلك ظاهرة لا تقتصر على الحياة العسكرية وحدها • ومع ذلك فان عملية انتهاك القانون فى حد ذاتها تعتبر دليلا على وجوده • ويتمثل القانون فى حالتنا فى الأفكار المحددة من قبيل : من من حقه استخدام العنف ، وضد من ، ولأى

غرض ، وتحت أى ظروف ، وكيف ، وبأى الوسائل • لا شك اذن أن ميثاق الحرب يمثل حقيقة ملموسة تضرب جذورها فى التاريخ ، وهى قابلة للتغيير شأنها شأن أى شىء من ابتداع الانسان • واذا لم يكن بمقدورنا التكهن بالمستقبل فبوسعنا على الأقل أن نشير الى بعض الاتجاهات التى يمكن أن يتخذها هذا التغيير المنتظر •

وبما أن ادارة الحرب كانت دائما من اختصاص هيئات مختلفة عن الدولة ، فمن المتوقع أن تخسر القيادات السياسية العسكرية المسئولة عن ادارة الحرب وضعها المتميز • ولم تكن وجهة نظرنا ـ بشأن الفصل بين الكيان السياسى المسئول عن صنع الحرب وقائده أو قياداته ـ مطبقة بنفس الصورة دائما • فعلى مدى تاريخ المجتمعات القبلية والعصور القديمة والقرون الوسطى كانت أفضل طريقة لكسب الحرب تتمثل فى قتل حاكم العدو ؛ فعندما أراد الفرس على سبيل المثال اجبار عشرة آلاف يونانى على الاستسلام بعد معركة كوناكسا عمدوا الى دعوة زعمائهم الى مأدبة ثم قتلوهم • وفى معركة جوجميلا كان هدف الإسكندر النيل مباشرة من داريوس على أمل خلخلة تلاحم صفوف القوات الفارسية • (ومما يؤكد هذه النظرة أيضا ان الاسكندر ، أو « الملك الكبير » على نحو ما كان يسميه اليونانيون ، كان يتولى بنفسه قيادة قواته فى ميدان المعركة وكان يقاتل فى الصفوف الأولى بينهم) • ورغم ان وفاة الملك هارالد فى هاستينجز كانت حدثا عارضا فقد أدت الى تفكك جيشه • وحتى عهد مكيافيلى كان قتل زعماء العدو فى الميدان أو عن طريق الخديعة يعد من الأساليب العادية فى ادارة الشئون الدولية • واذا كانت بورجينا لوكريسيا قد اشتهرت بقتل أعدائها بدس السم لهم ، فلم تكن هذه الشهرة نتيجة أساليبها بقدر ما نالتها لكونها امرأة •

وجاءت فى النصف الثانى من القرن السادس عشر اللحظة الحاسمة التى انفصلت فيها « الدولة » و « الحكومة » عن بعضهما • ولقد أدى أفول النظام الاقطاعى وظهور بوادر الدولة البيروقراطية الحديثة ، الى ايجاد وضع كف فيه الحكام عن تولى القيادة المباشرة لجيوشهم ، كما امتنعوا عن الاشتراك فى القتال بشخصهم • غير أن هناك دائما استثناءات للقاعدة ، وكان نابليون أحد أشهر هذه الاستثناءات وآخرها أيضا • ويلجأ معظم الحكام حاليا الى ادارة المعركة حتى دون أن يبرحوا قصورهم ، وقد فضلوا ان يفوضوا سلطاتهم لوزراء الحرب ولقادة الجيوش والقادة الميدانيين • وبخلاف ما كان عليه الحال فى القرون الوسطى أصبح هؤلاء المرؤوسون من خدام الدولة ، ولذلك لم تكن لهم نظريا مصالح شخصية فى الحرب • ولكن

مع الوقت بدأت هذه الفئة تكون مجموعة من المصالح المشتركة ووضعت قوانين تحكم هذه المصالح • وما لبثت هذه القوانين أن انتشرت عبر الأمم والحدود بل والجهات المختلفة •

وبمرور الوقت وذيوع المبادىء الأولية للقانون ، بدأت تنتفى جدوى قتل أو أسر أو الحاق أى نوع من الضرر بالمسئول عن ادارة الحرب على قمة الكيان السياسى للعدو • ولذلك فقد نبذت تلك العادة بل وأدرج ذلك فى القانون الدولى • وقد رأى فاتيل فى ذلك علامة على تطور الحضارة • ومع انتصـــاف القرن الثامن عشر كان ملوك الدول المتنازعة يتخاطبون بصيغة تنطوى على قدر كبير من الاحترام المتبادل • ومن أمثلة ذلك ان الملك فرديناند ، عندما كان يتولى قيادة جيش هانوفر خلال حرب السنوات السبع ، أعاد للقائد الفرنسى سان جيرمان تلسكوبه بعد أن كانت قواته قد استولت عليه • وعندما حاصر نابليون فيينا فى عام ١٨٠٩ ، أمر قيادة مدفعيته بتوجيه نيرانها بعيدا عن قصر شونبرون حيث كانت ترقد الأميرة مارى لويز طريحة المرض • ولقد كان نفيه بعد ذلك الى سانت هيلينا مثار نقد شديد • وقد اعتبر سجن نابليون الثالث فى أواخر القـرن التاسع عشر ورطة سياسية ينبغى التصرف فيها بأسرع ما يمكن •

وحتى خـلال فترة الحـرب الشاملة التى امتدت فيما بين ١٩١٤ و ١٩٤٥ لم تجر فيما يبدو سوى عمليتين استهدفتا قتل واحد بعينه من قادة العدو ، وكلتاهما جرت فى الحرب العالمية الثانية • كانت العملية الأولى موجهة ضد اروين رومل قائد الفيلق الأفريقى ، وكان قد اكتسب سمعة جعلت مجرد ذكر اسمه يدخل الرعب على البريطانيين فى الصحراء الغربية • أما العملية الثانية فقد أعدها الألمان فى معركة بولج لقتل ايزنهاور الذى ظل حارسه الخاص يرافقه لمدة أسبوع أو اثنين حتى لو ذهب ليغسل يديه • غير أن العمليتين فشلتا ، ولو كانتا قد نجحتا لشكلتا انتهاكا لميثاق الحرب • وقد تم اعدام أعضاء فريق الاغتيال الألمانى الذى أوقعهم سوء حظهم فى الأسر وهـم يرتدون الزى الأمـريكى ، وكانـوا ينتمون لفيلق براندنبيرج بقيادة الكولونيل سكورزينى • وليست هناك أية معلومات مؤكدة بشأن ما اذا كان كل من هتلر وستالين ــ وهما يعدان باجماع الآراء اثنين من أحط الأنذال على مر التاريخ ــ قد حاول قتل الآخر أو قتل واحد من نظرائهم فى البلدان الأخرى •

ويبدو مع قرب انتهاء القرن العشرين ان المسألة قد انقلبت فى اتجاه عكسى • فلو استمر انتشار النزاعــات المحدودة فسوف تأتى مجموعــات

تعتمد على الأسلوب الفردى وعلى الابهار لتحل محل التنظيمات البيروقراطية المسئولة عن صنع الحرب ، ومن شأن ذلك أن يؤدى الى تلاشى التمييز القائم حاليا بين الزعماء والكيانات السياسية التى يرأسونها • وبديهى ان ميثاق الحرب سيتغير ليعكس الحقائق الجديدة • ولم تكن محاولات قتل الزعماء أو النيل منهم بصفة شخصية تدخل فى اطار الحرب على مدى القرون الثلاثة الماضية ، ولكن ثمة اتجاها فى المستقبل لاعتبار مثل هؤلاء الزعماء من المجرمين ومن ثم يستحقون أسوأ مصير يمكن أن يلحق بهم • ومادامت الاعتبارات الشخصية ستمتزج بالعوامل السياسية فى التنظيمات الجديدة ، فلا مجال لأن تحظى أسر الزعماء وممتلكاتهم بأى حصانة ، بل على العكس فانها سوف تتعرض للهجوم أو للتهديد بالهجوم كوسيلة للضغط • ولذلك فقد يقرر بعض الزعماء عدم الارتباط بمكان معين وأن يعيش حياة تتسم بكثرة الانتقال وبالسرية مثلما يفعل ياسر عرفات بالفعل •

ويفيد الواقع الأليم ان الزعماء أصبحوا مستهدفين بشكل متزايد ففى عام ١٩٥٦ أجبر الفرنسيون طائرة ركاب مغربية على الهبوط وأسروا جميع قيادات جبهة التحرير الوطنى الجزائرية وكانوا على متنها • وكان مثل هذا النوع من العمليات غير مقبول فى كافة أنواع الحروب الا أن تكون فى اطار عملية ضرب ثورة ما • وقد أعتبرت هذه العمليـة منافية لميثاق الحرب السائد فى ذلك الوقت حتى انه يقـال ان الوثـائق التى تحمل الأوامر بتنفيذها قد أعدمت • غير أن هذه العمليـات انتشرت بعد ذلك وأصبحت شيئا مألوفا لاسيما فى أماكن مثل لبنان وأفغانستان وأمريكا اللاتينية ، حيث أصبحت مسألة اغتيال زعماء المعارضة أو اختطافهم من الأسـاليب العادية فى الحرب مثلما كان عليه الحال ابان عصر النهضـة الايطالية • ولا يقتصر ذلك الاسلوب على البلدان « غير المتحضرة » ، فقد حاول الاسرائيليون فى عام ١٩٨١ تكرار نفس العمليـة الفرنسية ولكن ضد زعماء منظمة التحرير الفلسطينية ، حيث أجبروا طائرة ركاب سورية على الهبـوط فى منتصف الطريق غير أنهم لم يجـدوا على متن الطائرة الأشخاص الذين كانوا يطاردونهم • وفى عام ١٩٨٦ قام الأمريكيون بقصف طرابلس فى محاولة للتخلص من شخص اسمه معمر القذافى غير أنهم أخطأوه وان كان بعض أفراد أسرته قد لقوا مصرعهم فى هذه العملية • وفى عام ١٩٨٩ قام الاسرائيليون بعملية ناجحة هذه المرة حيث اختطفوا ثلاثة من زعماء تنظيم حزب الله الموالى لايران فى لبنان ، فأثبتوا بذلك أن من يقاتل الارهابيين لأية فترة من الزمن من شأنه أن يصبح واحدا منهم •

ولا يمكن حتى للسائح العادى أن يخطىء مدى التغيير الذى طرأ على

حراسة الرؤساء ورؤساء الوزراء من البيت الأبيض وحتى مقر رئاسة الوزراء في لندن • فلقد أصبحت هذه المقار حاليا محاطة بالمتاريس وتحولت الى حصون بمعنى الكلمة • أما من يتولون هذه الحراسة فليسوا من الأفراد العسكريين ولا حتى يبدون كجنود ، وهم لا يرتدون زيا مميزا ولا يحملون أسلحة ظاهرة • ويشكل معظم هؤلاء الأفراد مجرد واجهة مهمتها تحذير الفضوليين ومنع السائحين العاديين من الاقتراب • أما أعمال الحماية الحقيقية فيكفلها أفراد ينتمون لأجهزة سرية شتى بما يمثل دلالة أخرى على مدى التغير المنتظر للتنظيم الكلاوزيفيتسى الثالوثى •

ولا شك أن التحول من النظام القائم الى الصور المتوقعة سيؤثر على ميثاق الحرب ، فيما يتعلق بمعاملة الأسرى من الجنود وضباط الصف والجرحى وما شابه ذلك • وكان القانون الدولى التقليدى على نحو ما تطور منذ عهد هوجو جروسيدس يعتبر الجنود « أداة » فى يد الدولة ، وبقدر ما كان هؤلاء الجنود يخدمون مصالح الدولة وليس مصالحهم الشخصية كان هناك اتجاه متنام لاعتبار الجرحى والأسرى وأى أفراد يقعون فى موقف يعجزهم بشكل مؤقت ، من ضحايا الحرب ، وكان القانون يقضى — بغض النظر عما كان يجرى فى الواقع — بحمايتهم من أى ضرر « لاتفرضه الضرورة » • غير أن النظام الحديث المسئول عن شن النزاعات المحدودة عادة ما يكون عاجزا عن فرض الالتزام على أعضائه مثلما تفعل الدولة، بل ان استخدام اسلوب القسر من جانب هذه النظم يعد فى نظر الدولة أمرا غير مشروع — ومن ثم فمن العسير الأخذ بفكرة أن قوات العدو انما تؤدى « واجبها » كأدوات طيعة فى أيدى النظم التى تنتمى اليها •

وفيما يتعلق بزعماء العدو ، فاذا كانوا يقاتلون من أجل قضية أيديولوجية فمن العسير النيل من ولائهم واخلاصهم ، ولذلك فهم سيتعرضون اما للحبس أو للقتل • أما الجنود وضباط الصف فسوف يعاملون كصغار المجرمين • ويبعث على تصور ما يمكن أن يحدث لمثل هؤلاء الأفراد فى المستقبل ما جرى مؤخرا فى فيتنام ، حيث كان الفيتناميون يمنحون من يقع فى الأسر من الفيتكونج الفرصة للتحول الى معسكرهم • وهكذا يبعث من جديد أسلوب كان يجرى بشكل عادى تماما على مدى معظم فترات التاريخ • وسوف يعتبر الأسرى الذين يقبلون مثل هذا العرض « أبرياء » أو أنهم قد « ضللوا » وسوف يمنحون قدرا محدودا من الثقة • أما من يرفض العرض فسوف يعتبر مذنبا ويتعرض لعملية انتقامية قاسية قد تصل الى حد الاعدام • ومرة ثانية نقول انه ليس فى كل ذلك شىء لم يطبق ألف مرة فى عدد لا حصر له من النزاعات المحدودة التى اندلعت منذ عام ١٩٤٥ •

واذا اعتبرنا ما يقع حاليا هو مؤشرات لما هو آت فان مثل هذه النزاعات تعد موجة المستقبل .

ويمثل التمييز بين العسكريين والمدنيين ثالث المجالات التى سيطرأ عليها تغير كبير . ولقد كانت معظم الحروب التقليدية على مدى القرون الثلاثة الأخيرة - بغض النظر عن « الصورة الشاملة » التى اتسمت بها العالمية الثانية - موجهة ضد العسكريين . وحتى خلال الحرب العالمية الثانية كان هناك التزام بهذا التمييز ، لدرجة أن معظم قادة المحور الذين اتهموا بانتهاكه قدموا للمحاكمة . أما على جانب الحلفاء - حيث لم تعقد محاكمات مثل تلك التى جرت على الجانب الآخر - فقد حرم المسئولون عن القصف الاستراتيجى الذى أودى بحياة مئات الألوف من المدنيين من دول المحور من التكريم مثل سائر القادة . ولما كان انتشار النزاعات المحدودة يؤدى الى انهيار الهيكل الثالوثى ، فسوف تركز الاستراتيجية القادمة على ازالة الخط الفاصل بين من يقاتلون ومن يتابعون ومن يدفعون ويعانون . وبالتالى فسوف يتقوض على الأرجح ميثاق الحرب الحالى فى هذا المجال أيضا .

ولن يكون بوسع النظم صانعة النزاعات المحدودة أن تبسط سيطرتها على الأراضى الشاسعة المتجاورة ، لا فرق فى ذلك بينها وبين الحكومة فى القرون الوسطى ومطلع العصر الحديث . وفى ظل مثل هذه الظروف ستصبح الحرب شيئا يلمسه معظم المدنيين بشكل مباشر ، ان لم يكونوا يمارسونه ، لدرجة أن كلمة « مدنيون » نفسها قد تفقد معناها ، فلن يكون تعرضهم للحرب حدثا عارضا من قبيل الصدفة - كحالة التعرض للقصف الاستراتيجى - وانما سيخوضونها بشكل مباشر كمشتركين ومستهدفين وضحايا . ولسوف تعود بلا شك ممارسات ظلت على مدى ثلاثة قرون تعتبر أعمالا غير متحضرة كاختطاف المدنيين من أجل الحصول على الفدية . ولقد عادت بالفعل مثل هذه الممارسات فى العديد من البلدان التى تعانى من النزاعات المحدودة ، بل انها لم تتوقف مطلقا فى واقع الأمر فى بعض البلدان .

وفيما يتعلق بموقف ميثاق الحرب من الآثار الثقافية والأعمال الفنية والأماكن المقدسة وما شابه ، فالنظام القائم المنصوص عليه فى القانون الدولى يعتبرها تستحق الحماية بقدر ما تسمح به الضرورات العسكرية ، غير أنه من المتوقع أن يتبدل الحال مع انتشار النزاعات المحدودة فى المستقبل . وتتمثل الزاوية الوحيدة التى لا ترتبط فيها الأعمال الفنية

والآثار الثقافية بالحرب فى أن مصمميها من الأفراد والمجموعات ليس لهم أى وزن سياسى يذكر فى الدولة • ولما كان الهدف السياسى للنزاعات المحدودة هو النزول « بعتبة الوزن السياسى » من مستوى الدولة الى مستوى التنظيمات والمجموعات والأفراد ، وبما أن الشعب صار بصفته الذاتية يكتسى وزنا سياسيا ، فلا تستحق أعماله العلمية أو الفنية أى قدر من الاحترام • وللدلالة على ذلك من واقع التاريخ نسوق مثال اللورد كامبرلاند الذى أمر ، فى اطار احلال السلام فى سكوتلندا فى منتصف القرن الثامن عشر ، باعدام العازفين بمزمار القربة وآلاتهم باعتبارها فى أسلحة الحرب •

وقد جرت العادة فى النظام الوضعى السائد على مراعاة حرمة الكنائس والأماكن المقدسة الأخرى ما دامت بعيدة عن السياسة • غير أن مثل هذا الوضع قد لا يستمر مع الأجيال القادمة • ويكفى أن يرجع المرء الى التوراة ليلحظ ان الهيئات الدينية لم تكن على مدى معظم فترات التاريخ تحظى بأية حصانة ، بل على العكس كانت تعد من أولى الأشياء المستهدفة • وكان أسر الرموز الدينية للعدو يفتح الطريق لتحقيق النصر ، أما الفشل فى ذلك فكان بمثابة سبب للهزيمة وبرهانا لها • وحتى فى زمن النهضة والاستنارة فى الغرب كان أول شىء تفعله القوة البروتستانتية عندما تستولى على احدى المدن هو أن تتخلص من الأساقفة والمطارنة وتهدم التماثيل ثم تقوم بتنظيف الكنيسة واقامة الصلاة شكرا للرب الذى تفعل كل هذه المآسى باسمه • وبما أن النزاعات المحدودة تختلف عن الحرب التقليدية فى أنها لا ترتبط بالمؤسسات فانها ستركز على الأهداف الرمزية، ولذلك فان كل ما هو أصلى جميل ومقدس سيكون فى مقدمة أهدافها •

ويلوح فى الأفق مزيد من التغيرات فى اطار النزاعات المحدودة • ويعتبر معظم الناس ان التمييز بين الممتلكات الخاصة والعامة أمرا مسلما به ، وتلك مسألة تعد من زوايا عديدة من نتاج الدولة الثالوثية الحديثة • ولا يبدو أن مثل هذا التمييز سيراعى فى مستقبل تسوده النزاعات المحدودة ، فمن شأن مثل هذه النزاعات أن تؤدى الى زيادة استخدام الأسلحة المحظورة فى عالم اليوم مثل الغاز ، وذلك لأنها أسلحة رخيصة الثمن سهلة الصنع وتناسب الأماكن السكنية المغلقة • ويرتبط كل ذلك بنقطة محورية مهمة أشرنا اليها سالفا ، فما أن تخرج الهيمنة المشروعة على القوات المسلحة من أيدى الدولة سينهار التمييز القائم بين الحرب والجريمة ، مثلما يحدث اليوم فى أماكن مثل لبنان وسريلانكا والسلفادور وبيرو وكولومبيا ، وسوف ترتكب الجرائم بوصفها حروبا ، بينما ستعتبر الحرب فى أماكن أخرى بمثابة جرائم •

ولا يعنى ذلك أن كل القيود ستتلاشى عندما تحل النزاعات المحدودة محل الحرب التقليدية ، فكما قلنا سابقا من المستحيل أن تدوم ادارة الحرب بدون ميثاق للحرب ، أى بدون مجموعة من الأفكار المشتركة الواضحة التى تحدد على سبيل المثال ما الذى تدور حوله الحرب • فالارهابيون لديهم دافع قوى لأن يتميزوا عن القتلة العاديين ، فهذا التمييز على وجه التحديد هو الذى سيرتهن مصيرهم به ان وقعوا فى الأسر • ورغم ان العلاقة بين عصابات المافيا تماثل ظروف الحرب الدولية هناك اتفاق بين قيادات وأعضاء هذه العصابات على ألا يكون زوجاتهم وأولادهم هدفا لعملياتهم • وتفيد الخبرة العملية ، وأيضا الاعتبارات النظرية ، بأن غياب أوجه التمييز القديمة لن يؤدى بالضرورة الى التردى فى فوضى كاملة • فمع الوقت سوف يظهر ميثاق جديد للحرب ، وقد يقوم على التمييز بين « المدان » و « البرىء » • ولن يخلو الميثاق الجديد من الأخطاء ومن التفسيرات المختلفة ، بل ومن المخالفات المتعمدة ، الا أن ذلك لا يعنى أنه لن يكون موجودا أو أن أحدا لن يبالى به •

غير أن الحقيقة التى ينبغى التركيز عليها هى أن محاولة التكهن بما سيكون عليه الأمر فى المستقبل تقل فى أهميتها عن ضرورة السعى الى التمسك بالدور الذى يلعبه ميثاق الحرب حتى فى الوقت الراهن • فمن شأن القوة المسلحة التى تنتهك ميثاق الحرب لمدة طويلة أن يؤول بها الأمر الى التفتت ، وكلما كانت تلك القوة أشد بأسا انطبق ذلك بشكل أكبر ، حيث ستزداد صعوبة تبرير اقدامها على كسر القواعد • ومن ناحية أخرى فان ميثاق الحرب يتغير من مكان لمكان ومن زمان لزمان ، ومن ثم فلا شىء يقلل من احتمالات نجاح ادارة النزاع المسلح مثل اتخاذ ميثاق الحرب القائم كأمر مستديم مسلم به •

* كيف سيدور القتال فى الحرب

وقد نتفق ان الحرب التقليدية تلفظ أنفاسها الأخيرة كرجل أصيب بطلق نارى فى رأسه ، ومع ذلك مازال يحاول وهو يترنح السير بضع خطوات • وسوف تثبت الأيام مع انتقال الهيمنة والتحول الى النزاعات المحدودة ان معظم ما كان يجرى باسم الاستراتيجية على مدى القرنين الماضيين كان عديم الجدوى • وسوف يؤدى هذا التغير الى زوال فائدة الكثير من نظم الأسلحة الحديثة ، لاسيما تلك الأكثر تقدما والأشد فتكا ، والى تناقص الأبحاث التكنولوجية العسكرية واسعة النطاق والحد من التطور بمفهومنا الحالى •

وتعد الاستراتيجية التى تحدثنا عنها فى هذا الكتاب استراتيجية عامة تنطبق أينما وحيثما اندلعت الحرب • فالحرب تحتاج قوات مسلحة ، وما أن تنشأ القوات المسلحة حتى تبدأ المشاكل فى الظهور لا سيما اللبس والاحتكاك وعدم المرونة ، ولابد من التصدى لهذه المشاكل ومعالجتها • ومن ناحية أخرى ، فلابد أيضا من اتخاذ قرارات فيما يتعلق باستخدام الأسلحة مع الأخذ فى الاعتبار بأننا نتعامل مع عدو ينبض بالحياة ولديه القدرة على الرد • ويسرى كل ذلك بغض النظر عن مدى اتساع نطاق النزاع أو عن الوسط الذى يجرى فيه سواء أكان فى البر أم البحر أم الجو أو حتى الفضاء ، كما أنه يسرى بغض النظر عن الأسلحة المستخدمة الا لو كان هناك وضع يتبدد فيه اللبس ولا يلتفت فيه لرد العدو ، حيث تنتهى الحرب بضربة واحدة • وذلك يفسر لماذا لا تعتبر الاستراتيجية النووية استراتيجية على الاطلاق • ولو نحينا هذه الحالة جانبا فسنجد أنه ليس ثمة ما يميز الاستراتيجية بقدر طابعها التبادلى والتفاعلى • ومن هذا المنطلق تعد الاستراتيجية مفهوما عاما موحدا ، بغض النظر عن المكان والوسائل والأهداف ، بل وبغض النظر عما اذا كان الأمر يتعلق بحرب أو بمباراة رياضية •

أما الاستراتيجية الكلاسيكية على نحو ما فهمها جومينى وكلاوزيفتيس ومعظم رسل الحرب التقليدية اللاحقين فهى نتاج فترات وظروف معينة • ويفترض فن « استخدام المعارك من أجل تحقيق أهداف الحرب » أن يكون لدى الجانبين حجم كبير من القوات المسلحة وأنه يمكن التمييز بين هذه القوات ، حيث تفصل العوامل الجغرافية بين الجانبين ، وأنهما يتمتعان على الأقل بقدرة كبيرة على الحركة • كما ينطوى ذلك أيضا على افتراض بأن مدى الأسلحة محدود وهو افتراض تتضاءل صحته يوما بعد يوم • ثم ان هناك سلسلة أخرى من العوامل والمفاهيم التى تعد من المسلمات من وجهة نظر الاستراتيجية التقليدية ومنها ، على سبيل المثال لا الحصر ، الوحدات البرية الكبرى والمعارك بوصفها شيئا يتميز عن الحملات من ناحية وعن المناوشات من ناحية أخرى ، والجبهات والخطوط الخلفية و « العمق الاستراتيجى » والقواعد والأهداف وخطوط الاتصال • غير أنه يكفى للمرء أن يلقى نظرة سريعة على التاريخ العسكرى حتى يدرك أنه لا المفاهيم ولا العوامل تعد شيئا أبديا أو من المسلمات • وذلك يفسر لماذا لم يستخدم لفظ « استراتيجية » الا فى وقت متأخر من القرن الثامن عشر رغم أنه مستمد أصلا من اللغة اليونانية القديمة •

ولقد كان دائما تطبيق الاستراتيجية بمفهومها الكلاوزيفيتسى على النزاعات المحدودة مثار جدل • وحتى عندما ألف جومينى كتابه « خلاصة

العمليات الحربية الكبرى » كان رجال حرب العصابات الأسبان يثبتون عمليا أنه بوسعهم تماما شن حرب على نطاق محدود وبالغة الضراوة . وكان معظم المشتركين فيها من الفلاحين والنساء والأطفال ورجال الدين الذين لم يكونوا حتى قد سمعوا عن الاستراتيجية . وفي مواجهة أعتى قوات مسلحة تقليدية عرفها التاريخ حتى ذلك الحين ، حارب الثوار بدون « جيوش » ولا حملات ولا معارك ولا قواعد ولا أهداف ولا خطوط داخلية أو خارجية ولا نقاط ارتكاز أو حتى وحدات محددة المعالم .

صحيح أن حروب الثوار لم تكن دائما تكلل بالنجاح ، ولكننا سمعنا منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا آلاف المرات ان حرب الثوار لا تمت بصلة للاستراتيجية . ولقد وصف ماوتسى تونج رجال حرب العصابات بأنهم كالأسماك فى « بحر » من السكان ، ويتجسد وجه التماثل هنا على وجه التحديد في ان البحر ليس له أى معالم تميز جزءا عن جزء فيه . ولقد اكتشف الأمريكيون أيضا فى فيتنام ان الاستراتيجية التى تدرس فى كليات القادة والأركان والحرب لا تصلح لفهم « الحرب بلا حدود » ، ناهيك عن دارتها بنجاح . ومن هذا المنطلق يظهر بوضوح عدم التلاؤم الجغرافى للاستراتيجية وفقا للمفهوم السائد منذ عهد جومينى وحتى ليدل هارت ، وذلك يفسر لماذا لم يذكر ليدل هارت مثلا واحدا من القرون الوسطى حيث كانت الحروب تشبه من عدة زوايا النزاعات المحدودة .

واذا كانت النزاعات المحدودة هى بالتأكيد موجة المستقبل فلا شك ان الاستراتيجية بمفهومها الكلاوزيفيتسى ستتلاشى ، وقد يقول البعض انها أصبحت اليوم بالفعل لا تزيد عن مجرد ممارسة عملية ايهام مقصورة على مباريات الحروب أو بحوث العمليات التى تمارسها هيئات الأركان . ولو اندلع قتال ضار فى المستقبل ، فمن المتوقع أن تكون القوات المسلحة لأطراف القتال متشابكة متداخلة فيما بينها ومختلطة مع السكان المدنيين. ولذلك فسوف تتحول المعارك فى النزاعات المحدودة الى عملية مناوشات وقصف بالقنابل ومذابح . وسوف تتحول القواعد الى مخابىء وملاجىء ، والأهداف الجغرافية الكبرى الى نوع من السيطرة الشعبية التى تتحقق بمزيج من الدعاية الاعلامية والارهاب .

ومن المنتظر ان يؤدى انتشار الحروب العشوائية محدودة النطاق الى تغير شكل القوات المسلحة النظامية نفسها والى تقاص حجمها ، وسوف تتحول مهمة حماية المجتمع من تهديدات النزاعات المحدودة الى نوع من الأعمال التى تكفل الأمن . كما أن طبيعة مواجهة النزاعات المحدودة سوف تؤدى — كما حدث بالفعل فى لبنان والعديد من البلدان الأخرى — الى

الاستغناء عن القوات النظـــامية لتحل محلها قوات الشرطة ، وفى حالة استمرار المعارك لفترة طويلة ربما اقتضت المواجهة الاستعانة بأفراد من العمليات الخاصة • واذا كانت معظم الميليشيات ترتدى حاليا ما يشبه الزى الموحد ، فان ذلك سيستبدل فى المستقبل بمجرد علامات أو اشارات على الصدر أو الأذرع •

ولعلنا ننتقل بالحديث الآن الى الأسلحة التى ستستخدم فى حرب المستقبل • ولقد واكب استخدام لفظ « إستراتيجية » فى أواخر القرن الثامن عشر بداية استخدام أسلحة الأطقم ــ التى طالما هيمنت على حروب الحصار ــ فى ميادين القتال • واعتبارا من منتصف القرن التاسع عشر بدأ الاتجاه للاستعاضة عن الأسلحة الفردية بأسلحة الأطقم ، ويعد ذلك من أبرز سمات الحرب الحديثة • وكان معظم تلك الأسلحة مصمما أساسا للاستخدام فى حملات الابادة فى الأراضى المفتوحة • وكان بعضها ــ مثل المدرعات ــ لا يصلح للاستعمال فى شىء آخر • وكان بعض الأســلحة الأكثر فتكا مخصصا لمهاجمة الأهداف التى تقع فى عمق دفاعات العدو • أما فيما يتعلق بالقاذفات التقليدية والصـــواريخ الباليستيكية ، فكان استخدامها يقتضى عدم وجود أية قوات صديقة فى دائرة يبلغ نصف قطرها بضعة أميال لعجزها عن اصابة أهدافها بدقة •

واذا كانت الالكترونيـــات والكمبيوتر قد أدخلت قدرا هائلا من التطور والدقة على الأسلحة المختلفة ، فمازالت معظم الأسلحة حتى يومنا هذا ــ بما فيها المدفعية الثقيلة والصواريخ والطائرات ــ لا تصلح لالحاق قدر كبير من الخسائر بعدو يحسن الانتشار على نطاق واسع أو يختلط بالسكان المدنيين أو بقوات صديقة • ولذلك صار التداخل مع قوات العدو ومع السكان المدنيين والانتشار من سمات النزاعات المحدودة • واذا كان ثمة درس يستفاد من عدد لا حصر له من مثل هذه النزاعات ، من فيتنام الى نيكاراجوا ومن لبنان الى أفغانستان ، فهو أن معظم الأسلحة الأكثر تطورا لا تصلح للاستخدام فيها •

ويتضح من هذا التحليل أن معظم أسلحة الأطقم الحديثة ــ لا سيما أشدها قوة وأكثرها تطورا ــ صارت مثل الديناصورات ، ومن ثم سوف تؤل الى الانقراض والفناء ، وقد بدأت بالفعل تلك العملية بالنسبة لبعض الأســـلحة • فلقــد كان بوســـع الولايات المتحــــدة خـــلال الحرب العالمية الثانية انتاج ما يصل الى مائة ألف طائرة فى السنة ، أما اليوم فهى لا تكاد تنجح فى بيع مائة طائرة فى العام • ويعزى ذلك فى جانب منه الى الثمن الباهظ للقطعة الواحدة حيث يصل سعر القاذفة « ستيلث » على سبيل المثال الى ٥٠٠ مليون دولار • وقد أدى هذا الارتفاع الخيالى فى ســـعر الأســـلحة الى الحد بشكل كبير من استخدامهـــا فى التدريب

والتجارب ولذلك ابتكرت المحاكيات • ومن ناحية أخرى فعندما تندلع النزاعات المحدود ، فان فرصة استخدام هذه الأسلحة تكاد تكون معدومة ، اذ ليس من الحكمة المغامرة بنظم باهظة الثمن ضد اناس لا يعتبرون حتى جنودا ، ولذلك ، فقد كانت الغارة الأولى التى شنتها القوات الجوية الأمريكية على لبنان ، وأسفرت عن سقوط طائرتين يصل ثمنهما الى ستين مليون دولار ، هى الأخيرة •

ولن يمضى وقت طويل حتى تتوقف الأبحاث التكنولوجية العسكرية الكبرى وعمليات التطور الهائلة التى شهدها التاريخ منذ بداية الثورة الصناعية • وحتى فى يومنا هذا لم تعد عمليات البحوث والتطور فى جانب كبير منها الا لعبة جوفاء هدفها الأساسى توفير فرص العمل وكفالة سبل العيش للمهندسين • فلم يعد مقبولا بالنسبة للمجتمع بصفة عامة انتاج أسلحة باهظة التكاليف ، شديدة السرعة وبالغة التعقيد وذات قوة هائلة لا تفرق ولا تميز ولا تلائم الحروب الواقعية • كما لم يعد مقبولا انتاج أسلحة لا تغطى نفقاتها الا صفقات بيعها للآخرين ، لاسيما أن الفاصل الزمنى بين التعاقد وزمن التسليم قد صار طويلا يتراوح بين عشر وخمس عشرة سنة ، بحيث قد يحدث وينقلب المتعاقد خلال هذه الفترة الى عدو • وهذا هو صدام حسين قد انقلب بعد ان حصل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا وغيرها على كم هائل من الأسلحة فيما بين ١٩٨٠ و ١٩٩٠ ، الى عدو لها يحاربها بما حصل عليه منها من أسلحة •

ولا يعنى ذلك انه لن يكون هناك دور للتكنولوجيا الحديثة فى المستقبل العسكرى ، ولكن ما نعنيه هو انها ستتحول من انتاج المعدات الضخمة المكلفة القوية الى تصنيع الآلات الصغيرة الرخيصة التى يمكن انتاجها بأعداد كبيرة واستخدامها فى أى مكان ، تماما مثلما حدث فى الماضى عندما حلت الأسلحة النارية محل الفارس المثقل بدروعه • ويجرى الآن بالفعل استخدام الكروت الممغنطة التى تكشف عن هوية صاحبها وتتيح دخوله وخروجه من المبانى • وسوف تجهز هذه الكروت مستقبلا بأجهزة ارسال دقيقة يتم ربطها بالكمبيوتر لتتيح اقتفاء أثر حاملها أثناء تحركاته فى المناطق الأمنية والقواعد والمنشآت الخاصة • ويمكن كذلك تجهيز اللوحات المعدنية للسيارات بشىء مماثل • ولقد صارت كاميرات الرقابة والدوائر التليفزيونية المغلقة مستخدمة على نطاق واسع لتصور ما يجرى داخل الأبنية • وقد عمدت قوات الدفاع الاسرائيلية الى مراقبة الانتفاضة الفلسطينية عن طريق كاميرات مثبتة فى مناطيد • ومن ناحية أخرى فقد بدأ أيضا السباق بين التلصص وأجهزة التصنت ، وبين أجهزة المراقبة التليفزيونية وكافة أنواع المتفجرات والشراك الخداعية التى يستخدمها الارهابيون ••

وقد تكتسى تكنولوجيا الرقابة أهمية بالغة ، فقد استخدمت على سبيل المثال الكاميرات المخصصة لمراقبة حركة المرور فى شوارع الصين فى التعرف على المشاغبين فى اعقاب اضطرابات ١٩٨٩ · واذا كان هناك اعتقاد بأن المعدات التقنية تتيح قمع الحروب المحدودة بما يهيىء الفرصة لقيام دكتاتورية شمولية دائمة ، فهو اعتقاد خاطىء حيث أثبتت الأحداث أن تسيطر على أعضائها بنفس الطريقة وبنفس القدر مثلما كان عليه الحال يمكن أيضا ان تستغل لقلب هذه النظم · وكلما كانت التكنولوجيا متقدمة وميسرة زاد عبء العمل الرقابى المستمر وليس العكس · وليس هناك ما يبعث على السأم أكثر من استمرار التطلع الى شاشة تليفزيونية لمراقبة شىء ما · ومهما كان استخدام الذكاء الاصطناعى وشبكات الكمبيوتر يحد من هذه المشكلة فما زال العامل البشرى فى أى نظام أمنى يشكل نقطة الضعف فيه · فقد يفقد الفرد المراقب مع الوقت يقظته مهما كانت دوافعه ، وقد يقع فريسة الحيل الماكرة أو الرشوة أو حتى قد يتعرض للعنف أو الاكراه ·

ولقد كانت المؤسسات العسكرية حتى وقت قريب تعتبر ـ عندما تخوض الحرب ـ ان الولاء الوطنى مسألة بديهية الى حد كبير · غير أن تلك الميزة ستتلاشى فى المستقبل ، بل انه لن يكون بوسع هذه المؤسسات أن تسيطر على أعضائها بنفس الطريقة وبنفس القدر مثلما كان عليه الحال فى ظل سيطرة الدولة · ولن تعترف الهيئات التى ستصنع الحرب فى المستقبل بذلك التمييز الذى كان يتيح للحكومة وحدها ـ وليس الأفراد ـ ان تستفيد من الحرب · وسوف تمنح هذه الكيانات أفرادها مزيدا من الحرية لتلبية رغباتهم الخاصة بشكل مباشر على حساب العدو · وما أن تصير الرغبات الشخصية الخاصة من الدوافع المشروعة ، حتى يصبح لجوء الأفراد أو الوحدات بأكملها الى التدمير والغش والإدعاءات الكاذبة من الأساليب المتفشية تماما مثلما كان يحدث فى الماضى · وقديما قال الملك فيليب الثانى والد الاسكندر الأكبر انه لو فشل جيش فى العبور فسوف ينجح حمار يحمل ذهبا · ويبدو ان ذلك سوف يشكل جوهر الاستراتيجية القادمة ·

وتفيد تجارب العقدين الماضيين ان أحلام المؤسســات الصـناعية العســكرية فى اندلاع الحروب بعيدة المدى والتى تعتمد على الكمبيوتر والتكنولوجيا المتقدمة لن تتحقق · فسوف تجرى النزاعات المسلحة على الأرض بواسطة البشر وليس فى الفضاء بواسطة الروبوت ، سوف تكون أقرب لصراعات المجتمعات القبلية منها الى الحروب التقليدية واسعة النطاق التى عرفها العالم فى ١٩٧٣ و ١٩٨٢ و ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ و ١٩٩١ ·

وبما أن أطراف النزاع سيكونون متداخلين فيما بينهم ومع السكان المدنيين فلن تطبق الاستراتيجية الكلاوزيفيتسية ، وسوف تكون الأسلحة أقل ـ وليس أكثر ـ تطورا • لن تكون الحرب مباراة يلعبها رجال متأنقون في غرف مكيفة أمام شاشات تليفزيونية يدوسون فيها على الأزرار ويحركون الرموز ، سوف تكون القوات أقرب الى رجال البوليس (أو الى القراصنة) منها الى قوات الدفاع ، ولن تجرى الحرب في ميادين مفتوحة ، بل في البيئات المكتظة سواء بالكائنات الطبيعية أو المنشآت البشرية ، سوف تعتمد الحرب على أجهزة التصنت وعلى العربات الملغومة وعلى القتال بين الرجال عن قرب وعلى النساء اللاتى يحملن المتفجرات في أكياس نقودهن ويروجن المخدرات لشرائهـا • سوف تكون حربا ممتدة دموية تموج بالفظاعات •

❋ ما الذي ستشن من أجله الحرب

ومثلما ان الزواج لم يكن دائما النهاية المحتومة للحب ، لم تكن الحرب كذلك تندلع دائما من أجل تحقيق « مصلحة » • والواقع ان كلمة « مصالح » بالمعنى المقصود في هذا السياق لم تستخدم الا في القرن السادس عشر • وتشير الأمثلة الواردة في قاموس أوكسفورد الانجليزي الى أن هذا اللفظ استخدم أولا بالنسبة للأفراد ، ثم انسحب بعد ذلك على الدول • وقد شكل ادخال هذا اللفظ جزءا لا يتجزأ من وجهة النظر العالمية الحديثة • أما « الواقعية » فهي الاسم الذي نطلقه على المدرسة التى تقوم على القوة أكثر منها على العدل أو الدين • فبعد نظريات نيوتن لم تعد مواقع النجوم تفسر الا بعلاقة القوة بينها ، كذلك الحال بالنسبة للدول •

ولم يكن السبب الرئيسي لاندلاع الحروب اعتبارا من عهد Joshua هو تحقيق « المصالح » وانما كان القتال في سبيل المجد الالهي • ولم يكن المفكرون حتى عام ١٥٠٠ يعتبرون استخدام القوة المسلحة من أجل تحقيق « المصالح » شيئا مشروعا ، بل على العكس ، فقد كان ذلك يعتبر انتهاكا لتعاليم الرب يستحق العقاب • وكان ذلك هو الأساس الذي قامت عليه فكرة « الحرب من أجل اقرار العدل » التى هيمنت بشكل أو بآخر على الحضارة الغربية لما يربو على ألف عام • وكان مكيافيلي هو أول من أرسى في القرن السادس عشر تمييزا مطلقا بين الأخلاقيات العامة والأخلاقيات الخاصة • وقد أطلق بذلك اشارة البدء لحوار حول المفهومين امتد لحوالى قرنين من الزمان • وكان لظهور « الدولة » أثره في اقصاء مفهوم « العدل » ليحل محله مفهوم « المصلحة » • ولقد ترسخ المفهوم الجديد حتى ان أية محاولات تجرى حاليا لشرح حركة البشر على أساس اعتبارات أخرى تقابل بالتشكك لدرجة تقوض أى تفسير من أساسه ، فأى عمل مهم لابد أن وراءه سببا نفعيا ولابد أن يكون هذا السبب « حقيقيا » •

والواقع أن المصلحة لعبت دائما دورا ، ودورا بارزا ، حتى فى الحروب التى قيل انها اندلعت من أجل العدل أو الدين أو الزهو والخيلاء • فعندما أعلن الرومـان انهم هم الطرف المظلـوم وزحفوا الى الحرب فى أساطيلهم ، كانوا يستهدفون فى الوقت نفسه ـ وقد يقول قائل انهم كانوا يستهدفون أساسا ـ بسط هيمنتهم والسعى الى جلب مجموعة جديدة من الغنائم والعبيد • ويعنى ذلك أن مزج الرومان للمصلحة مع المجد والدين والعدل وعوامل أخرى عديدة ، يعكس نسيجهم الاجتماعى ويختلف عن حالتنا بقدر ما تختلف نوعية تنظيمهم السياسى عن تنظيمنا • ومن هذا المنطلق ، فما من سبب يبعث على الاعتقاد بأن المزيج القائم حاليا هو مزيج محتوم ودائم ، بل انه نتاج ظروف تاريخية معينة ، ومن ثم فهو قابل للتغيير •

وثمة صعوبة بالغة فى التكهن بالاتجاهات التى سوف يتخذها التغير المنتظر • وانطلاقا من مجريات الأمور فى الحاضر قد يكون الدين هو أبرز هذه الاتجاهات ، حيث من المتوقع أن تلعب المواقف الدينية والمعتقدات والتعصب دورا فى تحريك النزاعات المسلحة يفوق ذلك الذى شـهده الغرب على مدى الـ ٣٠٠ عام الأخيرة • ويعد الاسلام هو الدين الأسرع نموا فى العالم فى الوقت الراهن ، وهناك أسباب عديدة لذلك ، ولكن قد لا يكون من الشطط القول بأن ما ينطوى عليه هذا الدين من نزعة عسكرية هو أحد العوامل وراء انتشـــاره • ولا نعنى بذلك القول بأن الاسلام لا يحث على القتال من أجل تحقيق أهدافه فحسب ، بل ان الناس فى كثير من بقاع الأرض ـ بما فيهم المجموعات المضطهدة فى العالم المتقدم ـ يجدون على وجه التحديد جاذبية الاسلام فى نزعته القتالية • وسوف تؤدى عودة الدين كدافع للنزاعات المســلحة الى تغيير ميثـــاق الحرب بالطبع •

ولو استمرت النزعة العسكرية لأحد الأديان تنمو بشكل مضطرد فلابد أنها ستبعث الأديان الأخرى على أن تحذو حذوها • وسوف يعمل الناس على الدفاع عن أفكارهم وأساليب حياتهم وعن وجودهم ولا يمكن ان يتم ذلك الا تحت لواء فكرة عظيمة وقوية • وقد تكون الفكرة وضعية بطبيعتها ، ولكن كون القتال سيدور من أجلها فذلك سوف يلبسها ثوبا دينيا • ومن ثم قد تجلب الصحوة المحمدية بعث المسيح الرب ولكنه لن يكون اله الحب ولكن اله المعارك •

ولما كانت الحرب ستندلع فى المستقبل من أجل حماية أرواح البشر فسوف يتراجع الاهتمام بالتوسعات الاقليمية • وقد شهد التاريخ فترة

فى قديم الزمان كانت تعتبر فيها الأقاليم ، بل وبلدان بأكملها نوعا من الممتلكات التى يتبادلها الحكام سواء بالوراثة أو الاتفاق أو حتى بالقوة • أما اليوم فقد أدت النزعة الوطنية الى ايجاد وضع لا يحتل فيه الناس قطعة من الأرض لأنها ذات قيمة معينة ، ولكن على العكس ، فان الأرض ـ مهما كانت بعيدة أو معزولة ـ تكتسب قيمتها من منطلق أن هذا الشعب أو ذاك يحتلها • وثمة أمثلة عديدة تدلل على ذلك ، وسنكتفى هنا بذكر اثنين منها فقط : فمنذ عام ١٩٦٥ على الأقل تتصارع الهند وباكستان على ملكية نهير متجمد بعيد عنهما لا يكاد يظهر على الخريطة • والمثل الثانى هو ان مصر قد بذلت اعتبارا من عام ١٩٧٩ جهودا دبلوماسية جبارة على مدى تسع سنوات من أجل استعادة طابا ، وما هى الا قطعة أرض تقع جنوب ايلات ولا يزيد طولها على نصف ميل من الصحراء المطلة على البحر ، ولم يكن أحد يلقى لها بالا سواء فى مصر أو اسرائيل قبل توقيع اتفاقية السلام بكامب ديفيد ، وفجأة أصبح كل طرف يعتبرها من « المقدسات » الوطنية حتى ان العديد من المقــاهى فى القــاهرة اتخذت من « طابا » اسما لها •

ومن منطلق الاسترشاد بالماضى سوف نسلط الضوء مرة أخرى على الفترة ما بين معاهدة وستفاليا والثورة الفرنسية • فعلى مدى كل الحروب التى اندلعت خلال هذه الفترة ـ وبعضها كان على درجة بالغة من الضراوة بما أدى الى سقوط عشرات الألوف من الضحايا ـ ساعد ارساء مبدأ شرعية الحكم على ايجاد وضع لم يحدث فيه أن أطيح بسلالة حاكمة أو حتى تم استبدالها • وحتى عندما احتل الروس برلين فى عام ١٧٦٠ لم يكن من الوارد بالمرة الاطاحة بفريدريك الأكبر أو تدمير الدولة البروسية • ثم بدأ فى عام ١٧٨٩ عهد أصبحت فيه الاطاحة بالملوك من الأمور الطبيعية فانتقلت « الحرمة » من السلالة الحاكمة الى الحدود الاقليمية • وقد ترسخ ذلك المبدأ بعد الحرب العالمية الثانية وتأصلت جذوره بعد ان أدرج فى القانون الدولى الذى نص على حظر تغيير الحدود الدولية باستخدام الحرب • ولو حدث أن انتهكت السلامة الاقليمية لبلد ما فالجميع يشعر بأنه مهدد • غير أنه لا ينبغى أن يفهم من ذلك أن الحدود الدولية شىء ثابت ومستديم ، أو أن الحروب المحدودة التى ستندلع فى المستقبل ستترك الأمر على حاله • ولو رجعنا الى الأسلوب الذى تصرف به السوريون والاسرائيليون فى لبنان فسوف نستنتج أن الهدف لم يكن الغاء الحدود بقدر ما كان تقويض مغناها •

ومن المتوقع أيضا ان يؤدى انهيار الحرب التقليدية الى مزيد من الاهتمام بمصالح الأفراد المتربعين على القمة ، على خلاف مصالح الكيانات

التى يرأسونها • وقد جرت العادة منذ القرن الثامن عشر على أن يفصل الحكام مصالحهم الشخصية عن مصالح مؤسساتهم السياسية • وثمة أجهزة فى معظم الدول المتقدمة مهمتها العمل على منع الفساد • غير أن انتشار النزاعات المحدودة سوف يؤدى الى تهديد « الحياة الخاصة » للزعماء مثلما كان يحدث فى القرون الوسطى • ومع انهيار نظام « الدولة » سوف تذوب الفوارق بين الزعماء وتنظيماتهم المسئولة عن صنع الحرب • ولن يكون ذلك بالطبع بلا تأثير على أهداف الحرب وعلى نوعيات المكافآت التى سينالها من يديرونها •

ولن يكون المقاتلون فى المستقبل أفرادا محترفين يؤدون واجبهم تجاه كيان سياسى معين ، ولذلك فليس من المستبعد أن يكون ثمة نوع من الاكراه لحمل الناس على القتال • ولما كانت الأولوية ستعقد لمصالح الزعماء فسوف ينسحب ذلك بالطبع على مرؤوسيهم ، ومن ثم سوف يبرز من جديد المجد الشخصى والمصالح الفردية والسعى الى كسب الغنائم ، ليس كمجرد مكافأة مقابل الاشتراك فى القتال ، ولكن كنوع من الأهداف المشروعة للحرب • وسوف تعود مرة أخرى مسألة البحث عن المرأة والاشباع الجنسى • وبما أن التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين سيتلاشى فلا شك أن مثل هذه الأمور ستصبح مباحة بقدر أكبر مما يحدث فى ظل قواعد ما يسمى بالحرب المتحضرة ، وتشهد العديد من النزاعات المحدودة المندلعة فى البلدان المتقدمة وقوع مثل هذه الأعمال بالفعل •

ويمكن القول باختصار ان الناس سوف يزحفون للحرب من أجل « مصالحهم » • وان هذه « المصالح » تنطوى على شىء يعتبره المجتمع مفيدا له ، وذلك يعنى ان نظرتنا الحديثة فى الربط بين الحق والقدرة تصلح فى تقديرنا لكل زمان ، والواقع ان تلك المسألة تعد ظاهرة تاريخية لها بداية ونهاية •• وحتى لو سلمنا بأن المصالح هى دائما المحرك للناس ، فهل يزعم أحد بأن الأشياء التى يعتبرها المجتمع اليوم مفيدة ستكون هى نفسها فى المستقبل ؟ • ان تلك الأشياء تتحدد بما يتلاءم مع طبيعة المجتمع وتنظيمه ومعتقداته ، وليست هذه بوجهة نظر فلسفية ، فالمنطق الاستراتيجى نفسه يقتضى فهم دوافع العدو ، وهذا هو أساس أى نجاح فى الحرب •

وأسوأ من ذلك أن المستقبل سيشهد بلا شك حالات لا تنطبق فيها من الأصل فكرة الحرب « من أجل » شىء ما ، كما سيشهد حالات أخرى تبدأ فيها الحرب « من أجل » تحقيق هذا الهدف أو ذاك ثم تنقلب بعد

ذلك الى صراع من أجل البقاء ، وكلما كان ميزان القوة متكافئا زاد احتمال ان يطول أمد الحرب وأن تكون أكثر ضراوة ودموية • وكلما كان ذلك أقرب الى الصحة قلت درجة انطباق العالم الكلاوزيفيتسى على مثل تلك الحالات ، لاسيما التفسيرات الحديثة التى تصر على اعتبار الحرب أداة للسياسة • ويقودنا ذلك الى آخر مسألة سياسـية وهى لماذا ستندلع الحرب •

* لماذا ستندلع الحرب

لقد أوضحنا فى هذا الكتاب ان الأمور المتعلقة بالحرب ـ بما فى ذلك الهيئات التى تخوضها والمواثيق المرتبطة بها والأهداف التى تندلع من أجلها ـ هى وليدة ظروف تاريخية • وحتى لو تغيرت هذه الظروف تظل الحرب هى المحور الثابت المستديم الذى يدور حوله وجود الانسان كله والذى يعطى معنى لسائر الأمور الأخرى فى حياة الانسان • ومن الأقوال المأثورة فى هذا الصـدد قول هيراكليتوس ان « النضال هو أصل كل شىء » •

ولا يبحث هذا الكتاب فى مسألة أن الحرب شىء مغروس بيولوجيا فى الانسان ، فهى لا تختلف عن الاعتبارات الأخرى كالدين والعلوم والعمل والفن • غير أننا نقول ان الحرب ليست بأية حال وسيلة ، وانما يمكن الى حد كبير اعتبارها غاية أو نشاطا بالغ التشويق بدرجة لا يوفرها شىء آخر • ويعزى السبب فى أن الأنشطة الأخرى لا تشكل بديلا لها الى أن تلك الأنشطة تعد على وجه التحديد « متحضرة » أى مقيدة بقواعد وضعية • ولا يعتبر أى نوع آخر من الأنشطة التى يخاطر فيهـا الانسان بحياته الا مجرد مباراة قياسا بالحرب • ورغم أن الحرب تعد هى أيضا نشاطا مفتعلا فانها تختلف عن سائر الأنشطة بأنها تحرر الانسان من كل شىء ، حتى الموت نفسه • وتعد الحرب الشىء الوحيد الذى يستخدم فيه الانسان كل ملكاته ويخاطر بكل شىء ويختبر أقصى قدرة له فى مواجهة خصم على نفس الدرجة من القوة • ورغم أن جدوى الحرب ، أيا كان هدفها ، كانت دائما موضع جدل فالشىء الثابت فى كل زمان ومكان هو انها دائما كانت شيئا مشوقا •

ومن ثم فليس هناك حاجة ـ عند الحديث عن اندلاع الحرب ـ لأن نبحث ما إذا كانت النزعة القتـالية هى شىء مبرمج فى الطبيعة البشرية ، وفى نفس الوقت ليس هناك ما يثبت ذلك • ولقد شهدت

العقود الماضية تجارب ، بعضها بلغ حد الغرابة ، تستهدف تحديد ما اذا كان المخ البشرى يحتـــوي على مركز للنزعة العدوانية ، غير أن تلك التجارب لم تسفر عن شيء محدد • وحتى مع افتراض وجود شيء من هذا القبيل فان العلاقة بينه وبين النشاط الاجتماعى المعروف باسم الحرب ستكون بالغة التعقيد ، ولا يعتقد انه سيأتى يوم يكتشف فيه العلماء وجود « جهاز عصبى قتالى » أو « غدة حربية » أو « جينات عدوانية » • وعلى أى الأحوال فما من أحد حتى اليوم لديه أدنى فكرة عن الجهاز المسئول فى المخ عن مثل تلك الخصائص البشرية المميزة مثل ملكة تقدير الجمال والصدق والخير والقدسية • ولذلك ذهب بعض الناس ـ لاسيما من العلمــاء الذين يجرون مثل هذه التجارب ـ الى اعتبـــار ان مسائل القدسية والخير والصدق والجمال لا تعد من الطبيعة البشرية •

ولا وجه مطلقا للتعارض بين صفة التشويق التى يمكن أن تكتسيها الحرب ـ وعادة ما تكتسيها بالفعل ـ وبين عدم اشتراك كل الناس فى الحرب طوال الوقت وبشكل مستديم ، أو أن بعضهم يسعى الى تجنب ذلك لفترات طويلة • ولا يعنى أن معظم الناس لم يقوموا ولو لمرة واحدة بزيارة متحف أو معرض أو بحضور حفل موسيقى أن اللوحات المرسومة والتماثيل والموسيقى ليست شيئا زائعا • ولا يعنى توجه عشرات الألوف الى الملاعب للتشجيع فى مباراة لكرة القدم أو التفاف مئات الألوف حول شاشات التليفزيون لمتابعة حفنة من اللاعبين أن المباراة ليست ممتعة ، بل على العكس تماما ، فان جانبا كبيرا من كافة أنواع المباريات والأدب والتاريخ والفن وكل الأنشطة التى ابتدعها الانسان على مر التاريخ يعزى الى انه اما ينطوى على محاكاة للحرب أو يشكل بديلا لها • ومن جهة أخرى فلو كانت الحرب شيئا يجرى طوال الوقت وفى كل مكان لأصبحت مملة • وذلك يفسر حتمية وجود نهاية لكل الحروب •

ولا يتعارض ذلك أيضا مع وجود بلدان حرصت على تجنب الحرب لفترات طويلة نسبيا • ولا شك ان قيام الضعيف بالقتال فى وجود القوى يعد ضربا من الحماقة • وقد يساعد ذلك الاعتبار على تفسير موقف بعض البلدان مثل الدانمرك وهولندا ، فقد كانتا مولعتين بالحرب وأصبحتا الآن من الدول المسالمة ، وما أدرانا لعلهما تتخليان مرة أخرى فى المستقبل عن ذلك الموقف • وينسحب نفس الشيء على الأعداء التقليديين مثل فرنسا وألمانيا ، المجر ورومانيا ، بلغاريا ويوغوسلافيا حيث لم يمض وقت طويل على ما كان بينها من عداء مستحكم • أما وقد ظهرت قوى أشد بأسا ، فقد تسبب على الأرجح الحياء أكثر من أى عامل آخر فى فض المنازعات

بينها بعد عام ١٩٤٥ • غير أن العالم مستدير ، وهناك مؤشرات كثيرة فى أوروبا الشرقية وجانب من الاتحاد السوفيتى تفيد بلا أدنى شك بأن القصة لم تصل بعد الى نهايتها •

وحتى الحياد السويسرى ـ ذلك المثل الساطع الكبير ـ فلا يرجع تاريخه الا الى عهد الهياكل الاجتماعية الثالوثية والى عهد « الدولة » التى احتوت هذه الهيـــاكل • ولقد كانت الحرب هى التى دفعت الكانتونات السويسرية فى عام ١٢٩١ الى التحالف لمواجهة عدو مشترك • ثم عرف السويسريون بعد ذلك وعلى مدى ثلاثة قرون بكفاءتهم كمقاتلين ، حتى انهم أصبحوا من أفضل المرتزقة الذين يسعى الحكام الى تجنيدهم • أما التبرير السويسرى لهذا الحياد ـ وهو الموقع الجغرافى لهذا البلد ـ فهو لا يفسر تغير موقفها • ويتعلق الحياد فى هذه الحالة بوجود حدود مشتركة مع عدد كبير من الدول المتاخمة وبقدرة هذه الدول على منع الناس من عبور الحدود • غير أن النزاعات المحدودة ترتكز فى المقام الأول على عدم الاعتراف لا بنظام الدولة ولا بنظام الحدود ، والاستنتاج لا يحتاج لبيان • ولقد وقعت بالفعل حالات بحث فيهـــا ارهابيون من فرنســـا وألمانيـــا الغربية وايطاليا عن الملاذ فى الأراضى السويسرية • ولا شك أن هناك فروعا فى سويسرا للمنظمات الارهابية العالمية • ولو كثر تعرض الدول المجاورة لهذا البلد للنزاعات المحدودة فلا شك أنه سيأتى وقت سيسعد فيه الشعب السويسرى بالانضمام الى القتال •

ويبعث كل ذلك على القول بأن شرح أســـباب وجـــود الحرب لا يستوجب بالضرورة وجود أى أهداف أخرى غير الحرب ذاتها • ولقد تناولنا فى هذه الدراسة أهدافا متباينة كثيرة للحرب تختلف باختلاف الزمان والمكان • ولا شك أن الأجيال القادمة ستكون لها خطوط تفكير مختلفة عنا ، بل قد تكون بعيدة تماما عن خيالنا ، تسعى بها لتبرير الحرب • وأيا كان الأمر فسوف يظل الطابع الجذاب المشوق للحرب ممتدا ، وأية محاولة لفهم الحرب والتخطيط لها وادارتها لا تأخذ فى الحسبان بتلك الحقيقة تؤول فى الغالب الى الفشل • وأيا كانت الحقيقة بغيضة ، فالسبب الحقيقى لوجود الحرب انما هو حب الانسان لها ، والمرأة دائما تحب الرجل المستعد للقتال من أجلها •

ولقد قلنا سالفـــا ان الجوهر الحقيقى للحرب لا يتمثل فى قوم يقتلون قوما آخرين ، ولكن فى استعدادهم لأن يتعرضوا هم أنفسهم للقتل كرد فعل انتقامى اذا لزم الأمر ، وبالتالى فلا سبيل لاحلال سلام دائم الا بانتزاع ارادة الانسان بل وولعه بالمخاطرة بأى شىء ، حتى بحياته •

ولو حدث ذلك نكون قد فعلنا بالانسان ما تفعله المخدرات بمن يتعاطاها ، فهى تحوله الى « زومبى » ، أى انها تفقده ملكاته الأساسية مثل موهبة الابداع والابتكار والفضول وحب اللهو بل ومتعة الحياة نفسها • وتشترك كل هذه الأنشطة فى سمة واحدة وهى انها تنطوى على مواجهة المجهول • ومن شأن مواجهة المجهول أن تؤدى الى الشعور بالقوة وأن تصبح هى نفسها برهانا لها • وتعتبر تلك الأنشطة فى هذه الحالة تقليدا باهتا للحرب • ويذكرنا ذلك بقول هيلموت فون مولتكى بأن السلام الدائم يعد ضربا من الأحلام ، وربما لا يكون حتى حلما ممتعا بالنظر الى الثمن الذى سندفعه فى المقابل •

ولو نحينا جانبا فكرة التأثير على عقل الانسان فسنجد أن المجال الوحيد لالغاء الحرب يتمثل فى زيادة قدرة الحكومة لدرجة تجعل النتيجة مضمونة سلفا • وقد يتصور المرء أنه ربما يأتى يوم يستطيع فيه أحد الأنظمة أن يحقق مثل هذا الهدف ، وان كان ذلك أمرا بعيد الاحتمال • ولا مجال لأن يقوم مثل هذا النظام الا فى أعقـــاب حرب نووية عظمى تستطيع فيها احدى القوى أن تدمر كل ما عداها دون أن تتعرض هى نفسها للابادة • ولابد أن يتبع القصف النووى عمليات شرطية مكثفة ، ولا شك أنها ستجرى فى بيئة ملوثة بالاشعاعات • وسوف يعتمد هـذا النظام ، بعد تأمين السلطة ، على جهاز شرطى قوى وسوف يستخدم معدات تقنية بالغة التطور قادرة على مراقبة كل الناس فى جميع الأوقات • وسوف تعتمد هذه الأجهزة على الآلية التامة فى التشغيل والصيانة لتجنب نقطة الضعف المتمثلة فى العامل البشرى الموجود فى سلسلة التشغيل • غير أن كل هذا النظام لابد فى النهاية أن يكون متصلا بالعقل البشرى سواء بوسائل كيميائية أو كهربائية ، أى أن الروبوت سيسيطر على الانسان ، بل ان الانسان نفسه سيتحول الى روبوت •

ويتمثل الأسلوب الثالث الذى قد يؤدى الى الغاء القتال وبالتالى نبذ الحرب ، فى اشتراك المرأة فيها ، ليس بشكل ثانوى أو سرى ولكن كشريك كامل للرجل فيها • ولسنا هنا بصـــدد الحديث عن الفوارق النفسية بين الجنسين ولا عن أهمية العوامل البيولوجية والاجتمـاعية التى تحكم هذه الفوارق ، ولكن يمكن أن نكرر انه ـ بغض النظر عن الدور المتباين فيما يتعلق بمسائل الحمل والانجاب والرضاعة ـ فليس هناك ما يميز العلاقة بين الرجل والمرأة أكثر من عدم رغبة الرجل فى السماح للمرأة بالاشتراك فى الحرب والقتال • ولو أجبر الرجل على القتال الى جانب المرأة أو ضدها ، فان الأمر سيتحول اما الى حرب صورية يقصد بها اللهو ، أو أن الرجل سيضع سلاحه فى ازدراء • ولو اضطر الرجل لمواجهة

الاختيار بين الحرب والمرأة فغالبا ما سيتخلى عن المرأة قبل أن يتخلى عن الحرب ٠

كل ذلك كان بمثابة تكهنات تكمن أهميتها العملية فى أن القوات المسلحة تتجه لأن تصبح غير ذات جدوى ٠ فما أكثر ما تكرر على مدى العقود القليلة الماضية فشل القوات المسلحة النظامية ـ حتى أعتاها ـ فى مواجهة النزاعات المحدودة ، رغم ما يبدو من أنها تملك كل زمام الأمور بيدها ٠ وكان ذلك كفيلا بأن يجعل الساسة والعسكريين ومعلميهم الأكاديميين ينظرون نظرة عميقة جديدة لطبيعة الحرب فى الوقت الراهن ٠ غير أنه لم تجر أية محاولة لاعـــادة تقييم الموقف ٠ فمازال الخاسرون متشبسين بالاطار الاستراتيجي ويبررون هزائمهم بعوامل ملطفة ، فتارة يدعون التعرض لطعنة فى الظهر ، وتارة يلومون الساسة لرفض اطلاق أيديهم فى التعامل مع خصـــومهم وأخرى يتهمون المجتمع بعدم تقديم المساندة المرجوة ، وفى أحوال أخرى يضعون رؤوسهم فى الرمال ويدعون انهم هزموا فى معركة سياسية أو معركة نفسية أو معركة دعائيـــة أو معركة حرب عصابات أو معركة ارهابيين ، باختصار أى شىء غير الحرب بالمعنى المفهوم ٠

ومع قرب انتهاء القرن العشرين يتضح يوما بعد يوم أن هذا الخط فى التفكير لن يدوم ٠ ولو كنا على استعداد لمجرد النظر ، فسوف نرى أن ثمة ثورة تندلع تحت أقدامنا ٠ ومثلما لم يسلم أحد من سكان رومانيا قديما من الضرر نتيجة الغزو البربرى ، فلن ينجو رجل ولا امرأة أو طفل فى جانب كبير من العالم من تبعات صور الحرب الجديدة ٠ سوف تتغير طبيعة الكيانات التى تضـــع الحرب والمواثيق التى تحكمها والأغراض التى تندلع من أجلها ٠ أما تلك المجتمعات التى تأبى النظر الى حقائق الأمور وتقاتل من أجل البقاء على حالها فسوف تنقرض يوما ما ٠

خاتمـــة

الشـكل القـادم للأمـور

اننا لا نقف اليوم فى نهاية التاريخ ولكن نمر بمنعطف تاريخى . ومثلما رأى الناس فى القرون الوسطى انتصارات الاسكندر وانجازاته كمجرد قصة وهمية باهتة ، سوف ينظر الناس فى المستقبل الى القرن العشرين كعهد انتشرت فيه الامبراطوريات القوية والجـيوش الجرارة وآلات الحرب الخرافية التى تحولت الى تراب . ولن يأسف أحد على انتهاء هذا العهد ، فكل قوم يعتبرون ان عصرهم هو الأفضل ويصنفون الماضى وفقا لما آل اليه أو انبثق عنه من أشياء نعتبرها فى الوقت الحالى ذات قيمة .

واذا لم يتعرض العالم فى المستقبل لهول نووى فسوف تؤول الحروب التقليدية الى الانقراض . ولا يعنى ذلك ان السلام الدائم فى سبيله ليحل على العالم أو أن العنف المنظم سينتهى . فاذا خرجت الحروب بين الدول من أحد جانبى باب التاريخ الدوار فسوف تدخل النزاعات المحدودة من الجانب الآخر . واذا كانت النزاعات المحدودة تضرب اليوم بلدان ما يسمى بالعالم النامى ، فالاعتقاد بأن ذلك الحال سيدوم للأبد أو حتى لمدة طويلة يعد وهما كبيرا . ومثلما يدمر السرطان الجسم بالانتقال تباعا من جهاز لجهاز فان النزاعات المحدودة تعد أكثر صور الحرب عدوى . واذا كان تأثير هذه التطورات على ما يسمى « بالعالم الأول » ظل حتى الآن هامشيا فان هذا العالم لا يضم سوى خمس التعداد البشرى . وهل يضمن أحد الحصانة لمجتمع على هذا القدر من العزلة والتجانس والثراء والانغماس فى الترف ؟ .

ويتمثل الواجب الأول لأى كيان اجتماعى فى حماية أرواح أبنائه ، ومن ثم فاما ستتصدى الدولة المستقلة للنزاعات المحدودة أو ستنهار . ولما كانت الحرب تعد أكثر أنشطة الانسان محاكاة فان النزاعات المحدودة بطبيعتها سوف تدفع أطرافها ليصبحوا على نفس الدرجة من القوة ما لم تؤد الى نهاية حاسمة عاجلة . ومن شأن امتداد النزاعات من هذا القبيل

وانتشارها أن تؤدى الى الغاء التمييز بين الحكومة والجيش والشـــعب ٠ ولن تعترف النظم الجديدة « بالدولة » ولا بهيمنتها على القوات المسلحة وبالتالى فانهـا ستحط من قدر السـيادة الوطنية ٠ وسوف يحل محل الجيوش قوات لحفظ الأمن تشبه قوات الشرطة فى جانب وعصـــابات المجرمين العتاة فى الجانب المقابل ٠ أما الحدود الوطنية ـ التى ربما كانت تشكل اليوم أكبر عائق أمام محاربة النزاعات المحدودة ـ فسوف تتلاشى أو تصبح بلا معنى حيث ستطارد هذه النظم بعضها بعضا عبر هذه الحدود دون مراعاة لأى شىء ٠ ومع زوال الحدود ســـوف ينتهى نظام الدولة الاقليمية ٠ وبما أن الحرب هى امتداد للسياسة ، فان أى تغير فى شكل الحرب سيؤدى بالقطع الى حدوث تغييرات كبيرة فى السياسة ٠

وبما أن ميثاق الحرب القديمة فى سبيله الى الأفول ، فسوف يحل محله ميثاق جديد ، فان الحرب بدون ميثاق تعد من حيث المبدأ أمرا مستحيلا ٠ وسوف تكون مهمة الميثاق الجديد كما كانت دائما ، وتتمثل فى تحديد من يحق له قتل من ، ولأى غرض ، وفى ظل أى ظروف ، وبأية وسيلة ، وسوف يحدد أيضا معالم المسائل من قبيل العقوبات والمفاوضات والهدنة وشروط الاستسلام وكل ما يتعلق بالحرب ٠ ولا شك ان مولد الميثاق الجديد سيواكبه وقوع بعض الانتهاكات والشرور سواء أكان ذلك بشـــكل عارض أم عن عمد ٠ غير أن ذلك لا يعنى أن الطبيعة البشرية ستصبح أكثر شرا مما كانت عليه دائما أو ان التغيير سيكون بالضرورة الى الأسوأ ، فاذا كانت حروب القرن العشرين « المتحضر » قد منعت الجنود من النهب والاغتصاب فانها قد فتحت الباب على مصراعيه أمام ابادة مدن بأكملها بالقصف الجوى ٠ وليس لدينا ما يجعلنا نفخر بسجلنا الانسانى ، وقد ترتعد الأجيال القادمة من الرعب لو تذكرت عصرنا ٠

وسوف يؤدى انقراض الحرب التقليدية الى توارى الاستراتيجية بمفهومها التقليدى الكلاوزيفيتسى فى عالم النسيان ، وسوف تزول أيضا معظم الأسلحة الأكثر فتكا والتى كانت درجـة فعاليتها مضممة أصـلا لتتناسب مع العالم الثالوثى ٠ واذا كانت الاستراتيجية تتضمن دائما بناء القوات المسلحة ، فسوف يظل هذا المبدأ ساريا ٠ وينسحب ذلك أيضا على المعوقات الثلاثة المتمثلة فى عدم المرونة والاحتكاك واللبس ، بما أن العاملين الأول والثانى يتولدان بطبيعة الحال فى أية قوة مهما كان حجمها ، أما العامل الثالث فبدونه تصبح الحرب مستحيلة ولا ضرورة لها ٠ وأهم من ذلك أن تحديد المبادىء الأساسية للاستراتيجية سوف يظل مرهونا بالطابع التبادلى والتفاعلى للقتال ، فالحرب هى صراع للعنف بين خصمين كل منهما له ارادته ويصرف الأمور كيفما يراه ملائما له ٠

وسوف تظل الرغبة فى تركيز أكبر قوة ممكنة وتوجيه ضربة ساحقة فى الوقت الحاسم تتعارض مع الرغبة فى خداع العدو وتضليله واحباطه ومفاجأته • وسوف يكون النصر ـ كما كان دائما ـ حليف من يتفوق فى فهم هاتين الرغبتين المتعارضتين وفى تحقيق التوازن بينهما ، وذلك ليس بشكل مطلق ولكن فى زمن محدد ومكان محدد وضد عدو محدد •

ومن شأن أى كيان اجتماعى أن يحدد لنفسه أهدافا ، غير أن ذلك لا يتم بشكل عشوائى ، فعادة ما تكون هذه الأهداف نتاج معتقدات هذا المجتمع بصفة عامة • ولا شك أن النظم الجديدة التى ستتولى صنع الحرب سوف تحدد أهدافها بطرق مختلفة عما يحدث فى الوقت الراهن ، فلسوف يؤدى تزايد صور النزاعات المسلحة الجديدة وانتشارها الى ازالة الخطوط الفاصلة بين الخاص والعام ، بين الحكومة والشعب ، بين العسكرى والمدنى ، أى ستعود الأمور لتشبه ما كانت عليه قبل عام ١٦٤٨ • ولا يمنع كل ذلك ان المجتمعات المستقبلة سوف تنتهج نفس مبدأ المجتمعات السابقة فى أنها ستقاتل من أجل ما تراه مفيدا ومرغوبا وملائما لها • وذلك يعنى أن طبيعة هذه الأشياء وأسلوب امتزاجها بالاعتبارات الأخلاقية والشرعية والدينية ، سوف تختلف تماما عما كانت تتسم به فى عهدنا ، مثلما اختلف ذلك عن القرون الوسطى •

ونعود ونقول فى النهاية انه ليس صحيحا أن الحرب وسيلة لتحقيق غاية ، أو أن الناس يقاتلون بالضرورة من أجل تحقيق هذا الهدف أو ذاك ، بل ان العكس هو الصحيح ، فالناس عادة ما يحددون لأنفسهم هدفا أو آخر لا لشىء الا ليتخذوا منه ذريعة لشن الحرب • فالحرب هى الشىء الوحيد الذى يتيح ويقتضى فى نفس الوقت اظهار كل ملكات الانسان وتوظيفها ، انها تعد من أهم السبل التى تتيح للانسان بلوغ المتعة والحرية والسعادة ، بل والانفعال والنشوة لدرجة ان الرجل قد يستغنى عن أقرب الناس اليه وأحبهم الى قلبه من أجل ـ الحرب !

اقــرأ فى هــذه الســلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى ٠ رادونسكايا
نقطـة مقابل نقطـة	الدس هكســلى
الجغرافيا فى مائة عـام	ت ٠ و ٠ فريمـان
الثقــافة والمجتمــع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر ٠ ج ٠ فوربس
الأرض الغــامضة	ليســترديل راى
الرواية الانجليــزية	والتــر الــن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهــة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د ٠ قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقــود	ديفيد وليـام ماكدونالد
الموسيقى ـ تعبير نغمي ـ ومنطق	عزيز الشــوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د ٠ محسن جاسم الموسوى
ديــلان تومــاس	اشراف س ٠ بى ٠ كوكس
الانسان ذلك الكائن الفـريد	جـون لويس
الرواية الحــديثة	بـول لويس
المسرح المصرى المعـاصر	د٠ عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	انـور المعــداوى
القـوة النفســية للأهرام	بيل شـول وأدنبيت
فــن الترجمــة	د ٠ صــفاء خـلوصى
تولستوى	رالف ئى ماتلـو
ســتندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف · ع · أدنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د · نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د · فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوه
التطور الحضارى للانسان	جاكوب براونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د · روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	أ · سبنسر
النحل والطب	د · ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ــ ١٩١٤	د · لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د · جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د · غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د · رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د · محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل · باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ــ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د · محيى الدين احمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج ٠ دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد	د ٠ جوهان دورشنر
حـــرب الفضـــاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدوليـة	د ٠ السـيد عليـوة
الميكروكمبيــوتر	د٠ مصطفى عنـانى
مختارات من الأدب اليابانى	مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء والمحدثين
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل ٠ باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييــل بايــر
اعلام الفلسفة الســياسية المعاصرة	انطـونى دى كرسبنى
كتـابة الســيناريو للسينما	دوايت ســـوين
الزمن وقيـــاسه	زافيلســكى ف ٠ س
اجهــزة تكييف الهـــواء	ابراهيم القرضـاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتـــر زداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جـوزيف داهموس
التجــربة اليـــونانية	س ٠ م بـورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسـلامية	د٠ عاصم محمد رزق
العـلم والطـلاب والمـدارس	رونالد د ٠ سمبســون ونورمان د٠ اندرسون
الشــارع المصرى والفـكر	د٠ أنور عبـد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روستو
تبســيط الكيميــــاء	فريد ٠ هيس
العـادات والتقاليد المصرية	جـون بوركهارت
التــذوق الســينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط الســـياحى	سامى عبـد المعطى
البـــذور الكونيــة	فريد هـــويل شاندرا ويكراما ماسينيخ
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيــروبين والايــدز	روى روبرتســون
نجيب محفوظ على الشاشـــــــة	هاشـم النحـاس
صـــور افريقيـــة	دوركاس ماكلينتوك

الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د. محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر . بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	ارنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د . صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م.هـ . كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د . السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس ، آلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس أ . هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى ارمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميكائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩	جاك كرابس جونيور

عن النقد السينمائى الامريكى	ادوارد مرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د٠ فيليب عطية
السينما العربيــة	اعداد/ مونى براح وآخرون
دليل تنظيم المتــاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخــرى	نادين جورديمر
جماليــات فن الاخراج	زيجمونت هبنــر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
قيام الدولة العثمانيــة	محمد فؤاد كوبريلى
العثمانيون فى أوربا	بول كولز
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفريد ج٠ بتلر
رحلات فارتيما	الحاج يونس المصرى
انهم يصنعون البشر	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د٠ رفيق الصبان
الســينما الخيالية	بيتر نيكوللز
الســلطة والفرد	برتراند راســل
الأزهر فى الف عام	تاليف/ بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيــة	نفتالى لويس
الاتصــال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الأداب الأسيوية	اختيار / صبرى الفضل
ما بعــد الحداثة	مارجريت روز
الكاتب الحديث وعالمه ٢ ج	ج٠س٠ فريزر
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	اعداد/ احمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف

مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود
حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتار	د. أبرار كريم الله
ماستريخت	اعداد/ جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ جـ)	هـ . ج . ولز
حضارة الاسلام	جـرونيباوم
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
أفريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	برنسلاو مالينوفسكى
الطفل ٢ جـ	ارنولد جذل
تكنولوجيا فن الزجاج	اعداد/ د. محمد زينهم
الكون ذلك المجهول	اعداد/ جلال عبد الفتاح
رحلة بيرتون ٣ جـ	آدم متز
الحضارة الاسلامية فى ق. الرابع الهجرى	آدم متز

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٢٥٤١

ISBN — 977 — 01 — 4286 — 7

في عالم يموج بتغيرات غير مسبوقة في الشئون الدولية، تدفع الحكومات والمواطنين والقوات المسلحة إلى إعادة تقييم جدوى اللجوء إلى القوة العسكرية لإيجاد حلول للمشكلات السياسية، يطرح مارتن فان كريفلد في هذا الكتاب تحليلا جريئا لطبيعة الحرب وما تشهده حاليا من تحول جذري، مستندا إلى التاريخ العسكري منذ عهد القبائل البدائية ومشيرا إلى النزعة البشرية الميالة للحرب.

ولقد ظلت الاستراتيجية والنظريات العسكرية على مدى المائتي عاما الماضية قائمة على الفكر الكلاوزيفيتسي الذي يفترض أن الحرب عمل يخضع للمنطق ويعكس المصالح القومية ومن ثم فهو يعد امتدادا للسياسة، غير أن الشكل السائد للنزاعات المندلعة في العالم منذ ١٩٤٥ لايخضع، في نظر فان كريفلد، لهذا التحليل المنطقي حيث أن التخطيط الاستراتيجي القائم على مثل هذه الحسابات كان وسيظل بعيدا تماما عن مجريات الأمور.

ويرى المؤلف أن الانفجارات العسكرية المحدودة المتمثلة في حركات التمرد والانفصال والعمليات الارهابية وأنشطة العصابات الاجرامية تشكل نهاية للحرب التقليدية بشكلها المعروف وبداية لصور جديدة من النزاعات، أو بمعنى أصح عودة لمثل هذه الصور التي شهدها العالم في عصور سابقة.

وترمي هذه النزاعات المحدودة إلى تحقيق أهداف مختلفة، منها القبلي والعرقي والديني، عن طريق العنف وباستخدام كافة أنواع الأسلحة بدائية وأكثرها تطورا، ومن خصائصها أنها تتحدى النظم القائمة على الفصل بين الدولة والجيش والشعب وعلى التمييز بين المدنيين والعسكريين، بين الجريمة والعنف المنظم، بين الارهاب والحرب.

مارتن فان كريفلد: مؤرخ عسكري ذائع الصيت ومحاضر في الجامعة العبرية بالقدس.

ومن مؤلفاته: «التكنولوجيا والحرب»، «القيادة والحرب» و«الامداد والحرب».

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٥٠ قرشا